عبد الرحمن الرافعى

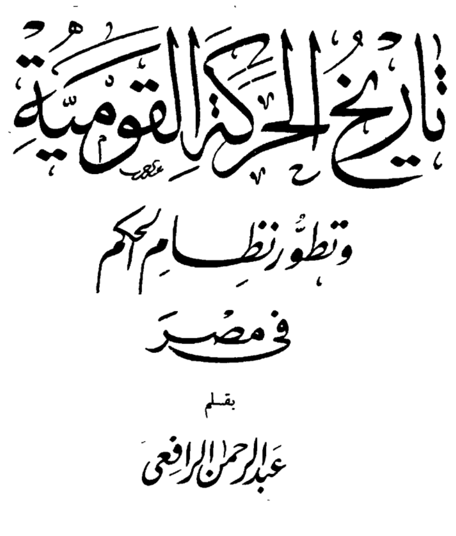
تاريخ الحركة القومية
وتطور نظام الحكم فى مصر

الجزء الثانى



دار المعارف





الجزء الثانى

(من إعادة الديوان فى عهد نابليون إلى إنتهاء الحملة الفرنسية)

(ومن جلاء الفرنسيين إلى إرتقاء محمد على أريكة مصر بإرادة الشعب)

الطبعة الخامسة



راجع هذا الكتاب

المستشار حلمى السباعى شاهين

نائب رئيس قضايا الحكومة السابق

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .



عبد الرحمن الرافعي

ولد فى ٨ من فبراير سنة ١٨٨٩ - وتوفى فى ٣ من ديسمبر سنة ١٩٦٦

مقدمة الطبعة الخامسة

لله الحمد.وبفضل تعاون رجال دار المعارف يعاد طبع هذا الكتاب ندعو الله أن ينفع به هو وسائر كتب السلسلة كل قارئ وباحث.

كريمات المؤلف

سنة ١٩٨٧

عبدالرحمن الرافعى

مقدمة الطبعة الرابعة

نحمد الله . فها هى ذى الطبعة الرابعة من هذا الكتاب تجمع تاريخ مصر القومى من إعادة الديوان فى عهد نابليون إلى بدء عهد ولاية محمد على . كانت الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩ والثانية سنة ١٩٤٨ والثالثة سنة ١٩٥٨ .

نرجو من الله الهداية

كريمات المؤلف

يناير سنة ١٩٨١

عبد الرحمن الرافعى

مقدمة الطبعة الثالثة

ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب (الجزء الثانى من تاريخ الحركة القومية) سنة ١٩٢٩ ؛ والطبعة الثانية سنة ١٩٤٨ ؛ وها هى ذى الطبعة الثالثة أُخرجها سنة ١٩٥٨ ؛ وهى لا تختلف عن الطبعتين السابقتين ، بل هى طبق الأصل من الطبعة الأولى والطبعة الثانية .

والله ولى التوفيق

يونية سنة ١٩٥٨ — عبد الرحمن الرافعى

مقدمة الطبعة الثانية

هذه هى الطبعة الثانية للجزء الثانى من « تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر » ، والجزء الأول يتناول ظهور الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث ، وبيان الدور الأول من أدوارها فى عهد الحملة الفرنسية ، وتاريخ مصر القومى فى ذلك العهد ، ويشتمل الجزء الثانى على تطور التاريخ القومى وحوادثه من إعادة « الديوان » فى عهد نابليون إلى انتهاء الحملة الفرنسية ، وفترة الانتقال من جلاء الفرنسيين إلى ارتقاء محمد على أريكة مصر بإرادة الشعب .

وقد أخرجتُ بعد ظهور هذين الجزءين كتاب « عصر محمد على » ، ثم كتاب « عصر إسماعيل » فى جزءين ، أولهما عن عهد عباس الأول وسعيد وأوائل عهد الخديو إسماعيل . والثانى وفيه ختام الكلام عن عهد إسماعيل .

يلى ذلك كتاب « الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى » . ويتضمن أسباب الثورة العرابية ومقدماتها ، التى ترجع إلى أواخر عهد إسماعيل ، وما كانت ترمى إليه من تحرير البلاد من التدخل الأجنبى ومن الحكم المطلق معاً ، ووقائع الثورة ومراحلها ، وما نالته من نجاح فى الدور الأول من أدوارها ، ثم إخفاقها فى الدور الثانى ، ووقائع الاحتلال الإنجليزى الذى رزئت به البلاد فى أعقابها .

وأفردت للسنوات العشر الأولى من الاحتلال كتاب « مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال » ، ويتناول تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢ ، وما أصاب البلاد فى خلالها من عدوان الاحتلال ، ووقائع هذا العدوان وترادفها فى شمال الوادى وجنوبه ، وتراجع الروح القومية فى تلك الفترة من الزمن .

يلى ذلك كتاب « مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية » ، ويتناول عهد البعث الوطنى وتاريخ مصر القومى من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨ .

يليه كتاب « محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية » ، ويشتمل على تاريخ مصر القومى

من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩ .

ثم كتاب « ثورة سنة ١٩١٩ » فى جزءين ، يشتمل أولهما على تاريخ مصر القومى فى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) ، وبيان الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية للثورة ، وتطور الحوادث من بعد انتهاء الحرب إلى اندلاع لهيب الثورة فى مارس سنة ١٩١٩ ، ووقائع الثورة وحوادثها فى القاهرة والأقاليم ، ويتناول الجزء الثانى الحديث عن مهادنة الثورة ، واستمرارها ، ومحاكمات الثورة ، ولجنة ملنر والحوادث التى لابستها ، ومفاوضات سنة ١٩٢٠ . واستشارة الأمة فى مشروع ملنر . والتبليغ البريطانى بأن الحماية علاقة غير مرضية . ثم نتائج الثورة فى حياة مصر القومية .

يلى ذلك كتاب « فى أعقاب الثورة المصرية » وقد أخرجتُ الجزء الأول منه فى يولية سنة ١٩٤٧ ويشتمل على تاريخ مصر القومى من أبريل سنة ١٩٢١ إلى وفاة المغفور له « سعد زغلول » فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ .

والله أرجو أن يوفقنى إلى إتمام الجزء الثانى ثم الثالث من هذا الكتاب . وبهما تكتمل هذه المجموعة بمشيئة الله .

عبد الرحمن الرافعى

أبريل سنة ١٩٤٨



مقدمة الطبعة الأولى

تقدمتُ فى العام الماضى لمواطنىَّ الأعزاء بالجزء الأول من تاريخ الحركة القومية ، واليوم أتقدم بالجزء الثانى . حامداً الله على ما أسدَى ويَسر ، وعلى ما أعان وَوفق . وله الحمد أولا وآخراً .

أفردتُ الجزء الأول لدراسة الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث . ومبدأ ظهورها ، فرجعت بها إلى عصر المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر . وبسطت الكلام فى تأييد هذه الحقيقة وشرحها على ضوء الوقائع التاريخية . وسردت حوادث تلك المقاومة فى مختلف أنحاء البلاد . من الإسكندرية إلى أسوان . وانتهيت إلى بيان وقائعها فى الوجه القبلى . ثم وعدت القارئ فى ختام الفصل السابع عشر أن ننتقل إلى القاهرة والوجه البحرى ، لنتابع الحوادث التى وقعت فيها بعد إخماد ثورة القاهرة الأولى .

* * *

وها هى تلك الحوادث مبسوطة فى الجزء الثانى . فهو يتناول الكلام عن إعادة الديوان فى عهد نابليون ، ونظامه فى دوره الثانى . ثم حملة نابليون على سورية . وحوادث المقاومة الشعبية التى وقعت فى مصر أثناء غيبته . ثم سياسته إزاء الشعب حين عودته إلى مصر . حتى رحيله عنها . واستخلافه الجنرال كليبر فى القيادة العامة ،ووصف حالة مصر السياسية والاقتصادية والشعبية على عهد كليبر . ثم إبرام معاهدة العريش ونقضها . ونشوب ثورة القاهرة الثانية و إخمادها . ثم مقتل الجنرال كليبر ، وتطور نظام الحكم على عهد خلفه الجنرال منو ، وترادف الحوادث إلى جلاء الفرنسيين عن البلاد . وإلى هنا انتهينا من الكلام عن نتائج بزوغ العامل القومى فى أفق الحوادث السياسية خلال الحملة الفرنسية . ثم أفضينا إلى الكلام عن نتائجه بعد انتهاء الحملة ، واستطردنا إلى ترجمة حياة زعماء الشعب فى ذلك العصر ، مبتدئين

بالسيد عمر مكرم ، الذى نعده أكبر شخصية ظهرت بين رجالات مصر فى فجر النهضة القومية ، وبينا وجه الارتباط بين ظهور تلك النهضة وظهور محمد على باشا ، وبسطنا الحوادث التى تعاقبت على البلاد فى السنوات التى أعقبت جلاء الفرنسيين ، وتأثير العامل القومى فى تطورها ، وما كان من ثورة الشعب على حكم المماليك ، ثم ثورته على الوالى التركى ، وبها ختام الجزء الثانى . وبتمامه تتم الحلقة الأولى من الكتاب ، ومن الجزءين الأول والثانى تتألف صفحة كاملة من حياة مصر القومية فى تاريخها الحديث . بدأت بظهور الحركة القومية ، وختمت بارتقاء محمد على أريكة مصر بإرادة الشعب .

* * *

ولمناسبة ظهور الجزء الثانى أرى حقاً علىَّ أن أدوّن فى مقدمته آية الشكر لمن تفضلوا بتعضيدى فى العمل ، وأخص بالثناء الصحافة وأعلامها ، فإن ما تفضلوا به علىَّ من التنويه بكتابى والعناية به ، وبحثه وتحليله ، وما أسدوه إلىَّ من العطف وجميل الرعاية ، كان له أحسن الوقع فى نفسى ، فلهم علىَّ بذلك فضل لا أنساه ، وإنى لأعده منهم أكبر مشجع لى على المضى فى عملى ، ولا غرو فالصحافة من أكبر دعائم الحركة القومية وأقوى أركان النهضة السياسية والعلمية فى البلاد .

وكذلك أقدم شكرى للذين تفضلوا علىَّ وشجعونى برسائلهم الخاصة التى لم تنشر فى الصحف . وأحفظ تلك الرسائل ذخيرة عندى وتذكاراً لشريف عواطفهم وكريم إحساسهم .

* * *

وإذ يظهر هذا الجزء فى يوم الذكرى الثانية لانتقال فقيد الوطن المرحوم أمين بك الرافعى إلى الرفيق الأعلى ، فإنى أحيي ذكراه المجيدة وأرسل من أعماق قلبى إلى روحه الطاهرة آيات المحبة والإخاء ، فلتدم ذكراك العزيزة يا أمين ، يجدِّدها مر الأيام وكر السنين ، ولتخلد أعمالك فى مآثر قومك ، ولتطمئن نفسك فى السماء ، بين الصديقين والشهداء « وحسن أولئك رفيقا . ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما » .

عبد الرحمن الرافعى

٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢٩

خلاصة الجزء الأول

تذكر هنا خلاصة فصول الجزء الأول لنضع أمام القارئ صورة موجزة منه قبل قراءة الجزء الثانى :

مقدمة الكتاب وإهداؤه .

الفصل الأول : يتناول الكلام عن نظام الحكم فى عهد المماليك . وفيه بيان لنظام الحكم السياسى ، ونظام الملكية والضرائب ، والنظام القضائى ، ونتائج تلك النظم فى حالة مصر من الوجهة السياسية والاقتصادية والصحية ، والكلام فى العلوم والآداب ، والحالة الاجتماعية والاقتصادية فى مصر عند مجىء الحملة الفرنسية .

الفصل الثانى : تطور نظام الحكم فى عهد الحملة الفرنسية ، وفيه بيان أسباب الحملة ومقدماتها وتطورها فى خلال العصور ، وإنفاذ الحملة على يد نابليون بونابارت ، وموقف إنجلترا ، ومعدات الحملة ووقائعها الأولى ، وسياسة نابليون إزاء الشعب ، وقاعدة الحكم التى وضعها فى منشوره إلى المصريين ، والمفاوضات بين نابليون وزعماء الشعب غداة معركة الأهرام .

الفصل الثالث : نظم الحكم التى أسسها نابليون فى مصر ، ديوان القاهرة ، دواوين الأقاليم ، الديوان العام .

الفصل الرابع : المجمع العلمى ، نظامه وأعضاؤه وداره ، طائفة من أعضاء المجمع ولجنة العلوم والفنون . علماء الرياضيات والمهندسون . علماء الطبيعيات . الاقتصاديون . القواد والضباط . الأطباء والجراحون . الأدباء والمترجمون والفنانون . أعمال المجمع العلمى ، نظرة عامة فى نظام الحكم الذى أسسه نابليون فى مصر .

الفصل الخامس : المقاومة الأهلية فى عهد الحملة الفرنسية ، كلمة عامة . المقاومة فى الإسكندرية . الحالة النفسية للشعب عند مجىء العمارة الفرنسية . دفاع أهالى الثغر واحتلال الإسكندرية . سياسة نابليون فى الإسكندرية وأوامره وتعليماته قبل مغادرته إياها . موقف

الجنرال كليبر فى الإسكندرية . مسألة السيد محمد كريم والقبض عليه ومحاكمته ثم إعدامه .

الفصل السادس : فى البحيرة . معركة شبراخيت . نهب القرى .

الفصل السابع : فى القاهرة . حالة الأفكار فى القاهرة عند مجىء الحملة الفرنسية والنفير العام . سوء استعداد المماليك وضعف وسائل الدفاع . واقعة إمبابة أو معركة الأهرام ونصيب المصريين فيها .

الفصل الثامن : عود إلى الإسكندرية . واقعة (أبو قير) وتأثيرها فى مركز الفرنسيين . ديوان الإسكندرية .

الفصل التاسع : فى رشيد . احتلال رشيد . حادثة السالمية . حادثة شباس عمير.

الفصل العاشر : عود إلى البحيرة ورشيد . الاضطرابات فى البحيرة . حول رشيد وفى دمنهور .

الفصل الحادى عشر : فى القليوبية والشرقية . توزيع القوات الفرنسية فى الوجه البحرى المعارك بين الخانكة وأبى زعبل . انسحاب الفرنسيين من الخانكة ثم احتلالها . احتلال بلبيس . معركة الصالحية . عودة نابليون إلى القاهرة . الاضطرابات فى الشرقية .

الفصل الثانى عشر : عود إلى القاهرة . سياسة الحفلات . مهرجان وفاء النيل . حفلة المولد النبوى . تعيين أمير الحج . عيد الجمهورية الفرنسية .

الفصل الثالث عشر : ثورة القاهرة الأولى .

الفصل الرابع عشر : فى المنوفية والغربية . المقاومة فى غمرين وتتا . المحلة الكبرى . الثورة فى طنطا . احتلال عشما .

الفصل الخامس عشر : فى الدقهلية ودمياط . واقعة المنصورة . الحملة على سنباط وميت غمر . فيضان الثورة . الحملة على البحر الصغير . حسن طوبار . سير الحملة على البحر الصغير . معركة الجمالية . فى دمياط . واقعة الشعراء . تفاقم الثورة وفظائع الجنرال فيال . الحملة الثانية على البحر الصغير . سير الحملة والاستيلاء على المنزلة . احتلال المطرية . تحصين منطقة دمياط .

الفصل السادس عشر : المقاومة فى الوجه القبلى . احتلال بنى سويف . احتلال البهنسا ، تعقب أسطول المماليك إلى أسيوط . واقعة سدمنت . حادثة الفقاعى . احتلال أسيوط . الثورة فيما بين أسيوط وجرجا . معركة سوهاج . معركة طهطا . معركة سمهود ، وصول الفرنسيين إلى

تمت خلاصة الجزء الأول ، ويليها الفصل الأول من الجزء الثانى .

* * *

الفصل الأول

إعادة الديوان

تعطل الديوان بعد إخماد ثورة القاهرة ، واشتدت وطأة الإرهاب فيها ، فضجَّ الناس مما أصابهم من ترادف المظالم وتوالى المحن ، فكسدت الأسواق ، وبارت التجارة ، وانقبضت أيدى الناس عن العمل ، وبدأ نابليون يفكر فى عواقب إلغاء الديوان واستمرار حكم الإرهاب وما يفضى إليه من تعطيل دولاب الحكومة وشلل الإدارة .

كان من نتائج الإرهاب أن شحَّ المال وأخذ معينه ينضب فى خزانة الحكومة والجيش ، وبدأ الارتباك يظهر فى الإدارة وفروعها .

كتب المسيو سوسى Sucy مدير مهمات الجيش إلى الجنرال (منو) Menou فى هذا الصدد يقول : « إن الحوادث الأخيرة قد حبست ضرائب البيوت ، وصار إيراد الجمارك فى حكم العدم » ، فهذه العبارة منبئة بما صارت إليه حالة الخزانة من الارتباك ، وبديهىٌّ أن هذه النتيجة لم تكن لترضى نابليون أو تحقق آماله ، فأدرك أن استمرار حكم الإرهاب لا يضر الشعب وحده بل يعود بالوبال والخسران على المصالح الفرنسية ، وعلم من جهة أخرى أن تركيا تعبئ جيشاً للزحف على مصر ، فرأى من الحكمة أن يعمل من جديد على استرضاء المصريين وأن يعيد إلى البلاد حالتها الطبيعية بقدر المستطاع ، وأدرك أن استمرار حكم الفزع والإرهاب فى القاهرة يجعل البلاد كلها فى هرَج الثورة ومرَجها ، ويزعزع الاحتلال الفرنسى ، ويصمه بالعجز عن إقرار الخواطر وتهدئتها ، ورأى بثاقب نظره أن ليس فى مقدوره حكم البلاد بقوة السيف والنار ، وتبين له من تجربة تعطيل الديوان أن لا سبيل إلى حكم الشعب دون وساطة زعمائه وكبرائه ، فعاد يفكر فى إعادة الديوان بعد أن استمر معطلا أكثر من شهرين .

على أن إرجاع الديوان لم يكن من شأنه إعادة السكينة والرجوع بالبلاد إلى حالتها الطبيعية ، لكنه كان بلا جدال وسيلة تخفف من هياج الخواطر وثورة النفوس .

قال (ريبو) فى هذا الصدد : « لقد تجدد الشعور بضرورة إحداث هيئة نيابية تكون سبيل التفاهم بين الفرنسيين والشعب المصرى ، وظهر خطأ الفكرة القائلة بإبطال الديوان ، وكان نابليون أول من شعر بضرورة إعادته ، لقد تردد فى إرجاعه أملا فى أن يتعود المصريون اتصال علاقتهم مباشرة بالسطات الفرنسية ، ولكنه لاحظ أن شعور العداء والكراهية لايزال يطغى ويزداد كل يوم قوة فيفسد العلاقات بين الفرنسيين والأهالى ، فعزم من ثمّ على الرجوع إلى برنامجه القديم وإعادة الهيئة النيابية المصرية ، ولم يشأ أن يفهم الشعب أنه مكره على إعادة الديوان ولا أنه قد أعاده من ضغط واضطرار ، فاجتهد فى أن يصبغ عمله بصبغة الكرم والسخاء »[1] .

هذا ما يقوله (ريبو) تعليلا لإعادة الديوان . ونزيد عليه أن نابليون كان لا يفتأ يفكر فى تحقيق مشروعاته العظيمة التى كانت الغرض من الحملة الفرنسية . وأهمها ضرب السياسة الإنجليزية فى الهند . وإنشاء دولة عربية عظيمة تحقق أطماعه فى الشرق ، وبالرغم مما أثارته ثورة القاهرة فى نفسه من الحنق وخيبة الرجاء فإنه لم يفقد الأمل فى أن يجتذب إليه قلوب المصريين . وكان معتقداً أنه فى حاجة إلى اكتساب رضاهم ليمضى مطمئناً فى تحقيق مشروعاته الكبيرة . وأول ذلك الحملة على سوريا . فلما اعتزم إنفاذها رأى من الحكمة أن يتقرب إلى المصريين بإعادة الديوان قبل أن يغامر بجيشه فى حملة بعيدة المدى منهكة للقوى . وإذا قابلت تاريخ تلك الحملة بتاريخ إعادة الديوان وجدت بين الحادثتين تقارباً تستنتج منه أن نابليون أعاد الديوان اجتذاباً لقلوب المصريين بعد أن اعتزم الزحف على سوريا حتى لا يدع وراءه أمة غضبى . فقد أمر بإعادة الديوان فى ٢١ ديسمبر سنة ١٧٩٨ فى الوقت الذى كان يعد فيه معدات الحملة . ثم ارتحل إلى السويس فى ٢٤ ديسمبر لاكتشاف موقعها وارتياد شبه جزيرة سيناء . وكانت فكرة الزحف على سوريه قد اختمرت فى ذهن نابليون قبل رحلته إلى السويس بوقت طويل . قال الجنرال (برتييه) رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية فى كتابه[2] : « إن معدات الحملة على سوريا دخلت فى دور التنفيذ قبل رحلة نابليون إلى السويس » ، ويقول الجنرال كليبر فى يومياته لمناسبة رحلة السويس هذه واستخلافه على القيادة العامة مدة غيبة نابليون : « لقد دار الكلام حول الحملة على سوريا والاستعداد لها . وكانت الفكرة السائدة أن

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الرابع .

(٢) ذكر حروب الجنزال بونابارت فى مصر وسوريا .

قيادتها ستعهد لى. لكن نابليون عزم على أن يتولى قيادتها بنفسه . وقد عرض علىَّ الجنرال (كافريللى) يوم ٢ نيفوز (٢٢ ديسمبر سنة ١٧٩٨) قيادة تلك الحملة فأجبت بالقبول » . ثم ذكر كليبر أن نابليون دعاه قبل رحيله إلى السويس أن يصحبه إليها ، فأجابه كليبر بأن الجنرال كافريللى أخبره بقرب سفره إلى دمياط وقطية للزحف على سوريه . فكان جواب نابليون أن فى الوقت سعة بعد عودتهم من السويس . ثم رجاه كليبر فى أن يبقى هو بالقاهرة إلى أن يرجع من رحلته ، فأقره نابليون وأنابه عنه فى القيادة العامة[٣] . ويقول الكولونيل جاكوتان Jacotin إن الحملة على سوريا كانت تهيأ معداتها قبل تحركها بنحو شهرين[٤] . كل هذا يدل على أن نابليون قد أعاد الديوان بعد أن اعتزم تجريد الحملة على سوريا . وأنه أمر بإعادته قبل رحلته إلى السويس . فنقل إذن كلمة عن هذه الرحلة وعن أهمية السويس وعلاقتها بمشروعات نابليون .

احتلال السويس ورحلة نابليون إليها

كانت للسويس أهمية حربية كبيرة لم تفت نابليون . وبخاصة لأن لها صلة وطيدة بمشروعاته فى الشرق . فقد كان بالرغم من تحطيم أسطوله فى واقعة (أبو قير) لا ينفك يبتكر الوسائل ويرسم الخطط لينال من إنجلترا عدوته اللدود . ولم يفقد الأمل فى تجريد حملة برية تخترق آسيا وتصل الهند . وكان يرى من جهة أخرى أن السويس تصلح لأن تكون قاعدة بحرية على شاطئ البحر الأحمر . يصل منها الى الهند . وفكر كذلك فى وصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر بقناة تجرى بينهما . وجدَّ فى انفاذ هذا المشروع ، وكان غرضه منه محاربة إنجلترا وزعزعة قوائمها فى الهند ، لكنه لم يفلح فى تحقيق فكرته وصرفه عنها سير الحوادث وتقلب الأحوال .

فالسويس كانت إذن قاعدة لمشروعات جمة طافت برأس نابليون . لا غرو أن وجه عنايته إلى احتلالها عسكريا واكتشاف موقعها وارتياد الجهات المجاورة لها ، فعهد الى الجنرال (بون) Bon أن يحتلها[٥] فسار هذا إليها من القاهرة سالكاً طريق الحجاج وعسكر بها فى أوائل شهر ديسمبر سنة ١٧٩٨ .

---

(٣) يوميات الجنرال كليبر.

(٤) كتاب «تخطيط مصر» الجزء السابع عشر.

(٥) أمر نابليون المؤرخ أول ديسمبر سنة ١٧٩٨ . مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٦٩٦ ورقم ٣٦٩٧ .

رواية الجبرتى :

قال الجبرتى عن احتلال السويس : إن أهل السويس لما بلغهم مجىء الفرنساوية هربوا وأخلوا البلدة فذهبوا إلى الطور . وذهب البعض إلى العرب بالبادية . فنهب الفرنسيس ما وجدوه بالبندر من البن والمتاجر والأمتعة وغير ذلك . وهدموا الدور وكسروا الأخشاب وخوابى الماء فلما حضر كبيرهم وكان متأخراً عنهم كلمه التجار الذاهبون معه وأعلموا أن هذا الفعل غير صالح ، فاسترد من العسكر بعض الذى أخذوه ووعدهم باسترجاع الباقى أو دفع ثمنه بمصر وأن يكتبوا قائمة بالمنهوبات » .

وهذه الرواية تؤيدها رسالة الجنرال (بون) التى بعث بها من السويس بتاريخ ٧ ديسمبر سنة ١٧٩٨ إلى نابليون يبلغه فيها نبأ احتلاله إياها ، فقد ذكر فيها «أن بعض أغنياء المدينة قد هجروها عند اقترابنا وانسحبوا إلى السفن التى فى الميناء وعددها تسع » ، وقال فى موضع آخر من رسالته إنه أمر قوميسير الحرب «أن يفتش بيوت البكوات والأغنياء الفارين وأن يأخذ ما فيها من مواد وينقل ما بها من الدقيق والغلال إلى مخزن الجيش » ، وهذا هو النهب الذى أشار إليه الجبرتى ، وقال فى موضع آخر من رسالته إن الأخشاب القديمة كثيرة فى المدينة وهى تصلح للوقود ، وأنه أمر قوميسير الحرب أن يحملها الى مخزن الجيش وأنه أصدر تعلياته مشددة بعدم التعرض لأخشاب البناء الموجودة بكثرة فى هذا البلد .

اعتزم نابليون أن يرتاد بنفسه تلك المواقع التى كان يبنى عليها أمالا كباراً ، فخرج من القاهرة يوم ٢٤ ديسمبر سنة ١٧٩٨ [٦] فى جماعة من كبار القواد والمهندسين وبعض الأعيان المصريين ، ذكر (ريبو) أسماءهم وهم : الجنرال برتييه . وكافريللى . ودومارتان . والكونتر أميرال جانتوم قومندان البحرية . والقوميسير (دور) مدير مهمات الجيش [٧] . والمسيو برتوليه . والمسيو مونج . ولوبير . ودوترتر . وبوريين . وديكوتيل . وكوستاز . من أعضاء المجمع العلمى . والسيد أحمد المحروقى كبير تجار القاهرة . وإبراهيم أفندى كاتب جمرك البهار . فبلغ نابليون وصحبه السويس يوم ٢٦ ديسمبر ليلا . وجاب نواحى طور سيناء وبرزخ السويس واستطلع

---

(٦) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٧٩٠ .

(٧) عينة نابليون بدلا من المسيو « سوسى » الذى رحل إلى فرنسا مستشفياً من الإصابة التى نالته فى أول عهد الفرنسية (أنظر الجزء الأول ص ٣١٧ من الطبعة الأولى) .

آثار ترعة الفراعنة القديمة وخليج أمير المؤمنين . وعهد إلى المهندس لوبير Le Pére كبير مهندسى الطرق والجسور أن يدرس مشروع حفر ترعة تصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر وأن يضع تقريراً عنه(٨) .

وعاد إلى القاهرة فى اليوم السادس من شهر يناير سنة ١٧٩٩ .

رواية الجبرتى :

قال الجبرتى عن رحلة نابليون إلى السويس : « وفى يوم الاثنين سادس عشر رجب سنة ١٢١٣ سافر سارى عسكر بونابارته إلى السويس وأخذ صحبته السيد أحمد المحروق (كبير تجار القاهرة) وإبراهيم أفندى كاتب (جمرك) البهار وأخذ معه أيضاً بعض المديرين والمهندسين والمصورين وجرجس الجوهرى (كبير المباشرين) . وأنطون أبو طاقية ، وغيرهم ، وعدة كثيرة من عساكر الخيالة والمشاة ، وبعض مدافع ، وعربات وتختروان ، وعدة جمال لحمل الذخيرة والماء والقومانية (المؤونة) ، وقال فى موضع آخر : « وفى مدة إقامته بالسويس صار يركب ويتأمل فى النواحى وجهات ساحل البحر والبر ليلا ونهاراً » .

منشور نابليون بإعادة الديوان

قبل أن يغادر نابليون القاهرة إلى السويس ، أصدر منشوره بإعادة الديوان فى ٢١ ديسمبر سنة ١٧٩٨ وبين فيه أنه عطل الديوان منذ شهرين عقاباً لأهل القاهرة على الثورة التى نهضوا فيها . وأنه رأى بعد أن سكنت الأحوال وهدأت الخواطر إعادة الديوان سيرته الأولى ، وقد ملأ منشوره بعبارات جوفاء تعود أن يكررها فى بياناته ومنشوراته إظهاراً لسطوته . وأغرق فى هذه العبارات حتى ادعى أنه اطلع الغيب وأنه يعلم أسرار النفوس وما تخفى الصدور ، وزعم أنّ احتلاله مصر مذكور فى بعض آيات القرآن الكريم ...

أراد نابليون بهذا الأسلوب أن يشعر الناس شدة بأسه وقوته ، ويأتيهم من ناحية الخوارق التى اعتادوا أن يسمعوها فى ذلك العصر . لكنه فى الحقيقة لم يؤثر فى حالة الشعب النفسية ولم

(٨) راجع ما كتبناه عن هذا المشروع بالجزء الأول ص ١٢٥ «من الطبعة الأولى»

يغير من شعورهم حيال الفرنسيين بل زاد فى كراهيتهم . وهذا يفهم مما ذكره الجبرتى عن هذا المنشور فقد وصفه بقوله :

« وقد أوردت ذلك وإن كان فيه بعض طول للاطلاع على ما فيه من التمويهات على العقول والتسلق على دعوى الخواص من البشر بفاسد التخيلات التى تنادى ببطلانها بديهة العقل فضلاً عن النظر وهى مقولة على لسان بونابرته كبير الفرنسيس » .

أوردنا نص المنشور فى قسم الوثائق التاريخية[٩] بصيغته العربية نقلا عن الجبرتى ، وقد رجعنا لمعرفة نظام الديوان إلى الأصل الفرنسى للمنشور الوارد فى جريدة (كوربيه دليجبت)[١٠] التى كانت تصدر على عهد الحملة الفرنسية ، وهو يشمل أمر التأسيس الذى أصدره نابليون ثم المنشور الوارد تعريبه فى الجبرتى ونظام الديوان العمومى والديوان الخصوصى وأسماء أعضاء الديوان العمومى ، ورجعنا كذلك إلى مراسلات نابليون[١١] فوجدناها مطابقة لما جاء فى جريدة (كوربيه دليجبت) غير أنه لم يرد بها أسماء الأعضاء .

نظام الديوان الجديد

وضع نابليون للديوان نظاماً جديداً أوسع نطاقاً من نظامه القديم ، فجعله مؤلفاً من هيئتين : (الديوان العمومى) ويسميه نابليون الديوان الكبير ، و (الديوان الخصوصى)[١٢] .

الديوان العمومى :

فالديوان العمومى مؤلف من ستين عضواً عينهم الفرنسيون تعييناً من بين أعيان المصريين وممثلى طبقاتهم ، وهؤلاء ينتخبون من بينهم رئيس الديوان واثنين من السكرتيرين ، ويكون انتخابهم بالأغلبية النسبية ، ويجتمع الديوان العمومى بناء على دعوة حاكم القاهرة ، وموعد اجتماعه كما حدده أمر التأسيس فى اليوم السابع من شهر نيفوز (يوافق اليوم الثامن عشر من شهر

---

(٩) وثيقة رقم ١ (١٠) العدد ٢٣ (١١) الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٧٨٥ (١٢) عبارة (الديوان العمومى) و (الديوان الخصوصى) هى التسمية الواردة فى الجبرتى أى التى كانت معروفة فى عصره فأبقيناها كما هى لأنها صارت من المصطلحات التاريخية لنظام الحكم فى ذلك العصر ، وفى الجبرتى أن (الديوان الخصوصى) يسمى أيضاً (الديمومى) . ولعلها مأخوذة من كلمة دائم لأنه ينعقد دائماً لأنه وهذا يطابق اسمه بالفرنسية **Divan permanent** أى الديوان الدائم .

رجب – ٢٧ ديسمبر) الساعة التاسعة صباحاً ، فيبتدئ الديوان جلساته من هذا اليوم ويستمر انعقاده ثلاثة أيام ثم ينفض . ولا ينعقد بعد ذلك إلا بدعوة أخرى من حاكم العاصمة ، وعين للديوان قوميسير فرنسى وهو المسيو جلوتييه Gloutier وقوميسير مسلم وهو الأمير ذو الفقار كتخدا (وكيل) نابليون .

وقد اجتمع الديوان العمومى فعلا يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٧٩٨ ، وإليك أسماء أعضائه الستين كما هى واردة فى الأمر الصادر بتأسيسه :

من المشايخ والعلماء : السيد البكرى : الشيخ الدمرداشى ، السيد حسين الرفاعى ، الشيخ عبد الله الشرقاوى ، الشيخ محمد المهدى ، الشيخ مصطفى الصاوى ، الشيخ موسى السرسى ، الشيخ محمد الأمير . الشيخ سليمان الفيومى ، الشيخ أحمد العريشى . الشيخ إبراهيم بن المفتى . الشيخ صالح الحنبلى . الشيخ محمد الدواخلى . الشيخ مصطفى الدمنهورى .

من الوجاقلية (الجهادية) : محمد أغا شوربجى فلاح . على كخيا الجلفى . خليل أغا شوربجى فلاح . أحمد ذو الفقار أوضاباشى فلاح .

من الإنكشارية : يوسف شوربجى باشجاويش التفكجية . يوسف شوربجى باشجاويش الهجانة . مصطفى أفندى الشركسى . الأمير سليم شرابى .

من وجاق العزب : مصطفى أفندى عاصى . مصطفى كخيا باش اختيار . حسن شوربجى بركاوى .

من تجار الغورية : الحاج محمد العشوبى شيخ الغورية . الحاج محمد أبو النصر . الحاج سيد شيخ المغاربة .

من تجار البهار والبن : الحاج أحمد محرم . الحاج أحمد المحروقى . إبراهيم أفندى كاتب جمرك البهار . الحاج حسين جاد إبراهيم . المعلم ميخائيل كحيل . المعلم يوسف فرحات . الحاج أحمد حسين .

من تجار البضائع التركية : السيد أحمد العقاد المحروقى . الحاج مصطفى شيخ العقادين . الحاج أحمد القازانجى .

من تجار العطارة : السيد محمد شيخ العطارين .

من تجار السكر : درويش عبد القادر البغدادلى . إبراهيم قرموط . محمد الهمشرى .

من تجار النحاس : السيد مصطفى مصباح . الحاج حسين النحاس .

من الصاغة والجواهرجية : الحاج سالم الجوهرى . محمد البغدادلى .

من تجار الورق : على بن الحاج خليل الوراق .

من تجار الأقمشة : الحاج إبراهيم المسيرى ، على السلاطجى .

من تجار الصابون : السيد أحمد الزرو ، السيد يوسف فخر الدين .

من تجار الدخان والأقمشة السورية : أحمد نظام .

من مشايخ الأخطاط : شيخ جزارى الحسينية ، شيخ العطوف .

من الأقباط : المعلم لطف الله المصرى ، المعلم إبراهيم جر العايط ، الشيخ إبراهيم مقار ، الشيخ إبراهيم كاتب الصرة .

من الأجانب المسيو ولمار Wolmar ، المسيو كاف Caffe ، المسيو بودوف Baudeuf

يتبين من هذا الإحصاء أن الديوان العمومى كان يمثل طبقات الهيئة الاجتماعية فمنهم :

١٤ من العلماء والمشايخ .
٢٦ من التجار والصناع .
١١ من رجال العسكرية .
٢ من مشايخ الأخطاط .
٤ من الأقباط .
٣ من الأجانب .

٦٠

وكان نابليون يعنى بجعل الديوان العمومى ممثلا لسكان القاهرة على اختلاف طبقاتهم ، يدل على ذلك الأمر الذى أصدره بتاريخ ٢٨ يونية سنة ١٧٩٩ إلى القوميسير الفرنسى لدى الديوان بأن يبلغه إذا كانت فى الديوان مراكز خالية ليشغلها بأعضاء جدد لأنه يبغى «أن يتألف الديوان من هيئة تكون ممثلة تمام التمثيل لسكان القاهرة بحيث إذا خاطبت الحكومة الديوان تتحقق أنها تواجه فيه الرأى العام»[١٣] .

(١٣) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٤٢٢٨ .

الديوان الخصوصى :

قضى أمر التأسيس بأن ينتخب أعضاء الديوان العمومى من بينهم أربعة عشر عضواً يتألف منهم (الديوان الخصوصى) ، ويكون انتخابهم بالأغلبية النسبية ، ولا يكون انتخابهم باتا إلا بتصديق القائد العام ، وهذا الديوان يجتمع كل يوم «للنظر فى مصالح الناس وتوفير أسباب السعادة والرفاهية لهم ومراعاة مصالح الجمهورية الفرنسية(١٤) .

وينتخب أعضاء الديوان الخصوصى من بينهم رئيساً وسكرتيراً (كاتم سر) ، ويعينون التراجمة اللازمين لأعمال الديوان من غير أعضائه ، ومحضراً (شاويشا) ومقدماً ، وعشرة قواصين (حجاب) .

ورتب أمر التأسيس لرئيس الديوان الخصوصى وأعضائه رواتب شهرية ، فجعل مرتب الرئيس مائة ريال فى الشهر وباقى الأعضاء ثمانين ريالا ولكل من المترجمين ٢٥ ريالا ، والمحضر (الشاويش) ستين بارة كل يوم والمقدم ٤٠ بارة ولكل حاجب ١٥ بارة .

أما أعضاء الديوان الخصوصى فهم :

من العلماء : الشيخ عبد الله الشرقاوى . الشيخ محمد المهدى . الشيخ مصطفى الصاوى . الشيخ خليل البكرى . الشيخ سليمان الفيومى .

ومن التجار : السيد أحمد المحروقى كبير التجار . السيد أحمد محرم .

ومن الأقباط : المعلم لطف الله المصرى . المعلم إبراهيم جر العايط .

ومن السوريين : يوسف فرحات . ميخائيل كحيل .

ومن الأوروبيين– المسيو كاف ، المسيو بودوف ، وهما من التجار الفرنسيين والمسيو ولمار وهو طبيب سويدى الأصل كان يقيم بالقاهرة .

وانتخب الديوان الشيخ الشرقاوى رئيسا . والشيخ المهدى سكرتيراً .

يتبين من أمر التأسيس أن انتخاب هيئة الديوان (الخصوصى) من حقوق أعضاء الديوان العمومى . ولا ندرى هل جرى الانتخاب بطريقة صحيحة أم أن نابليون هو الذى فرض

---

(١٤) عبارة «مراعاة مصالح الجمهورية الفرنسية» لم ترد فى الجبرتى ، لكنها واردة فى الأصل الفرنسى الذى نشر فى جريدة «كوريبه دليجبت» وفى مراسلات نابليون ، والأصل أحق بالثقة من البيان الموجز الذى أورده الجبرتى .

إرادته على أعضاء الديوان العمومى فى اختيار أولئك الأعضاء . وهذا ما نرجحه لأننا نشك كثيراً لو ترك لهم أمر الانتخاب فى أن يقع اختيارهم على أمثال كاف وبودوف وولمار . إذ ما دخل العنصر الأوروبى فى هيئة نيابية أهلية . لذلك نميل إلى الاعتقاد بأن للسلطة الفرنسية دخلا فى اختيار أعضاء الديوان الخصوصى وأن نابليون أراد تمثيل العنصر الأوروبى فى الديوان فى أشخاص الأعضاء الثلاثة كاف وبودوف وولمار ليجعل منه هيئة مختلطة . وأراد بتعيين المسيو جلوتييه قوميسيراً فرنسياً للديوان أن يكون رقيباً على الأعضاء الوطنيين كما كان الشأن فى الديوان الأول الذى أسسه فى يولية سنة ١٧٩٨ [١٥] . وأغلب الظن أن بعض الأعضاء الأوروبيين لم يكونوا معروفين أصلا لأعضاء الديوان العمومى . يؤيد ذلك أن الجبرتى نفسه أخطأ فى كتابه أسمائهم فذكر أنهم رواحه الإنكليزى . وبودنى . وموسى كافر الفرنساوى . أما (رواحه الإنكليزى) فلم نجد له أثراً فى جميع المراجع الفرنسية . وحقيقة الاسم ولمار Wolmar الطبيب السويدى الذى أشرنا إليه . وكلمة رواحه ليست من الأعلام الإنكليزية ولا الأوروبية . وأما (بودنى) فهو تحريف لاسم بودوف Baudeuf وهو تحريف يغتفر للجبرتى لأنه لا يأنس بالأعلام الأوروبية . وكذلك (موسى كافر) نعتقد أن المراد به المسيو كاف Caffe التاجر الفرنسى . فحرفه الجبرتى من كاف إلى كافر . وربما كان التحريف من ناقل النسخة الأصلية للجبرتى .

هذا وقد أخذ الديوان الخصوصى ينعقد يومياً للنظر فى مصالح الناس . وأصدر بياناً للشعب فى ٢١ شعبان سنة ١٢١٣ (٢٨ يناير سنة ١٧٩٩) يتضمن الحث على الهدوء والسكينة ويعلن أن نابليون قد عفا عفواً شاملا عما وقع من الثوار وأعاد الديوان الخصوصى « لأجل قضاء حوائج الرعايا وحصول الراحة لأهل مصر من خاص وعام وتنظيمها على أكمل نظام وإحكام » . ونوه أعضاء الديوان فى بيانهم بما عمله نابليون من إيقاع القصاص بمن ارتكب التعديات من الفرنسيين وما وعدهم من رفع المظالم وإجراء المشاريع التى تزيد من رفاهية البلاد . وذكروا مشروع نابليون فى إيصال البحر الأبيض بالبحر الأحمر وعبروا عنه « بفتح الخليج الموصل من النيل إلى بحر السويس » . وبينوا مزاياه من تسهيل المواصلات مع الحجاز

---

(١٥) انظر الجزء الأول ص ٩٦ (من الطبعة الأولى) .

وفتح طرق التجارة مع بلاد الشرق . وقد نشرنا هذا البيان فى قسم الوثائق[١٦] ليرجع إليه القارئ زيادة فى البيان .

والآن فلندع الديوان يعمل « لأجل قضايا حوائج الرعايا » ولننتقل إلى الكلام عن الحملة على سوريا .

* * *

(١٦) وثيقة رقم ٢ .

الفصل الثانى

الحملة على سوريا

مقدمات الحملة

علم نابليون وهو فى رحلته بالسويس أن عساكر أحمد باشا الجزار والى عكا* قد احتلت قلعة العريش يوم ٢ يناير سنة ١٧٩٩ ، فكان هذا الاحتلال نذيراً بزحف الجيش العثمانى على مصر .

لم تكن العريش فى يد الفرنسيين من قبل ، ولكنها كانت معتبرة من قديم العهد جزءًا من الأراضى المصرية ، فاحتلال الجنود العثمانية إياها كان عملا عدائياً بالنسبة للفرنسيين ودليلا قائماً على بدئهم الزحف على القطر المصرى ، لذلك رأى نابليون أن يعجل بإنفاذ خطته فى الحملة على سورية وأخذ يواصل الليل بالنهار ليأخذ تركيا قبل أن تبغته .

كان نابليون يعمل جهده لتجنب الحرب مع تركيا ، وسعى بكل الوسائل فى مودتها والتفاهم وإياها واجتذابها إلى صفه . سعى إلى ذلك قبل أن يغادر فرنسا ، وعهد إلى المسيو (تاليران) وزير الخارجية الفرنسية أن يذهب إلى الآستانة لإقناع الباب العالى بأن الحملة الفرنسية لا تعدو على حقوق السلطان ومصالحه فى مصر ، لكن (تاليران) لم يذهب إلى الآستانة وصرفته الحوادث الأوروبية عن القيام بهذه المهمة فعهد بها إلى المسيو (روفين) Ruffin القائم بأعمال السفارة الفرنسية بالآستانة وكلفه التفاهم مع الباب العالى لاستبقاء العلاقات الودية بين فرنسا وتركيا وإقناعه بأن الحملة الفرنسية لا تنطوى على مقاصد عدائية حيال تركيا ، فلم يفلح (روفين) فى مهمته ، واعتبر الباب العالى تلك الحملة كإعلان حرب . واعتقل القائم بأعمال السفارة فى قلعة « يدى قلعة » بالآستانة مع باقى موظفى السفارة ، واعتقل كذلك قناصل فرنسا ورعاياها بالآستانة وسائر مدن السلطنة العثمانية ، وصادر أملاكهم . وبالرغم من ذلك فإن نابليون لم ييأس من التفاهم مع الحكومة العثمانية وأرسل الأدجودان

* تسمى الولاية ولاية صيدا ولكن اسم عكا غلب عليها لشهرتها .

جنرال (بوفوازان) Beauvoisins [١] إلى أحـمد باشـا الجزار برسالة مؤرخة ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٨ (١٠ ربيع الأول سنة ١٢١٣) يعرب له فيها عن مودّته للدولة العثمانية وللمسلمين ويؤكد أنه لم يهبط مصر إلا لمحاربة المماليك وأنه يحترم الأهالى والعلماء ثم يدعوه إلى المفاوضة لفتح طريق التجارة بين البلدين مصر وسوريا ، وقد سافر بوفوازان بهذه الرسالة ليقابل بها أحمد باشا الجزار ، ولكن الجزار رفض مقابلته ورده على عقبيه فرجع خائبا إلى مصر[٢] . ثم أرسل نابليون رسولا آخر[٣] برسالة أخرى يدعوه فيها إلى الصلح ويطلب منه إبعاد إبراهيم بك ومماليكه واحترام حرية التجارة بين مصر وسوريا . ولكن الرسول كان جزاؤه على حمل هذه الرسالة أن اعتقله الجزار ثم قتله أثناء الحملة الفرنسية على سوريا .

وكذلك أرسل نابليون غير مرة إلى الصدر الأعظم بالآستانة يدعوه إلى إعادة العلاقات الودية بين تركيا وصديقتها القديمة فرنسا ، ويؤكد فى رسائله أن الجيش الفرنسى لم يتزل مصر إلا لمعاقبة المماليك والاقتصاص منهم لمظالمهم وعدوانهم على التجار الفرنسيين ، ويعرب عن نيات الجمهورية الفرنسية الودية نحو تركيا ويدعوه أن يرسل إلى القاهرة مندوبا مفوضاً أو يرسل جوازاً لمندوب يوفده نابليون إلى الآستانة للإتفاق على مصير مصر وعلى الأمور المعلقة بما يوافق مصلحة الدولتين .

وقد سافر المسيو (بوشان) Beachamps [٤] بإحـدى هذه الرسائل[٥] إلى الآستانة على ظهر السفينة التركية التى كانت راسية بالإسكندرية[٦] . فكان الجواب عنها اعتقاله مع موظفى السفارة الفرنسية .

لقد وقفت تركيا فى بدء الحملة الفرنسية وقفة المتردد فيما تتبعه حيالها ، إلى أن تحطم أسطول

---

(١) القوميسير لدى الديوان . انظر الجزء الأول ص ١٠١ (من الطبعة الأولى) .

(٢) ذكر الجبرتى هذه الواقعة فى حوادث شهر ربيع الأول سنة ١٢١٣ بقوله : « وفيه حضر القاصد الذى أرسله كبير الفرنساوية بمكاتبات وهدية إلى أحد باشا الجزار بعكا وذلك عند استقرارهم (الفرنسيين) بمصر وصحبته أنفار من النصارى الشوام فى صفة تجار ، ومعهم جانب أرز ، ونزلوا من ثغر دمياط فى سفينة من سفائن أحمد باشا ، فلما وصلوا إلى عكا وعلم بهم أحمد باشا أمر بذلك الفرنساوى فنقلوه إلى بعض التقاير (المراكب) ، ولم يواجهه ولم يأخذ منه شيئاً وأمره بالرجوع من حيث أتى ، وعوق عنده نصارى الشوام الذين كانوا بصحبته » .

(٣) هو المسيو مايى Mailly .

(٤) أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون وكان قنصلا لفرنسا فى مسقط .

(٥) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٧٤٧ .

(٦) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٧٤٤ ورقم ٣٧٤٦ .

الأميرال برويس فى واقعة (أبو قير) ورجحت كفة إنجلترا فى البحر الأبيض المتوسط ، فكانت هذه الواقعة من أهم الأسباب التى حدت بتركيا إلى رفض المساعى التى بذلتها فرنسا فى سبيل التفاهم وإياها ، وأعلنت عليها الحرب فى ٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، وأخذت تحشد جيشين لفتح مصر ، الأول فى سوريا ووجهته الزحف على القطر المصرى من طريق برزخ السويس ، والثانى فى رودس لمهاجمة سواحل مصر الشمالية ، لكن تركيا أبطأت فى إنفاذ حملتها إلى مصر وتلكأت بسبب ارتباك أحوالها الداخلية وبعد المسافات ، وأخذت فى الوقت نفسه تولى وجهها شطر الدول المعادية لفرنسا لتعاقدهم فى محالفة دفاعية ، فتم إبرام المحالفة بينها وبين الروسيا فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٧٩٨ [٧] ، وعقدت محالفتها مع إنجلترا فى ٥ يناير سنة ١٧٩٩ [٨] ، ومنذ علم نابليون بمقدمات هذا التحالف عزم على أن يسبق خصومه إلى العمل ويهاجمهم قبل أن يهاجموه ، ورأى أنه إذا تأخر فى إنفاذ الحملة وانتظر اجتياز الجنود العثمانية برزخ السويس تحرج مركزه فى وادى النيل بما يتجدد فى نفوس الشعب من الأمل فى هزيمة الجيش الفرنسى وسقوط هيبته فى أنحاء البلاد . فبيَّت رأيه على مهاجمة الجيش العثمانى فى سوريا .

فغرض نابليون من الحملة السورية كان إذن تثبيت قدم الاحتلال الفرنسى فى مصر وإبعاد خطر الحملة العثمانية عليها . وإكراه تركيا على الاتفاق . وكان يرمى كذلك إلى منع العمارة الإنجليزية فى البحر الأبيض المتوسط من أن تتزود من الثغور السورية . ولم يكن يقصد هزيمة الجيش التركى فحسب . بل كان يريد احتلال سوريه واتخاذها موقعاً حصيناً للدفاع عن كيان مصر . وجعلها جزءاً من الدولة العربية التى عزم على إنشائها على ضفاف النيل وشواطئ البحر الأبيض المتوسط . فقد رأى بثاقب نظره أن حدود مصر الطبيعية لا تنتهى بشبه جزيرة سيناء بل بجبال طوروس . وهكذا كانت سوريا مطمح أنظار كل دولة قامت فى مصر. لأن الاستيلاء عليها يضمن سلامة القطر المصرى من كل اعتداء أو غارة تأتى من جهة آسيا . وكذلك فعل محمد على عندما أسس الدولة المصرية . فإنه رأى أن لا غنى له عن سوريا ليضمن سلامة مصر .

وكان نابليون يرمى إلى مطامع أكبر إذا ما نجحت الحملة على سوريا ، بأن يوصل زحفه على الهند . وقد أرسل من قبل كتابا إلى (تيبو صاحب) سلطان ميسور المشهور بعدائه للإنجليز

(٧)و(٨) مارتانس مجموعة المعاهدات الجزء السادس .

ينبئه بأنه جاء إلى مصر فى جيش جرار وأنه عازم على إنقاذه من سيطرة الإنجليز[٩] ويطلب إليه أن يراسله ليقف على الحالة السياسية فى بلاده وأن يوفد إليه رسولا أمينا ليفاوضه . وفى رواية أخرى أنه كان ينوى إذا فتح عكا أن يزحف شمالا فيحتل دمشق فحلب ثم يزحف على الأناضول ثم يحتل الأستانة ويقوض دعائم السلطنة العثمانية وينشئ على أنقاضها إمبراطورية شرقية عظيمة يكون عاهلها ثم يزحف من الإستانة فأدرنه إلى النمسا فيكتسحها ثم يعود الى باريس بعد أن يملك الشرق والغرب . ولم تكن هذه الآمال بعيدة عن نفس نابليون الطموحة . فإن حياته الحربية والسياسية تدل على أن مطامعه فى الفتح والسلطان لم تقف عند حد .

أخذ نابليون يدبر أمر الجنود الذين يزحف بهم على الشام . وكانت فرقة الجنرال (ديزيه) فى ذلك الحين منهمكة فى الحملة على الصعيد كما فصلنا ذلك فى الجزء الأول[١٠] ، وكان لابد له من ترك حاميات قوية من الجنود فى القاهرة وفى الإسكندرية وفى مختلف العواصم لإخضاع مديريات الوجه البحرى . فاختار نابليون قسماً من الفرق التى تحت قيادة الجنرالات (رينييه) و (لان) و (كليبر) و (بون) و (مورا) التى كانت موزعة فى جهات مختلفة من القطر كالقاهرة ودمياط والصالحية وبلبيس بلغت عدتها نحو ١٣٠٠٠ مقاتل . وتولى بنفسه قيادة الحملة . وعهد بقيادة المدفعية إلى الجنرال (دومارتان) . وبفرقة الهندسة إلى الجنرال (كافريللى) .

احتياطات نابليون وسياسته إزاء الشعب

كان نابليون يعلم أن نفوس الأهالى فى القاهرة متحفزة للهياج تتربص للانتقاض على السلطة الفرنسية . وأدرك أن قيام ثورة فى العاصمة أثناء الحملة على سوريا يشعل نار الهياج فى سائر أنحاء القطر المصرى ويؤدى إلى قطع خط الرجعة على الجيش الفرنسى . لذلك اتخذ الاحتياطات الحربية لمنع وقوع أية ثورة . فأمر بتقوية قلاع القاهرة وإحكام الاتصال بينها وإمدادها بالمدافع والذخائر والمهمات . وجعلها فى حالة منيعة من الدفاع . وكلف الجنرال

(٩) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٩٠١ ، وقد قامت الحرب بين « تيبو صاحب » والإنجليز وأغاروا على بلاده وظهروا عليه وحاصروا عاصمة ملكه وقتل أثناء الحصار فى مايو سنة ١٧٩٩ .

(١٠) الفصل السادس عشر والفصل السابع عشر.

(كافريللى) و (دومارتان) بأن يكتبا له تقريراً عن مركز الدفاع عن القاهرة فى حالة نشوب ثورة فيها عقب ارتحاله الى سوريا . وعين الجنرال (دوجا) الذى كان قومنداناً لدمياط حاكما للقاهرة والوجه البحرى ووكيلا عنه فى غيابه (ويسميه الجبرتى القائممقام دوجا).

ووحّد القيادة فى بعض المديريات . فجعل مديريتى الغربية والمنصورة تحت قيادة الجنرال فوجيير ، Fugières [١١] . ومديريتى بنى سويف والفيوم تحت قيادة الجنرال زايونشك[١٢] ، وجعل البحيرة ورشيد تحت قيادة الجنرال مارمون قومندان الإسكندرية .

وعين الجنرال دستنج Destaing قومنداناً لموقع القاهرة ، وعهد إلى المسيو بوسليج مدير المالية تولى الشئون الإدارية للحكومة ، وعين المسيو فورييه سكرتير المجمع العلمى قوميسيرا (مندوباً) فرنسياً لدى الديوان بدلا من المسيو جلوتييه الذى صحبه فى الحملة على سوريا .

وأخذ نابليون يبالغ فى اجتذاب قلوب الأهالى والتودد إليهم ، فعزم على أن يصطحب معه نفرا من زعمائهم ممن لهم مقام محمود فى البلاد ، فاختار أربعة من أعضاء الديوان ، وهم الشيخ سليمان الفيومى ، والشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ أحمد العريشى ، والشيخ محمد الدواخلى ، ومعهم قاضى قضاة مصر التركى إبراهيم أدهم أفندى ، وأمير الحج مصطفى بك نائب الوالى التركى ، ولعل نابليون قصد من اصطحابه هذا الوفد أن يفهم الشعب المصرى أن الحملة على سوريا مرضى عنها من أعضاء الديوان ، أو لعله أراد أن يكونوا رسل التفاهم بينه وبين الشعب العربى فى سوريا لما لعلماء الأزهر من المقام والنفوذ فى سائر أنحاء الشرق ، وكان يؤمل أيضاً أن يكونوا رسل التفاهم بينه وبين الحكومة العثمانية ، وخاصة لأنه صحب القاضى التركى ونائب الوالى التركى ، على أن منطق الظروف وما جرى بعد ذلك من الحوادث يدلان يقيناً على أن أعضاء هذا الوفد لم يكونوا راضين عن الحملة على سوريا ولا عن سيرهم فى ركبها ، ولذلك انتهزوا أول فرصة عرضت لهم لينفصلوا منها كما سيجىء بيانه .

اجتماع نابليون بأعضاء الديوان :

دعا نابليون قبل أن يغادر القاهرة أعضاء الديوان (الخصوصى) للاجتماع به فلبوا الدعوة ،

(١١) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٩٢٢ .

(١٢) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٩٢٣ .

ولما اكتمل جمعهم[١٣] أنبأهم بعزمه على السفر ، وأفهمهم أن الغرض من الحملة على سوريا هو محاربة المماليك وفتح طريق التجارة بين البلدين .

روى الجبرتى ما قاله نابليون فى ذلك الاجتماع « للمشايخ والوجاقلية » فى بيان غرض الفرنسيين من هذه الحملة « أنهم قتلوا المماليك الفارين بالصعيد وأجلوا باقيهم إلى أقصى الصعيد ، وإنهم متوجهون إلى الفرقة الأخرى بناحية غزة فيقصونهم ويمهدون البلاد الشامية لأجل سلوك الطريق ومشى القوافل والتجارات براً وبحراً لعمار القطر وصلاح الأحوال ، وإننا نغيب عنكم شهراً ثم نعود وعند عودتنا نرتب النظام فى البلد والشرائع وغير ذلك ، فعليكم ضبط البلد والرعية فى مدة غيابنا ، ونبهوا مشايخ الأخطاط والحارات أن كل كبير يضبط طائفته خوفاً من الفتن مع العسكر المقيمين بمصر»[١٤] .

فتعهد له أعضاء الديوان بذلك . وكتبوا فى هذا المعنى منشوراً طبعوه كالعادة وألصقوه بالأسواق . ذكروا فيه أن بونابارت سيغيب ثلاثين يوماً لمحاربة إبراهيم بك الكبير وبقية المماليك المصرية وأنه يقصد من هذه الحرب استتباب الراحة لمصر وأهلها وتطهيرها من دولة المماليك . ونصحوا فى منشورهم إلى الأهالى بالإخلاد إلى الهدوء والسكينة حتى يعود بونابارت .

وأوصى نابليون الجنرال دوجا قبل سفره ألا يألو أعضاء الديوان إجلالا واحتراماً ، لما لهم من النفوذ فى نفوس الشعب . وكلفه فى حالة حدوث اضطرابات فى القاهرة أن يستعين بأعضاء الديوانين الخصوصى والعمومى وأن يضع فيهم ثقته ويكل إليهم تهدئة الخواطر . وألا يدع اتخاذ الاحتياطات العسكرية فى المدينة . وأوصاه فى رسالته أن لا يلجأ إلى ضرب المدينة بالمدافع إلا فى حالة الضرورة القصوى . قال فى هذا الصدد[١٥] : « يجب ألا تأمر بضرب المدينة بالمدافع من طابية ديبوى والقلعة إلا حين تعجزك الوسائل كلها . فإنك لتعلم مبلغ الأثر السيئ الذى يحدثه هذا العمل فى مصر وفى سائر أنحاء الشرق » .

الاحتفال برؤية رمضان :

وفى غضون ذلك حل موسم الرؤية لإثبات رمضان (سنة ١٣١٣) ، فانتهزها نابليون فرصة

---

(١٣) يوم ٨ فبراير سنة ١٧٩٩ – ٤ رمضان سنة ١٢١٣ .

(١٤) الجبرتى الجزء الثالث .

(١٥) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٩٥٠ .

طيبة وكانت قبل سفره بأيام . فأمر بالمبالغة فى الاحتفال وتفخيم موكب الرؤية تمليقاً لإحساس الأهالى . وكان الاحتفال عظيمًا بالغاً . سار فيه طوائف الصناع كالمعتاد وذهب المحتسب بهذا الموكب إلى بيت نابليون بالأزبكية وأبلغوه رؤية الهلال . فبالغ فى الحفاوة بهم .

قال الجبرتى يصف ذلك : « وفيه (٢٦ شعبان سنة ١٢١٣) عرض حسن أغا محرم المحتسب لسارى عسكر أمر ركوبه المعتاد لإثبات هلال رمضان . فرسم له بذلك على العادة القديمة . فاحتفل لذلك المحتسب احتفالا زائدًا . وعمل وليمة عظيمة فى بيته أربعة أيام . أولها السبت وآخرها الثلاثاء دعا فى أول يوم العلماء والفقهاء والمشايخ والوجاقلية (الجهادية) وغيرهم . وفى ثانى يوم التجار والأعيان . وكذلك ثالث يوم ، ورابع يوم دعا أيضًا أكابر الفرنساوية وأصاغرهم وركب يوم الثلاثاء بالأبهة الكاملة زيادة عن العادة وأمامه مشايخ الحرف بطبولهم وزمورهم وشقّ القاهرة على الرسم المعتاد . ومر على قائممقام وأمير الحج وسارى عسكر بونابارته . ثم رجع بعد الغروب إلى بيت القاضى بين القصرين فأثبتوا هلال رمضان ليلة الأربعاء[١٦] ثم ركب من هناك بالموكب وأمامه المشاعل الكثيرة والطبول والزمور والنقاقير والمناداة بالصوم » .

ولم يفت الجبرتى ملاحظة تودد الفرنسيين إلى الشعب فى خلال تلك الأيام وإنحاؤه باللائمة على عامة الناس الذين غفلوا عماهم فيه من الضيق ورجعوا إلى البدع القديمة التى كانوا عليها ، وفى كلام الجبرتى فى هذا الصدد عظة وعبرة ، وفيه إشارة إلى ضعف أخلاق لايزال شىء منه مع الأسف موجوداً فينا إلى اليوم ، فتأمل يقول : « وانقضى شهر شعبان وحوادثه فمنها أن أهل مصر جروا على عادتهم فى بدعهم التى كانوا عليها وانكمشوا عن بعضها خوفًا من الفرنسيس فلما تدرجوا فيها وأطلق لهم الفرنساوية القيد ورخصوا لهم وسايروهم رجعوا إليها وانهمكوا فى عمل موالد الأضرحة التى يرون فرضيتها وأنها قربة تنجيهم بزعمهم من المهالك وتقربهم إلى الله زلفى فى المسالك . فرمحوا فى غفلاتهم مع ما هم فيه من الأسر وكساد غالب البضائع وغلوها وانقطاع الأخبار ومنع الجالب . ووقوف الإنكليز فى البحر وشدة حجزهم على المصادر والوارد حتى غلت أسعار جميع الأصناف المجلوبة من البحر الرومى (البحر الأبيض) وانقطع أثر كثير من أرباب الصنائع التى كسدت لعدم طلابها واحتاجوا إلى التكسب بالحرف الدنيئة كبيع الفطير وقلى السمك وطبخ الأطعمة والمأكولات والأكل فى الدكاكين وإحداث عدة

(١٦) أول رمضان سنة ١٢١٣ (٦ فبراير سنة ١٧٩٩) .

قهاوى ، وأما أرباب الحرف الدنيئة الكاسدة فأكثرهم عمل حمّاراً مكارياً حتى صارت الأزقة خصوصًا جهات العسكر مزدحمة بالحمير التى تكرى للتردد فى شوارع مصر» ، وفى هذا الوصف صورة لناحية من نواحى الحياة الاجتماعية فى ذلك العهد . وفيه أيضًا بيان جلى لسوء الحالة الاقتصادية وتقهقرها فى عهد الحملة الفرنسية .

سير الحملة :

بدأت الحملة تتحرك نحو الحدود السورية قبل أن يغادر نابليون القاهرة . فقد عهد إلى الجنرال (لاجرانج) Lagrange حد قواد فرقة الجنرال (رينييه) المعسكرة بالشرقية باحتلال «قطية» فى شبه جزيرة سيناء وتحصينها لتكون نقطة ارتكاز وتموين للجيش الزاحف . فاحتلها الجنرال لاجرانج وقضى نابليون بقية شهر يناير يتم معدات الحملة ويصدر تعلياته لقواد الفرق بالزحف ، فسبقته قوات الجنرال «رينييه» و «كليبر» وارتحل هو من القاهرة يوم ١٠ فبراير (٥ رمضان سنة ١٢١٣) .

قال الجبرتى عن سفر نابليون والترتيبات العسكرية التى أقرها قبل سفره : «وفى يوم الأحد خامس رمضان ركب سارى عساكر الفرنسيس وخرج إلى العادلية وذلك فى الساعة الرابعة وأبقى بمصر عدة من العسكر بالقلعة والأبراج التى بنوها على التلول . وقائممقام دوجا وبوسليك (المسيو بوسليج مدير الشئون المالية) وسارى عسكر ديزيه بجملة من العسكر فى الصعيد . وكذلك سوارى عسكر الأقاليم كل واحد معه عسكر فى جهة من الجهات . وأخذ معه المديرين وأصحاب المشورة والمترجمين وأرباب الصنائع منهم كالحدادين والنجارين ومهندسى الحرب وكبيرهم أبو خشبة (الجنرال كافريللى رئيس فرقة الهندسة) وأبقى أيضاً بعض أكابرهم ثم تراسل المتخلفون فى الخروج كل يوم تخرج منهم جماعة» .

احتلال العريش :

كانت القوات العثمانية والمماليك ممتنعة فى العريش ، فزحف عليها الجيش الفرنسى وواجه الجيش العثمانى بها ودار قتال شديد بين الفريقين انتهى بهزيمة العثمانيين ليلة ١٥ فبراير . واستمرت قلعة العريش تقاوم مقاومة شديدة إلى أن سلمت يوم ٢٠ فبراير سنة ١٧٩٩ .

احتلال يافا :

ثم تابع الفرنسيون زحفهم على سوريا . فاحتلوا (خان يونس) وهى أول بلدة فى فلسطين وساروا منها قاصدين (غزة) واستولوا عليها دون مقاومة تذكر . واستراح الجيش بها عدة أيام ثم استأنف سيره يوم ٢٨ فبراير فاحتل (الرملة) ثم (اللدّ) ووصل تجاه يافا يوم ٣ مارس ، وكان الجيش العثمانى بقيادة عبد الله باشا ممتنعًا بها فحاصرها نابليون بجنوده واستولى عليها يوم ٧ مارس بعد معركةٍ شديدة قتل فيها من الجنود العثمانية نحو ٢٠٠٠ قتيل ودخل الفرنسيون المدينة وأعملوا فيها السيف والنار .

نهب الجنود الفرنسية يافا ، وارتكبوا فيها من الفظائع ما تقشعر منه الأبدان باعتراف المؤرخين الفرنسيين واستمر النهب والقتل يومين متواليين واضطر الجنرال روبان **Robin** الذى عينه نابليون قومندانًا للمدينة أن يقتل بعض الجنود لإعادة النظام . فذهب جهده عبثاً : ولم ينقطع النهب إلا بعد أن كلّ الجنود من الاعتداء وسفك الدماء ، ويقول بعض المؤرخين إن الدمار التى سفكت فى يافا وأشلاء الجثث التى تركت بها عدة أيام كانت من أسباب انتشار الوباء بين العسكر ، وهو الوباء الذى كان من العوامل الرئيسية لإخفاق الحملة على سوريا .

ظهرت أعراض هذا الوباء فى دمياط بين جنود الفرقة المرابطة بها التى اشتركت فى الحملة على سوريا . ثم أخذت عدواه تنتقل إلى الفرق الأخرى إلى أن تفشى بعد دخول الفرنسيين يافا . وأحدث فزعًا بين الجنود . وبذل نابليون قصارى جهده لمحاربته . فذهب جهده سدى وعجز عن مقاومة تلك الآفة الرهيبة التى ألقت الرعب فى جيشه . واضطر ليردّ إلى الجنود شجاعتهم أن يزور المرضى الذين أصيبوا بالوباء ويخاطبهم ويواسيهم ويعرض نفسه لخطر العدوى ليشدد عزائمهم ويقنع الجنود بأنه لا خوف عليهم من سريان العدوى إليهم .

لم يكد ينقطع النهب حتى أعقبته مأساة أخرى أشدّ هولا وفظاعة ، ذلك أنه بعد انتهاء المعركة ودخول الفرنسيين المدينة كان بها من الجنود العثمانية نحو ثلاثة آلاف مقاتل آثروا التسليم وإلقاء السلاح فى يد الفرنسيين بشروط اتفقوا عليها مع اثنين من ياوران نابليون وهما بوهارنيه **Beauharnais** وكروازييه **Croisier** ، ومن هذه الشروط أن تضمن لهم أرواحهم بعد التسليم ، وتعهد الياوران بذلك باسم القائد العام وتلقاهم الفرنسيون كأسرى حرب ، ولكن نابليون بعد أن فكر طويلا فى أمرهم وتردد فى شأنهم أمر بإعدامهم جميعاً رمياً بالرصاص ،

وحجته فى ذلك أنه كان عاجزاً عن إطعامهم وحراستهم فى بلاد نائية لم يستتب له فيها الأمر ، وهى حجة واهية تنطوى على نقض العهود وتنكرها المبادئ الإنسانية وقواعد الحروب ، فسيق أولئك الأسرى إلى شاطئ البحر وأعدموا جميعاً رمياً بالرصاص ، وكان إعدامهم بهذه الطريقة الوحشية من أسباب فشل الحملة الفرنسية فى سوريه لأنه أثار فى نفوس الجنود العثمانية عوامل السخط وحب الانتقام وأدركوا أن مصيرهم إلى الإعدام إذا هم سلّموا ، فاستبسلوا فى الدفاع عن عكا : وردوا هجوم الجيش الفرنسى وأرجعوه عن أسوارها خائباً ، وبذلك أخفقت الحملة على سوريا ، قال (ريبو) فى هذا الصدد : « إن ثلاثة آلاف من الأعداء قُتلوا مرة واحدة ولكن الجنود الباقين قد زاد عددهم وتضاعفت جهودهم للأخذ بالثار ورأوا فى مصير إخوانهم الذين ذبحهم الفرنسيون نموذجًا للإنسانية الفرنسية ، فأصبح القتال بينهم وبين الجيش الفرنسى صراعاً إلى الموت ، وحصد نابليون تحت أسوار عكا ما غرسه على شاطئ يافا[١٧] .

المصريون فى يافا :

وكان فى (يافا) عند احتلالها نحو أربعمائة من المصريين استثناهم نابليون من القتل ، ومن بينهم السيد عمر مكرم نقيب الأشراف الذى هاجر من مصر بعد معركة الأهرام . فأكرم نابليون مثواه وأعاده إلى القاهرة . قال الجبرتى فى هذا الصدد[١٨] ما خلاصته «أن السيد عمر افندى نقيب الأشراف حضر إلى دمياط وصحبته جماعة من أفندية الوزنامه وغيرهم وذلك أنهم كانوا بقلعة يافا فلما حاصرها الفرنساوية وملكوا القلعة والبلد لم يتعرضوا للمصريين وطلبهم (نابليون) إليه وعاتبهم على نقلهم وخروجهم من مصر وأنزلهم فى مركب وأرسلهم إلى دمياط من البحر » .

وقال فى حوادث شهر صفر سنة ١٢١٤ إنه فى اليوم الثالث منه حضر السيد عمر افندى نقيب الأشراف سابقًا من دمياط إلى القاهرة « فحضر بعض الأعيان لملاقاته وركبوا معه بعد أن مكث هنية بزاوية على بيك التى بساحل بولاق حتى وصل إلى داره وتوجه فى ثانى يوم مع الشيخ المهدى وقابل سارى عسكر فبش له ووعده بخير ورد إليه بعض تعلقاته ، واستمر مقيمًا بداره والناس تغدو وتروح إليه على العادة » . وهذا يدلك على ما كان للسيد عمر مكرم من

(١٧) كتاب التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الرابع .

(١٨) فى حوادث شهرشوال سنة ١٢١٣ .

المنزلة فى قلوب الناس.. نقول هذا ، تمهيداً للكلام عما صار له من الشأن العظيم فى سير الحوادث بعد جلاء الفرنسيين كما تراه فى الفصل الرابع عشر.

وقد سعى نابليون فى إلحاق المصريين الذين أسرهم فى يافا بصفوف جيشه ، ولكنه أخفق فى سعيه ورفضوا الالتحاق بالجيش الفرنسى فأمر بإعادتهم إلى مصر.

غنم الفرنسيون فى يافا كثيراً من الذخائر والمهمات والأقوات والمدافع . واستخدموا المدافع فى حصار عكا . وبادر نابليون بإرسال نبأ استيلائه على يافا إلى الجنرال (دوجا) ليخبر به الديوان ويذيعه فى البلاد . فوردت هذه الأخبار إلى القاهرة فى ١٣ شوال . فانعقد الديوان وتليت رسالة نابليون وأصدر الديوان منشوراً بذلك إلى الأهالى . ويلاحظ أن نابليون فى رسالته للديوان أشار إلى قتل أربعة آلاف من عسكر الجزار فى المعركة . فهو إذن قد كتم عن المصريين ما أمر به من قتل أسرى الحامية بعد التسليم . وفى هذا شعور منه بفظاعة إعدامهم بعد أن أمَّنهم على أرواحهم .

وقد كان لاستيلاء الجيش الفرنسى على يافا تأثير معنوى كبير فى مصر لأن الناس لم يكونوا يتوقعون أن يتم للفرنسيين هذا النصر بهذه السرعة . ولكنهم قابلوا الخبر بالسكوت والتسليم .

حصار عكا والارتداد عنها :

استأنف الفرنسيون زحفهم شمالا واحتلوا (حيفا) دون مقاومة : ثم وصلوا تجاه (عكا) وهى بلدة محصنة . عزم الجنود العثمانية بقيادة أحمد باشا الجزار[١٩] على الدفاع عنها بكل ما

---

(١٩) ترجمة الجبرتى وفيات سنة ١٢١٩ هجرية ، فذكر عن تاريخه ما خلاصته أن أصله من بلاد البوشناق (البوسنة) وخدم عند على باشا حكيم والى مصر وحضر معه إلى الديار المصرية سنة ١١٧١ هجرية (١٧٥٧ ميلادية) فتشوقت نفسه إلى الحج واستأذن مخدومه فأذن له فى ذلك وأوصى به أمير الحج صالح بك القاسمى ، وأخذه معه وأكرمه رعاية لعلى باشا ، ورجع معه فوجد على باشا قد انفصل عن ولاية مصر ، فاستمر الجزار فى مصر وتزيى بزى المصريين وخدم عبد الله بك تابع الأمير على بك الكبير وتعلم الفروسية على طريقة المماليك وحدث أن على بك أرسل عبد الله بك بتجريدة إلى عرب البحيرة فقتلوه ، فرجع المترجم مع باقى رجاله إلى القاهرة فقلده على بك كشوفية البحيرة وطلب منه أن يثأر لأستاذه ممن قتلوه فذهب إليهم وخادعهم وجمعهم فى مكان واحد وقتلهم وهم نيف وسبعون رجلا ، ومن ذلك لقب بالجزار ، فالجزار هو إذن من أتباع على بك الكبير وكانت نشأته الأولى فى مصر ، وذكر الجبرتى أن على بك طلب منه أن يعاونه على الغدر بصالح بك القاسمى فلم تطاوعه نفسه وخرج من مصر هاربا ، ثم عاد إلى البحيرة وأقام مع عرب الهنادى وتزوج هناك ، ثم سار إلى بلاد الشام واشتهر أمره فى تلك النواحى وقلد الوزارة وأقام فى حصن عكا وعمر أسوارها وقلاعها واستكثر من شراء المماليك ، واشتهر بالقسوة والظلم ومات سنة ١٢١٩ هرجية (١٨٠٤ ميلادية) .

لديهم من قوة . فجعلها نابليون هدفا لهجومه إذ كان الاستيلاء عليها يفتح أمامه طريق سوريا ويقضى على نفوذ الجزار فى تلك الجهات . وبدأ يضرب عليها الحصار يوم ١٩ مارس سنة ١٧٩٩ . ثم جعل يعد المعدات لأخذها عنوة . فضرب أسوارها وأبراجها بالمدافع ودارت معركة طاحنة بين الفرنسيين وجنود الحامية ارتد على أثرها الفرنسيون بعد أن نالتهم خسائر فادحة . وكان نابليون يعتقد أن الاستيلاء على عكا لا يكلفه أكثر من أخذ يافا . ولكن تبين له من ارتداده عنها أنها ممتنعة حصينة وأنه فى حاجة إلى جهود كبيرة لفتحها . وكان ارتداده عنها أول هزيمة مُنى بها جيشه فى الحملة على سورية . فأثرت فى نفسه تأثيراً كبيراً وخشى عواقبها فى مصر . فشدد الحصار على المدينة وأعد المعدات لهجوم ثان أقوى من الأول وحاول اقتحامها بقوة المدفعية والجنود يوم أول أبريل . واستطاع أن يفتح ثغرة فى أسوارها ولكن جنود الحامية دافعوا عنها دفاع المستميت ، فأمر نابليون جيشه بالارتداد عنها ، وخاب فى هذا اليوم مثل خيبته فى هجومه الأول .

قاومت عكا هجمات الجيش الفرنسى مقاومة شديدة ، واشتهر أحمد باشا الجزار بحسن بلائه فى الدفاع عنها ، وكان يظاهره من البحر الأسطول الإنجليزى بقيادة الكومودور السرسدنى سميث Sidney Smith ، فكان لمعاونته أثر أى أثر ، كما أنه منع وصول مدافع الحصار إلى الفرنسيين بطريق البحر . ومما يؤثر عن نابليون أنه قال يوماً عن السر سدنى سميث : « لقد حرمنى هذا الرجل من حظى » . وساعد الجزار رجل آخر لا يقل كفاءة عن السر سدنى سميث وهو ضابط فرنسى من ضباط المدفعية اسمه الكولونل فيليبو Philipeaux كان زميلا لبونابرت فى الدراسة وكان ملكياً وخصما للجمهورية الفرنسية . فهاجر مع من هاجروا من فرنسا فراراً من فظائع اليعقوبيين وكان هذا الضابط على جانب عظيم من الكفاية الحربية ، فقدمه السير سدنى سميث إلى الجزار ليشدَّ به أزره فى الدفاع عن عكا ، فأدَّى له أحسن الصنيع فى أثناء الحصار ، ومات قبل ارتداد الفرنسيين عنها .

ومن الحوادث التى ساعدت الجزار على الدفاع عن المدينة أن نابليون أصدر تعلياته بأن تنقل مدافع الحصار بحراً على السفن الفرنسية التى نجت من كارثة « أبو قير » إلى يافا ، وكانت هذه المهمة شاقة تكتنفها المخاطر ، لأن بوارج الأسطول الإنجليزى ما فتئت تراقب الشواطئ مراقبة دقيقة ، فسارت السفن على فرقتين أبحرت إحداهما من دمياط إلى شواطئ سوريا ففاجأتها المراكب الحربية الإنجليزية تجاه (حيفا) يوم ٢٢ مارس ، فأسرت منها سبعاً كانت

تحمل مدافع الحصار والذخائر واقتادتها إلى عكا فاستولى عليها الجزار واستخدمها بمحاربة الفرنسيين ، وغنم الإنجليز السفن المأسورة ، ويقول نابليون فى مذكراته : « إن فقد هذه السفن كانت له عواقب وخيمة ولو أنها نجت وأنزلت مدافع الحصار إلى شاطئ حيفا لاستولى على عكا قبل أول أبريل ولخلص لهم طريق (دمشق) وكان فى استطاعتهم احتلالها فى منتصف أبريل واحتلال (حلب) فى أول مايو» .

أما الفرقة الأخرى فقد أقلعت من الإسكندرية بقيادة الكونتر أميرال بيرى Peerrée ، وهذه سلمت من الأسطول الإنجليزى ورست فى يافا ثم أنزلت ما كان على ظهرها من مدافع الحصار والذخائر . وتسلمها الجيش الفرنسى واستعملها . ولكنها لم تجْد فى منعة عكا ، وفى غضون هذه الحوادث أنفذ نابليون بعض قواته للإيغال فى سوريا فاحتلت (صفد) و (صور) و (طبرية) وأمكنة أخرى ، وانتصر الجيش الفرنسى بقيادة الجنرال كليبر على الجيش التركى فى واقعة جبل طابور (أبريل سنة ١٧٩٩) . ولكن هذا النصر لم يغير الموقف الحربى لأن نجاح الحملة على سوريا كان معلقاً على فتح عكا .

استمر الحصار أكثر من شهرين وعجز نابليون عن اقتحام عكا ، فعقد مجلسًا حربيًا من قواده وتداولوا فى الأمر فاستقر رأيهم على رفع الحصار عنها ، وهكذا انتهى حصار طويل دام ٦٢ يوما (من ١٩ مارس إلى ٢١ مايو سنة ١٧٩٩) بالإخفاق والفشل ، وكانت أهم الأسباب التى دعت إلى الارتداد عن عكا فداحة الخسائر التى نزلت بالجيش الفرنسى من المعارك ومن فتك الوباء ، وفقد عدد كبير من الضباط والقواد ، واستحالة انتظار المدد من مصر ، ونقص الذخائر والمؤونة ، ووصول المدد إلى الجزار ، واجتمع إلى هذه الأسباب وصول الأنباء المقلقة إلى نابليون عن شروع تركيا فى تجريد حملة كبيرة على مصر ، فقد علم أن المدد العثمانى الذى جاء إلى عكا لم يكن سوى جزء يسير من الحملة التى أعدها الباب العالى ليقذف بها إلى الإسكندرية ، فتحارب الجنود الفرنسية الباقية بمصر ، فى الوقت الذى يحارب فيه الجزار جيش نابليون بسوريا ، وأن معظم الجيش العثمانى قد احتشد فى رودس وفى شواطئ الأناضول ينتظر الأمر ليتحرك صوب الشواطئ المصرية ، وجاءته فوق ذلك من القاهرة رسائل الجنرال دوجا والمسيو بوسليج تحمل إليه أنباء اضطراب الأحوال فى مصر وتجدد المعارك فى الصعيد وانتقاض أمير الحج وثورة المهدى فى البحيرة وظهور البوارج الإنجليزية فى البحر الأحمر واقترابها من السويس ، ووصلته كذلك أنباء مزعجة عن الحالة فى أوروبا ، فتبين له من اجتماع

ذلك أن الحالة أصبحت تحتم عليه الارتداد عن عكا والرجوع إلى مصر مهما كان فى ذلك من الغضاضة على نفسه وتصدع هيبته العسكرية .

وهكذا صار لعكا شأن كبير فى مصير الشعوب ؛ لأنه لولا ثباتها فى وجه نابليون لاستطاع مواصلة زحفه فى سوريا ولأجبر تركيا على أن تعقد الصلح معه وأن تذعن لشروطه ، ثم لأمكنه الزحف براً إلى الهند أو الوصول إلى القسطنطينية لكن عكا قضت على أحلامه فى إنشاء دولة شرقية عظيمة ، ولقد روى عن نابليون أنه قال عن هزيمته أمام عكا : « لم أكن أعلم عندما أقلعت بى السفينة إلى مصر إذا كان وداعى لفرنسا سيكون أبديا ، لكنى ما شككت لحظة فى أنها ستدعونى يوما ما إليها ، على أن آمالى قد اتجهت إلى الشرق واستهوتنى فتوحاته العظيمة وصرفتنى عن التفكير فى أوروبا ، ولكن هذه الأحلام والآمال قد دُفنت تحت أسوار عكا » .

إن عكا كانت المدى الذى وصلت إليه فتوحات الفرنسيين فى آسيا ، والقلعة التى ارتدّوا عنها منهزمين ، فهذه الهزيمة قد محت ما تركته انتصارات نابليون من الأثر فى النفوس ، وتبين للناس أن الجنود الفرنسية التى تعودت الانتصار فى المعارك الحربية قد تلاشت قوتها بإزاء مدينة صغيرة لم يكن لها شأن يذكر .

فالأثر المعنوى الذى أحدثته هزيمة نابليون أمام أسوار عكا كان عظيما ومن شأنه أن يضعضع هيبة فرنسا فى نظر المصريين والشرقيين عامة ويبعث فى نفوسهم روح الأمل فى القوة الكامنة فى بلادهم ، وليس من المبالغة أن تعد هذه الهزيمة أكبر أثراً فى نفوس الشرقيين من كارثة الأسطول الفرنسى فى معركة (أبو قير) ، لأن سفن الأميرال نلسن هى التى حطمت الأسطول الفرنسى فى تلك المعركة الكبيرة ، أى أن العمارة الفرنسية إنما حطمتها عمارة أوروبية ، أما هزيمة الفرنسيين أمام عكا فكانت هزيمة دولة أوروبية أمام قوات شرقية يقودها حاكم عثمانى من الطراز القديم ، ولم تكن كارثة (أبو قير) لتؤثر فى هيبة نابليون وعبقريته الحربية بمقدار ما أثرت فيها هزيمة عكا ، لأنه كان يتولى حصارها بنفسه ، فكم كان تأثير هزيمته كبيرًا ووقعها فى نفسه أليمًا وهو ذلك القائد الذى قهر الجيوش فى أوروبا وفتح إيطاليا وأملى شروطه على النمسا ولم يألف فى الحروب التى خاض غمارها سوى النصر والظفر ! فهذا الفاتح العظيم رأى نفسه مضطرًا بعد حصار شهرين أن ينقلب منهزمًا عن مدينة صغيرة ، تاركاً تحت أسوارها عدداً لا يُحصى من القتلى والموتى .

خسائر الفرنسيين فى الحملة على سوريا

إن الخسائر التى حلت بالجيش الفرنسى فى الحملة السورية تشعر بعظم الهزيمة التى أصابت نابليون وجيشه ، فقد بلغ عدد القتلى الفرنسيين ٢,٢٠٠ قتيل ، منهم ١٢٠٠ قتلوا فى المعارك وخاصة فى حصار عكا ، و ١٠٠٠ ماتوا من الأمراض ، وبلغ عدد الجرحى ٢٥٠٠ جريح ومريض ، وهى خسارة فادحة خصوصا إذا لوحظ أنها أصابت خيرة جنود الحملة الفرنسية . وفقد الجيش نخبة من قواده وضباطه ، منهم الجنرال (كافريللى) رئيس فرقة الهندسة . قُتل فى حصار عكا فكان مقتله من أكبر النكبات التى حلت بالجيش الفرنسى[٢٠] .

وقُتل أيضاً من القواد الجنرال بون Bon أحد قواد الفرق . والجنرال لوجييه . والجنرال ديتروا . والجنرال رامبو Rambeaud . والكولونل هو راس ساى Say رئيس أركان حرب الجنرال كافريللى . وقُتل معظم ضباط فرقة الهندسة فقد كان عددهم فى بدء الحملة ١٧ ضابطًا فلم يسلم منهم عند انسحابها سوى ضابط واحد ومات تسعة وجرح سبعة منهم وقتل ثلاثون من ضباط أركان الحرب ومات معظم أطباء الجيش فى مكافحتهم للوباء . ومات المستشرق فانتور Venture كبير تراجمة الجيش ومستشار نابليون فى المسائل الخاصة بالشرق والشرقيين وكانت وفاته بالدسنطاريا[٢١] .

موقف نابليون بعد هزيمة عكا

لم يدع نابليون اليأس يعمل فى نفسه وفى نفوس الجند . بل شدَّد عزائمهم بمنشوراته الساحرة . وهكذا برهن على رباطة جأشه فى أشد الأوقات خطراً . وكذلك كان شأنه عندما وصله قبل تسعة أشهر ونيف نبأ الكارثة التى حطمت الأسطول الفرنسى فى معركة (أبو قير) ،

---

(٢٠) انظر ترجمته فى الفصل الرابع من الجزء الأول ص ١٣٥ (من الطبعة الأولى) ، وقد حزن عليه نابليون حزناً شديداً ونعاه إلى الجيش بقوله . « إنه ذهب إلى القبر يحمل أسف الجميع فقد خسر الجيش فى شخصه قائداً من أشجع قواده وخسرت مصر أحد مشترعيها العظام وفقدت فرنسا وطنياً من أخلص أبنائها وخسرت العلوم ركنا من أركانها » ، وعين بدله الجنرال سانسون Sanson .

(٢١) انظر ترجمته فى الجزء الأول ص ١٣٩ (من الطبعة الأولى) .

فقد اعتصم بشجاعته واستمر يعمل ويدبر الأمور ويبتكر المشروعات كأن لم تقع كارثة . ولما دفنت آماله تحت أسوار عكا هيأ خطة الانسحاب على أن يدخل بجنوده مصر دخول الفاتح المنتصر استبقاءاً لهيبته فى النفوس .

أراد أن يبعث الحمية فى قلوب جنده بعد الانسحاب ، فأذاع بينهم نداءً أشاد فيه بانتصاراتهم وأطنب فى نتائج جهادهم . خاطبهم فيه بقوله[٢٢] : « أيها الجنود . لقد طويتم فدافد الصحراء التى تفصل بين أفريقية وآسيا بأسرع مما يطيقه جيش عربى ولد فيها . والآن قد سحقتم الجيش الذى كان يزحف لاحتلال مصر وأسرتم قائده وغنمتم مهماته وأخذتم المواقع الحصينة التى تحمى آبار المياه . ومزقتم فى جبل طابور تلك الجموع التى أقبلت من سائر أنحاء آسيا لاقتناص مصر . لقد شاهدتم منذ اثنى عشر يوماً ثلاثين سفينة أقبلت إلى عكا . فهذه السفن تحمل الجيش الذى كان معداً لاحتلال الإسكندرية : ولكن هذا الجيش اضطر إلى العدول عن مقصده الأول وجاء إلى عكا لنجدتها . وسترين الأعلام التى أخذتموها منه عودتكم إلى مصر .

«والآن بعد مواصلة القتال ثلاثة أشهر فى قلب سوريا وبعد أن غنمنا من العدو أربعين مدفعا وخمسين راية وأسرنا منه ٦٠٠٠ أسير (!!) ونسفنا استحكامات غزة ويافا وحيفا وعكا ، سنعود إلى مصر لأن وقت الرحيل دنا .

« لقد كان أملنا وطيداً فى أن نأسر حاكم عكا (الجزار) فى عقر داره ، ولكن الاستيلاء على عكا فى هذا الفصل لا يساوى ضياع عدةٍ من الأيام تحت أسوارها . وإنى فى حاجة إلى الجنود الشجعان الذين يمكن أن أفقدهم فى هذا الهجوم ليقوموا بواجبهم فى معارك أخرى أهم وأكبر .

« أيها الجنود ، لايزال أمامنا مهمات شاقة وأخطار نستهدف لها ؛ والآن بعد أن صددنا هجمات الشرق سنقف غدًا لنكافح هجمات تأتينا من الغرب ، وستتاح لكم فرص جديدة لاكتساب المجد والفخر ، وإذا كان كل يوم من أيام المعارك يفقدنا بطلا فمن الواجب أن يحل بدله شجعان آخرون يتقدمون بدورهم فى ميادين القتال بين صفوف الأبطال الذين يواجهون الأخطار ويحققون الفوز والانتصار » .

هذا النداء مؤرخ ١٧ مايو سنة ١٧٩٩ ، وقد أمر نابليون بطبعه على المطبعة التى جلبها معه

(٢٢) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٤١٣٨ .

فى الحملة . ولم يذعه بين الجنود إلا يوم ٢٩ مايو بعد أن أتم معدات الرحيل . وذلك حتى لا يصل خبر رفع الحصار إلى الجزار فيداهم الفرنسيين قبل رحيلهم الأخير .

بهذا النداء البليغ أذكى نابليون نار الحماسة فى نفوس الجنود الذين أنهكتهم المتاعب وأذوتهم الأمراض واكتنفتهم الأخطار والأهوال . والحق إنه يصعب على غير نابليون أن يردّ الروح المعنوية إلى نفوس الجنود بعد ما حل بهم من خيبة الآمال وما قاسوه من الأهوال فى حصار عكا .

ولكن نابليون كان يعتمد على تأثيره الأدبى فى جنده . فلم يكن يشك فى قوتهم المعنوية إذا أذكتها كلماته الحماسية .

وإذا تأملت فى نداء نابليون واستثارته لحمية جنوده واستفزازهم لخوض معارك جديدة فى القارة الأوروبية . رأيت فى عباراته ما يدل على شعوره باضطراب الأحوال السياسية فى أوروبا . ولا غرو فإن هزيمة فرنسا فى الحملة على سوريا كانت من الأسباب التى شدت من أزر الدول الملكية فى أوروبا . وحفزتها إلى التحرش بعدوتها القديمة كما سيجىء بيان ذلك فيما يلى .

هذا هو موقف نابليون من جيشه . أما موقفه من الشعب المصرى فقد اجتهد فى تعميته بستر الفشل الذى أصابه أمام عكا والظهور بمظهر المنتصر الذى أدرك أغراضه من الحملة على سورية . والإعلان عن سطوته وقوته . ولذلك بادر فهيأ رسالة بعث بها إلى ديوان القاهرة بتاريخ ١٦ مايو . حشاها بكثير من التمويهات . وخلاصتها الزعم أنه محق دار الجزار بعكا وهدم البلد بالقنابل . وأن أهلها فروا إلى البحر وأن الجزار جريح فى خطر الموت . وقد وصلت هذه الرسالة إلى مصر فى أول محرم سنة ١٢١٤ . وقرئت بالديوان . فلم يصدقها أحد .

انسحاب الجيش الفرنسى إلى مصر

أنفذ نابليون خطة الانسحاب . وبعث المرضى والجرحى إلى حيفا . ثم رفع الحصار عن عكا فعلا يوم ٢٠ مايو سنة ١٧٩٩ الساعة العاشرة ليلا . وبدأت فرق الجيش فى الرحيل ليلة ٢١ مايو . بحيث لم يشعر المدافعون عن عكا برفع الحصار إلا صبحاً بعد أن تم انسحاب الفرنسيين .

وصل الجيش فى ارتداده إلى حيفا بعد منتصف الليل . فمكث قليلا ليحمل جرحاه الذين

كانوا بها ، ثم أخلاها ، واضطر إلى ترك الجنود المصابين بالوباء خوفا من انتقال عدواهم إلى الجيش . وكان التراجع محفوفا بالمتاعب والمشاق . واضطر نابليون وقواده وضباطه أن يمضوا فى السير على أقدامهم . وترجلوا عن خيلهم ليركبها المرضى والجرحى . ثم تابع الجيش طريقه جنوبًا محاذيا شاطئ البحر فوصل إلى الطنطورة ظهر يوم ٢١ مايو وكان بها كثير من مدافع الحصار التى جلبها من مصر أو غنمها فى يافا وأدرك صعوبة نقلها معه فى انسحابه . لأن طريق الصحراء وعر لا يصلح لنقل المدافع الثقيلة ، وطريق البحر معرض لهجمات البوارج الإنجليزية ، فاضطر إلى إتلاف معظم تلك المدافع أو إغراقها فى البحر ، وكذلك فعل بالقنابل والذخائر ، واستعمل عربات المدافع فى حمل الجنود المرضى والجرحى ، ثم غادر الطنطورة يوم ٢٢ مايو ، وسار الجيش جنوبا فأخلى قيسارية ويافا والرملة وغزة ، وأمر نابليون بنسف حصون يافا وغزة . وإتلاف المدافع والمهمات التى لم يستطع الجيش حملها معه وأحرق القرى الواقعة بين يافا وغزة . ونهب مواشى الأهالى وخرب تلك الجهات تخريبًا تامًا ليجعلها فى زعمه عراقيل تعطل زحف الجيش العثمانى على مصر.

وبلغ الجيش فى تراجعه (خان يونس) يوم ٣١ مايو سنة ١٧٩٩ . وقام منها يوم أول يونية قاصدًا العريش ، وقطع فى هذا اليوم المسافة من خان يونس إلى العريش مارًا برفح والشيخ زويل . ووصل إلى العريش الساعة العاشرة ليلا وعسكر فى حدائق النخيل ، وكانت هذه المسافة أشق مرحلة قطعها الجنود من يوم انصرافهم عن عكا ، فأمرهم نابليون أن يستريحوا فى العريش يوم ٢ يونية . وقضى هو ذلك اليوم فى تعهد قلعة العريش التى كانت مفتاح مصر من الجهة الشرقية . وكان من يوم احتلاله العريش فى بدء الحملة على سوريا شديد العناية بتحصينها لأهمية موقعها الحربى ولقربها من دمياط التى كانت ثغر مصر الشرقى . وكانت عنايته بتحصينها دليلا على نيته احتلال مصر إلى ما شاء الله . ولكن الحوادث أخلفت ظنونه .

كتب المسيو كوستاز أحد مهندسى الحملة الفرنسية[٢٣] الذين رافقوا نابليون فى حملته على سوريا رسالة[٢٤] عن أهمية العريش قال فيها : « إن قلعة العريش تكسب من يحتلها مزايا عظيمة تضمن له الانتفاع بآبار المياه العذبة التى هى وإن لم تكن فى عذوبة ماء النيل أو السين ، إلا أنها صالحة جدًا للشرب . ووجود هذه الآبار يسهل إنشاء مخازن ومستودعات

(٢٣) انظر ما كتبناه عنه بالجزء الأول ص ١٢٤ (من الطبعة الأولى) .

(٢٤) نشرت بجريدة «كوريه دليجيبت» بالعدد ٣١ الصادر فى ٧ يوليو سنة ١٧٩٩ .

للجنود الذين يخترقون الصحراء من مصر إلى سوريا أو من سوريا إلى مصر ، وقد كانت العريش دائماً جزءًا من مصر ، وهى ضرورية لضمان الدفاع عنها . ولذلك استثناها نابليون من القلاع التى هدمها أثناء الحملة على سوريا . فاستبقاها وأمر بتقويتها ، ولم ينقطع العمل فيها منذ أربعة أشهر لجعلها أكثر مناعة . وأنفذ لها أخيرًا طائفة من المهندسين وفرقة من العمال لإصلاح استحكاماتها وزيادة قوة الدفاع فيها » .

ترك نابليون بالعريش حامية من الجنود وزودها بالمدافع والذخيرة . وسار الجيش يوم ٣ يونية سنة ١٧٩٩ قاصدًا إلى قطية فوصلها يوم ٤ يونية ومن هناك مضى إلى القاهرة مارًا بالصالحية فبلبيس فالمرج ، أما فرقة كليبر فسارت إلى دمياط واستقرت بها . وبذلك انتهت الحملة على سوريا وقد دامت ١٢٥ يوما . وعادت إلى حيث بدأت دون أن يجنى منها الفرنسيون سوى الهزيمة والخسران .

* * *

الفصل الثالث

الحالة فى مصر أثناء الحملة على سوريا

كان معظم جنود نابليون موزعين فى وقت واحد فى ميدانين كبيرين تكتنفهما المشاق والمتاعب ، فكان نصف الجيش بقيادة نابليون منهمكاً فى الحملة على سوريا ، حين كان جيش الجنرال ديزيه منصرفا إلى إخضاع الوجه القبلى[1] ، وكلاهما كان يواجه المصاعب فى طريقه ، فجيش الحملة يقاتل جيوشاً عديدة ويطاحن قلاعاً حصينة ، وجيش ديزيه يواجه ثورات ومعارك متتابعة .

حالة الشعب النفسية

ولا جدال فى أن تغيب نصف الجيش الفرنسى عن مصر كان له أثر كبير فى حالتها الداخلية ، نعم إن إقدام نابليون على غزو الشام هو فى ذاته عمل يدل على القوة والبأس ومن شأنه أن يلقى فى نفوس المصريين حذراً وهيبة ، لأن القائد الذى يغامر بجيشه فى مثل هذه الحملة الشاقة ويقطع تلك المراحل الطويلة ويجتاز الصحارى والقفار ، لابد أن يكون معتداً بقوته مستصغراً شأن عدوه ، فهذه الظاهرة كان لها أثرها فى الحالة النفسية للشعب ، أضف إلى ذلك أن إخماد ثورة القاهرة[2] وما شهد المصريون من فتك مدافع الفرنسيين وما أعقب الثورة من إنشاء القلاع المحيطة بالعاصمة لإخماد كل ثورة تقوم فيها ، كل ذلك قد جنح بالشعب إلى الهدوء والسكينة ، هذا فضلا عن أن قلاع الإسكندرية ورشيد الرحمانية ودمياط والصالحية وبلبيس كانت معدة لقمع الثورات فى مختلف البلاد ، وقد ساعد على تهدئة الخواطر وقتاً ما فى

---

(١) راجع الفصل السابع عشر من الجزء الأول .

(٢) راجع الفصل الثالث عشر من الجزء الأول .

القاهرة والوجه البحرى أن نابليون ترك مقاليد الأمور لرجلين اشتهرا بالحكمة والدهاء ، أحدهما الجنرال دوجا الذى استخلفه فى إدارة الشئون الحربية فى القاهرة والوجه البحرى . والآخر المسيو بوسليج مدير الشؤون المالية وقد ناط به التدابير الإدارية للحكومة . فهذان الرجلان لم يدخرا وسعاً فى اتباع سياسة الحكمة والمحاسنة إزاء الشعب ومجاملة أعضاء الديوان واحترامهم ورعايتهم مما حببهما إليهم .والمعلوم أن أعضاء الديوان هم كبراء البلاد وزعماء الشعب ولهم من النفوذ الأدبى والدينى على الناس مالا يخفى . وموضعهم فى ذلك موضعهم ، وكان لبوسليج خاصة الفضل الأكبر فى استتباب الهدوء والسكينة فى القاهرة ، فقد اكتسب بأناته ورزانته احترام أعضاء الديوان . فكان له من أنفسهم موقع ، وكان له عليهم نفوذ كبير . واتصل بروابط الود مع المهدى والشرقاوى والسادات[٣] والبكرى والصاوى والقاضى التركى ومحافظ المدينة (الأغا) . وكانوا يلقبونه بالوزير بوسليج ، وهو من جهته لا يألو جهداً فى اكتساب قلوبهم بالمودة والمجاملة والمباسطة . ورعاية الحرُمات . ومبادلتهم الزيارة . ومجالستهم فى أنديتهم واقتباس بعض تقاليدهم وعاداتهم . فقد شوهد مراراً فى منزل السادات جالسًا على الديوان يشرب القهوة على الطريقة المصرية ويدخن الشبك ويطارح جلساءه فنونا من الحديث فى شئون العلم والعمران ونظام الحكومات فى الغرب والشرق . وكانت له مطارحات طويلة مع الشيخ المهدى الذى يعده الفرنسيون أكثر أعضاء الديوان علمًا وفهمًا ومعرفة .

وهكذا اكتسب الديوان نفوذاً كبيراً فى إدارة شئون الحكومة بما كانت ترجع إليه السلطة الفرنسية فى مهات الأمور . فلم يكن يبرم الجنرال دوجا والمسيو بوسليج شأناً من الشئون المتعلقة بإدارة الأمن فى القاهرة أو بكل ما له مساس بالشريعة وإدارة الضرائب أو بالتقاليد والعادات المرعية إلا بعد مفاتحة أعضاء الديوان واستشارتهم فى تلك المسائل ، وكانت تسمع آراؤهم فى معظم الشئون ، وهذه سلطة لم يكن أحد من الحكام الأقدمين على عهد الحكم العثمانى يخولها أية جماعة أو هيئة من علماء البلاد وأعيانها . فالبكوات المماليك كانوا يقضون فى الأمور بسياسة أهوائهم وإرادتهم ، ولم يكن مع أمرهم أمر . ولا مع سلطتهم سلطة .

وكان المسيو بوسليج يتودد كذلك إلى السيد المحروق كبير تجار القاهرة ، وهو أيضًا من أعضاء الديوان . فكان الشيخ المهدى بين زملائه والسيد المحروق بين التجار واسطة التفاهم مع الأهالى . ولا جدال أن هذه الظروف قد جعلت من الديوان أداة لتهدئة الخواطر ، ولكن عامة

(٣) لم يكن السادات عضواً بالديوان ولكن كان له من المكانة مالم يتوافر لأعضائه .

الناس والسواد والأعظم من الأهلين لم تصفُ قلوبهم يوماً للفرنسيين ولم يكن يحول دون انتفاضهم على الحكم الفرنسى سوى القوة الحربية المتسلطة على المدينة ، وقد اتهموا أعضاء الديوان بموالاة الفرنسيين وممالأتهم ، وعزوا مسلكهم معهم إلى ما كان ينالهم من المزايا المادية والأدبية .

وكان الأهالى يتوقعون لنابليون الانكسار فى حملته على سوريا . فلاذوا بالسكينة وتربصوا حتى تتحقق تلك الأمانى ، ولكن انتصارات نابليون الأولى ملأت القلوب بأساً وكان نابليون يفهم نفسية الأمة ويعرف أنها لا تصفو للفرنسيين . فأراد أن يؤثر فيها بالمظاهرات والإعلان عن انتصاراته ليشغلها بالأمر الواقع . فلما تم له احتلال قلعة العريش أرسل كتيبة من الجنود إلى القاهرة تحمل الأعلام التى غنمها فى تلك القلعة وكلف الجنرال دوجا أن يرفعها على منارات الجامع الأزهر كإعلان لانتصار الفرنسيين فى العريش وكتب إليه فى هذا الصدد يقول[٤] :

« إنى أرى أن تقابلوا الشيخ المهدى وأعضاء الديوان فتتفقوا وإياهم على إقامة حفلة صغيرة لاستقبال الأعلام المرسلة إليكم وإذا لم يكن من حرج فضعوها فى الجامع الأزهر إيذاناً بالانتصار الذى حازه جيش مصر على عساكر الجزار وأعداء المصريين » .

بهذه العبارة الرقيقة أراد نابليون أن يجتذب إليه قلوب المصريين وأن يشعرهم السرور بانتصار الفرنسيين ، ولذلك تراه يعبر عن جيشه بأنه « جيش مصر » وأنه انتصر على الجزار وعلى « أعداء المصريين » ، ولا يمكن أن يعبر بأحسن من هذا الأسلوب لمحاولة اكتساب قلوب الشعب ، ولكن هيهات أن ينخدع الشعب عن ذات نفس بذات لسان .

وكان ضمن الأسرى فى قلعة العريش بعض المصريين والمماليك فأمر نابليون بإعادتهم إلى مصر صحبة ضابط فرنسى ، وتسريح المصريين حين وصولهم إلى بلادهم ، وأوصى الجنرال دوجا فى شأن المماليك أن يستقبلهم فى القاهرة ويرجعهم إلى منازلهم ويحسن معاملتهم مع وضعهم تحت رقابة المحافظ والديوان .

وفى أول مارس سنة ١٧٩٩ وصل الضابط الذى أوفده نابليون إلى القاهرة ومعه كوكبة من الجنود يحملون أخبار فتح العريش والأعلام التى غنمها الفرنسيون ومعهم الأسرى المماليك فاستقبلهم فى اليوم التالى الأغا (المحافظ) وبرتلمى الرومى (وكيل المحافظ) وثلة من الشرطة . ودخلوا المدينة من باب النصر ومشوا معهم تتقدمهم الطبول إلى الأزبكية حيث مقر القيادة العامة ودخلوا بالأسرى المماليك على الجنرال دوجا فأطلق سراحهم بعد أن أخذ أسلحتهم وسمح

---

(٤) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٩٨٧ .

لهم بالذهاب إلى بيوتهم ، واحتفل الفرنسيون ذلك اليوم بانتصارهم فى العريش وأطلقوا المدافع من القلعة والأزبكية ابتهاجًا بهذا النصر ، ثم احتفل الجنرال دوجا برفع الأعلام على منارات الأزهر عصر يوم الخميس ٧ مارس (ليلة عيد الفطر) . فاصطفت شراذم الجنود رجالا وركبانا تلقاء باب الجامع ودعوا الشيخ الشرقاوى رئيس الديوان وسلموه الرايات التركية ليرفعها على منارات الأزهر ، فأمر بنصب رايتين على المناراة الكبيرة وراية ثالثة على منارة أخرى . ولما رفعت هذه الرايات أطلق الفرنسيون المدافع من القلعة إظهاراً لسرورهم وأطلقوا المدافع كذلك عند الغروب إيذانًا بعيد الفطر .

واجتمع الديوان صباح هذا اليوم ، وقرئت عليه رسالة الجنرال (برتييه) رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية باستيلاء الفرنسيين على خان يونس وغزة فأصدر الفرنسيون منشوراً بالخبر وأذاعوه على الجمهور .

وانقضى شهر على غياب نابليون والسكينة سائدة فى القاهرة .

قال الجبرتى يصف حالة العاصمة فى خلال هذا الشهر :

« انقضى شهر رمضان(٥) ووقع به قبل ورود هذه الأخبار (أخبار انتصار الجيش الفرنسى) من السكون والطمأنينة وخلو الطرقات من العسكر وعدم مرور المتخلفين منهم إلا فى النادر واختفائهم بالليل جملة كافية وانفتاح الأسواق والدكاكين والذهاب والمجىء وزيارة الإخوان ليلا والمشى على العادة بالفوانيس ودونها واجتماع الناس للسهر فى الدور والقهاوى ووقود المساجد وصلاة التراويح وطواف المسحرين والتسلى بالرواية والنقول وترجى المأمول وانحلال الأسعار فيما عدا المجلوبات من الأقطار وصار الفرنساوية يدعون أعيان الناس والمشايخ والتجار للإفطار والسحور ويعملون لهم الولائم ويقدمون لهم الموائد على نظام المسلمين وعادتهم ويتولى أمر ذلك الطباخون والفراشون من المسلمين تطمينًا لخواطرهم ويذهبون هم أيضًا ويحضرون عندهم الموائد ويأكلون معهم فى وقت الإفطار ويشاهدون ترتيبهم ونظامهم ويحذون حذوهم . ووقع منهم من المسايرة للناس وخفض الجانب ما يتعجب منه والله أعلم » .

وذكر الجبرتى أنه لما كان يوم العيد أطلقت المدافع وركب أكابر الفرنسيس وطافوا على أعيان البلد وهنأوهم بالعيد « وجاملهم الناس بالمدراة أيضاً » .

وجاءت أنباء احتلال الفرنسيين يافا فعقدوا الديوان وقرءوا فيه رسالة الجنرال برتييه .

---

(٥) سنة ١٢١٣ – فبراير سنة ١٧٩٩ .

ونشروا بيانًا على لسان الديوان بتفصيل الرسالة وأذاعوها فى القاهرة فقوبل هذا النبأ بالدهشة لاستيلاء الفرنسيين على يافا بتلك السرعة ، قال الجبرتى فى هذا الصدد : « فلما تحقق الناس هذا الخبر تعجبوا وكانوا يظنون بل يتيقنون استحالة ذلك خصوصًا فى المدة القليلة . ولكن المقضى كائن » .

واحتفل الفرنسيون برفع الرايات العثمانية التى غنمها نابليون فى يافا على باب الجامع الأزهر ليراها الناس ويتيقنوا صحة الخبر . وسادت السكينة وقتاً ما فى أنحاء مصر .

بوادر الثورة

على أن هذا السكون الذى شمل البلاد كان وقتياً . فما لبث أن تزعزعت أركانه فى الأقاليم . وأخذت بوادر التمرد والانتفاض تظهر من حين إلى آخر وتنتقل من ناحية إلى أخرى . فالنفوس كانت متحفزة للثورة وكانت القوة الحربية هى الركن الركين لتوطيد دعائم السكينة فى البلاد . فابتعاد أكثر من نصف الجيش الفرنسى عن مصر وتغيب نابليون الذى كان له من الهيبة مالم يكن لغيره من قواد الجيش الفرنسى . كل ذلك من شأنه أن يحدث مع الزمن تغييرًا فى حالة الشعب النفسية ويغرى النفوس بالجنوح للثورة . وخاصة إذا وقعت حوادث تشعل نار الهياج والاضطراب .

الثورة فى الشرقية (مارس سنة ١٧٩٩) :

بدأ هاتف الثورة يطيف بالنفوس فى أواخر فبراير ، فظهرت بوادرها فى الشرقية ، وكانت مظالم الفرنسيين سبباً فى اشتعال جذوتها ، ذلك أنهم أخذوا يفرضون الإتاوات على البلاد وأخذ جنودهم يخوضون القرى لمصادرة الجمال والحمير والماشية ، فثارت نفوس الأهالى ، ووقعت حوادث ومصادمات فى جهات عدة وخاصة فى بردين والعصلوجى والغار والزنكلون[٦] كادت تفضى إلى ثورة عامة .

---

(٦) بمركز الزقازيق الآن .

واقعة بردين :

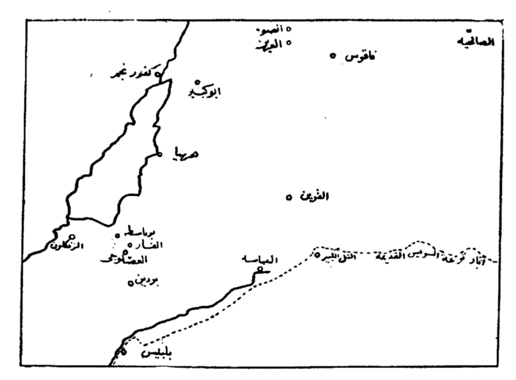
خرجت كتيبة من الجنود من بلبيس (التى كانت فى ذلك الحين عاصمة الشرقية) يوم ٢٨ فبراير سنة ١٧٩٩ ، وأخذت تطوف القرى لمصادرة الجمال والحمير . فلما نزلت تجاه بردين حمل الأهالى السلاح استعداداً لمقاومة النهب . وانضم سكان البلاد المجاورة إليهم . فاجتمع مئات من الناس مسلحين متحفزين للقتال .

فلما أبصرهم الضابط قائد الكتيبة أيقن أن من المخاطرة اقتحام تلك الجموع الثائرة ، وأراد مفاوضة شيخ البلد بالحسنى ، فرفض الأهالى كل مفاوضة واستعدوا للكفاح فعادت الكتيبة أدراجها وأبلغ الضابط الذى يقودها قومندان المديرية بما وقع له . فعزز الكتيبة بقوة أخرى من الجنود ورجعت إلى بردين يوم أول مارس سنة ١٧٩٩ فألفت الأهالى معدّين للقتال كما كانوا أول مرة ، فدعا الضابط شيخ البلد إليه ليتفاهم وإياه فتخلف ولم يذعن ، فذهب أربعة من الجنود إلى باب القرية ، ولم يكادوا يقتربون منها حتى انهال عليهم الرصاص ، وعندئذ بدأ القتال من الجانبين ، وأقبلت جموع الفلاحين المسلحين تقتحم رصاص الفرنسيين ، واستمر الضرب والقتال مدة ساعتين ، وانتهت الواقعة بهزيمة الفرنسيين فولوا الأدبار ، وتعقبهم الأهالى حتى ردّوهم إلى بلبيس ، وقتل من الفرنسيين فى هذه الواقعة خمسة وجرح اثنان فذاع فى بلاد الشرقية خبر الهزيمة . وانسابت روح الثورة إلى القرى دانيةً وبعيدة ، واعتزم الثائرون الزحف على بلبيس للاستيلاء عليها .

ولما بلغت هذه الأنباء إلى الجنرال دوجا فى القاهرة عهد إلى الكولونل ديرانتو Duranteau أن ينتقم من القرى الثائرة وخاصة بردين والزنكلون ، ويمنع اندلاع الثورة إلى البلاد الأخرى ، فانتقل ديرانتو إلى بردين يوم ١٦ مارس ومعه الجند والأسلحة والمدافع ، فدار القتال بين الفريقين ، وانتهى باستيلاء الفرنسيين على بردين ونهبها وإضرام النار فيها وسفك دماء عدد كبير من أهلها[٧] . ورجع ديرانتو إلى بلبيس وانتقل يوم ١٧ مارس إلى (الزنكلون) لينكل بها مثل ما فعل ببردين ، فوجد أهلها قد أخلوها قبل حضوره تفاديًا من أن يحل بهم مثل ما حل ببردين .

كان لواقعة بردين من الشأن ما جعل الجنرال برتييه Berthier رئيس أركان حرب الحملة

(٧) قدرهم الجنرال دوجا فى رسالته إلى نابليون بتاريخ ١٣ يونية سنة ١٧٩٩ بثلثمائة قتيل .



بين بلبيس والصالحية (تخطيط سنة ١٨٠٠)
وفيها مواقع البلاد التى ورد ذكرها بالصفحة ٥٣ وما بعدها



مصطفى بك أمير الحج سنة ١٧٩٨ (انظر ص ٥٦)

الفرنسية يذكرها فى كتابه[٨] ضمن الحوادث الهامة التى وقعت فى مصر أثناء الحملة على سوريا ، فقال : « ثارت قرية (بردين) بمديرية الشرقية فسار إليها الكولونل ديرنتوا وهو ضابط كفء ، على رأس كتيبة من الجنود فأخمد ثورتها وأضرم النار فيها » .

ثورة أمير الحج :

استمرت الاضطرابات بالشرقية إلى أن ظهرت بها ثورة أمير الحج ، وبيان ذلك أن نابليون كما علمت عين فى أوائل عهد الحملة الفرنسية مصطفى بك نائب الوالى التركى القديم أميراً للحج وقربه إليه[٩] وبالغ فى الحفاوة به ليكسب نفوذه الأدبى وينتفع بتأثيره فى الجماهير ، وقد طلب منه قبل ارتحاله عن القاهرة أن يصحبه فى الحملة على سوريا كما طلب ذلك من القاضى التركى وأربعة من أعضاء الديوان وهم الفيومى والصاوى والعريشى والدواخلى ، فأذعنوا له وسار مصطفى بك صحبة القاضى وأعضاء الديوان ليلحقوا بالجيش ، فبلغوا ببلبيس ، وهناك تخلفوا عن السير لأن الفرنسيين احتاجوا إلى جمالهم وأخذوها ، فأقام المشايخ ومصطفى بك بالعرين[١٠] عدة أيام بحجة الزاد والمؤونة ، فأرسل نابليون إلى مصطفى بك من قطية يستحثه على اللحاق به ، فبعث إليه يعتذر بأن جماله فقدت وأن الطريق مخوفة لا أمن فيها ، ولم يلبث أن أعلن تمرده وانتفاضه على السلطة الفرنسية . وكاشف زملاءه أعضاء الديوان والقاضى التركى بعزمه على شق العصا وإعلان الخروج على الفرنسيين . وطلب منهم أن يؤيدوه فى دعوته ، لكنهم خافوا العاقبة وحسبوا حساباً لانتقام الفرنسيين منهم كما انتقموا من زعماء ثورة القاهرة فلم يوافقوه على دعوته ، وشذ منهم الشيخ سليمان الفيومى فإنه أقر أمير الحج على رأيه وكذلك القاضى التركى ، ولما رأى أمير الحج ثلاثة من أعضاء الديوان أنكروا عليه تظاهر بالتسليم وفى الوقت نفسه أخذ يعد العدة لنشر الدعوة إلى الثورة فى أنحاء البلاد ، فبدلا من أن يتابع سيره إلى قطية حيث كان ينتظره نابليون عاد إلى داخلية البلاد فسار من العرين إلى كفور نجم[١١] يصحبه القاضى التركى والشيخ الفيومى . وأما أعضاء الديوان الثلاثة الدواخلى

---

(٨) ذكر حروب الجنرال بونابرت فى مصر وسوريا .

(٩) ص ٢٧٠ الجزء الأول (الطبعة الأولى) .

(١٠) بمركز فاقوس بين أبو كبير وفاقوس .

(١١) بمركز كفر صقر على بحر مويس .

والصاوى والعريشى فقد انفصلوا عنه وذهبوا إلى القرين (بالقاف)[١٢] ورجع الشيخ محمد الدواخلى إلى القاهرة مريضًا .

رواية الجبرتى :

ذكر الجبرتى هذه الواقعة فى حوادث شوال سنة ١٢١٣ فقال :

« قدم الشيخ محمد الدواخلى من ناحية القرين متمرضا وكان بصحبته الصاوى والفيومى (صح العريشى) متخلفين بالقرين وسبب تخلفهم أن كبير الفرنسيس لما ارتحل من الصالحية أرسل إلى كتخدا الباشا (مصطفى بك) والقاضى والجماعة الذين بصحبتهم يأمرهم بالحضور إلى الصالحية لأنهم كانوا يباعدون عنه مرحلة ، فلما أرادوا ذلك بلغهم وقوف العرب بالطريق فخافوا من المرور فذهبوا إلى العرين فأقاموا هناك وأخذ عسكر الفرنسيس جمالهم فأقاموا بمكانهم . فقلق هؤلاء الثلاثة وخافوا سوء العاقبة ففارقوهم وذهبوا للقرين وتخلف عنهم الفيومى فأقام مع كتخدا الباشا والقاضى فحصل للدواخلى توعك فحضر إلى مصر وبقى رفيقاه فى حيرة » .

امتداد الثورة

علم المسيو بوسليج بما حدث من أمير الحج ، فالتقى بالجنرال دوجا وتداولا معًا فى اتخاذ الأسباب السريعة لقمع الثورة قبل أن يستفحل أمرها فأرسل إلى أمير الحج وإلى الشيخ سليمان الفيومى يستوضحها الحقيقة ويطلب منهما بيان الأسباب التى دعتهما إلى التخلف عن اللحاق بالقائد العام ، فرد أمير الحج على رسالة بوسليج منكراً ما نسب إليه .

ولكنه فى الوقت نفسه أخذ يدعو إلى الثورة فى الجهات التى مر بها فانضوى الأهالى تحت علم الثورة وعلى رأسهم مشايخ البلاد (العمد) .

بدأت فكرة الثورة فى الشرقية ، وانتقلت إلى الدقهلية من بلد إلى بلد وانضمت الجموع من الأهالى إلى أمير الحج فسار من كفور نجم ومعه الآلاف الحاشدة من الناس ومضى قاصدًا إلى دقادوس وميت غمر وكان عدد رجاله يزداد بمن ينضم إليهم فى الطريق من المتطوعين فوصل

---

(١٢) بالقرب من التل الكبير بمركز الزقازيق الآن .

يوم ٢٥ مارس سنة ١٧٩٩ تجاه ميت غمر . وكانت فكرة الثورة قد اختمرت فى الأذهان ولم يكن إلا أن تسنح لها الفرصة فتظهر بشكل فعلى وقد سنحت الفرصة بمرور بعض المراكب الفرنسية فى النيل تحرسها سفينة حربية ، كانت هذه المراكب قادمة من القاهرة تحمل الذخائر والأقوات والمدافع لإمداد الجيش الفرنسى فى سوريا بطريق دمياط فهجم أهالى ميت غمر والبلاد المجاورة على المراكب واستولوا عليها وقتلوا من فيها من الفرنسيين وأخذوا ما بها من الذخائر والمدافع ، وارتدت السفينة الحربية التى كانت تحرسها إلى القاهرة بعد أن عجزت عن رد الثائرين وجرح قبطانها وعدة من رجالها جروحًا بليغة .

رواية الجبرتى :

نقلنا هذه الواقعة عن المراجع الفرنسية ، وإليك ما ذكره الجبرتى فى حوادث شوال سنة ١٢١٣ عن ثورة أمير الحج : « اجتمعوا بالديوان وتقاضوا فى شأن مصطفى بك كتخدا الباشا المولى أمير الحج . وهو أنه لما ارتحل مع سارى عسكر وصحبته القاضى والمشايخ الذين عينوا للسفر والوجاقلية والتجار وافترق منهم عند بلبيس وتقدم هو إلى الصالحية ثم إنهم انتقلوا إلى العرين فحضر جماعة من العساكر المسافرين فاحتاجوا إلى الجمال فأخذوا جمالهم فلما وصل سارى عسكر إلى قطية أرسل يستدعيهم إلى الحضور فلم يجدوا ما يحملون عليه متاعهم وبلغهم أن الطريق مخيفة من العرب . فلم يمكنهم اللحاق به فأقاموا بالعرين (بالعين المهملة) عدة أيام وأهمل أمرهم سارى عسكر ، ثم إن الشيخ الصاوى والعريشى والدواخلى وأخرين خافوا عاقبة الأمر ففارقوهم وذهبوا إلى القرين (بالقاف) وحصل للدواخلى توعك وتشويش فحضر إلى مصر كما تقدم ذكر ذلك وانتقل مصطفى بك المذكور والقاضى وصحبتهم الشيخ الفيومى وآخرون من التجار والوجاقلية إلى كفور نجم وأقاموا هناك أيامًا واتفق أن الصاوى أرسل إلى داره مكتوبًا وذكر فى ضمنه أن سبب افتراقهم من الجماعة أنهم رأوا من كتخدا الباشا أمورًا غير لائقة فلما حضر ذلك المكتوب طلبه الفرنساوية المقيمون بمصر وقرأوه وبحثوا عن الأمور الغير لائقة فأولها بعض المشايخ أنه قصر فى حقهم والاعتناء بشأنهم فسكتوا وأخذوا فى التفحص فظهرت لهم خيانته ومخامرته عليهم ، واجتمع عليه الجبالى وبعض العرب العصاة وأكرمهم وخلع عليهم ، وانتقل بصحبتهم إلى منية غمر ودقدوس وبلاد الوقف وجعل يقبض منهم الأموال ، وحين كانوا على البحر (النيل) مرت بهم مراكب تحمل الميرة والدقيق إلى الفرنسيس

بدمياط ، فقاطعوا عليهم وأخذوا منهم ما معهم قهراً ، وأحضروا المراكبية بالديوان فحكوا ما وقع لهم معه ، فأثبتوا خيانة مصطفى بك المذكور وعصيانه وأرسلوا هجاناً بإعلام سارى عسكرهم (نابليون) بذلك . فرجع إليهم بالجواب يأمرهم فيه بأن يرسلوا له عسكراً ويرسلوا إلى داره جماعة يقبضون عليه ويختمون على داره ويحبسون جماعته » .

خطورة الثورة

كان لهذه الثورة خطرها ، فقد ظهرت أول شرارة لها فى الشرقية ، وامتد لهيبها إلى وسط الدلتا بين بلاد آهلة ، بحيث كان من المحتمل أن يتسع مداها وتنقلب إلى حركة عامة تهدد الجيش الفرنسى فى وقت انهماك نابليون فى الحملة على سوريا ، وكانت الشرقية مجردة فى ذلك الحين من القوات الحربية الكافية ، لأن فرقة الجنرال (رينييه) التى كانت تحتلها من قبل دخلت فى الفرق التى ساقها نابليون فى حملته على سوريا ولم يترك منها سوى فصيلة من الجنود بقيادة الضابط جوفروا Geoffroy [١٣] وسوى الفصيلة الأخرى التى أوفدها الجنرال دوجا بقيادة ديرانتو لقمع ثورة بردين والزنكلون ، فلم يكن فى الاستطاعة أن تقمع الثورة بهذا العدد الضئيل من الجنود .

عزل أمير الحج :

أدرك الجنرال دوجا والمسيو بوسليج أن الحالة خطيرة وأن الثورة التى شبت فى الشرقية قد تجر إلى عواقب لا يستهان بها ، فاستخدما لمكافحتها كل ما أوتيا من مهارة وحزم ، وارتأى بوسليج أن يستعين بالديوان لتجريد مصطفى بك من إمارة الحج حتى تسقط منزلته التى كانت له فى النفوس من توليه إمارة الحج ونقل كسوة الكعبة الشريفة ، وكانت هذه الكسوة لا تزال فى مصر لدى وكيل مصطفى بك .

فاوض المسيو بوسليج فى هذا الشأن الشيخ محمد المهدى سكرتير الديوان وصاحب النفوذ الأكبر بين أعضائه ، وعرض أمر عصيان مصطفى بك على الديوان ، فلم يستطع الديوان أمام

---

(١٣) هو ضابط من ضباط فرقة الهندسة وأخو جوفروا سان هيلير العالم الطبيعى الشهير أحد أعضاء المجمع العلمى ، وقد مات فى معركة استرلتز سنة ١٨٠٥ وأسف عليه نابليون أسفاً كبيراً .

البينات التى قدمها الفرنسيون سوى تجريده من إمارة الحج ، وفى الوقت نفسه ألقى الأغا (محافظ المدينة) القبض على وكيل مصطفى بك الذى كان ناظراً للكسوة وعلى ابن أخيه وباقى أتباعه وسجنوا بالجيزة ، وتمت كل هذه الأحداث فى يوم ٣٠ مارس سنة ١٧٩٩ ، وأعلن فى اليوم التالى عزل مصطفى بك على أن تستمر مراسم الحج كما كانت .

رواية الجبرتى :

يقول الجبرتى فى هذا الصدد :

« وفى يوم الأحد الرابع والعشرين من شهر شوال عينوا عسكرًا وأرسلوا إلى داره (دار مصطفى بك) جماعة ومعهم وكلاء فقبضوا على كتخدائه (نائبه) الذى كان ناظراً على الكسوة وعلى ابن أخيه ومن معهم وأودعوهم السجن بالجيزة . وضبطوا موجوداته وما تركه مخدومه بكر باشا (الوالى التركى) بقائمة وأودعوا ذلك بالقلعة فوجدوا غالب أمتعة الباشا وبرقه وملابسه وعبى الخيل والسروج وغيرها شيئاً كثيراً ، ووجدوا بعض خيول وجمال أخذوها أيضًا ، فانقبضت خواطر الناس لذلك ، فإنهم كانوا مستأنسين بوجوده ووجود القاضى يتوسلون بشفاعتهما عند الفرنسيس وكلمتهما عندهم مقبولة وأوامرهما مسموعة ، ثم إنهم أرسلوا أماناً للمشايخ (أعضاء الديوان الذين تخلفوا فى القرين) والوجاقلية والتجار بالحضور إلى مصر مكرمين ولا بأس عليهم » ، وقال فى موضع آخر إنهم بعد أن سجنوا وكيل مصطفى بك الذى كان ناظرًا على الكسوة عهدوا بإتمامها إلى السيد إسماعيل الوهبى المعروف بالخشاب (أحد العدول بالمحكمة » ، فنقلها لبيت أيوب جاويش بجوار جامع السيدة زينب وتمموها هناك ، وقال فى ختام كلامه عن حوادث سنة ١٢١٣ [١٤] : « وانقضت هذه السنة وما حصل بها من الحوادث التى لم يتفق مثلها ومن أعظمها انقطاع سفر الحج من مصر ولم يرسلوا الكسوة ولا الصرة وهذا لم يقع نظيره فى هذه القرون ولا فى دولة بنى عثمان والأمر لله وحده » .

---

(١٤) توافق سنة ١٧٩٨ – ١٧٩٩ ميلادية .

إخماد الثورة

فلما نجح الجنرال دوجا والمسيو بوسليج فى تجريد مصطفى بك من إمارة الحج أخذ دوجا يعد المعدات الحربية لقمع الثورة ، فكلف الجنرال لانوس Lanausse قومندان المنوفية بالمسير إلى الشرقية التى كانت منبع الهياج ، فقصد إليها على رأس قوة مؤلفة من ستمائة جندى وتعقب مصطفى بك ، وعاونه فى مهمته الكولونل ديرانتو والجنرال فوجيير Fugieres الذى كان مرابطاً بجنوده فى سمنود ، وأخذوا يطاردون مصطفى بك فى مختلف البلاد ، فلما آنس أنه لا قبل له على مقاومتهم زاغ من طريقهم وأخذ يفر من بلد إلى آخر حتى أفضى إلى الجهات الصحراوية بالشرقية ، فغاب فيها ولم يعلم الفرنسيون مقره ، ولم يلبث أن تشتت أنصاره وسقط نفوذه .

قال الجبرتى فى هذا الصدد إن مصطفى بك « لم تعلم عنه حقيقة حال ، قيل إنه ذهب إلى الشام » ، ويقول نيقولا الترك فى كتابه[١٥] إنه لجأ إلى الجزار فرابه أمره وأمر بقتله .

على أن الثورة قد تجددت فى أواخر شهر مايو سنة ١٧٩٩ فى القليوبية ومنطقة ميت غمر والبلاد المجاورة لها ، فاحتشد بها عدد كبير من الثوار وانضم اليهم جماعة من المماليك وهجموا يوم ٣٠ مايو على سفينة حربية فرنسية قادمة بالنيل من سمنود فاستولوا عليها وغنموا أربعة مدافع كانت بها وقتلوا نوتيتها وخمسة من جنودها وجرحوا منهم اثنين .

معركة كفور نجم (٥ يونية سنة ١٧٩٩) :

تعطلت الملاحة فى النيل تجاه ميت غمر ، فسارع الجنرال لانوس من منوف إلى ميت غمر لإخماد الثورة ، فانسحب الثوار منها قاصدين إلى كفور نجم ، فتعقبهم بجنوده ودارت معركة شديدة يوم ٥ يونية سنة ١٧٩٩ بين الفريقين بالقرب من كفور نجم على شاطئ بحر مويس انتهت بهزيمة الثوار وخسروا عدداً من القتلى قدرهم الجنرال لانوس بمائة وثلاثين قتيلا[١٦] .

ولما عاد نابليون من الحملة على سوريا أمر بإقامة قلعة فى ميت غمر وأخرى فى المنصورة

(١٥) ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية .

(١٦) رسالة الجنرال لانوس إلى الجنرال دوجا من المجارسة بتاريخ ٦ يونية سنة ١٧٩٩ .

لحماية الملاحة فى النيل وقمع الثورات فى جهات البلدين[١٧] ويقول الجنرال (رينييه) فى كتابه[١٨] إنه قد أقيم فعلا بالمنصورة وميت غمر ومنوف حصون لحماية الملاحة وقمع الثورات .

أخذ الجنرال لانوس يتنقل لإخماد الثورة ، ولما وصل إلى ميت غمر أراد أن يقتص منها انتقامًا لما حل بالفرنسيين والسفن الفرنسية تجاهها ، فأمر بإحراقها وتدميرها «حتى لم يبق فيها حجر على حجر» كما يقول ريبو[١٩] ، ثم سار فى البلاد لقمع الهياج وإرهاب الأهالى ، على أنه لم يلبث أن علم بأن الثورة انتقلت إلى غرب الدلتا فى مديرية البحيرة ، فاضطر أن يسوق جنوده إليها تاركًا بالشرقية كتيبة منها بقيادة الكولونل ديرانتو.

الثورة فى غرب الدلتا

كانت الأقاليم الواقعة غرب الدلتا (الإسكندرية ورشيد والبحيرة) مسرحًا للقلاقل والثورات ، فاستهدفت سلطة الفرنسيين فيها للهجمات الخارجية والاضطرابات الداخلية .

أخذ الأسطول الإنجليزى من أوائل فبراير سنة ١٧٩٩ يطلق قنابله على مواقع الفرنسيين فى الإسكندرية ورشيد ، واستمرت السفن الإنجليزية عدة أيام تضرب قلاع الإسكندرية ومواقع الفرنسيين فى رأس التين والميناء الشرقية وما جاورها ، وخفت وطأة الضرب فى أواخر شهر فبراير ولم ينقطع إلا فى أوائل مارس إذ أقلعت السفن الإنجليزية إلى مياه سوريا لمقاومة الحملة الفرنسية هناك .

وكذلك ظهرت السفن الإنجليزية قريبًا من بوغاز رشيد وأطلقت قنابلها على البوغاز والجهات القريبة منه ، فكان لهذه الحوادث تأثير فى نفوس الأهالى حفزهم إلى الهياج ، وظهرت أعراض الثورة فى الإسكندرية ورشيد والبلاد المجاورة لها .

كتب الجنرال (منو) Menou من رشيد إلى نابليون بتاريخ ٧ فبراير سنة ١٧٩٩ يقول : «إن ظهور السفن الإنجليزية قد أحدث شيئاً من الهياج بين الشعب ، واستفاضت الإشاعات بقرب قدوم الأتراك» . وكتب إليه فى رسالة أخرى بتاريخ ١٥ فبراير يقول : «قد بدأنا نشعر باختمار

(١٧) رسالة نابليون إلى الجنرال يانسون بتاريخ ٢٢ يونية سنة ١٧٩٩ .

(١٨) مصر بعد واقعة عين شمس .

(١٩) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الخامس .

فكرة الثورة فى البلاد المجاورة لرشيد ، وأخذ أهالى بعض القرى الثائرة يتهددون الملاحة فى النيل ، وقد هاجموا سفينة تحمل البريد فاضطرت أن تعود أدراجها ولابد لنا أن نحميها بسفينة حربية لتستأنف سيرها » .

واشتد الهياج فى منطقة رشيد وما حولها فى شهر مارس ، ذلك أن الجنرال (مارمون) قومندان الإسكندرية فرض سلفة إجبارية على مديرية رشيد موزعة على بلادها وقراها وكفورها ، فدفعت مدينة رشيد قسطها فى السلفة ، ودفعت (فوة) ثلثى المفروض عليها ، وامتنعت باقى البلاد عن الدفع ، فجرد الكولونل جوليان[٢٠] Julien عليها حملة عسكرية مسلحة بالمدافع لإجبارها على دفع ما خصها فى الأتاوة ، وعمت الثورة جهات (برنبال) و (مطوبس) وكفر (شباس عمير) و (القنى) و (السعده)[٢١] وغيرها ، فسارت الحملة من رشيد وأخذت تجوب بلاد هذه المديرية لإخماد الاضطرابات وتحصيل الإتاوات ، وشباس عمير هى التى قاومت الجنرال (منو) فى أوائل عهد الاحتلال الفرنسى[٢٢] ، وكانت معقلا للثورة وملجأ للثوار من القرى المجاورة وموقعها على جانب من المناعة وخاصة بعد أن رمم أهلها السور المحيط بها وأصلحوا الأبراج التى تتخلله ، فلم تستطع الحملة أن تستولى عليها وطلبت المدد من رشيد ، فأنجدها الكولونل جوليان بفصيلة من الجنود وعادت القوة إلى قتالها وضربتها بالمدافع ، فهدمت البلدة عن آخرها وجلا أهلها عنها ، وانتقلت القوة الفرنسية إلى بلدة السعدة فضربتها بالمدافع وتخرب جزء منها وأخلاها أهلها ونجوا بمتاعهم ومواشيهم ، وكذلك أخلى أهل برنبال بلدتهم وأقفرت من السكان .

الثورة فى البحيرة

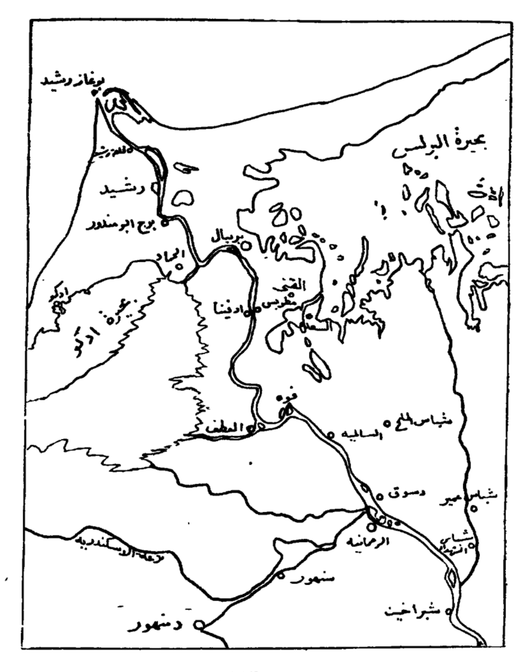
فى أواخر شهر أبريل سنة ١٧٩٩ شبت فى البحيرة ثورة أوسع مدى وأعظم خطرًا من ثورة الشرقية ، ذلك أنه ظهر فيها رجل جاء من (درنه)[٢٣] أدعى المهدية ودعا الناس إلى قتال

(٢٠) عين حاكما لرشيد أثناء الحملة على سوريا بدلا من الجنرال منو الذى عينه نابليون قومنداناً لفلسطين لكنه لم يذهب لسوريا كما سيجيء بيانه بالفصل الحادى عشر.

(٢١) هذه البلاد هى الآن فى مديرية الغربية وكانت فى ذلك الحين من أعمال مديرية رشيد وتقع (القنى) شرق مطوبس و (السعده) جنوبى القنى بشرق . انظر الخريطة ص ٦٤ .

(٢٢) انظر الجزء الأول ص ٢٥٠ (من الطبعة الأولى) .

(٢٣) بطرابلس الغرب .



بين رشيد وشبراخيت (تخطيط سنة ١٨٠٠)

الفرنسيين ، فأقبلوا عليه أفواجًا ، وضم إليه رجال القبائل من أولاد على والهنادى وغيرهم ، وإنحاز إليه سكان القرى التى مر بها ، فسار بهذه الجموع المسلحة حتى وصل إلى دمنهور ليلة ٢٤—٢٥ أبريل ، وكان بها حامية من الجنود الفرنسيين تحت قيادة الضابط مارتان Martin فأمر المهدى رجاله بالهجوم على هذه الحامية فهجموا عليها وقتلوا رجالها جميعًا .

أشار الجبرتى إلى هذه الحادثة بقوله : « ومن حوادث شهر (ذى القعدة سنة ١٢١٣—

أبريل سنة ١٧٩٩) أن طائفة من عرب البحيرة يقال لهم عرب الغز جاءوا وضربوا دمنهور وقتلوا عدة من الفرنسيس وعاثوا فى نواحى تلك البلاد حتى وصلوا إلى الرحمانية ورشيد ، وهم يقتلون من يجدونهم من الفرنسيس وغيرهم » .

كان لانتصار المهدى تأثير كبير فى مديرية البحيرة فهرع إليه الناس من كل صوب وزاد عدد أتباعه وقوى اعتقاد الناس فى قوته وخوارقه ، وسار برجاله قاصداً إلى النيل ليعبره إلى مديرية الغربية .

وكان بالبحيرة فى ذلك الحين كتيبة طوافة من الجنود بقيادة الكولونل لفيفر Lefebvre تطوف بالبلاد لجباية الأموال ، فوصلت إلى دمنهور بعد قتل الحامية الفرنسية ورحيل المهدى ، ورأت من المخاطرة أن تتعقبه ، فأسرعت إلى الرحمانية وامتنعت بالحصن الذى أقامه الفرنسيون فى نقطة تفرع ترعة الإسكندرية[٢٤] من النيل ، وانتظرت وصول المدد لتهاجم المهدى ، ولما علم الجنرال (مارمون) قومندان الإسكندرية بنبأ الكارثة التى حلت بالحامية الفرنسية بدمنهور أنفذ قوة من الجنود مزودة بالمدافع بقيادة الضابط ريدون Redon لتتعقب جيش المهدى وتتصل بكتيبة الضابط لفيفر بالرحمانية .

سارت القوة من الإسكندرية يوم ٢٧ أبريل ، والتقت برجال المهدى غير بعيد عن دمنهور قبل أن تصل إلى الرحمانية ، ودار قتال شديد بين الفريقين دام خمس ساعات انتهى بانسحاب ريدون إلى الإسكندرية ، فعهد الجنرال مارمون إلى الكولونل جوليان فى إنجاد الرحمانية بما لديه من الجنود والمدافع فأرسل المدد واستبقى فى رشيد العدد الكافى لإخضاع المدينة .

معركة سنهور (٣ مايو سنة ١٧٩٩) :

وصل المدد إلى الرحمانية وانضم إلى الجنود الذين بها ، وسارت القوات الفرنسية مجتمعة ، فالتقت برجال المهدى يوم ٣ مايو بسنهور البحيرة على مقربة من دمنهور ، ودارت معركة من أشد المعارك هولا ، قال ريبو[٢٥] فى وصفها إن عدد رجال المهدى كانوا خمسة عشر ألف مقاتل من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان ، وإن القتال استمر سبع ساعات كان فيها أشبه

---

(٢٤) ترعة المحمودية الآن . انظر ما كتبناه عنها بالجزء الأول ص ١٧٠ (من الطبعة الأولى) .

(٢٥) *التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الخامس .*

بمجزرة فظيعة ، وهذه الواقعة من أشد الوقائع التى واجهها الفرنسيون فى القطر المصرى ، أظهر فيها اتباع المهدى من الفلاحين والعرب شجاعة كبيرة واستخفافًا بالموت لا نظير له ، وبذل الكولونل لفيفر أقصى ما أنتجه العلم والفن فى القتال ، فجعل جيشه على شكل مربع على الطريقة التى ابتكرها نابليون وهجم على الجموع المقاتلة عشرين مرة ، فكان يحصد صفوفهم حصدًا بنيران البنادق والمدافع ، وكان اتباع المهدى قد غنموا فى دمنهور مدفعًا فرنسيًا فاستخدموه فى المعركة وركبوه على مركبة تجرها الثيران وأخذوا يطلقون منه النار على الفرنسيين ، واستمر القتال حتى جنّ الليل ، وكان الجنود الفرنسيون قد خارت قواهم من القتال ، ففكر لفيفر فى الانسحاب من الميدان والاتجاه إلى الرحمانية ، ولكن جموع المهدى لكثرة عددها كانت تسد الطريق أمامه ، فأمر رجاله أن يضموا صفوفهم ويخترقوا الجموع التى طوقتهم وركّب المدافع على رؤوس المربع لاقتحام هذه الجموع ، وانسحبوا من ميدان القتال بعد أن فدحتهم الخسائر ، ويقول « ريبو » إن الفرنسيين خسروا فى هذه المعركة ستين قتيلا بينما يقدر خسائر المصريين بألفى قتيل منهم إبراهيم الشوربجى وعبد الله باشى من مشايخ دمنهور ومراد عبد الله شيخ قبيلة الهنادى ، وبالرغم من هذه الخسارة فإن المعركة انتهت بفوز المهدى وارتداد الفرنسيين إلى الرحمانية .

وقد أغراه هذه الفوز الجديد بمواصلة القتال وضم إليه أنصارًا وأتباعًا آخرين سدوا الفراغ الذى أحدثته معركة سنهور ، فسار بجموعه قاصداً الرحمانية ، لكنه اضطر للارتداد عنها أمام مناعة موقع الفرنسيين فيها وعاد إلى دمنهور التى اتخذها معسكره العام .

احتلال الفرنسيين دمنهور :

وفى غضون ذلك عهد الجنرال دوجا إلى الجنرال لانوس Lanausse الذى كان يحارب أمير الحج أن يتجه بقواته إلى البحيرة لإخماد ثورة المهدى التى استفحل شأنها ، فغادر ميت غمر يوم ٥ مايو سنة ١٧٩٩ وقصد إلى البحيرة ، وفى طريقه إليها ضم جنود الجنرال فوجيير Fugiéres الذى كان يرابط فى الغربية ولما وصل إلى الرحمانية سار بقواته جميعها صوب دمنهور ، فهزم رجال المهدى ودخل دمنهور فاتحًا ، فأعمل فيها السيف والنار ودمرها جنوده تدميرًا وحشيًا وأبادوا من وجدوه فيها من السكان الآمنين .

قال ريبو يصف هذه الفظائع : « بعد أن احتل الجنود دمنهور قتلوا من صادفوه من رجال

المهدى جميعًا ، ولما كان أهل دمنهور هم أول من اتبع المهدى من سكان البحيرة فقد أراد الفرنسيون أن يطبعوا هذه المدينة لطابع الغضب والانتقام فأحرقوا مساكنها بالنار ، وقتلوا كل من وجدوه من الشيوخ والنساء والأطفال بحد السيف وفى اليوم التالى كانت دمنهور ركامًا من الأحجار السوداء اختلطت بها أشلاء الجثث ودماء القتلى»[٢٦] .

وذكر الجنرال (لانوس) فى رسالة بعث بها من الرحمانية إلى الجنرال دوجا شيئًا من الفظائع التى أمر بارتكابها فى دمنهور قال : «كانت مدينة دمنهور وأهلها هدفًا لانتقام الجنود ، فقد قتلوا من الأهالى نحو ٢٠٠ أو ثلثمائة ، وبعد ذلك أمرّت بتسليم المدينة لفظائع النهب وسفك الدماء ، والآن لم يعد لدمنهور وجود ، وقد قتل من أهلها نحو ١٢٠٠ أو ١٥٠٠ ماتوا قتلا أو حرقًا» .

وقال الضابط (لفيفر) فى رسالة له إلى الجنرال دوجا فى ١٠ مايو : «لقد حاصرنا دمنهور وأحرقناها ونهبناها واستولىٰ جنودنا فيها على غنائم وأسلاب عظيمة» .

ويقول الجبرتى فى هذا الصدد فى حوادث شهر ذى الحجة سنة ١٢١٣ : تجمع الكثير من الفرنسيس وذهبوا إلى جهة دمنهور وفعلوا بها ما فعلوا فى بنى عدى[٢٧] من القتل والنهب لكونهم عصوا عليهم بسبب أنه ورد عليهم رجل مغربى يدعى المهدوية ويدعو الناس ويحرضهم على الجهاد وصحبته نحو الثمانين نفرًا فكان يكاتب أهل البلاد ويدعوهم إلى الجهاد ، فاجتمع عليه أهل البحيرة وغيرهم وحضروا إلى دمنهور وقاتلوا من بها من الفرنسيين ، واستمر أيامًا كثيرة تجتمع عليه أهالى تلك النواحى وتفترق والمغربى المذكور تارة يغرب وتارة يشرق» .

تعقب الجنرال لانوس فلول المهدى ولحق بهم فى حدود مديرية البحيرة واختلفت الروايات فى خاتمة المهدى ، فقال بعضهم إنه قتل فى هذا اليوم ، وقال البعض إنه ظهر بعد ذلك فى ثورة القاهرة الثانية ، ويؤيد نابليون فى مذكراته الرواية الأولى ويقول إن جثة المهدى وجدت بين القتلى فى دمنهور .

لكن الجنرال رينييه Reynier أحدقوا الحملة الفرنسية يقول فى كتابه إن المهدى المذكور ويسميه (مولاى محمد) ظهر فى ثورة القاهرة الثانية وكان يحرض الناس على القتال وإنه لحق بجيش الصدر الأعظم بعد إخماد الثورة ثم عاد إلى مصر فى أواخر سنة ١٨٠٠ عند اقتراب

---

(٢٦) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الخامس .

(٢٧) انظر ما كتبناه عن ثورة بنى عدى بالجزء الأول ص ٤٢٠ (من الطبعة الأولى) .

الحملة العثمانية الإنجليزية على مصر لإثارة الأفكار فيها ، وإن الجنود الفرنسية طاردته فى الدلتا فهرب إلى الصعيد ، وقد أشار الجبرتى فى حوادث ثورة القاهرة الثانية إلى أمر هذا المهدى وذكر أنه «يقال إنه الذى كان يحارب الفرنسيس بجهة البحيرة سابقًا» ، فرواية الجبرتى توافق رواية رينييه فى مجموعها ، ونميل كثيرًا إلى ترجيح رواية رينييه والجبرتى لأنهما شهدا ثورة القاهرة الثانية ، أما نابليون فقد غادر مصر فى شهر أغسطس سنة ١٧٩٩ أى قبل وقوع هذه الثورة بعدة أشهر ، ومهما يكن من مصير المهدى فإن ثورته قد أخمدت وتفرق أتباعه فى القرى والبلاد وتحولت الثورة العامة إلى اضطرابات محلية قليلة الأهمية ، وتخلص الفرنسيون من خطر كبير كان يتهدد سلطتهم فإن انتصارات المهدى الأولى أحدثت فى النفوس تأثيرًا كبيرًا وانتشرت أنباؤها مبالغًا فيها وذاعت فى أنحاء البلاد من الوجه البحرى إلى الوجه القبلى ، وكان رؤساء المماليك مراد بك وحسن بك الجداوى وعثمان بك الطنبورجى وصالح بك لما علموا باحتلال المهدى دمنهور قد عزموا على اللحاق به وغادروا الواحة التى كانوا لاجئين إليها قاصدين إلى دمنهور ، فلما علموا ما حل به من الهزيمة عادوا إدراجهم وانكمشوا فى الوجه القبلى .

* * *

الفصل الرابع

سياسة نابليون فى مصر بعد عودته من سوريا

عاد نابليون إلى مصر بعد إخفاق الحملة على سوريا ، وأراد أن يستر هزيمته بدخوله القاهرة دخول الظافر المنتصر ليؤثر فى نفسية الشعب ويُشعره قوته ، ولكن هيهات أن يكون الوهم إلا وهمًا ، فإن الحقائق لا تلبث مع الزمن أن تنكشف وتتغلب على الأوهام والأباطيل .

أحاط نابليون دخوله بمظاهر النصر والظفر ، ففى ١٢ يونية سنة ١٧٩٩ بدأت طلائع الجيش الفرنسى تدخل المدينة ومعها جماعة من الأسرى الأتراك ذوى المكانة وعدة من الرايات التى غنمها الفرنسيون أثناء الحملة ، فاستقبلها على حدود القاهرة الجنرال دوجا والجنرال دستنج والمسيو بوسليج والأغا (المحافظ) وأعضاء الديوان وشقوا المدينة فى موكب مهيب إلى ميدان الأزبكية ومنه إلى القلعة ليشاهد الجماهير الأسرى الأتراك والرايات العثمانية كدليل على الفوز الفرنسيين ، قال الجبرتى فى هذا الصدد فى حوادث شهر محرم سنة ١٢١٤[1] : « وفى يوم الثلاثاء حضر جماعة من العسكر بأثقالهم وحضرت مكاتبة من كبير الفرنساوية (نابليون) أنه وصل إلى الصالحية ، وأرسل دوجا الوكيل ونبه على الناس بالخروج لملاقاته بموجب ورقة حضرت من عنده يأمر بذلك » .

وكان يوم الجمعة ١٤ يونية (١٠ محرم سنة ١٢١٤) موعد دخول نابليون فى جيشه إلى القاهرة ، فأعدت السلطة الفرنسية لاستقباله احتفالا كبيرًا دعت إليه أعضاء الديوان والأعيان والوجاقلية وغيرهم . ففى صباح هذا اليوم قرعت طبول الحرب فى أحياء المدينة وحضر قواد الجيش وكبار موظفى الحكومة وأعضاء الديوان وأعيان القاهرة إلى ميدان الأزبكية بدار القيادة العامة ، ومن هناك ساروا وعلى رأس هذا الجمع الجنرال دوجا والجنرال دستنج والمسيو بوسليج إلى (القبة) لاستقبال نابليون خارج المدينة والدخول فى موكبه الحافل ، فقابل جماعة المهنئين

---

(١) يونية سنة ١٧٩٩ .

وأهداه الشيخ خليل البكرى جواداً مطهما يقوده المملوك رستم الذى اصطفاه نابليون واستصحبه من بعدُ فى رحيله إلى فرنسا وصار خادمه الأمين ولازمه فى عهد القنصلية والإمبراطورية ، وأهداه المعلم جرجس الجوهرى كبير المباشرين هجينين جميلين عليهما سرجان بديعان ، وبعد تلقى التهانى دخل القاهرة من (باب النصر) يتبعه الجيش بنظام عسكرى مهيب ، فاخترق الموكب شوارع المدينة حتى وصل إلى ميدان الأزبكية بين قصف المدافع وقرع الطبول ، وكأنما أراد نابليون بهذه المظاهر العسكرية أن يثبت لسكان القاهرة كذب الإشاعات التى ذاعت عن القضاء على الجيش الفرنسى وموت نابليون نفسه فى سوريا وأن يبرهن لهم أن الجيش مازال فى قوته وعنفوانه .

روى الجبرتى أن الموكب استمر خمس ساعات متوالية يسير فى شوارع القاهرة إلى أن وصل إلى القيادة العامة فى الأزبكية .

ويقول المسيو جومار Jomard[٢] إنه شهد هذا الموكب « ورأى مرور الجنود متواصلا طول النهار لأن نابليون أمر بأن تدخل الجنود المدينة من باب وتخرج من باب آخر ثم تعود فتدخل المدينة ثانياً من الباب الأول لتؤثر فى نفسية الشعب الذى كان يتحرش بالفرنسيين أثناء حصار عكا » .

ولم يفت الجبرتى ملاحظة ما حل بالجنود من الإعياء وما بدا عليهم من علائم الفشل وفى ذلك يقول : « وقد تغيرت ألوان العسكر القادمين واصفرت ألوانهم وقاسوا مشقة عظيمة من الحر والتعب وأقاموا على حصار عكا أربعة وستين يومًا حربًا مستقيمًا ليلا ونهاراً » .

منشور أعضاء الديوان

وبعد أن استقر بنابليون المقام فى القاهرة استكتب أعضاء الديوان منشوراً دعوا فيه الشعب إلى الإخلاد للسكينة ، وهو منشور طويل خلاصة ما احتواه إعلام الناس برجوع نابليون وأن رجوعه يكذب الإشاعات التى أذاعها المرجفون عنه وزعمهم أنه مات بسوريا ، وتضمن ذكر بعض وقائع الحملة السورية مزوّرة مشوهة ، وأوضح السبب فى عودة نابليون إلى مصر فزعم أن ذلك راجع أولا إلى وعده قبل سفره « بالرجوع بعد أربعة أشهر والوعد عند الحر دين !! » ،

(٢) عضو المجمع العلمى المصرى انظر ما كتبناه عنه بالجزء الأول ص ١٢٦ (من الطبعة الأولى) .

والسبب الثانى أنه بلغه « أن بعض المفسدين من المماليك والعربان يحركون فى غيابه الفتن والشرور فى بعض الأقاليم والبلدان » فلما حضر سكنت الفتنة ونكص الأشرار ، وختم المنشور بتحذير الشعب عواقب الفتن والانتفاض ونوّه بفضل نابليون فى احترام القرآن والشعائر الإسلامية وإجراء خيرات الأوقاف وعزمه « على إقامة مسجد عظيم لا نظير له فى الأقطار ودخوله فى دين النبى المختار » وغير ذلك من التمويهات التى كان يذكرها فى منشوراته تارة على لسانه وطوراً على لسان أعضاء الديوان دون أن يأبه لها أحد .

تغيير نظام القضاء وانتخاب قاضى قضاة مصر

لما احتل الفرنسيون القاهرة فى أوائل عهد الحملة اضطربت الأحوال فى العاصمة وكان من نتائج ذلك الاضطراب أن أقفلت بعض المحاكم أبوابها واعتزل القضاة الحكم بين الناس ، ولما هدأت الأحوال نوعًا استأنف القضاة أعمالهم وأقر نابليون السابقين منهم فى مناصبهم ، واستمر القضاء على نظامه القديم ، وبقى القضاة السابقون يتولون القضاء وعلى رأسهم القاضى التركى (قاضى قضاة مصر) المولى من قبل السلطان ، فلما خرج القاضى على السلطة الفرنسية أثناء الحملة على سوريا وانضم إلى أمير الحج فى ثورته[٣] عزم نابليون على أن يحدث تغييراً حاسماً فى نظام القضاء ، وكان الجنرال دوجا قد أقام ابن القاضى السابق « ملازاده » فى مكان أبيه ، فلم يرق ذلك نابليون وأراد أن يقطع كل صلة بين مصر وتركيا ويجعل قاضى القضاة من علماء مصر ، فأمر فى ٢٢ محرم سنة ١٢١٤ بالقبض على ملازاده واعتقاله وأبلغ أعضاء الديوان فى اليوم التالى نبأ القبض عليه وعزله وطلب إليهم أن « يختاروا شيخاً من العلماء يكون من أهل مصر ومولوداً بها يتولى القضاء ويقضى بالأحكام الشرعية كما كان الملوك المصريون يولون القضاة برأى العلماء[٤] » ، فلما قرئت رسالة نابليون بالديوان استاء الأعضاء من اعتقال « ملازاده » وشفعوا له فى أن يطلق سراحه ، ودافعوا عنه بأنه إذا كان أبوه قد انضم إلى أمير الحج فلا يؤخذ هو بما أخطأ أبوه فقبل نابليون شفاعة العلماء غير أنه طلب إليهم أن ينتخبوا قاضيًا غيره فجرى الانتخاب بطريقة نظامية واشترك فيه العلماء مع أعضاء الديوان فنال أغلبية

---

(٣) انظر الفصل الثالث ص ٥٦ .

(٤) الجبرتى الجزء الثالث ومراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٤٢١٧ المؤرخة ٢٦ يونية سنة ١٧٩٩ .

الأصوات الشيخ أحمد العريشى الحنفى أحد علماء مصر فى ذلك العصر وأحد أعضاء الديوان ، قال المسيو فوريه Fouriet القوميسير الفرنسى لدى الديوان وقد حضر عملية الانتخاب إن الأصوات التى أعطيت فى الانتخاب بلغت ٢٣ صوتًا نال منها الشيخ أحمد العريشى ١٦ صوتًا ، ونال الشيخ مصطفى الجداوى خمسة ونال عالمان آخران كل منهما صوتا واحداً فولى الشيخ العريشى قضاء مصر بأغلبية آراء العلماء وكتب العلماء بذلك إلى نابليون فأمر بإقامة حفلة لتولية الشيخ أحمد العريشى قضاء مصر دعا إليها أعضاء الديوان العمومى والشيخ السادات [٥] وبعض العلماء والأعيان من غير أعضائه ، وخلع على القاضى الجديد خلعة ثمينة وحفه بموكب حافل سار به إلى دار المحكمة الكبرى بين القصرين ثم أمر نابليون بالإفراج عن « ملازاده » إجابة لطلب العلماء .

كانت هذه أول مرة ولى فيها قاضى القضاة بانتخاب علماء مصر ، ولا شك أن جعل منصب قضاء مصر بانتخاب العلماء هو خطوة كبرى فى سبيل تقدم النظام القضائى ، لأن حكومة الآستانة لم تكن ترسل إلى مصر سوى قضاة أكثرهم جهلاء لا يعرفون لغة البلاد وليس لهم قدم راسخة فى العلم ولا فى القضاء ، فانتخاب قاضى القضاة من بين علماء البلاد من شأنه أن يرفع منزلة القضاء ، هذا إلى أنه يُكسب علماء مصر حقاً لم يكن لهم من قبل ، وقد أصدر نابليون أمراً آخر فى ٤ يولية سنة ١٧٩٩ [٦] بتحديد رسوم التقاضى باثنين فى المائة من قيمة النزاع ، فانتخاب قاضى القضاة مضافاً إلى تحديد رسوم الدعاوى هو تطور فى إصلاح النظام القضائى فى مصر.

أراد نابليون أن يستغل هذا الإصلاح ليكسب قلوب الشعب ، فأصدر منشوراً بعث به إلى أعضاء الديوان أوضح فيه موقفه حيال القاضى التركى وابنه ، وسوغ عمله بقوله إنه لم يعزل القاضى ولكنه هرب من مصر وترك أهله وأولاده « وخان عهد المعروف والإحسان » وإن ابنه لا يصلح لتولية القضاء . ولصغر سنه وعدم كفايته فأصبح مركز القاضى شاغراً ، ولذلك رأى اتباعًا لروح القرآن أن « يعهد إلى العلماء اختيار القاضى من بينهم وأن الشيخ العريشى الذى نال اختياركم أصبح متقلدًا منصب القضاء ولا غرو فإن الخلفاء الذين كانوا يعملون بروح

(٥) لم يكن السادات من أعضاء الديوان وقد ذكرنا فى الجزء الأول ص ١٩٨ (من الطبعة الأولى) أنه رفض عضوية الديوان ولكن نابليون كان يجله ويحترمه فأمر أن يدعى إلى الاحتفال انظر الوثيقة رقم ٤٢٢١ من مراسلات نابليون .

(٦) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٤٢٥١ .

القرآن كانوا يتولون الخلافة بانتخاب جمهور المؤمنين[٧] وإنه لم يعتقل ابن القاضى التركى إلا منعاً للفتن ، وصارح أعضاء الديوان فى منشوره بأن مظاهر الحكم العثمانى قد انقضت وبطلت ، وهذا المنشور من أهم الوثائق التى أوضح فيها نابليون سياسته فى مصر ورغبته فى التودد إلى المصريين[٨] .

وأرسل أيضاً إلى حكام المديريات يكلفهم أن يبلغوا دواوين الأقاليم نبأ انتخاب جمعية العلماء الشيخ العريشى لتولى قضاء مصر ، وأنه ينبغى أن يتلقى قضاة الأقاليم تقليد القضاء ، من قاضى القضاة ، قال فى هذا الصدد : « على حكام المديريات أن يفهموا أعيان البلاد بأن قد آن إبطال الحكم العثمانى ذلك الحكم الذى هو أظلم من حكم المماليك وأنه مما ينافى روح القرآن أن يتولى القضاء فى مصر رجال من الآستانة لا يعرفون لغة البلاد ، وأن الآستانة لم تعرف الإسلام إلا بعد ثلاثة أو أربعة قرون من وفاة الرسول ، وأنه لو بعث الرسول من جديد فلا يختار الآستانة لرسالته بل يختار القاهرة تلك المدينة المقدسة على ضفاف النيل وأن الرئيس الدينى للإسلام هو صديقنا شريف مكة ، كما أن علماء القاهرة هم بلا منازع أعلم علماء الإسلام وأن القائد العام يبغى أن يكون القضاة كلهم من أبناء مصر اللهم إلا أن يكونوا من أشراف مكة والمدينة[٩] » .

عود إلى المجمع العلمى

تعطلت أعمال المجمع العلمى أثناء الحملة على سوريا بسبب انصراف الأفكار إلى حركات الحملة وانتظار نتائجها ولغياب جماعة من أقطاب المجمع الذين رافقوا الجيش الفرنسى فى سوريا أمثال (مونج) رئيس المجمع و (برتوليه) و (كوستاز) والجنرال كافريللى (الذى مات تحت أسوار عكا) وغيرهم . فلما رجع نابليون إلى القاهرة استأنف عقد جلسات المجمع وعين بعض الأعضاء مكان الذين ماتوا فى سوريا أو نزحوا إلى فرنسا .

وبدأ المجلس أعماله بالبحث فى الوباء الذى فتك بالجنود أثناء الحملة وبيان أسبابه ومنشئه

(٧) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٤٢٢٤ .

(٨) نشرنا نص هذا المنشور فى (قسم الوثائق التاريخية) وقد عربناه عن الأصل الفرنسى ونشرنا معه الصيغة الواردة فى الجبرتى لأنها الوثيقة التى تليت فى الديوان .

(٩) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٤٢٣٨ .

وتطوره ووسائل الوقاية منه ، وأبدى أعضاء المجمع نشاطاً فى استئناف أبحاثهم وأعمالهم ، وأخذ نابليون من جهته يستأنف أعمال الاستعمار فى القاهرة ، فوجه نظره أولا إلى إتمام بناء الحصون حتى يطمئن إلى إخضاع المدينة إذا شبت فيها نار الثورة .

واستؤنفت الأعمال الصحية بنشاط ، واستؤنف كذلك العمل فى مصنع البارود بالروضة ، وشرع نابليون فى تجديد ملابس الجنود واستعمل فى ذلك منسوجات البلاد القطنية والأجواخ الواردة من خارجها فاكتفى الجيش إلى حد ما بموارد البلاد بفضل كفاية المسيو كونتى والمسيو شامبى [١٠] وإدارة المسيو دور Daure مدير مهمات الجيش ، وهكذا أثبتت التجربة أن مصر تستطيع فى أى وقت أن تكتفى بمواردها الطبيعية .

خرطة مصر

كلف نابليون فى الأشهر الأولى من الحملة الفرنسية بعض المهندسين الجغرافيين وضباط أركان الحرب ومهندسى الرى والقناطر والجسور برسم خرطة تفصيلية عن أنحاء القطر المصرى ، وعهد إلى المسيو (تستفيود) Testeviude كبير المهندسين الجغرافيين وضع خرطة عامة للقطر المصرى ولكنه قتل فى ثورة القاهرة الأولى . فبطل العمل فى رسمها ، ولما عاد نابليون من سوريا عزم على توحيد جهود المهندسين وضباط أركان الحرب فأصدر أمرًا فى ٢٨ يونية سنة ١٧٩٩ [١١] بضم المهندسين الجغرافيين التابعين للجيش إلى هيئة أركان الحرب ، وعين الكولونل جاكوتان Jacotin رئيساً للمهندسين الجغرافيين بدلا من تستفيود وعهد إلى رئاسة أركان الحرب وضع خرطة تفصيلية كبيرة للقطر المصرى ، فأخذ المهندسون وضباط أركان الحرب يعملون لها بنشاط ، ومن المهندسين الذين كانت لهم يد طولى فى تخطيطها جاكوتان وسميونيل Simonel وشوانى Schouani وجومار Jomard وكورابوف Corabeuf وجالوا Jallois ودفيلييه Devilliers والمسيو لوبير Le Père كبير مهندسى الرى .

جمعت الرسوم والتخطيطات والبيانات اللازمة لهذه الخرطة خلال الحملة الفرنسية ونقلها مهندسو الحملة معهم عند رحيلهم إلى فرنسا (فى شهر سبتمبر سنة ١٨٠١) وهناك أمر نابليون

---

(١٠) انظر ترجمتهما بالجزء الأول ص ١٣٢ و ١٣٤ (من الطبعة الأولى) .

(١١) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٤٢٢٧ .

جماعة المهندسين بوضع الخرطة التفصيلية لمصر . فتولى الكولونل جاكوتان رياسة العمل واشترك فيه المهندسون والضباط الذين رسموا وخططوا حين كانوا فى مصر ، وتم وضع الخرطة وإفراغها وقدمت إلى نابليون (وكان قنصلا أول) فى شهر أكتوبر سنة ١٨٠٣ .

اكتشاف الآثار المصرية القديمة

وألف نابليون لجنتين للكشف عن آثار الفراعنة فى الصعيد ورسمها ودراستها ، فاللجنة الأولى برياسة المسيو فوربيه سكرتير المجمع العلمى الدائم والثانية برياسة المسيو كوستاز أحد مهندسى الحملة ، وكانت مهمتها التنقيب عن آثار مصر القديمة فى الوجه القبلى إلى الشلالات ، وقد سبقها فى تعرف آثار الصعيد المسيو فيفان دينون الذى رافق حملة الجنرال ديزيه والمهندسون جوكار وجالوا ودفلييه .

سافر أعضاء اللجنتين من القاهرة إلى الصعيد فى ٢٠ أغسطس سنة ١٧٩٩ ، أى بعد يومين من رحيل نابليون إلى الإسكندرية ، ونقبوا على الآثار المصرية وبذلوا جهوداً عظيمة فى اكتشافها ، فأزاحوا الستار عن عظمة مصر القديمة ، ودونوا أبحاثهم فى كتاب تخطيط مصر ، فكانت أعمالهم وأعمال أعضاء المجمع العلمى هى الخالدة من آثار الحملة الفرنسية «وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض» .

الموقف السياسى وتجدد القتال

شمل السكون الظاهر أنحاء القطر المصرى فى منتصف شهر يونية سنة ١٧٩٩ ، وكانت الظواهر تدل على هدوء الحالة واستقرارها ، فقد أخمدت الثورات فى الوجه البحرى ، وانتهت المعارك العنيفة فى الوجه القبلى ، وتوطدت السكينة فى القاهرة ، لكن هذه الظواهر كانت تشبه السكون الذى يسبق العواصف ، فقد كانت الأفكار فى غليان ، ونفسية الشعب متحفزة للهياج ، واللغط يزداد ويكثر ، والإشاعات عن اكفهرار الجو يتناقلها الناس فى أندية القاهرة وشوارعها وقهواتها ، ومن هناك تستطير إلى القرى والأرياف مكبرة مجسمة ، وكان نابليون يرقب هذه الحالة وهو عالم بأن هذا السكون الظاهر الذى شمل البلاد لم يكن إلا غشاء

لا تلبث الحوادث أن تمزقه ، فهو يعلم أن إنجلترا وتركيا تعدان المعدات لتجريد حملة كبيرة لإخراج الفرنسيين من مصر ، ويعلم أن سكون الشعب وتربصه لم يكن إلا إذعانًا لحكم القوة المسلحة ، فإذا وهنت هذه القوة انفجرت الثورات وتجددت الاضطرابات كدأبها وأشد ، وكانت الأنباء ترد من كل مصدر بحشد الجنود التركية فى رودس والثغور العثمانية لتبحر إلى سواحل مصر ، وفى الوقت نفسه كانت قوات تركية أخرى تتهيأ للزحف على مصر من طريق برزخ السويس بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا ، وكان نابليون يلحظ تحفزاً من الأهالى للانتقاض ، وعلم أن دعاة الثورة يخوضون القرى والبلاد يستنفرون الناس للهياج .

وقد وقعت حوادث ومناوشات من زعماء المماليك فى تلك الفترة من الزمن ، فتحرك مراد بك من الفيوم إلى وادى النطرون قاصداً شمال البحيرة متوقعاً أن يلتقى بالجنود التركية عند نزولها إلى البر ، وتحرك عثمان بك الشرقاوى قاصداً إلى برزح السويس لملاقاة إبراهيم بك .

لكن نابليون لم يدع للحوادث أن تفاجئه ، بل أسرع فأعد لمقابلة الهجوم المنتظر فعمد إلى تشتيت قوات مراد بك وعثمان بك وعهد إلى الجنرال (دستنج) والجنرال (مورا) منع مراد بك من التقدم إلى شمال البحيرة ، فحالا دونه ، ولم يلبث أن انقلب إلى الصعيد ، وهاجم الجنرال (لاجرانج) Lagrange عثمان بك فى السبع آبار[١٢] فهزمه واستولى على معسكره .

وناط نابليون بالجنرال (كليبر) قيادة القوات والمواقع الكائنة على السواحل الشمالية ، من الإسكندرية إلى العريش ، واستأنف أعمال التحصين فى الصالحية وبلبيس ودمياط ورأس البر وأبو قير والاسكندرية ، وجعل هذه المواقع صالحة للدفاع ، وكان الجنرال كليبر والجنرال مارمون قومندان الإسكندرية ما برحا يحصنان قلاع الإسكندرية وأبو قير من قبل ، فزاد نابليون فى تحصينها وخاصة طابية العجمى غربى الإسكندرية وقلعة قايتباى وبرج السلسلة .

وكانت الحاميات العسكرية موزعة على الثغور والمواقع التى تعتبر مفاتيح البلاد فكان بقلعة العريش حامية من ستمائة جندى بقيادة الأدجودانت جنرال كامبيس Cambis ، وبقطية حامية من ستمائة جندى بقيادة جونو Junot ، والجنرال رينييه Reynier يتولى قيادة الجنود فى الشرقية ، والجنرال (منو) فى رشيد ، ولانوس فى المنوفية .

---

(١٢)غربى بحيرة (التمساح) شمالى السويس وتسمى (السبع ابيار) .

مقتل الجنرال دومارتان :

توقع نابليون بثاقب نظره أن ترسو السفن العثمانية الآتية بالجنود على شواطئ (أبو قير) بين الإسكندرية ورشيد ، فأنفذ إليها الجنرال (دومارتان) قومندان المدفعية ليتعهد حالة الدفاع فى تلك الجهة .

غادر دومارتان القاهرة يوم ١٩ يونية سنة ١٧٩٩ على سفينة مسلحة بالمدافع وعليها جماعة من الجنود ، وانحدرت السفينة ببطء وصعوبة لهبوط النيل ، فلما كانت بإزاء طنوب والزعيرة[١٣] هجم عليهم جمع من الأهالى المسلحين بالبنادق ودار قتال عنيف بين الفريقين قتل فيه عشرة من الفرنسيين وجرح أربعون ، وكان الجنرال دومارتان ضمن الجرحى ، فنقل إلى رشيد ومات بها فى يوليو سنة ١٧٩٩ متأثراً من جراحه ، وعهد نابليون بعد مقتله إلى الجنرال سونجى Songis فى قيادة المدفعية .

نزول الجنود العثمانية فى (أبو قير) :

لم تكن استعدادات نابليون لملاقاة الحملة العثمانية على غير جدوى ، فقد أقبلت العمارة التركية تجاه الإسكندرية يوم ١١ يوليو سنة ١٧٩٩ متجهة شمالا بشرق قاصدة شواطئ (أبو قير) لإنزال الجيش العثمانى الذى أنفذته تركيا بقيادة كوسه لى مصطفى باشا سر عسكر الروملى ، ثم وصلت إلى خليج (أبو قير) فى اليوم التالى ، فأرسل الجنرال (مارمون) إلى نابليون ينبئه بالخبر وينتظر ما يأمر به .

نزل الجنود العثمانية إلى شاطئ (أبو قير) يوم ١٤ يولية وكان عددهم فى أول يوم عشرة آلاف مقاتل فحاصروا قلعة أبو قير[١٤] وكانت الحامية الفرنسية ممتنعة فيها بقيادة القومندان جودار Godard

وكان موقع القلعة فى ذاته منيعاً لأنها قائمة على صخرة صعبة المنال فى رأس شبه جزيرة

---

(١٣) بلدتان بالمنوفية بالبر الشرقى لفرع رشيد (بمركز تلا الآن) .

(١٤) هى القلعة القائمة إلى اليوم فى نهاية شبه جزيرة أبو قير والمعروفة بطابية البرج ، ولا تزال أبنيتها وأبوابها باقية إلى اليوم كما بنيت ، وبناؤها على الراجح فى عهد السلاطين البحرية .

(أبو قير) تحميها من الداخل استحكامات فى مدخل شبه الجزيرة[١٥] فتحصن القومندان جودار فى المدخل وناط بالكابتن فيناش Vinache الدفاع عن القلعة .

احتلال الأتراك قلعة (أبو قير) :

بدأ حصار (أبو قير) يوم ١٥ يولية ، وكان هجوم العثمانيين شديدًا فاحتلوا الاستحكامات وقتلوا الفرنسيين الذين دافعوا عنها وقتل من بينهم القومندان جودار ثم احتلوا القرية ولم يبق أمامهم سوى القلعة ، فآثر الكابتن فيناش التسليم هو وجنوده فأسرهم العثمانيون ونقلوا على ظهر بارجة إنجليزية من عمارة الكومودور السير سدنى سميث الذى جاء صحبة العمارة التركية واحتل الأتراك القلعة يوم ١٧ يولية سنة ١٧٩٩ .

تعليمات نابليون

علم نابليون بهذه الحوادث ، فأدرك خطورة الموقف ، لكنه كعادته لم تبد عليه علائم الاضطراب وبادر إلى وضع خطة سريعة محكمة التدابير لمواجهة الحملة العثمانية .

كان من مواهب نابليون التى أكسبته النصر فى ميادين القتال السرعة فى وضع خططه الحربية ومفاجأة خصومه قبل أن يدع لهم الوقت الكافى لمباغتته ، بهذه الميزة وبتلك العبقرية ، قابل الحملة التركية عند نزولها بأبو قير ، لقد هاله احتلال الأتراك للقلعة لأنه كان يقدّر أنها تستطيع المقاومة مدة طويلة لمناعة موقعها وما بها من المدافع ومعدات الدفاع وحسب أنها تعطل الجيش العثمانى وتمتنع عليه طويلا ولم يخطر له قط أن تسقط فى يد الأتراك بهذه السرعة ، على أنه مع ذلك لم يضطرب ولم يضيع الوقت ولم يتردد فى وضع خطته الحاسمة ، ففى ليلة واحدة رسم خطته وأصدر تعليماته وأرسل رسائله إلى قواده ليلتقوا به بالرحمانية حيث قرر جعلها قاعدة الهجوم على الجيش العثمانى ، فكلف الجنرال «مورا» بالتحرك من الجيزة على قوة الفرسان والكشافة لتكون بمثابة طلائع الجيش .

وكلف الجنرال لان Lanne أن يعبر النيل ويسير بفرقته رأسا إلى الرحمانية وأمر بأن يلحق به الجنرال رامبون Rampon بجنوده وينقل معه مدفعية الجيش ، واستدعى الجنرال لانوس من

(١٥) تقع قرية (أبو قير) بين الاستحكامات والقلعة .

المنوفية ، وأصدر تعليماته إلى الجنرال ديزيه بالصعيد أن يعهد إلى الجنرال فريان Friant بتعقب مراد بك وأن يترك القوة والذخائر الكافية فى قلعة قنا وقلعة القصير ويرسل نصف قوته من الفرسان إلى الرحمانية ويجيء إلى القاهرة ليتولى بالاتفاق مع الجنرال دوجا إخضاعها فى أثناء غياب الجيش عنها .

وكلف الجنرال (دوجا) أن يظل بالقاهرة متأهبًا للقتال وأن يرسل الكتائب الطوافة لاستطلاع حالة البلاد المجاورة للعاصمة وإمداد الحصون بالذخائر لتكون على أهبة الدفاع ، وأمر إذا جدّت به الحوادث أن يتحصن فى القلعة .

وكلف الجنرال (رينيه) قومندان الشرقية أن يمد قلاع العريش وقطية والصالحية وبلبيس بالذخائر وأن يقمع بمن معه كل حركات الثورة والاضطرابات التى تقع فى أنحاء المديرية ويقاوم كل هجوم محتمل للجنود العثمانية القادمة من سوريا ، ثم أمره فى حالة اشتداد الهجوم أن يمتنع بجنوده فى القلاع وينثنى بالباقى إلى القاهرة ، وأن يكون على استعداد لإرسال قواته إلى الرحمانية ، وكلف الجنرال كليبر قومندان دمياط أن يتجه بجنوده صوب رشيد ليدافع عنها ويصد هجوم العثمانيين إذا زحفوا عليها ، وأن يبقى الحاميات الكافية لإخضاع الأهليين فى مديريتى دمياط والمنصورة ، وكان الجنرال (منو) فى ذلك الوقت متغيباً عن رشيد يكتشف جهات وادى النطرون ، فأمره نابليون بأن يعود لفوره إلى الرحمانية ليلتقى به بعد أن يترك بوادى النطرون حامية من الجنود لمنع مراد بك من التقدم شمالا ، وبهذه التعليمات استطاع نابليون أن يحشد جيشاً مؤلفًا من عشرين ألفًا من المشاة وثلاثة آلاف من الفرسان مزودين بالمدافع الكافية .

أصدر نابليون هذه التعليمات وأرسلها إلى قواده ، وسار هو قاصدًا الرحمانية فبلغها يوم ١٩ يولية ، أى أنه أعد معداته ووصل إلى قاعدته الحربية بعد خمسة أيام من نزول الجنود العثمانية إلى (أبو قير) ، وهى سرعة ليس لها نظير فى تاريخ الحروب فى ذلك العصر.

لم تكن القيادة التركية فى هذا الوقت رسمت أية خطة حربية لمواجهة الجيش الفرنسى . بل كانت جنودهم لاتزال ترسو إلى البر جماعات مفككة لا يربطها نظام ، وكأنما ثمل الأتراك بنشوة الانتصار الأول فى احتلال قلعة (أبو قير) فلم يحسبوا حسابًا للوقت ؛ ولم يقدروا قوة جيش نابليون ، وظلت الجيوش العثمانية تنزل إلى البر حتى بلغ عدددهم ١٥٠٠٠[١٦] مقاتل ، ولم

(١٦) أخذنا هذا الإحصاء عن رسالة الجنرال (برتييه) رئيس أركان الحرب إلى الجنرال (دوجا) وهو إحصاء رسمى عمل=

يفكر مصطفى باشا فى احتلال الإسكندرية أو رشيد ليتخذها قاعدة عسكرية للزحف منها إلى داخل البلاد ، بل ظل جامداً فى شبه جزيرة أبو قير واكتفى بقطع المواصلات بين الإسكندرية ورشيد ، وكانت تنقصه قوة الفرسان والمدفعية ، كما كانت تعوزه الكفاءة الحربية للقيادة ، فبقى فى موقف الانتظار والتردد لا يدرى كيف يأخذ فى أمره ، وترك لنابليون الفرصة لمهاجمته قبل أن يرسم لنفسه أى خطة حربية .

فلما علم نابليون بجمود مصطفى باشا عزم على مهاجمة الجيش العثمانى فى شبه جزيرة (ابو قير) ، واختار قرية بركة غطاس [١٧] قاعدة ليبدأ فيها الهجوم لأنها نقطة ارتكاز يسهل الوصول منها إلى الإسكندرية ورشيد وأبو قير ، وكانت خطته أن يهجم من هذه النقطة جاعلا غايته حصر الجيش العثمانى فى شبه الجزيرة ومنع اتصاله بالإسكندرية ورشيد وداخلية البلاد ، وعهد إلى الجنرال مارمون قومندان الإسكندرية بالاتصال بفرسان الجنرال مورا لاكتشاف موقع الأتراك من أبوقير ، فقام الضابط بيكو Picot بهذه المهمة بسهولة تامة ، لأن مصطفى باشا حشد جيشه فى شبه الجزيرة حشداً دون أن يجعل له نقطا أمامية أو مخافر تمنع اكتشاف مواقعه .

معركة أبو قير البرية (٢٥ يولية سنة ١٧٩٩)

علم نابليون بمواقع الجيش العثمانى ، فأمر جيشه بالانتقال من الرحمانية إلى بركة غطاس فاستقر بها يوم ٢٣ يولية ، وفى ليلة ٢٤ يولية انتقل الجيش من (بركة غطاس) وعسكر جزء منه فى كفر سليم [١٨] والجزء الآخر فى العكريشة [١٩] ، واتخذ نابليون الإسكندرية مقراً للقيادة العامة ، فانتقل إليها فى تلك الليلة .

لم يضيع نابليون وقتاً فى الإسكندرية ، فمن ساعة وصوله إليها أنفذ الجنرال دستنج على رأس كتيبة من الجيش ليستطلع الجهات المجاورة التى تفصل بينه وبين أبو قير ويحتل آبار المياه ليرتوى منها الجنود ، ثم أصدر أمره بالزحف ، فأخذت فرق الجيش تنتقل إلى (البيضاء) ،

= عقب الواقعة مباشرة فهو أقرب إلى الثقة ، وقدرهم الجنرال دوجا بهذا العدد فى رسالة إلى أعضاء الديوان بتاريخ ٢ ربيع الأول سنة ١٢١٤ ، لكن نابليون يقدرهم فى مذكراته بـ ١٨ ألفاً ، والظاهر أن فى إحصائه مبالغة .

(١٧) من بلاد مركز أبو حمص .

(١٨) و (١٩) من بلاد مركز كفر الدوار .

وواصلت السير على السد بين بحيرة أبو قير وترعة الإسكندرية ، ثم انعطفت شرقًا متجهة إلى أبو قير ، ووردت الأخبار من رشيد بقدوم طلائع فرقة الجنرال كليبر قادمة من دمياط ، فعهد إليه بالتقدم ليكون بمثابة احتياطى للجيش المقاتل .

قضى نابليون يوم ٢٤ يولية بالإسكندرية ، وفى مساء هذا اليوم انتقل منها هو وأركان حربه وقوة الفرسان الذين كان يقودهم مورا ، واتخذ معسكره على مسافة سبعة كيلومرات غربى أبو قير ، وقضى الليل يرتب مواقع جنوده استعداداً لخوض المعركة فى صباح اليوم التالى .

نشبت المعركة صبيحة يوم ٢٥ يولية ، فهجم الجنرال مورا بفرسانه ومعه كتيبة من جنود الجنرال دستنج من القلب ، واندفع الجنرال لانوس من الميسرة ، والجنرال لان من الميمنة ، وفرقة الجنرال كليبر تؤلف الاحتياطى ، وكان هجوم الفرسان شديداً فى بدء المعركة ، فأحدث ثغرة فى صفوف الجيش العثمانى . واشتد القتال واستبسل الفريقان ، وهجم الجيش الفرنسى غير مرة على مواقع الجيش العثمانى ، فأصلاهم العثمانيون ناراً حامية من مدافعهم المركبة فى مواقعهم المنيعة ، ولكن الفرنسيين تفوقوا بتدبير قيادتهم وحسن نظامهم وإحكام هجومهم وكثرة عددهم ولاسيما الفرسان ، فتمكنوا من سحق خطىّ الدفاع اللذين أقامهما الجيش العثمانى . وفتكوا بالجنود الذين كانوا يرابطون عليهما ، وبذلك بدأت هزيمة العثمانيين ، فالتجأ مصطفى باشا إلى قرية (أبو قير) ليستند إلى القلعة ، ولكن الجنرال مورا هجم بفرسانه وحال بين القرية والقلعة ، فحصر مصطفى باشا وجنوده فى قرية أبو قير ، وهجمت فرقة الجنرال لان على القرية ، وأقبل مورا بفرسانه مقتحمًا معسكر مصطفى باشا فأخذه فى خيمته ، ووقع مصطفى باشا ورجاله فى أسر الجيش الفرنسى .

كانت هزيمة العثمانيين فى هذه الموقعة أشبه بكارثة ، فقد فقدوا من القتلى والغرق والجرحى نحو ثمانية آلاف ، وبلغ عدد الأسرى نحو ثلاثة آلاف ، وغنم الفرنسيون مدافع الجيش العثمانى وذخائره ، وفقد الفرنسيون ٢٥٠ قتيلا ، وجرح منهم سبعمائة وخمسون .

حصار القلعة

انتهت معركة أبو قير بهزيمة الجيش العثمانى ، على أن القلعة ظلت تقاوم هجمات الفرنسيين . وامتنع بها نحو ثلاثة آلاف من الجنود العثمانية بقيادة ابن مصطفى باشا الذى أبى أن يسلم كما فعل

أبوه ، فعهد نابليون إلى الجنرال لان Lanne فى حصار القلعة ثم جرح «لان» فى معارك الحصار ، فعين مكانه الجنرال منو وعاونه الجنرال دافو ، واستمر الحصار قائمًا والحرب مستعرة ، إلى أن نفدت ذخائر العثمانيين . فاحتل الفرنسيون القلعة يوم ٢ أغسطس .

رواية الجبرتى عن معركة أبو قير :

أشار الجبرتى إلى واقعة أبو قير فى حوادث شهر صفر سنة ١٢١٤[٢٠] بقوله :

« وفى ليلة الأربعاء عشرينه أشيع أن الفرنساوية تحاربوا مع العساكر الواردين على أبى قير وظهروا عليهم وقتلوا الكثير منهم ونهبوهم وملكوا منهم قلعة أبى قير وأخذوا مصطفى باشا أسيراً . وكذلك عثمان خجا وغيرهما ، وأخبر الفرنسيس أنه حضرت لهم مكاتبة بذلك من أكابرهم ، فلما طلع النهار ضربوا مدافع كثيرة من قلعة الجبل وباقى القلاع المحيطة وبصحن الأزبكية ، وعملوا فى ليلتها أعنى ليلة الأربعاء حراقة بالأزبكية من نفوط وبارود وصواريخ تصعد فى الهواء ، وفى يوم الخميس ثامن عشرينه وصلت عدة مراكب وبها أسرى وجرحى ، وكذلك يوم الجمعة تاسع عشرينه حضرت مكاتبة من الفرنسيس بحكاية الحالة التى وقعت لم أقف على صورتها ، وفى ثانى ربيع الأول وصلت مراكب من بحرى وفيها جرحى الفرنساوية » .

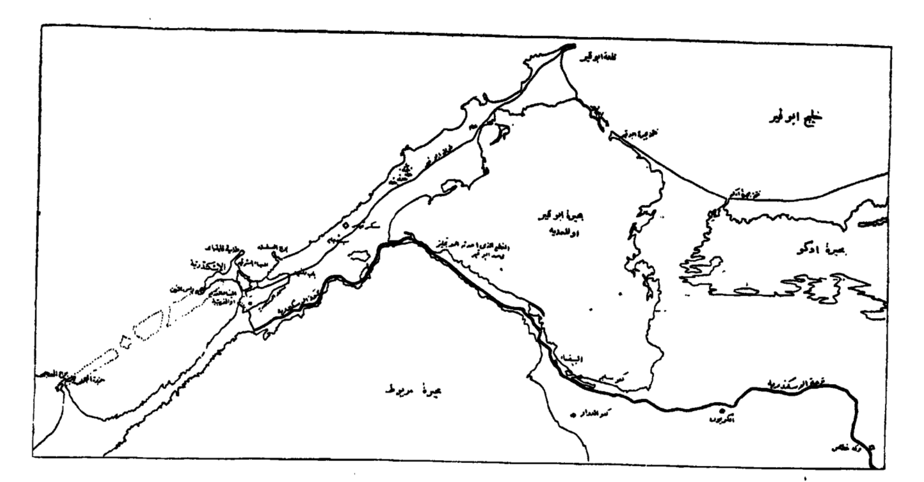
وقد أسر الفرنسيون من بقى من الحامية العثمانية بقلعة (أبو قير) ، منهم نجل مصطفى باشا وكتخداه (وكيله) ومحمد رشيد أفندى[٢١] أحد كتاب الديوان الهمايون وعثمان خوجه أفندى .

وعثمان خوجه هذا من المماليك الذين تولوا الأحكام فى عهد مراد بك ، وكان متوليًا إمارة رشيد من قبل صالح بك (أمير الحج عند قدوم الفرنسيين) وحج معه ورجع صحبته إلى الشام ، فلما توفى صالح بك سافر عثمان خوجه إلى الروملى وحضر صحبة مصطفى باشا وجيشه ، وقد حقد عليه الفرنسيون وأبى نابليون اعتباره أسير حرب واتهمه بالاشتراك فى التحريض على الثورة فى الوجه البحرى ، فأمر بنقله إلى رشيد وقتله ، قال الجبرتى فى هذا الصدد : « فدخلوا به البلد وهو مكشوف الرأس حافى القدمين وطافوا به فى البلد يزفونه بطبولهم حتى وصلوا به إلى داره ، فقطعوا رأسه تحتها ثم رفعوا رأسه وعلقوها من شباك داره ليراها من يمر بالسوق » . وكذلك عامل الفرنسيون مثل هذه المعاملة عثمان كخيا الشاويش حاكم برنبال

---

(٢٠) يوليو سنة ١٧٩٩ .

(٢١) الذى صار له شأن فى مفاوضات الصلح كما سيجىء بيانه .



بين الإسكندرية وأبو قير (تخطيط سنة ١٨٠١)

وترى فى الخريطة بعض المواقع التى مر ذكرها ، كترعة الإسكندرية (المحمودية الآن) ، والقطع الذى أحدثه الإنجليز فى سد أبو قير بين بحيرة أبو قير وبحيرة مريوط (١ أبريل سنة ١٨٠١) وقرى بركة (غطاس) والكريون وكفر سليم ، والبيضاء ، ثم موقع الإسكندرية وسورها والميناء الشرقية والميناء الغربية بحسب تخطيطهما فى ذلك العهد ، ورأس التين وجزيرة العجمى وبرج العجمى ثم باب رشيد ويليه مسجد سيدى جابر ، ويليه معسكر قيصر (قصر القياصرة) ، وبحيرة أبو قير وكانوا يسمونها (المعدية) ، وهى الآن أرض جافة زراعية وفتحتها على البحر ، والجسر الذى كان يقيها طغيان الأمواج وكان متهدماً وبحيرة أدكو وفتحتها وغير ذلك .

ورفض نابليون اعتباره أسير حرب وأمر بضرب عنقه بالإسكندرية .

وقد كافأ نابليون الجنرال (مورا) قائد الفرسان على ما أبداه من البسالة وما كان له من الفضل فى فوز الفرنسيين ورقاه إلى درجة قائد فرقة ، وكذلك الجنرال (لان) .

وأمر بأن تسمى ثلاث قلاع من قلاع الإسكندرية بأسماء كريتان Crettin ، ودوفيفييه Duvivier ، ولتورك Leturcq ، تذكاراً لأولئك القواد الذين قتلوا فى المعركة ، فأطلق اسم «كريتان» على قلعة كوم الدكة ، واسم «لتورك» على قلعة القمرية (غربى القبارى) ، وسميت قلعة الركنة باسم قلعة دوفيفييه .

وتعد واقعة أبو قير البرية فوزاً كبيرًا لنابليون لأنها بمثابة فتح جديد لمصر ، كما كانت واقعة الأهرام من قبل ، وقد ابتهج لها الفرنسيون ابتهاجًا عظيمًا وطربوا لأخبارها وأقاموا الحفلات والزينات فى القاهرة ثلاثة أيام متواليات .

حالة الأفكار فى القاهرة والأقاليم

عاد نابليون إلى القاهرة يوم ١١ أغسطس سنة ١٧٩٩ بعد أن غاب عنها زهاء عشرين يومًا هزم فى خلالها الجيش التركى بسرعة لا نظير لها فى الحروب .

كانت القاهرة والأقاليم أثناء هذه المدة فى سكون رهيب بعد أن ذاع خبر نزول الجنود العثمانية فى (أبو قير) ، وعلمه الناس كافة ، وانصرفت قلوب الشعب تتمنى هزيمة الفرنسيين وتتوقع انكسارهم فى ميدان القتال ، لكن القوة المسلحة فى القاهرة كانت كافية لقمع كل حركة تحدث فيها ، فضلا عن أن ذوى الرأى وجمهور الأهالى لم يكونوا يعرفون على من تكون الهزيمة ، فلزم الأهالى الصمت والسكون ، وكذلك فعل الفرنسيون المقيمون فى القاهرة فأخذوا يرتقبون نتيجة القتال وقلوبهم واجفة ، لأن حياتهم كانت معلقة على انتصار الجيش الفرنسى فى المعركة .

وكان الفرنسيون قد بالغوا فى كتمان خبر قدوم الحملة العثمانية ، وسافر نابليون قاصداً الرحمانية دون أن يعلم الناس السبب ، ولكنهم علموا بقدوم الجيش العثمانى من المكاتبات والرسائل التى وافى بها السعاة من الإسكندرية وأبو قير وفيها أخبروا بمجئ العمارة العثمانية ، فتناقل الناس هذه الأخبار بسرعة البرق وعلموا السر فى سفر نابليون وجنده ، وكانت الأخبار

تأتى مبالغاً فيها . فمن ذلك ما رواه الجبرتى فى حوادث شهر صفر سنة ١٢١٤ « أنه وردت أخبار وعدة مكاتيب لكثير من الأعيان وكلها نسق واحد تزيد عن المائة مضمونها أن المسلمين وعسكر العثمانيين ومن معهم ملكوا الإسكندرية ، فصار الناس يحكى بعضهم لبعض إلخ .. » مع أن الجيش العثمانى لم يقترب من الإسكندرية كما رأيت .

ولما سار نابليون من الجيزة بعث برسالة إلى أعضاء الديوان يوصيهم فيها بالمحافظة على الأمن وضبط البلد والرعية كما فعلوا فى غيبته السابقة (أثناء الحملة على سوريا) ، ولم يكتف بذلك بل بعث من الرحمانية برسالة طويلة إلى الديوان من رسائله التى كان يملؤها بالأوهام والعبارات الجوفاء ، ذكر فيها نبأ وصوله إلى الرحمانية وعفوه عن أهالى البحيرة ، وكأنما أراد أن يكتم عن أعضاء الديوان أن الحملة القادمة حملة عثمانية ، مع أن الخبر قد شاع وذاع بوصول الجنود الأتراك ، فذكر فى رسالته وصول العمارة المقلة للجند دون أن يعين جنسية المراكب ولا جنسية الجنود ، وزعم أن العمارة قصدت ثغر الإسكندرية وأرادت النزول بها فصدتها قنابل المدافع ، ولم يكن هذا صحيحاً لأنه لم يحصل ضرب ولا قتال بثغر الإسكندرية بل اتجهت العمارة مباشرة صوب (أبو قير) لترسو هناك ، وقال إن السبب فى قدوم هذه العمارة « الاجتماع بالمماليك العربان لأجل نهب البلاد وخراب القطر المصرى وإن فيها خلقاً كبيراً من الموسكو والأفرنج » مع أنه لم يكن بها جنود من الموسكو (الروس) وقد ضرب على نغمة عداء الروس للمسلمين ليستميل قلوب الأهالى ، وأشار إلى أنه إذا كان بالعمارة جماعة من المسلمين – يقصد العثمانين – فإنهم يكونون أعداء للإسلام ، وطلب فى ختام رسالته من أعضاء الديوان أن يبلغوا هذه الرسالة إلى دواوين الأقاليم ليخلد الناس للهدوء والسكينة ، وحذرهم عواقب الهياج والثورة ، متوعدًا كل بلدة تثور بأن يحل بها من القصاص ما حل بدمنهور من الإحراق والتدمير.

على أن هذه الرسالة لم تخدع أحداً من الأهالى ، ولم يكن لتلك العبارات الجوفاء التى ملأ بها رسالته أثر ما فى أذهان الناس ، وقد اعترض المسيو بوسليج مدير الشئون المالية على هذه الخطة ونصح لنابليون قبل سفره أن يعدل عنها فى رسائله للشعب ، وأوضح له أن هذه الأكاذيب لا يمكن أن تخدع أحداً وأنها قد تتخذ دليلا على ضعف الفرنسيين فتكون مدعاة إلى الثورة بدلا من أن تكون وسيلة لمنعها ، ويقول ريبو[٢٢] إن نابليون أصغى لملاحظات المسيو

(٢٢) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء السادس .

بوسليج وترك له قبل رحيله إلى الرحمانية أن يتخذ فى غيابه خير الوسائل بالاتفاق مع الديوان لمنع الهياج فى العاصمة .

استدعى المسيو بوسليج أعضاء الديوان وصارحهم بالأمر فقال لهم : إن الأتراك قد نزلوا فى أبو قير ، وأنتم لا شك تعلمون ذلك ، وقد سافر نابليون لقتالهم ، ونحن لا نعرف ولا أنتم تعرفون نتيجة المعركة ، ولكنى أعتقد أنه فى انتظار نتيجة القتال يحسن بسكان العاصمة أن يلزموا الهدوء والسكينة ، لأن النتيجة لا تخلو من واحد من أمرين ، فإما هزيمة للفرنسيين وعندئذ يجلون عن البلاد ، وإما نصر لهم وفى هذه الحالة تستهدف العاصمة لأشد أنواع الانتقام إذا شبت فيها الثورة .

وقد أدرك أعضاء الديوان صواب هذا الرأى فأعلنوا أنهم لا يألون جهدًا فى النصح للشعب بالإخلاد للسكينة .

على أن الخواطر كانت فى هياج أثناء القتال ، وبالرغم من أن السكينة كانت مخيمة على القاهرة فإن الشعب قاطبة كان يتظاهر بعواطفه العدائية نحو الفرنسيين ، وبدت هذه العواطف حتى على أعضاء الديوان الذين كانت مراكزهم تقتضى منهم مجاملة الفرنسيين وظهرت عليهم علائم الابتهاج عندما وصلت أخبار انتصار العثمانيين فى بدء الحملة ، فقد وردت الأنباء باحتلال مصطفى باشا قلعة أبو قير وأسر حاميتها الفرنسية ، فلما تحققت هذه الأخبار كثر اللغط بين الناس وتجاهروا بالبشر والابتهاج ، ولاحظ الفرنسيون فى العاصمة تغير الحالة النفسية لأعضاء الديوان ، بعكس ما كانوا عليه أثناء غياب نابليون فى الحملة على سوريا ، واستمرت هذه الحالة إلى أن وردت الأنباء بانتصار الفرنسيين فى المعركة وأسر القائد التركى مصطفى باشا ، فأطلقت المدافع من قلعة الجبل وباقى القلاع ابتهاجًا بهذا النصر ، وكاد الناس لا يصدقون الخبر لولا أن تواترت الروايات على صحته ، فقابل أعضاء الديوان النبأ بالفتور والإعراض ، وكانت تبدو منهم من حين لآخر دلائل الروح العدائية للفرنسيين .

فمن ذلك أنهم كانوا يعارضون الأغا (محافظ المدينة[٢٣]) فى بعض تصرفاته ، وكان معروفًا عنه أنه نصير للفرنسيين ، قال الجبرتى فى هذا الصدد : « إن الأغا كان يريد أن يقتل فى كل يوم أناسا بأدنى سبب ، فكان المهدى والصاوى يعارضانه ويتكلمان معه فى الديوان

---

(٢٣) هو مصطفى أغا الذى عينه الفرنسيون بعد أن عزلوا المحافظ السابق محمد المسلمانى الذى كان معيناً بإشارة أعضاء الديوان انظر الجزء الأول ص ٣٠٢ (من الطبعة الأولى) .

ويوبخانه ويخوفانه سوء العاقبة ، وهو يرسل إلى سارى عسكر (بونابرت) فيطالعه بالأخبار ويشكو منهما » .

وقد اشتد الخلاف بين الديوان والأغا حتى اضطر قومندان المدينة الفرنسى إلى التدخل بينهما ، واتهم الفرنسيون أعضاء الديوان بأنهم على اتصال بالجيش التركى ، ونقموا عليهم حالتهم النفسية .

قال ريبو فى هذا الصدد :

« فى كل يوم كانت تقع حوادث تنم عن تغير مسلك الديوان حيال السلطة الفرنسية ، فتارة كان يتعدى اختصاصه ويفتات على سلطة الهيئات الأخرى بحالة لا يمكن الصبر عليها ، وطوراً كان ينازع رؤساء الشرطة سلطتهم ويشتد الخلاف لإخلاء سبيل بعض الأهالى المذنبين ، وآونة كان ينقص الضرائب المفروضة على مشايخ البلاد ، وفى كل ظرف كانت تبدو على أعضائه روح جديدة مشربة بالعداء للفرنسيين وكان المسيو بوسليج يرقب بثاقب نظره هذه الأحوال ويطالع بها نابليون أثناء غيابه فى معركة أبو قير ، فقد كتب إليه بتاريخ ٦ أغسطس سنة ١٧٩٩ يطمئنه عن الحالة فى القاهرة ويقول إنه لا خوف من ثورة تكون بها ، لأن الرهبة تغشاها ، ولا يخشى إلا من وقوع هزيمة ، وكتب له عن مسلك كبار الأعيان وأعضاء الديوان فقال إنه راض عن سلوك السيد السادات ، وإن سلوك السيد عمر مكرم لا بأس به ، وإن السيد البكرى متهيّب وَجِل ، والباقون « خونة ومتعصبون » ، وقال عن الشيخ محمد المهدى « إنه رجل يطمع فى الشهرة والتزلف للجماهير ، وإنه يضحى بجميع الفرنسيين فى سبيل الاحتفاظ بمنزلته بين الناس ، ومع ذلك فإنه مثابر على مقابلتنا[٢٤] » .

وقد أورد الجبرتى فى كتابه موقفاً للشيخ المهدى يتفق ورأى المسيو بوسليج عنه ، فقد كانت الخواطر فى هياج أثناء غياب نابليون فى أبو قير ، فاتهم سكان القاهرة بالعمل على إثارة الفتنة ، واستدعى القائمقام دوجا الشيخ المهدى وتكلم فى شأن ذلك ، فحاجّه المهدى وانعقد الديوان فى اليوم التالى « فقام الشيخ المهدى خطيباً وتكلم كثيراً ونفى الريبة وكذب أقوال الخصوم واشتد فى تبرئة المسلمين مما نسب إليهم » .

---

(٢٤) مراسلات بوسليج وبونابارت الواردة فى ريبو الجزء السادس .

قال الجبرتى : « وهذا المقام من مقاماته المحمودة ، ثم جمعوا مشايخ الأخطاط والحارات وحبسوهم » .

وهذا يدلك على تخوف الفرنسيين من هياج الخواطر فى العاصمة وتوقعهم حدوث الاضطرابات فيها ، ولولا ذلك لما لجأوا إلى اعتقال مشايخ الحارات والأخطاط .
تلك كانت حالة الأفكار فى القاهرة أثناء غياب نابليون عنها إلى أن رجع إليها .

رجوع نابليون إلى القاهرة

جاء نابليون إلى القاهرة ونزل بدار الألفى بك بالأزبكية ، وكان فى ركابه جماعة من أسرى الجيش التركى ، ولما استقر به المقام علم من المسيو بوسليج تفصيل ما أجمله فى رسائله من ظهور الروح العدائية على أعضاء الديوان والشعب ، فاستدعى الأعضاء ، واشتد عليهم فى الكلام ، وأنحى باللائمة على المهدى والصاوى خاصة لمعارضتهما محافظ المدينة فى أحكامه ، ذكر الجبرتى نص الحديث الذى دار بينهم قال : « ولما استقر سارى عسكر بونابرته فى منزله ذهب للسلام عليه المشايخ والأعيان وسلموا عليه ، فلما استقر بهم المجلس قال لهم على لسان الترجمان إن سارى عسكر يقول لكم إنه لما سافر إلى الشام كانت حالتكم طيبة فى غيابه ، وأما فى هذه المرة فليس كذلك لأنكم كنتم تظنون أن الفرنسيس لا يرجعون بل يموتون عن آخرهم فكنتم فرحين مستبشرين ، وكنتم تعارضون (الأغا) فى أحكامه ، وأن المهدى والصاوى ماهم بونو[٢٥] أى ليسوا بطيبين ونحو ذلك ، فلاطفوه حتى انجلى خاطره ، وأخذ يحدثهم عما وقع له من القادمين إلى أبى قير والنصر عليهم وغير ذلك » .

ولما استفاض خبر حضور نابليون إلى القاهرة ومجىء الأسرى الأتراك ذهبت الجماهير إلى الأزبكية ليتحققوا الخبر على جليته ، فشاهدوا الأسرى وهم وقوف فى وسط الميدان يستعرضهم الناس ، ثم ساروا بهم فى شوارع القاهرة ليؤثروا فى نفسية الجماهير ويقنعوهم بفوز الفرنسيين فى معركة أبو قير ، ووزعوا هؤلاء الأسرى على أماكن عدة . فأسكنوا بعضهم جامع

(٢٥) كذا فى الجبرتى ، وكلمة (بونو) مأخوذة من الكلمة الفرنسية bon أى طيب وقد فسرها الجبرتى فى سياق الكلام .

الظاهر (قلعة سلكوسكى) ، وأصعدوا باقيهم إلى قلعة الجبل ، أما مصطفى باشا قائد الجيش فإنهم لم يأتوا به إلى مصر بل أرسلوه هو وابنه إلى الجيزة وأحسنوا معاملتهما ، وكان نابليون يريد أن يتخذ مصطفى باشا وسيطاً للصلح بينه وبين تركيا ، وأمر بإقامة الحفلات فى القاهرة ابتهاجًا بالنصر الذى ناله ، وعرض الجنود فى شوارع العاصمة وميادينها ، وكانت الظواهر تدل على أن سلطة الفرنسيين أصبحت راسخة ودولتهم باقية .

* * *

الفصل الخامس

اضطراب الأحوال فى فرنسا ورحيل نابليون

لكن الظواهر ما لبثت أن تبددت ، وبدأ الجو يكفهر ، والسماء تتلبد بالغيوم ، والأنباء ترد من كل صوب باضطراب الأحوال وتجدد الأحداث .

إن نابليون قد فاز بسحق الجيش العثمانى فى معركة أبو قير ، لكن تركيا كانت تحشد جيشاً آخر فى سوريا بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا ، وجاءت الأنباء بأن هذا الجيش قد تم استعداده وأن الصدر الأعظم قادم بعدد عظيم من المقاتلة لفتح مصر من طريق برزخ السويس ، فلم يكن انتصار الفرنسيين فى معركة أبو قير سوى هدنة وقتية سنحت للجيش الفرنسى ليستريح من عناء القتال وأهواله . فأخذ نابليون يستعد لصد حملة العثمانيين القادمة ، وثمّة شواغل أخرى أقلقت باله وأقضت مضجعه . ذلك أن الجيش الفرنسى كان ينتظر من يوم لآخر أن تضع الحرب أوزارها أو يصله المدد من فرنسا . وكانت هذه الفكرة تبعث الصبر والأمل فى نفوس الجنود . وما فتئ نابليون يحيى هذا الأمل فى نفوسهم حتى لا يدع للكلال واليأس سبيلا إلى قلوبهم . لذلك كان فى شكره للجنود بعد معركة (أبو قير) يقول لهم فى صراحة : « إن النصر الذى ناله الجيش سيعجل بعودته إلى فرنسا وها نحن أولاء قد وضعنا فى يد الحكومة الفرصة التى تمكنها من إجبار إنجلترا رغم انتصاراتها البحرية على عقد صلح شريف مع الجمهورية » .

فنابليون إذن كان يعتمد على أن الحوادث فى أوروبا تهيئ السبيل لصلح مشرف لفرنسا وتضع حداً للحرب فى مصر ، لكن الأنباء التى تلقاها بعد معركة أبو قير قد أخلفت ظنونه وأوقعته فى ارتباك كبير . لقد تلقى هذه الأنباء عن طريق السير سدنى سميث قومندان الأسطول الأنجليزى الذى جاء صحبة العمارة العثمانية . ذلك أنه بعد انتهاء المعركة أرسل نابليون اثنين من ضباطه لمقابلة السير سدنى سميث فى شأن تبادل بعض الأسرى . فتلقاهما السير سدنى سميث على

ظهر بارجته الحربية «تايجر» (النمر). وناولها فى أثناء المقابلة بعض نسخ من الصحف الأوروبية الصادرة لغاية يونية من تلك السنة. فلما تصفحها نابليون علم منها أخبار انخذال الجيوش الفرنسية فى النمسا وإيطاليا، وأدرك خطورة الحالة فى فرنسا وعلم أن لا سبيل إلى تلقى المدد لأن فرنسا نفسها كانت فى خطر بسبب تألب الدول الأوروبية عليها، ولعل السير سدنى سميث تعمد إيصال هذه الصحف إلى نابليون وقواد الجيش الفرنسى ليقطع عليهم كل أمل فى انتظار المدد.

علم نابليون من مطالعة الصحف أن فرنسا قد تحرج مركزها وتضعضعت هيبتها فى البلاد التى فتحتها من قبل، فشبت الثورة فى البيمونت وفقدت أملاكها فى ألمانيا وإيطاليا، واشتد السخط فى فرنسا على حكومة الديركتوار، وألقى الشعب على عاتقها تبعة هذه الهزائم المتوالية، وأخذت إنجلترا تشن الغارة فى البحار على أملاك فرنسا وتمد حلفاءها بالعون والمساعدة، فشددت الحصار على جزيرة (مالطة)، وحاصرت الروسيا باتفاقها وتركيا جزيرة (كورفو)، وجلا عنها الفرنسيون، فكانت فرنسا مهددة من الخارج والداخل، كان الحلفاء يتوعدونها من الخارج، والاضطراب الداخلى يهدد كيانها من الداخل، تلك هى الحالة التى وقف نابليون على حقيقتها عقب انتصاره فى معركة أبو قير.

ولا جدال أن نابليون كان يعرف شيئاً من هذه الحالة إجمالا من الرسائل التى كانت تصله بين حين وآخر من فرنسا، لكن مراقبة الأسطول الإنجليزى لشواطئ مصر كانت تحول دون وصول معظم رسائله إليه، إذ كانت السفن الإنجليزية تضبط كثيراً من الكتب المرسلة من فرنسا إلى مصر أو من مصر إلى فرنسا، ولم يكن يخفى على فطنة نابليون أن الحالة فى فرنسا قد اضطربت أثناء غيبته، لكنه لم يكن واقفاً على كل تلك التفاصيل التى قرأها فى الصحف أو عرفها من سكرتير السير سدنى سميث الذى قابل نابليون بالإسكندرية، وعلم منه مبلغ ما وصلت إليه الأحوال فى فرنسا من الاضطراب، وبالرغم من أنه كتم عنه ما فى نفسه من القلق والشعور بخطورة الحال إلا إنه أخذ يفكر ملياً فى تدارك الخطر، فاستقر رأيه على وجوب الرحيل إلى فرنسا لإنقاذها من الأخطار التى تهددها.

كانت هذه الأفكار تساوره بين حين وآخر، وما فتئ منذ عدة أشهر يصرح فى رسائله إلى الديركتوار بأنه لا يتردد فى العودة إلى فرنسا فى حالة وقوع حرب أوروبية فلما علم بحقيقة الموقف السياسى رأى الفرصة سانحة لتنفيذ فكرته القديمة، والواقع أن الظروف كانت تدعوه إلى الرجوع لفرنسا، فقد صارت الجمهورية فى خطر، وأخذ نجمها الحربى الذى نالته بعد جهاد

عدة سنوات فى الأفول ، ورأى نابليون أنها فى حاجة إلى رجل يعيد إليها هيبتها ويرد إليها أملاكها التى فقدتها ، ورأى من جهة أخرى أن إنقاذ فرنسا أهم بكثير من توطيد سلطتها فى مصر ، وأن مصير فرنسا هو على شاطئ الرين لا على ضفاف النيل ، وأن أوروبا هى الميدان الذى يبت فيه فى مصير الجمهورية الفرنسية ، ورأى برغم انتصاره فى أبو قير أن آماله الكبيرة فى إنشاء دولة شرقية عظيمة قد تبددت يوم أخفقت حملته على سوريا وأصبح محصوراً فى مصر ، وأن الأحوال تقضى أن يتجه إلى الغرب ، بعد أن فشلت آماله فى الشرق .

وكانت الأفكار فى فرنسا متجهة نحو نابليون ، ناظرة إليه كمنقذ للبلاد من الأخطار المحدقة بها ، ورأت حكومة الديركتوار نفسها عاجزة عن تدارك الحال شاعرة بضعف مركزها أمام الرأى العام الفرنسى ، ففكرت فى استدعاء نابليون ، وكتبت إليه بتاريخ ٢٦ مايو سنة ١٧٩٩ تستدعيه إلى فرنسا ، على أن الرسالة التى بعثت بها إليه لم تبلغه لأن الإنجليز صادروها فى البحر ، فلم يكن لها بطبيعة الحال تأثير فى اعتزامه السفر إلى فرنسا ، لكنها تدل فى ذاتها على أن الأحوال كانت تؤيد فكرته ، وحسبك أن تتأمل عبارات الرسالة لتعرف مبلغ اضطراب الأحوال فى فرنسا ، وإليك ما جاء فيها :

« إلى الجنرال بونابارت القائد العام لجيش الشرق .

« إن الجهود الخارقة للعادة التى تبذلها النمسا والروسيا ، والحالة الحرجة الخطيرة التى وصلت إليها ، تستدعى أن تجمع الجمهورية قواتها الحربية . لذلك أصدرت حكومة الديركتوار أوامرها للأميرال بروى Bruix ليتخذ كل الوسائل التى فى مقدوره لتكون له السيادة فى البحر الأبيض المتوسط وليصل إلى مصر فيعود بالجيش الذى تحت قيادتكم ، وهو مكلف أن يتفق معكم على الوسائل الواجب اتخاذها لنقل الجيش ولكم أن تقدروا يا مواطننا الجنرال إذا كان مضموناً أن تتركوا بمصر فيلقاً من الجنود وحكومة الديركتوار تصرح لكم فى هذه الحالة بأن تكلوا قيادة هذا الفيلق لمن تختارونه من القواد ، ويسرها أن تراكم على رأس جيوش الجمهورية التى توليتم إلى الآن قيادتها بكل جدارة وفخار » ، وقد وقع على هذه الرسالة رؤساء حكومة الديركتوار .

الاستعداد للرحيل :

استقر إذن عزم نابليون وهو فى الإسكندرية على الرحيل إلى فرنسا ، على أنه كتم عزمه حتى

عن أقرب الناس إليه ، وأخذ يعد معدات الرحيل سرًا ويصدر التعليمات ويرتب النظام الذى يتبع فى غيابه دون أن يعلم أحد ممن صدرت إليهم أوامره بعزمه الذى أسره فى نفسه .

وجه نابليون عنايته إلى تحصين شواطئ مصر وبرزخ السويس لصد الهجمات المنتظرة ، فكلف الجنرال (كليبر) بالعودة إلى دمياط ، والجنرال (رينييه) بالرجوع إلى بلبيس ، وأمر بزيادة تحصين برزخ السويس ، وكلف الجنرال (سانسون) **Sanson** تعهد أعمال التحصين وخاصة فى قلعتى العريش والصالحية ، وزاد فى تحصين الإسكندرية وأمر بترميم قلعة أبو قير التى خربتها المدافع أثناء المعركة .

ولما عاد إلى القاهرة انتهز فرصة الأيام السبعة التى قضاها بها قبل رحيله ليصدر تعليماته بشأن تنظيم الإدارة العليا للبلاد والقيادة العامة للجيش ، ولم يكن خافياً أن القاهرة كانت مركزاً للإدارة العليا كما كانت مقراً للقيادة العامة .

ووجه نظره كذلك إلى الوجه القبلى ، فعين المواقع التى يجب التحصن فيها والحركات التى يقوم بها الجيش فى حالة هجوم العثمانيين من جهة السويس أو على شواطئ البحر الأحمر ، وأوصى الجنرال (ديزيه) فى هذه الحالة بإبقاء القوة الكافية فى القصير لمقاومة نزول أى حملة عسكرية وإبقاء قوة أخرى فى (قنا) للامتناع بها والتوجه بمعظم جيشه إلى القاهرة .

وشرع نابليون منذ رجوعه إلى القاهرة يعد سراً معدات سفره دون أن يكاشف أحداً حتى ولا الذين اختارهم ليرافقوه فى رحلته ، وكان مُحقاً فى تكتمه ، لأن البوارج الإنجليزية كانت تمخر عباب البحر ، فلو ذاع خبر سفره لاتخذ الأسطول الإنجليزى الاحتياطات الكافية لرصده ، ولوقع أسيراً فى قبضة الإنجليز . هذا فضلا عن أن إعلان رحيله يحدث استياء فى نفوس الجنود وربما أدى إلى انتقاضهم وتمردهم فتتضعضع هيبة الجيش وتتحرك روح الثورة فى نفوس الشعب ، لذلك لم يبد عليه فى الأيام التى قضاها فى القاهرة ما يشير إلى اقتراب رحيله ، وصادف فى هذه الفترة يوم المولد النبوى الشريف ١١ ربيع الأول سنة ١٢١٤ (١٣ أغسطس سنة ١٧٩٩) ، فاشترك فى الاحتفال كما احتفل به فى العام السابق ، وحضر الحفلة التى أقامها السيد خليل البكرى نقيب الأشراف يصحبه مصطفى باشا قائد الحملة العثمانية وباقى كبار الضباط الأتراك الذين أسروا فى معركة أبو قير ، ولم يعلم أحد من سكان القاهرة بأنه بعد أيام معدودات راحل عن مصر رحيلا نهائيًا ، وأصدر أمراً عسكريًا فى ١٦ أغسطس بتكليف

القواد فى المديريات إذاعة منشور باللغة العربية على البلاد والقرى لإبلاغ الشعب نبأ احتفاله بالمولد النبوى .

قال الجبرتى عن هذا الاحتفال :

« وفى يوم الثلاثاء حادى عشر ربيع الأول سنة ١٢١٤ عمل المولد النبوى بالأزبكية ودعا الشيخ خليل البكرى سارى عسكر الكبير (نابليون) مع جماعة من أعيانهم وتعشوا عنده وضربوا ببركة (ميدان) الأزبكية مدافع وعملوا حراقة وصواريخ ونادوا فى ذلك اليوم بالزينة وفتح الأسواق والدكاكين ليلا وإسراج قناديل واصطناع مهرجان » .

سفر نابليون من القاهرة :

وارتحل نابليون عن القاهرة نهائياً يوم ١٨ أغسطس سنة ١٧٩٩ ، وأشاع أنه يقصد الذهاب إلى منوف بحجة التفتيش على أحوال البلاد .

وفى ليلة سفره ترك رسالة باسم المسيو بوسليج مدير الشئون المالية ينبئه فيها بأنه مسافر غدًا إلى منوف ويوصيه ببذل الجهد فى تحصيل الأموال المتأخرة ويطلب منه أن يكتب إليه فى منوف ، كتب ذلك وهو يعلم أنه لن يصله شىء فى منوف لأنه إنما اعتزم المضى إلى الإسكندرية ، لكنه أراد أن يبالغ فى كتمان رحيله إلى فرنسا حتى عمن كانوا موضع ثقته .

وكتب رسالة إلى الديوان يقول فيها :

« إنى مسافر غداً إلى منوف ، ومن هناك أذهب إلى بعض بلاد الدلتا لأتحقق بنفسى المظالم التى يشكو منها الناس ، وأتعرف حالة الأهالى والبلاد ، وإنى أوصيكم بضبط الأمن والمحافظة على طمأنينة الشعب ، قولوا لهم إنى أحب المسلمين وأعمل على إسعادهم ، وعرفوهم إنى قادر على حكم الناس إما بالرضا وإما بالقوة ، فبالرضا أكسب الأصدقاء ، وبالقوة أسحق الأعداء ، وأرجو أن تكتبوا لى دائماً عن أخباركم وأن تطلعونى على ما يجرى » .

وهكذا اتخذ نابليون كل الوسائل ليكتم عن الناس مشروع رحيله إلى فرنسا ، واصطحب معه فى سفره من القاهرة الجنرالات (برتييه) و (لان) و (مورا) ، و (اندريوسى) والعالمين (مونج) و (برتوليه) والمسيو (فيفان دينون) و ٢٥٠ من حرس القائد العام بقيادة قائد اللواء بسيير[1] Bessières

---

(١) هو الذى صار الدوق ديسترى Duc d'Istrie فى عهد إمبراطورية نابليون .

وتدل رواية الجبرتى على مبلغ تكتم نابليون مشروع سفره إلى فرنسا ، قال فى حوادث ربيع الأول سنة ١٢١٤ (أغسطس سنة ١٧٩٩) .

« أشيع أن كبير الفرنسيس سافر إلى جهة بحرى ولم يعلم أحد أى جهة يريد ، وسئل بعض أكابرهم فأخبر أن سارى عسكر المنوفية (الجنرال لانوس) دعاه لضيافته بمنوف حين كان متوجهاً إلى ناحية أبو قير ووعده بالعودة إليه بعد وصوله إلى مصر ، وراج ذلك على الناس وظنوا صحته ، ولما كان يوم الاثنين سادس عشر ربيع الأول[٢] خرج مسافراً آخر الليل وخفى أمره على الناس » .

عرض الصلح على تركيا :

قبل أن يغادر نابليون القاهرة عزم على مفاتحة تركيا فى إنهاء حالة الحرب بينها وبين فرنسا وعقد الصلح ، واتخذ انتصاره فى معركة أبو قير فرصة لطلب صلح مشرف ، وكان مصطفى باشا قائد الجيش العثمانى الذى وقع أسيراً فى هذه المعركة مقيماً فى الجيزة يعامل معاملة احترام ، فكلفه نابليون أن يبلغ الصدر الأعظم رسالة مطولة يعرض فيها الصلح على تركيا فأرسلها مصطفى باشا صحبة محمد رشيد أفندى أحد كتاب الديوان الهمايونى الذى كان أسيراً معه ، وهذه الرسالة مؤرخة ١٧ أغسطس سنة ١٧٩٩ ، أعرب فيها نابليون عن مقاصد فرنسا الودية نحو تركيا وذكر الصدر الأعظم بصداقة فرنسا القديمة للباب للعالى وعداء الروسيا والنمسا لتركيا وسعيهما المتواصل من قديم الزمن فى القضاء على السلطنة العثمانية ، وأوضح أن فرنسا باحتلالها مصر لم تكن ترمى إلى نيات عدائية نحو تركيا ، وأنها إنما كانت تحارب المماليك ولم تكن تقصد إلى فصل مصر عن تركيا ، وكانت غايتها السياسية من الحملة محاربة إنجلترا فى الهند وأنها كانت من بدء الحملة تحترم حقوق السلطان ورعاياه وسفنه وأعلامه ، وأبدى نابليون أسفه من تعجل تركيا فى إعلان الحرب على فرنسا فى الوقت الذى أرسلت فيه حكومة الديركتوار سفيرها ديكورش[٣] Descorches إلى الآستانة لتسوية كل خلاف بين البلدين ، ولم يفت بونابارت

---

(٢) يوافق ١٨ أغسطس سنة ١٨٩٩ وهذا يطابق ما ذكرته المراجع الفرنسية .

(٣) كان السكرتير (روفين) هو القائم بأعمال السفارة الفرنسية بالآستانة من عهد وفاة سفيرها الجنرال دوبابيه Dubayet ، ثم عينت الحكومة الفرنسية السفير ديكورش فى سبتمبر سنة ١٧٩٨ وهو الذى يشير إليه نابليون فى رسالته إلى الصدر الأعظم وكان على أهبة السفر للآستانة ، لكن تركيا أعلنت الحرب على فرنسا فعدل عن السفر .

فى رسالته أن يشير إلى قوته الحربية وأنه قادر على صد كل هجوم على مصر ، ولكنه يؤثر الإبقاء على الصداقة التى تربط فرنسا وتركيا من قديم الزمن وعرض الصلح على الباب العالى ، وطلب فى رسالته من الصدر الأعظم أن يفوض لسفيره فى باريس المفاوضة فى قواعد الصلح أو يوفد مندوبًا إلى مصر لهذا الغرض ، ثم سافر نابليون دون أن ينتظر نتيجة هذا السعى فى الصلح وقد أرسل كذلك من قبل إلى بعض الملوك والأمراء الشرقيين كسلطان مراكش وحاكم طرابلس وشريف مكه وأمراء دار فور وسنار والحبشة رسائل ودية تتضمن الدعوة إلى توطيد علاقات المودة معهم .

من القاهرة إلى الإسكندرية :

وصل نابليون إلى منوف فى طريقة إلى الإسكندرية ، فتلقى رسالة من الجنرال (كليبر) ينبئه فيها بأن أربعا وعشرين سفينة عثمانية ظهرت بالقرب من دمياط وأنه يتوقع نزول الجنود التركية إلى البر ، فتردد نابليون أمام هذا النبأ فى أى الطريق يسلكه ، ولكنه بعد أن فكر مليًا اعتقد أن هذه السفن لابد أن تكون جزءاً من العمارة العثمانية التى كانت تقل جنود مصطفى باشا فى أبو قير ، وأنها تقل الجنود الذين نجوا من المعركة فلم يحسب لهم حسابًا ولم يتوجس من جانبهم خطرًا وقد كان حسابه صحيحاً ، وكتب إلى الجنرال كليبر يدعوه إلى موافاته فى رشيد وحدد له يوم ٢٤ أغسطس للمقابلة وقال له فى الرسالة : « إن لدى مسائل غاية فى الأهمية يجب أن أباحثك فيها » .

والواقع أن نابليون كان قد استقر رأيه على اختيار كليبر ليخلفه فى قيادة الجيش وكان يريد الاجتماع به قبل إقلاعه إلى فرنسا ليفضى إليه بآرائه ويصدر إليه تعلياته لكن الظروف حالت دون هذا الاجتماع وذلك أن نابليون تلقى رسالة مستعجلة من الكونترأميرال جانتوم[٤] Ganteaume بالإسكندرية ينبئه فيها بأن جميع السفن والبوارج التركية والإنجليزية قد أقلعت منذ ١٤ أغسطس من مياه الإسكندرية وأن السفن الكشافة الفرنسية قد تجولت فى البحر فلم تر أثراً لسفن الإنجليز والأتراك على بعد عدة أميال ، فأدرك نابليون فى الحال أن مثل هذه الفرصة قد لا تسنح فى المستقبل القريب وأنه إن تأخر عن السفر فقد تعود السفن

---

(٤) هو رئيس أركان حرب العمارة الفرنسية وقد عهد إليه نابليون بقيادة البقية الباقية منها بعد معركة أبو قير البحرية (مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٦٢٤) .

الإنجليزية إلى شواطئ الإسكندرية فتشدد الحصار عليها ورأى ضرورة الإسراع بالسفر للاسكندرية ليركب البحر فى أقرب فرصة فاضطر فى هذه الحال إلى العدول عن مقابلة الجنرال كليبر فى الموعد الذى حدده له وسار تواً إلى الإسكندرية ولم يدخلها حتى لا يلفت إلى سفره الأنظار بل نزل بالمكان الذى كان معروفاً بقصر القياصرة [٥] على شاطئ البحر وقضى الوقت فى انتظار السفن وهناك وافاه الجنرال (منو) ليفضى إليه بتعلماته الأخيرة فأخبره بعزمه على السفر إلى فرنسا وذكر له الأسباب التى دعته إلى ذلك ، وأنه عين الجنرال كليبر ليخلفه فى قيادة جيش الشرق وسلمه عدة رسائل ، منها رسالة للديوان ، وأخرى إلى الجنود والثالثة وهى الأهم للجنرال كليبر ، وثلاث رسائل للجنرال دوجا والمسيو بوسليج والجنرال جونو .

رسالة نابليون إلى الديوان :

ذكر الجبرتى مضمون هذه الرسالة بقوله :

« فى ٢٨ ربيع الأول سنة ١٢١٤ ورد من بونابارته سارى عسكر الفرنساوية كتاب من الإسكندرية خطاباً لأهل مصر وسكانها فأحضر قائمقام (دوجا) الرؤساء المصريين وقرأ عليهم الكتاب ومضمونه أنه سافر يوم الجمعة حادى عشرين الشهر المذكور إلى بلاد الفرنساوية لأجل راحة أهل مصر وتسليك البحر فيغيب نحو ثلاثة أشهر ويقدم مع عساكره فإنه بلغه خروج عمارتهم ليصفو له ملك مصر ويقطع دابر المفسدين وأن المولى على أهل مصر وعلى رياسة الفرنساوية جميعاً كليبر سارى عسكر دمياط » .

قال الجبرتى : « فتحير الناس وتعجبوا فى كيفية سفره ونزوله البحر مع وجود مراكب الإنجليز ووقوفهم بالثغر ورصدهم الفرنساوية من وقت قدومهم الديار المصرية صيفاً وشتاء ولكيفية خلاصه وذهابه أنباء وحيل لم أقف على حقيقتها » .

وقد رجعنا إلى المصادر الفرنسية فوجدنا رسالة نابليون إلى الديوان بنصها الفرنسى تتفق فى معناها مع الخلاصة التى نشرها الجبرتى ، وقد آثرنا نقل خلاصة الجبرتى لأنها هى التى تليت فى الديوان دون الأصل الفرنسى ولأنها لا تختلف عنه فى مجموعها ، والرسالة كما ترى كلها تضليل وإنكار للحقائق فلا عمارة تنتظره ، ولا هو ذاهب لفرنسا لأجل راحة أهل مصر ولا هو قادم مع عساكره ولا هو عازم على العودة إلى الديار المصرية .

---

(٥) موضعه الآن بين سيدى جابر ومحطة مصطفى باشا برمل الإسكندرية .

رسالته إلى الجيش :

أما رسالته إلى الجيش فهذا تعريبها :

« المعسكر العام بالإسكندرية فى ٥ فركتيدور من السنة السابعة للجمهورية (٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٩) .

« أيها الجنود ، إن الأخبار الواردة من أوروبا تحتم عليّ السفر لفرنسا وقد تركت قيادة الجيش للجنرال كليبر ، وسيتلقى الجيش قريبًا أخبارى ، ولا أستطيع أن أقول أكثر من ذلك ، يعز عليّ أن أفارق الجنود الذين ارتبطت بهم بأوثق الروابط ، لكن هذا الفراق ليس إلا وقتيًا ، والقائد الذى تركته لهم حائز لتمام ثقة الحكومة وثقتى .

بونابارت[٦]

رسالته إلى الجنرال كليبر عن الحالة فى مصر :

أما رسالته إلى الجنرال كليبر ، فهى وثيقة على جانب عظيم من الأهمية ، كتبها بإمعان وتفكير ، وصف فيها حالة مصر السياسية وصفًا دقيقًا ، وشرح فيها الخطة التى عهد إلى كليبر باتباعها ، وهى رسالة مطولة[٧] أشبه بتقرير واف ، لذلك رأينا أن نعربها مع شىء من الشرح والبيان .

ذكر فى مقدمة الرسالة أنه ترك للجنرال كليبر أمرًا بإسناد القيادة العامة إليه وأنه عجل بالسفر بحرًا قبل الموعد الذى كان حدده لمقابلته بيومين أو ثلاثة تفاديًا من عودة السفن الإنجليزية إلى الشواطئ ، قبل سفره ، وأنه اصطحب معه القواد (برتبيه) و (لان) و (مورا) و (أندريوسى) و (مارمون) والعاملين (مونج) و (برتوليه) ، وترك له مجموعة الصحف الأوروبية التى تتضمن ما حل بفرنسا من الأحداث والنكبات ، كضياع إيطاليا وحصار (مانتو) و (تورينو) و (تورتون)[٨] ، وأن هذه الأسباب قد دعته إلى الرحيل إلى أوروبا وأنه يأمل أن تستمر مانتو على المقاومة لغاية نوفبر وأن يصل هو إلى أوروبا قبل أول أكتوبر ،

---

(٦) مراسلات نابليون وثيقة رقم ٤٣٨٠ .

(٧) واردة فى مراسلات نابليون وثيقة رقم ٤٣٧٤ .

(٨) من المدن الإيطالية .

وترك بياناً بالشفرة ليراسل الحكومة وبياناً آخر لمراسلته وعهد إليه أن يكلف الجنرال (ديزيه) بالسفر إلى فرنسا فى شهر نوفمبر مالم تحل دون سفره موانع قهرية وأن يسهل على أعضاء لجنة العلوم والفنون الرحيل بعد أن يتموا مهمتهم التى يؤدونها فى الصعيد وهى التنقيب على الآثار القديمة ، وان يستبقى منهم من يرى ضرورة الانتفاع بهم ، وكلفه أن يوفد الأفندى[٩] الذى أسر فى واقعة أبو قير برسالته التى كتبها إلى الصدر الأعظم فى عرض الصلح على تركيا .

وأراد نابليون أن يبعث فى نفس كليبر الأمل فى إمكان وصول المدد إليه ، فقال فى رسالته إن وصول الأسطول الفرنسى من ميناء (برست) الواقعة على الأقيانوس الأعظم إلى طولون (بالبحر الأبيض المتوسط) ووصول أسطول إسبانيا حليفة فرنسا فى ذلك الحين إلى قرطاجنة ، كل ذلك لا يدع شكًا فى إمكان إرسال الذخائر والمدد من فرنسا إلى مصر بطريق البحر ، ووعده بأن تبلغه الحكومة مقاصدها وأن يمده هو بالرسائل والأخبار .

رأى نابليون فى الجلاء عن مصر :

على أن نابليون كان مدركًا حرج موقف الجنرال كليبر . فأجاز له فى رسالته بأن يتفاوض مع تركيا فى عقد الصلح ، وأوضح آراءه عن موقف مصر السياسى وموقف فرنسا حيالها ، قال : فإذا حالت ظروف قهرية دون إمدادكم ، وحل شهر مايو المقبل (سنة ١٨٠٠) دون أن تتلقوا المدد من فرنسا أو يصلكم نبأ منها ، واستمر الطاعون هذا العام يفتك بالجنود رغم الاحتياطات الصحية وزادت ضحاياه على ١٥٠٠ جندى ، فعليك فى هذه الحالة ألا تغامر بالجيش فى الحرب والقتال ، ولك أن تعقد الصلح مع تركيا ولو كان شرطه الأساسى الجلاء عن مصر ، ولكن فى هذه الحالة يجب بقدر المستطاع تأجيل تنفيذ هذا الشرط إلى أن يعقد الصلح العام ، إنك تقدر مثلى أهمية امتلاك فرنسا للديار المصرية ، وتعلم أن السلطنة العثمانية التى يتهددها الفناء من كل جانب قد أخذت تنهار دعائمها وتتفكك أوصالها ، فجلاؤنا عن مصر يكون نكبة ، وستدرك عظم هذه النكبة عندما نرى هذه البلاد الجميلة تحتلها دولة أوروبية أخرى ، ولابد أن يدخل فى حسابك أثناء مفاوضات الصلح أنباء انتصارات الجمهورية فى ميادين القتال أو هزائمها ، فإذا لبى الباب العالى دعوة الصلح التى وجهتها إليه ودخلتم فى مفاوضات الصلح قبل أن تأتيكم أنباء فرنسا فعليكم أن تصرحوا بأن لديكم السلطة

(٩) يريد رشيد أفندى أحد كتاب الديوان الهمايونى الذى أسر مع مصطفى باشا فى واقعة أبو قير البرية .

التى كانت لى فى إجراء المفاوضات وأن تؤيدوا وجهة النظر التى أبديتها فى دعوة الصلح وأن فرنسا لم تكن تقصد فى أى وقت انتزاع مصر من السلطنة العثمانية ، وعليكم أن تطلبوا من تركيا أن تخرج من التحالف الإنجليزى وأن تجعل لنا حرية الملاحة والتجارة فى البحر الأسود وتطلق سراح الفرنسيين المسجونين فى بلادها وأن تعقد هدنة ستة أشهر يوقف فيها القتال ويجرى فيها تبادل التصديق على معاهدة الصلح ، وإذا رأيتم أن الظروف تقضى بإبرام تلك المعاهدة مع الباب العالى فعليكم أن تبرهنوا أن ليس فى مقدوركم تنفيذ المعاهدة قبل التصديق عليها ، وأنه يجب عقد هدنة بعد إمضاء المعاهدة ريثما يتم التصديق عليها » .

رأيه فى حالة مصر الداخلية :

ثم تكلم نابليون عن حالة مصر الداخلية ومعالجة الشعب المصرى ، فنصح كليبر بأن يستميل إليه العلماء . قال فى هذا الصدد :

« إن من يكسب ثقة كبار المشايخ فى القاهرة يضمن ثقة الشعب المصرى ، وليس بين رؤساء هذا الشعب من هم أقل خطراً من مشايخه ، لأنهم قوم هيابون لم يألفوا خوض غمار القتال ، على أنهم رمز للتعصب ولو أنهم ليسوا متعصبين ، فهم من هذه الوجهة يشبهون القسس » .

حصون مصر :

ونوه فى رسالته باستحكامات مصر وقال عن مواقع الإسكندرية والعريش إنها مفاتيح البلاد المصرية وإنه كان عازمًا على أن يقيم فى الشتاء المقبل استحكامات وخطوطًا محصنة من جذوع النخيل بحيث يكون بين الصالحية وقطية خطان من الاستحكامات ، وبين قطية والعريش خطان آخران ، وأوصى الجنرال كليبر بالاعتماد على الجنرال (سانسون) قائد فرقة الهندسة والجنرال (سونجى) قومندان المدفعية فى إقامة الاستحكامات والأعمال الداخلة فى اختصاص كل منهما ، وأوصاه ببناء حصن فى البرلس لأن البوارج الإنجليزية لا يفوتها أن تقترب من شواطئ الإسكندرية والبرلس ودمياط .

الإدارة المالية ومشروعات أخرى :

وأوصاه بالاعتماد على المسيو بوسليج فى إدارة الشئون المالية وقال عنه : « إنى عرفت فيه

رجل عمل وكفاية جديراً بأن يقدر قدره وقد بدأ يعرف حقائق الأمور فى فوضى الإدارة المصرية » .

ونصحه بالتريث والأناة فى إصلاح نظام الضرائب وتحصيلها فى مصر ، وتعرض فى رسالته إلى مشروعات استعمارية ومسائل ثانوية لم يفته التفكير فيها فى تلك الأوقات العصيبة ، فأوصاه باعتقال خمسمائة أو ستمائة من المماليك أو من رهائن العرب ومشايخ البلاد (العمد) وإرسالهم إلى فرنسا فى حالة استئناف المواصلات البحرية ليبقوا بها سنة أو سنتين ، وغاية نابليون من ذلك «أن يروا عظمة الأمة الفرنسية ويقتبسوا عاداتنا وأخلاقنا وأفكارنا ولغتنا ويعودوا إلى مصر فينشروا هذه المقتبسات بين مواطنيهم » .

ثم وعد الجنرال كليبر بأن يرسل له فرقة من الممثلين كان قد أوصى عليها من قبل «لتسد حاجة الجيش ولتألف البلاد شيئاً جديداً من العادات الغربية » .

ختام الرسالة :

وختم رسالته بكلمات مؤثرة أراد أن يكسب بها قلب الجنرال كليبر ويرغبه فى المهمة التى ألقاها على عاتقه ، قال :

« إن المركز الرئيسى الكبير الذى ستشغله سيتيح لك أن تستخدم مواهبك التى حبتك بها الطبيعة ، فإن ما يقع فى مصر سيكون له نتائج عظيمة المدى فى تقدم التجارة وارتقاء المدنية والحضارة ، وسيكون هذا العصر مصدراً للانقلابات الكبيرة . أما أنا فإنى أغادر مصر والأسف يملأ قلبى ، على أنى ما تعودت أن أنتظر الجزاء الأوفى على متاعبى وجهودى فى الحياة إلا فى حكم الأجيال المقبلة ، وإن مصلحة الوطن ، ومجده ، وواجب الطاعة لندائه ، والحوادث المحزنة التى وقعت أخيراً ، كل ذلك يلجئنى إلى أن أغامر بنفسى وسط أساطيل الأعداء لأصل إلى أوروبا ، على أنى سأكون معك بقلبى وفكرى ، وستكون انتصاراتك عزيزة فى نفسى أبتهج بها كما لو كانت لى ، وسأعد من أيام النحس كل يوم لا أعمل فيه شيئًا لمصلحة الجيش الذى تركت لك قيادته ولا أبذل فيه جهداً لتوطيد البناء الذى أقيمت قواعده .

« إن الجيش الذى عهدت إليك بقيادته مؤلف كله من جنود هم أبناء لى ، وقد شعرت فى كل لحظة حتى فى أوقات المحن بدلائل تعلقهم بى ، فلتدم هذه العواطف لك ، ولتعمل على

توكيدها ، فهذا واجبك حيال مالك فى نفسى من المحبة والاحترام وما بينى وبينهم[١٠] من الروابط التى لا انفصام لها .

« بونابارت »

بهذه العبارات الرقيقة ختم نابليون رسالته إلى كليبر ، ثم أردف هذه الرسالة بأمر عسكرى واجب الطاعة هذا نصه :

« أمر إلى الجنرال كليبر بأن يتولى القيادة العامة لجيش الشرق بناء على استدعاء الحكومة إياى لأكون بجانبها .

« بونابارت »

أما رسائل نابليون إلى الجنرال دوجا والمسيو بوسليج والجنرال جونو فلا تخرج عن إنبائهم بسفره واستخلافه الجنرال كليبر فى قيادة الجيش .

سلم نابليون هذه الرسائل إلى الجنرال (منو) وكلفه توصيل كل رسالة إلى من كتبت له ، على أنه أوصاه بألا يذيع أمر سفره ولا يبعث برسالته إلى الديوان إلا بعد ثمان وأربعين ساعة من إقلاع السفن المقلة له ولرفاقه ، وعين الجنرال (منو) قومنداناً للإسكندرية ورشيد والبحيرة .

إقلاع السفن

كانت السفن المعدة لسفر نابليون ورفاقه على أهبة الإقلاع ، ففى ٢٢ أغسطس فى منتصف الساعة العاشرة ليلا ركب نابليون السفينة لامويرون La Muiron التى كانت راسية بالقرب من برج السلسلة بطرف الميناء الشرقية وتولى قيادتها الكونتر أميرال جانتوم وأبحرت السفن الأربع[١١] قاصدة شواطئ فرنسا ، وكان رفقاء نابليون فى تلك الرحلة هم بورين Bourienne سكرتيره الخاص ، ومن القواد برتييه Berthier رئيس أركان حربه وأندريوسى Andreossi ومورا Murat ولان Lanne ومارمون Marmont وهم صفوة المخلصين له .

ومن أعضاء المجمع العلمى مونج Monge وبرتوليه Berthollet ودينون Denon

---

(١٠) قوله (وبينهم) يطابق الأصل الفرنسى الوارد فى مراسلات نابليون ، أما الصيغة الواردة فى كتاب (ريبو) الجزء السادس فهيا (وبينك) أى أن الخطاب هنا لكليبر ، ولكننا اعتمدنا الأصل الوارد فى مراسلات نابليون لأنه أحق بالثقة .

(١١) سفينتان حربيتان من نوع الفرقاطة وسفينتان كشافتان .

وبرسيفال دى، جرانميزون ، ومن الياوران لافاليت Lavalette وديروك Duroc وبوهارنية Beauharnais (صهره) ومرلين Merlin ولويلييه L'Huilier ومونتيسى Montessy

وظلت السفن تمخر عباب البحر الابيض المتوسط والمخاوف تكتنفها مدة ثمانية وأربعين يوماً ، إلى أن رست فى خليج فريجوس Frejus جنوبى فرنسا يوم ٩ أكتوبر سنة ١٧٩٩ [١٢] ، فنزل إلى البر الرجل العظيم الذى كانت تنتظره لتسلم إليه مقاليدها .

الاحتفال بوفاء النيل بعد سفر نابليون

وجرى الاحتفال بوفاء النيل فى تلك السنة (أغسطس سنة ١٧٩٩–ربيع الأول سنة ١٢١٤) بعد سفر نابليون كالمعتاد ، ورأس الاحتفال الجنرال دوجا ، ولم يلحظ أحد غياب نابليون لأن دوجا كان معروفًا أنه «القائمقام»وكتب الشيخ أحمد العريشى قاضى قضاة مصر حجة الوفاء ، وقد ترجم علماء الحملة الفرنسية هذه الوثيقة إلى لغتهم ونشرت فى كتاب تخطيط مصر[١٣] Description de L-Egypte وهى لا تخرج عن حجة وفاء النيل التى تحرر كل سنة إلى اليوم ، وقد تضمنت بيان أسماء العلماء والأعيان الذين جرى الاحتفال بحضورهم ، وإليك أسماءهم بترتيب ذكرهم فى الحجة : الشيخ أحمد العريشى قاضى قضاة مصر ، السيد خليل البكرى الصديق ، الشيخ عبد الله الشرقاوى ، الشيخ محمد الحفناوى[١٤] الشهير بالمهدى ، الشيخ مصطفى الصاوى ،الأمير مصطفى أغا عبد الرحمن أغا الانكشارية (محافظ القاهرة) ، الحاج أحمد العقاد الشهير بالمحروق كبير التجار ، الأمير حسن أغا المحتسب ، الأمير على أغا الشعراوى والى الشرطة ، الأمير يوسف شوربجى باشجاويش التفكجية ، الأمير يوسف شوربجى باشجاويش الهجانة ، الأمير مصطفى أغا باش اختيار وجلق المتفرقة[١٥] ، الأمير مصطفى أفندى عاصى كاتب أول وجاق المتفرقة ، الأمير إبراهيم كخيا عزبان ، إسماعيل أفندى كاتب الأحوال .

---

(١٢) اعتمدنا فى هذا التاريخ على ما ورد فى مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة ٤٣٨٣ فقد ورد فيها أن رسو السفن يوم (١٧ فاندميير) من السنة الثامنة وهذا يوافق ٩ أكتوبر سنة (١٧٩٩) .

(١٣) الجزء الخامس عشر.

(١٤) كذا فى كتاب تخطيط مصر ، والصواب الحفنى .

(١٥) باش اختيار هو أقدم ضباط الوجاق (الفرقة) انظر الجزء الأولى ص ١٣ من الطبعة الأولى .

وأضافت الحجة إلى من ذكرتهم بالاسم « وبحضور جمهور كبير عدا هؤلاء من الأعيان ذوى المكانة والاعتبار ممن لا يتسع المقام لذكرهم » .

وذكر فى الحجة أن الاحتفال جرى بحضور الجنرال دوجاقائمقام القاهرة ، وإليك خلاصة ما ذكره الجبرتى فى هذا الصدد :

« وفى يوم الاثنين رابع عشرينه[١٦] الموافق لتاسع مسرى القبطى كان وفاء النيل المبارك فنودى بوفائه على العادة ، وأكثر الفرنسيس فى تلك الليلة وصباحها من رمى المدافع والصواريخ من المراكب والسواحل وباتوا يضربون أنواع الطبول والمزامير ، وفى الصباح ركب دوجاقائمقام وصحبته أكابر الفرنسيس وأكابر أهل مصر ، وحضروا إلى قصر السد وجلسوا به واصطفت العساكر بين الروضة وبر مصر القديمة بأسلحتهم وطبولهم وبعضهم فى المراكب لضرب المدافع المتتالية إلى أن انكسر السد وجرى الماء فى الخليج فانصرفوا » .

والتاريخ الذى أورده الجبرتى عن وفاء النيل يختلف عن كتاب تخطيط مصر ، فالجبرتى يقول إن وفاء النيل كان يوم الاثنين ٢٤ ربيع الأول الموافق ٩ مسرى ، لكن حجة الوفاء المترجمة فى كتاب تخطيط مصر تتضمن أنه يوم الجمعة ٢١ ربيع الأول الموافق ١٩ أمشير ، ويلوح لنا أن رواية الجبرتى أحق بالثقة ، فقد رجعنا إلى كتاب (التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنجية والقبطية) لمؤلفه اللواء المصرى محمد مختار باشا فوجدناه قد أثبت أن وفاء النيل سنة ١٢١٤ هجرية كان يوم ٩ مسرى ، وهذا يؤيد رواية الجبرتى ، وأغلب الظن أنه وقع تحريف فى ترجمة حجة الوفاء الواردة بكتاب تخطيط مصر.

* * *

(١٦) ربيع الأول سنة ١٢١٤ الموافق ٢٦ أغسطس سنة ١٧٩٩ .

الفصل السادس

قيادة الجنرال كليبر

إن الرجل الذى ألقيت إليه مقاليد القيادة العامة لجيش فرنسا فى مصر واحتمل تبعة مواجهة الشعب المصرى ومعالجة الحالة السياسية والحربية فى البلاد ، هذا الرجل جدير بأن نذكر شيئاً عنه وعن شخصيته .

شخصية كليبر :

ولد الجنرال كليبر فى مدينة (ستراسبورج) عاصمة الألزاس سنة ١٧٥٣ ، فهو الزاسىّ المولد والنشأة ، ظهرت مواهبه الحربية فى حروب الثورة الفرنسية وخاصة فى ميادين القتال فى (شامبانيا) و (الفانديه) وفى معارك (شارلروا) و (فلوروس) و(مايستريك) وغيرها ، وهو معدود من خيرة قواد الجيش الفرنسى وأكفئهم ، وله فى نفوس الجنود والضباط وقواد الجيش منزلة كبيرة لما اتصف به من الصراحة والشجاعة والإقدام ، إلى ما امتاز به من النزاهة وعلو النفس ، وكان من خاصة أصدقاء نابليون الذى كان يقدر فيه صفاته العسكرية العالية ، وقد اجتمعا فى ميادين القتال فارتبطا بأوثق صلات المودة ، وهبطا مصر صديقين حميمين ، غير أن علاقتهما قد اعتراها فى عهد من الزمن شىء من الفتور والجفاء ، ويرجع ذلك إلى ما اتصف به كليبر من الأنفة والشمم ، فكان من بين قواد الحملة الفرنسية القائد الوحيد الذى عارض نابليون فى بعض أفكاره ومواقفه ، ولم يكتم معارضته بل صارح بها قواد الجيش وضباطه .

الجفاء بين كليبر ونابليون :

ظهرت هذه المعارضة حينما كان كليبر قومندانًا للإسكندرية ، فكان يعترض على بعض أوامر نابليون ، مما أدى إلى حنقه واستيائه . وتبادل القائدان رسائل فى العتاب تجلت فيها نفس

كليبر العالية التى لا تحتمل الضيم ولا تقيم على الذل . فهو كما قدمنا[1] لم ير فائدة فى إنفاق المال على إحياء البحرية الفرنسية بعد أن اندثرت فى واقعة «أبو قير» . وكان يعتقد أن موارد الجيش محدودة وحاجاته كثيرة ومهما أنفق من المال على البحرية فهو عبث ضائع لأن السفن الباقية من العمارة الفرنسية لا يمكن مهما زادت قوتها أن تثبت أمام الأسطول الإنجليزى ، وكان (قبل أن يتولى القيادة العامة) يكره الالتجاء إلى فرض الغرامات والقروض الإجبارية فى تدبير المال . فحدث أن نابليون أرسل مائة ألف فرنك إلى الإسكندرية لينفق منها القوميسير (لروا) مدير مهمات الأسطول على إصلاح البحرية . لكن الجنرال كليبر دفع منها رواتب الجنود وعطاءهم المتأخر . وأرسل بتاريخ ٢٨ أغسطس سنة ١٧٩٨ إلى نابليون يعتذر إليه بأن الضرورة الملجئة اضطرته إلى هذا التصرف لأن خزانة الجيش كانت خالية من المال . ولأنه ليس من حسن السياسة الالتجاء إلى فرض الغرامات أو القروض الإجبارية .

فأرسل له نابليون (بتاريخ أول سبتمبر سنة ١٧٩٨) خطاباً شديد اللهجة يعنفه فيه على تصرفه فى المائة ألف فرنك ، وطلب إليه أن يرد لفوره المبلغ إلى مدير المهمات لينفقه فى إصلاح البحرية ، وألا يخالف الأوامر التى يصدرها ، لأن لها أسباباً فوق معرفته وإحاطته ، ولم يكتف نابليون بذلك بل رماه بأنه ينفق على القوة الحربية فى الإسكندرية ضعف ما ينفق على قوات الجيش فى المدن الأخرى ، وأن نفقات المستشفى العسكرى بالثغر تزيد عن نفقات جميع المستشفيات ، يريد نابليون التعريض بنزاهة كليبر ، فلم يطق هذا صبراً ولم يقر على هذه الإهانة ، وردّ عليه برسالة يستعفيه بها من منصبه . ويقول فيها :

« لقد كنت أتوقع ألا تقروا تصرفى فى مبلغ المائة ألف فرنك لأسد حاجات الجيش ، مع أن الضرورة الملجئة يمكن أن تبرر عملى ، على إنى ما كنت أتوقع أن أستهدف للوم فى إدارة أموال الجيش ، فإذا كان صحيحًا أن الإسكندرية قد كلفت الخزانة ضعف ما تتكلفه المواقع الأخرى ، وبصرف النظر عن أن هناك غرامات فرضت فى جهات أخرى ولم تفرض فى الإسكندرية وأن جزءاً من نفقات الإسكندرية دفع لقسم الهندسة والمدفعية والبحرية ، فمعنى ذلك أنى متهم بتبديد أموال الجيش . لذلك أبادر بطلب إجراء تحقيق عن تصرفاتى .

« إنك نسيت يا مواطنى الجنرال عندما كتبت خطابك أنك تمسك فى يدك زمام التاريخ . وأنك تكتب إلى كليبر ! على أنى أستبعد أن يكون من قصدك السوء بسمعتى . فليس من أحد

---

(١) انظر الجزء الأول ص ٢٤١ من الطبعة الأولى .

يصدقك فى ظنَّةٍ بى . وإنى منتظر يا مواطنى الجنرال فى رجع البريد أمراً منك بوقفى عن العمل لا فى الإسكندرية فقط بل فى الجيش أيضًا حتى يتبين لك حقيقة ما يجرى وما جرى هنا . لأنى لم أهبط مصر طمعاً فى الثروة ، فلقد عرفت إلى الآن كيف أحتقر المال . ولا أقبل أن تحوم حولى أية ريبة » .

وصلت هذه الرسالة إلى نابليون ، فتأثر من لهجة كليبر الدالة على التبرم والألم فكتب إليه يسترضيه بقوله :

« تلقيت الساعة يا مواطنى الجنرال رسائلك الرقيمة ١٩ و ٢٠ و ٢١ [٢] ، ولقد عز علىّ أنك أولت خطابى المؤرخ ١٥ إلى غير المعنى الذى يؤديه ، وإذا كنت ممسكًا بيدى زمام التاريخ فأنت أولى الناس بألا يضيره ذلك » .

على أن كليبر لم يقنع بهذا الخطاب ، وألح فى إقالته من منصبه ، واعتذر بضعف صحته ، وبأن الجرح الذى أصابه فى فتح الإسكندرية يحول دون بقائه ، ثم طلب أن يؤذن له بالعودة إلى فرنسا ، ولما بلغ الجفاء هذا الحد دخل الجنرال (كافريللى) بين القائدين لاستلال هذه الضغينة ، وإزالة سوء التفاهم ، وكان نابليون يقدر صفات كليبر ومواهبه ويرى أنه فى حاجة إلى كفاءته ، فكتب إليه بتاريخ ٤ أكتوبر سنة ١٧٩٨ يسترضيه بالخطاب الآتى :

« مواطنى الجنرال ، أخبرنى الجنرال كافريللى برغبتكم ، ويسوءنى كثيراً أن حالتك الصحية قد ألم بها الانحراف ، على أنى أرجو أن يكون فى هواء النيل ما يعيدها إليك على ما كانت ، وإنك إذا تحولت عن رمال الإسكندرية فستجد مصرنا (تأمل !) أقل رداءة مما كنا نظنه من قبل ، تقبل منى تمنياتى لك بالشفاء العاجل ، وتأكد من تقديرى وصداقتى لك ، إنى لأخشى أن يكون قد وقع جفاء بيننا ، وأنك لتظلمنى إذا شككت فى مبلغ تألمى من وقوع هذا الجفاء ، يقولون إن السحاب إذا تراكم فى سماء مصر لا يلبث أن ينقشع فى ست ساعات ، أما من جهتى فإذا نشأ سحاب يعكر من علاقاتنا فإنه ينقشع فى ثلاث ، إن تقديرى لك يعادل على الأقل ما أبديته نحوى من العواطف ، فأرجو أن أراك قريباً فى القاهرة كما أخبرك الجنرال كافريللى ، وأختم بإهدائك تحياتى وعواطف محبتى وإخلاصى . بونابارت » .

هذا هو الخطاب الذى كتبه نابليون إلى كليبر ترضيةً له ، وهو كما ترى يتضمن أرق أنواع الاعتذار والثناء ، فلم يسع كليبر إلا أن يتقبل هذه الترضية ويعدل عن استقالته وسافر إلى

(٢) من شهر فركتيدور (٥ و ٦ و ٧ سبتمبر سنة ١٧٩٨) .

القاهرة تلبية لطلب نابليون فدخلها يوم ٢٢ أكتوبر سنة ١٧٩٨ أثناء شبوب الثورة فيها .

أزال كتاب نابليون سوء التفاهم بينه وبين الجنرال كليبر ، ولعلك تذكر من أمر نابليون أنه عندما ارتحل إلى السويس فى شهر ديسمبر سنة ١٧٩٨ [٣] استخلف كليبر فى القاهرة مدة غيبته [٤] ، ثم اختاره ضمن القواد الذين اصطحبهم فى الحملة على سوريا وعينه فى الوقت نفسه (١٧ يناير سنة ١٧٩٩) حاكمًا لدمياط وقومندانًا للفرقة التى بها [٥] وهى فرقته القديمة التى كان يتولى قيادتها قبل أن يجرح يوم احتلال الإسكندرية [٦] ، وقد ظهرت مواهبه ومزاياه الحربية فى فتح (يافا) وفى معركة (جبل طابور) ، ولما عاد الجيش الفرنسى من سوريا ذهب كليبر إلى دمياط مقر فرقته وبقى بها إلى أن سافر نابليون إلى فرنسا واستخلفه على القيادة العامة ، كل هذا يدلك على ثقته به .

على أن الجفاء القديم قد ترك أثرًا فى نفس كل منهما ، ولو تأملت فيما كتبه نابليون عن كليبر فى مذكراته لطالعتك عباراته بروح ذلك الجفاء الذى كان يشعر به كلاهما نحو الآخر ، وكذلك تنتهى إلى هذه النتيجة إذا قرأت مذكرات كليبر ويومياته ، وليس من موضوع كتابنا أن نخوض فى هذه ولا فى تلك ، ويحسبنا أن نستنتج منهما مبلغ ما كان بين القائدين من النفرة وأن هذا الجفاء ظهرت آثاره فى مذكرات نابليون التى أملاها فى منفاه بعد أكثر من خمسة عشر عامًا لقتل كليبر ، فإذا تركنا هذه الاعتبارات جانبًا ، فإنه مما يجدر ملاحظته أن كليبر بعد إخفاق الحملة على سوريا لم يقلع عن التصريح بتخطئة نابليون فى بعض تصرفاته أثناء تلك الحملة ، لذلك كان اختيار نابليون إياه ليخلفه فى القيادة العامة عملا منطويًا على صدق الوطنية ، لأنه ضحى بالاعتبارات الشخصية فى سبيل مصلحة فرنسا وأسند إلى كليبر هذا المركز الخطير مع ما كان بينهما لأنه رأى فيه أليق قواد الجيش للاضطلاع بهذه المهمة [٧] واستشف بثاقب نظره أنه كذلك يجمع إلى المواهب العسكرية صفات الحزم والأناة والكفاية الإدارية ، وكانت منزلة كليبر عند الجيش كبيرة وخاصة فى نظر الجنود التى حاربت من قبل فى ميادين

---

(٣) انظر ص ٢٠ .

(٤) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٧٩٨ .

(٥) مراسلات نابليون وثيقة رقم ٣٨٦٧ .

(٦) لما جرح كليبر فى حصار الإسكندرية تنحى عن قيادة الفرقة للجنرال دوجا فعرفت حينئذ بفرقة دوجا .

(٧) جاء فى مذكرات نابليون إن الجنرال ديزيه يفوق كليبر فى الكفاءة ولكن نابليون أراد الانتفاع بالجنرال ديزيه فى فرنسا فاستدعاه إليها وسافر بعد التوقيع على معاهدة العريش كما سيجىء بيانه .

الرين ، لأنها كانت تقدر كفاية القائد الألزاسى تقديرًا عاليًا ، فرأى فيه نابليون خير من يستطيع كسب ثقة الجيش ومحبته .

كان الجنرال كليبر مرابطًا فى دمياط مع فرقته حينما أرسل إليه نابليون يستدعيه لمقابلته فى رشيد ، فلما بلغته الدعوة أسرع إليها فدخلها يوم ٢٤ أغسطس ، ولشدَّ ما كانت دهشته حينما علم بأن القائد العام نزح إلى فرنسا ولم يفكر حتى فى الحضور لرشيد براً بالوعد الذى واعده ، وكان كليبر يجهل حتى تلك اللحظة أن نابليون قد اختاره ليخلفه فى القيادة العامة ، فكبر عليه الأمر وحسب نابليون يهزأ به فى استدعائه إلى رشيد لمقابلته فى حين أنه سافر إلى فرنسا قبل الموعد المضروب ، وتحرك فى نفسه الجفاء القديم ، وأظهر حنقًا شديداً على صاحبه ، بيد أنه ما لبث أن تلقى عهد نابليون إليه ورسالته للجيش وللديوان ، فتغيرت حالته النفسية واستشعر عظم التبعة التى ألقيت على عاتقه ، وأخذ يفكر فما يستقبل من أمره .

موقف كليبر بعد إسناد القيادة العامة إليه

أكبَّ الجنرال كليبر على رسائل نابليون وتعلماته ووصاياه يطالعها ويتأملها ، ويكتنه أسرارها ، فشرع فى وضع الخطة التى يسير عليها ، واعتزم أن يتم العمل الذى بدأ به سلفه ، ولأجل أن يمهد السبيل لاستمرار العمل دون التواء أو اضطراب فى الأفكار أذاع بين قواد الجيش منشوراً سوَّغ فيه رحيل نابليون وأهاب بوطنية القواد ودعاهم إلى معاونته فى مهمته الجديدة ، قال فيه :

« إن القائد العام قد سافر إلى أوروبا ليلة ٥-٦ فركتيدور (٢٢-٢٣ أغسطس سنة ١٧٩٩) وإن الذين يعرفون منكم مبلغ اهتمامه بنجاح الحملة الفرنسية فى مصر يجب أن يقدروا الأسباب القوية التى دعته إلى السفر وأن يعتقدوا فى الوقت نفسه أننا سنكون على الدوام موضع عطفه ، وسيكون لنا بين مشروعاته وأعماله العظيمة حظ كبير من عنايته ، فهو القائل لى : « إنى سأكون معك بقلبى وفكرى وستكون انتصاراتك عزيزة فى نفسى أبتهج بها كما لو كانت لى ، وسأعد من أيام النحس كل يوم لا أعمل فيه شيئاً لمصلحة الجيش الذى تركت لك قيادته » ، فيجب علينا أن نستشعر السرور لسفر القائد العام بدلا من أن نتوجع لذلك ، إن الفراغ الذى تركه بونابرت فى الجيش وفى حالتنا المعنوية فراغ عظيم ، ولا يسعنا أن نملأه إلا

بمضاعفة الجهد والنشاط والتعاون على العمل ليخف العبء الملقى على عاتق خلفه ، وإنكم مدينون بهذا الواجب لوطننا ولمجدكم ولما أشعر به من الإخلاص فى تقديركم ومحبتكم » .

بهذا المنشور بدأ كليبر عمله الجديد ، وتلاقى فى رشيد بالجنرال (منو) قادماً من الإسكندرية ، فأقره فى المركز الذى عينه فيه نابليون ، وفى يوم دخوله القاهرة أذاع بلاغاً بين الجنود بتاريخ ٣١ أغسطس سنة ١٧٩٩ أبلغهم فيه نبأ سفر نابليون وتعيينه خلفاً له ودعاهم إلى الاستمرار فى واجبهم والاطمئنان على مصيرهم .

وكان الجيش فى القاهرة قد تلقى نبأ سفر نابليون ، فاضطربت الأفكار وكثر اللغط ونشر الجنرال (دوجا) قومندان القاهرة بلاغاً رسمياً فى ٢٩ أغسطس برحيل نابليون وتعيين الجنرال كليبر خلفاً له ، وجمع أعضاء الديوان فى جلسة رسمية وأبلغهم تعيين الجنرال كليبر قائداً عاماً للجيش ، ولم يحدث سفر نابليون فى أذهان المصريين تأثيراً كبيراً لأن انتصار الجيش الفرنسى فى معركة (أبو قير) كان قد أكسب الفرنسيين قوة معنوية بحيث لم يكن تغيير القائد العام ليزعزع من نفوذهم ، فقابل الشعب سفر نابليون وتعيين كليبر خلفاً له بعدم الاكتراث .

مقابلته لأعضاء الديوان :

جاء كليبر القاهرة ، واستقر فى بيت الألفى بك الذى كان يسكنه نابليون فى الأزبكية ، فاستقبل كبار الفرنسيين ثم أعضاء الديوان ، قال الجبرتى فى هذا الصدد : « ذهب أكابر البلد من المشايخ والأعيان لمقابلة سارى عسكر الجديد للسلام عليه ، فلم يجتمعوا به ذلك اليوم ، ووعدوا إلى الغد فانصرفوا ، وحضروا فى ثانى يوم وقابلوه فلم يروا منه بشاشة ولا طلاقة وجه مثل بونابارته فإنه كان بشوشاً يباسط الجلساء ويضحك معهم » .

وملاحظة الجبرتى جديرة بالنظر ، لأن كليبر كانت تنقصه حقيقة ميزة نابليون فى كسب القلوب ومباسطة جلسائه ، وهى ميزة كبيرة كانت من أخص مزايا نابليون فى حياته ، وكانت من الأسباب التى حببته إلى قلوب الرجال والجماهير ، فقد كان يأسر القلوب ببساطته ودعابته ، أما كليبر فقد شرع فى إحاطة نفسه بمظاهر الأبهة والجبروت متخيلا أنها تؤثر فى الشرق وفى نفوس الشرقيين ، قال ريبو فى هذا الصدد :

« إن بونابارت كان يمتاز بأساليبه البسيطة المألوفة وعاداته البعيدة عن الفخفخة والأبهة ، أضف إلى تلك قامته القصيرة وقوامه الضئيل ، ومع ذلك فقد كان المصريون يقدرون عظمة

بونابارت فيقولون عنه « بونابارت الكبير » بينما كانوا يقولون عن خلفه « كليبر الطويل »[٨] .

وسواء أصحت رواية ريبو أم كانت من تصورات الخيال فإنها تدل على مبلغ الفرق بين نابليون وكليبر فى الميول والنزعات .

ويقول ريبو أيضاً إن كليبر حتم أن يؤدى له الناس ما كان يؤدى للباشوات الولاة والبكوات المماليك من مظاهر الإجلال والتكريم ، وغنى عن البيان أن مثل هذه الأوامر لم يكن من شأنها أن تحببه إلى نفوس الناس ولا أن تجتذب إليه القلوب .

قال الجبرتى فى وصف موكب كليبر وفى مروره بالمدينة :

« وفى يوم الجمعة سادس ربيع الثانى سنة ١٢١٤ ركب سارى عسكر الجديد من الأزبكية ومشى فى وسط المدينة فى موكب حافل حتى صعد إلى القلعة ، وكان أمامه نحو الخمسمائة قواس وبأيديهم النبابيت وهم يأمرون الناس بالقيام والوقوف على الأقدام لمروره ، وكان صحبته عدة كثيرة من خيالة الإفرنج وبأيديهم السيوف المسلولة والوالى (رئيس الشرطة) والأغا (المحافظ) وبرطلمين (برتلمى وكيل المحافظ) بمواكبهم وكذلك القلقات والوجاقلية وكل من كان مولى من جهتهم ومنضماً إليهم » .

وذكرت جريدة (كورييه دليجبت[٩]) مقابلة كليبر لأعضاء الديوان ووصفت هذه المقابلة فى حينها ، قالت : « قابل القائد العام كليبر يوم ١٦ فركتيدور هيئة الديوان وأكابر العلماء وأعيان البلاد ، فتكلم الشيخ محمد المهدى بالنيابة عن هيئة الديوان وأبدى أسفه لسفر الجنرال بونابارت ، وأعرب عن أمله فى عدالة خلفه واستقامته ، فأجابهم الجنرال كليبر بقوله : « أيها العلماء إنى أريد أن أجيبكم على تمنياتكم بأعمالى لا بأقوالى ، على أن الأعمال تأتى بطيئة ، ويظهر أن الشعب متشوق إلى معرفة المصير الذى ينتظره فى عهد الرئيس الجديد ، فقولوا للشعب إن الجمهورية الفرنسية بإسناد حكومة مصر إلىّ كلفتنى على الأخص بأن أسهر على سعادة الشعب المصرى ، وإن هذه المهمة هى من بين مهمات مركزى أحبها إلى قلبى » ، ووعدهم باحترام الدين وتمجيده ، وتوعد الأشرار بأشد أنواع الأذى ، ثم قال : « إن بونابارت قد كسب محبة العلماء والمشايخ وأكابر البلد باتباعه خطة النزاهة والعدل ، وسأتبع خطة سلفى وأترسم خطاه ، وسأكون جديراً بما أوليتم بونابارت من محبة » هذا ما ذكرته جريدة

(٨) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية (ريبو) الجزء السادس .

(٩) العدد ٣٨

«كوريه دليجبت» وهى الجريدة شبه الرسمية للحملة الفرنسية ، ولم ترد هذه التفاصيل والأقوال فى الجبرتى ، وقد لا تكون فى مجموعها بعيدة عن الواقع ، لأن الجبرتى قد فاته أن يذكر كثيراً من الوقائع المدونة فى المراجع الفرنسية .

أعضاء الديوان فى عهد كليبر :

ولعلك تذكر أسماء الأعضاء الذين تتألف منهم هيئة الديوان (الخصوصى) فى عهد نابليون[١٠] ، ونزيد على ذلك أنه حصل تعديل فى بعض الأعضاء خلال هذه المدة ، فصار الديوان مؤلفاً على النحو الآتى :

الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيساً ، الشيخ محمد المهدى سكرتيراً ، الشيخ مصطفى الصاوى ، الشيخ خليل البكرى ، الشيخ سليمان الفيومى ، السيد أحمد المحروقى ، على كتخدا الجدلى ، يوسف باشجاويش ، لطف الله المصرى ، يوسف فرحات ، جبران سكروج ، فضل الله الشامى ، بودوف ، ولمار ، وعددهم أربعة عشر .

وقد أخذنا هذا البيان عن تقويم الجمهورية الفرنسية الذى وضعه علماء الحملة عن السنة الثامنة من التقويم الجمهورى (١٨٠٠) على عهد الجنرال كليبر ، وأورد التقويم المذكور أسماء موظفى الديوان من غير الأعضاء ، وهم : المسيو جلوتييه القوميسير الفرنسى لدى الديوان ، وذو الفقار كتخدا القوميسير المسلم ، والشيخ على الكاتب السكرتير المعين ، وجرجس نصر المترجم ، والشيخ حسن العساس المحضر ، والحاج محمد رئيس الحجاب .

التقسيم الإدارى للمديريات

وأدخل الجنرال كليبر تعديلا فى التقسيم الإدارى للمديريات فأصدر أمرا فى ١٤ سبتمبر سنة ١٧٩٩ بجعل مديريات القطر المصرى ثمانية أقاليم وهى :

١ – إقليم طيبة أو قنا ويتبعه جرجا وأسيوط ، وحاضرته أسيوط .
٢ – إقليم المنيا ويتبعه بنى سويف والفيوم ، وحاضرته بنى سويف .
٣ – القاهرة ويتبعها الجيزة والقليوبية وأطفيح .

---

(١٠) أنظر ص ٢٥ .

٤ – الشرقية ويتبعها السويس والعريش وحاضرتها بلبيس .
٥ – الإسكندرية ويتبعها البحيرة ورشيد وحاضرتها الإسكندرية .
٦ – إقليم دمياط والمنصورة وحاضرته دمياط .
٧ – الغربية وحاضرتها سمنود .
٨ – المنوفية وحاضرتها منوف .

الحالة فى القاهرة والأقاليم

اقترنت أيام كليبر الأولى باستتباب الهدوء فى القاهرة والأقاليم ، ولعل أهم سبب لذلك أن انتصار الفرنسيين على الجيش العثمانى فى معركة أبو قير كان لايزال ماثلا أمام الأذهان كبرهان على مبلغ قوة الجيش الفرنسى ، وتواردت الأنباء من قواد الجنود الفرنسية فى الأقاليم بأن الحالة مستقرة .

هدأت الحالة هدوءاً نسبياً فى أنحاء القطر ، فخفت ثورة النفوس فى القاهرة ، ووقفت حركة الهياج فى الوجه البحرى . وسكنت العاصفة فى الصعيد . فانتهز كليبر هذه الفرصة وقضى أيام قيادته الأولى فى العناية بشئون الجيش وتقويته وتعهد إدارات الحكومة . فتفقد قلعة الجبل والحصون التى أنشأها بونابارت حول العاصمة . وتفقد استحكامات بولاق والجيزة والروضة . والمستشفيات والسجون . ومعمل البارود والذخائر . وزار المدرسة التى أنشأها نابليون حديثاً لتعليم أبناء الفرنسيين فى مصر . و (المطبعة الأهلية) التى كان يديرها المستشرق مارسل Marcel . والمصنع الميكانيكى الذى أسسه المسيو كونتى . وحضر عدة جلسات للمجمع العلمى . وعرض الجيش لمناسبة الاحتفال برأس السنة الثامنة للجمهورية الفرنسية الأولى (٢٣ سبتمبر سنة ١٧٩٩)[١١] وأخذ يفكر فى تجديد ملابس الجنود وتموين مخازن

---

(١١) وصف الجبرتى هذا الإحتفال بقوله : « اهتم الفرنسيس بعمل عيدهم المعتاد وهو عند الاعتدال الخريفى وانتقال الشمس لبرج الميزان ، فنادوا بفتح الأسواق والدكاكين ووقود القناديل وشددوا فى ذلك وعملوا عزائم وولائم وأطعمة ثلاثة أيام آخرها يوم الاثنين ولم يعملوا على هيئة العام الماضى من الاجتماع بالأزبكية عند الصارى العظيم المتصب والكيفية المذكورة لأن ذلك الصارى سقط وامتلأت البركة (الميدان) بالماء ، فلما كان يوم الأحد نبهوا على الأمراء والأعيان بالبكور إلى بيت سارى عسكر ، فاجتمع الجميع فى صباح يوم الاثنين فركب سارى عسكر معهم فى موكب كبير وذهبوا إلى قصر العينى فمكثوا هناك حصة وعرضت عليهم العسكر جميعها على اختلاف أنواعها من خيالة ورجالة وهم بأسلحتهم وزينتهم ، ولعبوا لعبهم فى =

الجيش وتكبير المستشفيات وتقوية الحصون وإمدادها بالذخيرة وإصلاح الإدارات التابعة للجيش .

كانت الظواهر والمقدمات تدل على أن لدى كليبر متسعاً من الوقت يزيد فيه من مناعة الاحتلال الفرنسى فى مصر . ويوطد مركزه . وذلك أن تركيا لم تكن أتمت بعد استعدادها للقتال ، بعد النكبة التى حاقت بها فى معركة أبو قير . والجموع التى كانت تحشدها فى سوريا بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا كان ينقصها النظام وبراعة القيادة . فضلا عن أن أحوال تركيا كانت فى اضطراب وتضعضع بسبب الفتن الداخلية . مما اضطر الباب العالى إلى استدعاء جزء من الجنود الذين أعدهم لفتح مصر ، وكان أمل كليبر معقوداً بأن يفضى اقتراب فصل الشتاء وما يقترن به من هياج البحر إلى تعسير اقتراب السفن الحربية ومراكب نقل الجنود من شواطئ مصر . وبدأ هياج البحر فعلا فى تلك الأيام حتى اضطرت السفن الإنجليزية إلى الابتعاد عن الشواطىء ، كل هذه الأسباب كانت تدعو للاعتقاد بأن الحملة على الجيش الفرنسى فى مصر لا يمكن أن تكون قريبة ، أضف إلى ذلك أن فشل الإنجليز فى إنزال جنودهم بالقصير قد طمأن الفرنسيين على مركزهم فى الوجه القبلى وأضعف أمل مراد بك فى محاربتهم ، فقد عزم الإنجليز على احتلال (القصير) فى شهر أغسطس قبل أن يرحل نابليون عن مصر ، وأرسلوا بارجتين حربيتين إلى ذلك الثغر ، فكانتا بإزائه فى صباح يوم ١٤ أغسطس سنة ١٧٩٩ [١٢] وضربتا القلعة بالمدافع تمهيداً لإنزال الجنود إلى البر ، وفى عصر ذلك اليوم حاولت بعض مراكب النقل أن تنزل الجنود إلى الشاطئ ولكن الحامية الفرنسية أرجعتهم وأحبطت مسعاهم ، واستمر الضرب بالمدافع طول الليل ، وفى اليوم التالى استؤنف الضرب بشدة . ونزلت كتيبة من الجنود البريطانية إلى الشاطئ تحت حماية المدافع ، وكان الأدجوان جنرال دنزلو *Donzelot* يتولى قيادة حامية القصير ، فرتب جنوده لمقاومة الاحتلال الإنجليزى ودارت معركة شديدة بين الفريقين انتهت بانسحاب الإنجليز والرجوع إلى مراكبهم بعد أن تركوا

= ميدان الحرب وخلع سارى عسكر على الشيخ الشرقاوى والقاضى وأغات الينكجرية (المحافظ) خلع سمور ، ثم رجعوا إلى منازلهم ثم نودى فى جميع الأسواق بوقود أربعة قناديل على كل دكان فى تلك الليلة ومن لم يفعل ذلك عوقب (يعنى أن الأهالى أكرهوا بالقوة على الاشتراك فى الحفلة) ثم عملوا بالأزبكية حراقة نفوط ومدافع وصواريخ . ولعبوا فى المراكب طول ليلهم » .

(١٢) رسالة الجنرال كليبر إلى حكومة الديركتوار بتاريخ ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٩ الواردة فى كتاب الكونت باجول (كليبر- حياته ومراسلاته) وكتاب المسيو روسو (كليبر ومنو فى مصر).

كثيراً من القتلى والجرحى ، واستمرت البارجتان الإنجليزيتان تضربان القلعة بالمدافع وحاول الإنجليز أن ينزلوا جنودهم فى ذلك اليوم بعيداً عن القلعة ففشلوا ، وفى يوم ١٦ أغسطس أعادوا كرة الهجوم فباءوا بالفشل واستولى الفرنسيون على مدفع كان الإنجليز أنزلوه إلى الشاطئ وهكذا رجع الإنجليز عن محاولة احتلال القصير بعد قتال ثلاثة أيام وأقلعت سفنهم إلى عرض البحر .

وحاول مراد بك فى خلال شهر أكتوبر أن يجدد مناوشاته فيما بين أسيوط وجرجا ، فجرد عليه الجنرال (ديزيه) حملة من الهجانة انتهت بانكماشه فى الصحراء .

فانسحاب الإنجليز من سواحل القصير ، وهزيمة مراد بك فى الصعيد ، قد بعثا الطمأنينة فى نفوس الفرنسيين ، كما أن الهزيمة فتَّت فى ساعد مراد بك وجعلته يخلد إلى السكينة ، وقد دارت الأيام دورتها ، فأخذ يتقرب من الفرنسيين إلى أن عقد وإياهم معاهدة الصلح كما سيجىء بيان ذلك فيما يلى :

حقيقة الموقف الحربى فى مصر

على أن هذه المقدمات وهاتيك الظواهر لم تكن لتصرف الجنرال كليبر عن تبين حقيقة الموقف الحربى فى مصر ، ذلك الموقف الذى يجعل بقاء الاحتلال الفرنسى فى وادى النيل أمراً مستحيلا ، فالحملة الفرنسية كانت محصورة من طريق البحر ولا منفذ لها إلى فرنسا أو أى بلد تستند إليه فى توطيد سلطتها ، هذا فضلا عن أن القوات الفرنسية ترابط وسط أمة معادية لها ، فكانت من هذه الوجهة مقضياً عليها بالفشل عاجلا أو آجلا ، لأن الجنود الفرنسية كانت موزعة فى مثلث كبير يمتد طرفاً قاعدته بين الإسكندرية والعريش ويقع رأسه فى أسوان ، فهذا المثلث الفسيح المدى المتباعد الأطراف كان مطلوباً من الجيش الفرنسى أن يوطد فيه سلطة فرنسا فى وجه دولتين متحالفتين (وهما تركيا وإنجلترا) وعلى المراغمة من شعب لم يدع فرصة تمر إلا قاوم فيها الاحتلال الفرنسى بكل الوسائل .

ولا يغيبن عنك أن الجيش الفرنسى لم يكن يومئذ فى قوته الأولى ، لأن المعارك والأمراض والمتاعب التى قاساها قد أنهكت قواه ونقصت عدد رجاله ، وأفرغت من صفوفه .

قدر الجنرال داماس Damas الذى عينه كليبر رئيس أركان الحرب عدد الجنود فى شهر

سبتمبر سنة ١٧٩٨ بثلاثة وثلاثين ألف مقاتل ، وقدر عددهم فى أول عهد قيادة كليبر بـ ٢٢٠٠٠ مقاتل ، فيؤخذ من هذه المقابلة أن عدد الجنود نقص بمقدار الثلث ، وفقد الجيش الفرنسى فى المعارك والثورات نخبة من خبرة قواده أمثال الجنرال (كافريللى) قائد فرقة المهندسين و (دومارتان) قائد المدفعية و (بون) و (رامبولت) و (ديبوى) وغيرهم ، ومعظم ضباط فرقة المهندسين ، واصطحب نابليون معه نخبة أخرى من القواد ، وسرى الملل واليأس إلى نفوس الجنود والقواد الباقين فى مصر لاستحالة ورود المدد والذخائر من فرنسا ، فأثرت هذه الحالة فى نفوسهم تأثيراً كبيراً ، وتضعضعوا لها فضعفت حالتهم المعنوية ، ثم زادت الحالة تفاقماً لافتقار الجيش إلى كثير من حاجياته وضروررواته ، فقد أسلفنا أن نابليون أصلح ترسانة مراد بك بالجيزة[١٣] وأنشأ بها معملا لصنع المدافع ، ولكن هذا المصنع لم ينجح لعدم ورود الآلات والمواد الأولية اللازمة لإدارته ، وكذلك أنشأ فى الروضة مصنعاً للبارود ، لكنه لم يكن وافياً بحاجة الجيش . وكان بالقاهرة مصانع لإصلاح الأسلحة ولكن تعذر عليها إصلاح ما يتلف من البنادق بالسرعة التى تتطلبها الظروف لعدم توافر الآلات والوسائل اللازمة . وبليت ملابس الجنود لكثرة الاستعمال . ووجد كليبر صعوبة كبيرة فى تجديدها لقلة الأقمشة والأجواخ التى تكفى الجيش وقلة الموارد المالية التى تسمح بشرائها من الخارج . وكانت رداءة الملابس وقدمها والمتاعب التى لقيها الجنود من الأسباب التى أدت إلى سوء حالة الجيش الصحية وانتشار الأمراض والرمد بين أفراده .

ثم كانت ثغور البلاد ومفاتيحها على جانب كبير من الضعف . فالعريش وهى مفتاح مصر من الشرق لم تكن بحالة تسمح بصد هجمات جيش كبير وذلك لإيغالها فى الصحراء وصعوبة تموينها وإمدادها بالذخائر والمؤونة . كما أن الإسكندرية وهى مفتاح مصر من جهة الغرب قد ضعفت مناعتها الحربية بعد أن جردها نابليون أثناء الحملة على سوريا من كثير من مدافع الحصار وبما سلح به السفن التى أقلته فى رحيله إلى فرنسا .

ولم يكن الجيش العامل الذى يعتمد عليه فى المعارك مرابطاً فى ساحة واحدة ، بل كان موزعاً بين البلاد المحصنة أو المدن المهمة التى تقيم بها حاميات من الجنود الفرنسية وهى : القاهرة ، والإسكندرية ، وأبو قير ، ورشيد والرحمانية ، والبرلس ودمياط ، وعزبة البرج ، والعريش ، وقطية ، والسويس ، والصالحية ، وبلبيس ،والمنصورة ، وميت غمر ،

(١٣) انظر الجزء الأول ص ١٤٨ من الطبعة الأولى.

ومنوف ، وسمنود ، والجيزة ، وبنى سويف ، ومدينة الفيوم ، والمنيا ، وأسيوط ، وجرجا ، وقنا ، والقصير ، وأبنود ، وإسنا ، وأسوان .

فكل هذه الاعتبارات هى أجزاء وألوان فى الصورة التى تنبئك عما آل إليه الجيش الفرنسى فى مصر من الضعف والانحلال .

الحالة المالية والاقتصادية

أما الحالة المالية والاقتصادية فقد ساءت عما كانت عليه قبل الحملة الفرنسية . فإن توالى الضرائب والغرامات والمصادرات والنهب والتخريب والإحراق والتدمير قد أتلف الزراعة والتجارة والصناعة وأفقر البلاد وزادها ضنكاً على ضنك . ومع أن كليبر كان يعارض نابليون فى فرض الضرائب والمصادرات فإنه لجأ إليها فى عهد قيادته ، فقد فرض على الصيارفة الأقباط مائة وخمسين ألف ريال فرنسى فى مقابل بواقى سنة ١٢١٣ وأقساط أخرى لم تستحق بعد ، وفرض على الأقاليم غرامات فادحة ، ولجأ الفرنسيون إلى طريقة الاحتكار ليستصفوا من المحتكرين مبالغ طائلة يرجع بها هؤلاء أضعافاً مضاعفة على الجمهور ، واتبعوا طريقة السندات على الخزانة فى تأدية ما عليها من الديون . وهذه الطريقة نذير الإفلاس والخراب . أضف إلى ذلك أن الحصار البحرى الذى ضربته إنجلترا على شواطئ مصر قد عطل المواصلات وشل المعاملات التجارية وأدى إلى كساد الأحوال ووقوف حركة الأخذ والعطاء وزاد الحالة سوءاً نقصان النيل فى تلك السنة (سنة ١٧٩٩) فبار كثير من الأراضى الزراعية وانكسر ما عليها من الضرائب .

ولم يكن يخفى على الجنرال كليبر سوء الحالة الاقتصادية والمالية فى البلاد ، وكان يعلم أن إرهاق الشعب بضرائب وغرامات جديدة لا يمكن أن يوطد السلطة الفرنسية بل يفضى حتماً إلى تجدد الثورات والاضطرابات ، فبعث إلى حكومة الديركتوار برسالة[١٤] فى هذا الصدد وصف فيها سوء الحالة التى يعانيها ، قال فى رسالته :

« إن الجنرال بونابارت قد استنفد جميع موارد البلاد المالية فى الشهور الأولى من الحملة ،

---

(١٤) هذه الرسالة مؤرخة ٢٦ سبتمبر سنة ١٧٩٩ ، ولم تصل إلى فرنسا لأن السفن الإنجليزية ضبطتها فى عرض البحر كما ضبطت كثيراً من الرسائل المتبادلة بين فرنسا ومصر ونشرت فى إنجلترا ليطلع عليها الجمهور ، وكانت هذه الرسالة بمثابة شكوى مرة من نابليون وتركه إياه يحتمل تبعة قيادة الجيش فى ظروف حرجة .

وضرب على البلاد من الغرامات والمصادرات ما بلغ جهد الطاقة ، فالرجوع اليوم إلى هذه الوسائل فى الوقت الذى نحن فيه محاطون بالأعداء من كل جانب هو دفع بالبلاد إلى الثورة فى أول فرصة ممكنة ، على أن بونابارت حينما غادر مصر لم يترك درهماً فى الخزانة ولا شيئاً مما يعوضنا عن المال ، بل ترك ديوناً ومتأخرات على الخزانة تبلغ اثنى عشر مليون فرنك وهو يكاد يساوى إيراد الحكومة سنة كاملة فى الأوقات الحاضرة » .

وقال كليبر فى هذه الرسالة يصف سوء حالة الجباية :

« إن الفيضان يمنع فى الوقت الحاضر جباية البواقى عن السنة التى انتهت ، ومع ذلك لو حصلنا هذا الباقى لما كفى إلا نفقات شهر واحد ، ويجب أن ننتظر إلى شهر فريمير (أكتوبر – نوفمبر) حتى يمكننا أن نعود فنجبى الضرائب ، ولا شك أنه يتعذر علينا عندئذ أن نستخلص شيئاً لأننا سنكون منهمكين فى القتال ، وقد زاد الحالة سوءاً أن النيل قد شح فى هذا العام ، وسيؤدى ذلك إلى تلف الزراعة فى مديريات عدة ، وهذا يفضى إلى نقص الغلات ، وبالتالى إلى نقص الضرائب » .

فتأمل فى قول الجنرال كليبر إن إيراد الحكومة مدة سنة كاملة فى العهد الذى كتب فيه رسالته (سنة ١٧٩٩) يبلغ اثنى عشر مليون فرنك ، فإنك تستنتج من ذلك أنه بالرغم من زيادة الضرائب فى عهد الحملة الفرنسية فإن دخل الحكومة قد نقص عما كان فى عهد المماليك ، ويزداد هذا الاستنتاج وضوحاً وثبوتاً إذا رجعت إلى ما أحصاه أقطاب الحملة الفرنسية عن دخل الحكومة فى عهدهم ودخلها على عهد المماليك .

فالجنرال (رينييه) أحد قواد الحملة يقدر إيراد الحكومة قبل الاحتلال الفرنسى بمبلغ يتراوح بين ٣٥ وأربعين مليون فرنك[١٥] وهو تقدير يزيد قليلا عن إحصاء المسيو (استيف) مدير الخزنة فى عهد الحملة فإنه يقدرها بـ ١٠٦ و ١٩٩ و ٣١ فرنك (١,٢٠٣,٤٦٧ جنيها[١٦]) .

أما فى عهد الحملة الفرنسية فقد هبط الإيراد هبوطاً محسوساً ، فأحصى الجنرال (رينييه) دخل الحكومة إجمالا فى ذلك العهد بمبلغ يتراوح بين ٢٥,٢٠ مليون فرنك ، وعلل هذا النقص بقلة إيراد الجمارك واضطراب جباية الضرائب ، وقد أورد إحصاء مفصلا لهذا الدخل

---

(١٥) كتاب (مصر بعد واقعة عين شمس) .

(١٦) أنظر الجزء الأول ص ٣٤ (من الطبعة الأولى) .

فى عهد كليبر ومنو ، فحدده بمبلغ ٢١ مليون فرنك (أى ٨١٠,٠٧٥ جنيهاً تقريباً) وارد من الأبواب الآتية :

الخراج الذى كان يجبى من أطيان الوجه البحرى وجزء من أطيان الوجه القبلى بعد إسقاط المنطقة التى ترك لمراد بك حكمها بناء على اتفاقية كليبر– مراد	١٢,٠٠٠,٠٠٠	فرنك
الضرائب غير المباشرة	٣,٠٠٠,٠٠٠	فرنك
الإتاوات على التجار وأرباب الحرف	٢,٠٠٠,٠٠٠	»
إيراد دار الضرب (الضربخانة)	٠,٥٠٠,٠٠٠	»
إيراد الجمارك	١,٠٠٠,٠٠٠	»
إيراد أطيان الوسية والأملاك التابعة للحكومة	١,٥٠٠,٠٠٠	»
مال الأملاك الشخصية والخراج المفروض على مراد بك	١,٠٠٠,٠٠٠	»
	٢١,٠٠٠,٠٠٠	»

وللمسيو (استيف) إحصاء آخر يزيد عن إحصاء الجنرال (رينييه) فإنه يقول إن دخل الحكومة سنة ١٧٩٩ وهى السنة الثانية من سنوات الحملة الفرنسية بلغ ٣٥,٥٠٢,٨٥١ فرنك فرنكاً (١,٣٦٩,٥٣٩ جنيهاً) .

ونعتقد أن فى هذا الإحصاء مبالغة إذا قابلناه بإحصاء الجنرال (رينييه) وبالإحصاءات الأخرى الواردة فى المراجع الفرنسية .

فنابليون يقول فى مذكراته إن دخل الحكومة فى مدة أربعين شهراً وهى مدة الحملة الفرنسية بلغ ثمانين مليون فرنك ، أى بمعدل ٢٧ مليون فرنك كل سنة[١٧] .

ويقول المسيو (تيير) المؤرخ الفرنسى فى كتابه[١٨] إن دخل الحكومة فى عهد الحملة يتراوح بين ٢٠-٢٥ مليون فرنك .

وللمسيو بوسليج مدير الشئون المالية فى عهد نابليون وكليبر إحصاء تفصيلى عن دخل الحكومة يقل كثيراً عن إحصاء المسيو استيف .

---

(١٧) مذكرات نابليون التى أملاها على الجنرال برتران فى سانت هيلين .

(١٨) تاريخ القنصلية والإمبراطورية الجزء الثالث .

فقد كتب تقريراً مستفيضاً فى سبتمبر سنة ١٧٩٩ عن حالة مصر المالية ، انتهى فيه إلى أن إيراد الحكومة فى زمن السلم لا يزيد عن ١٩,٢٠٠,٠٠٠ فرنك ، يتألف تفصيلا من الأبواب الآتية :

البيان	المقدار	
مال الميرى	٣,٣٠٠,٠٠٠	فرنك
ضريبة (الفائظ) وهى ما يستولى عليه الملتزمون بعد وفاء الميرى يدخل فى ذلك ما يجبيه الملتزمون وما تجبيه الحكومة عن أملاكها	٣,٠٠٠,٠٠٠	فرنك
ضريبة (المضاف) وهى ما يفرضه الملتزمون والحكومة على الأطيان عدا الميرى والفائظ ويدخل فى ذلك الإتاوات التى يفرضونها على الفلاحين	٦,٤٠٠,٠٠٠	فرنك
ضريبة (الكشوفية) وهى التى تؤول لحكام المديريات	١,٣٠٠,٠٠٠	فرنك
الجملة	١٤,٠٠٠,٠٠٠	فرنك
يخصم من ذلك ٣,٢٠٠,٠٠٠ فرنك مقدار ما يخص الملتزمين من (الفائظ) عن الأراضى التى يملكها الأفراد وهى ثلث أراضى مصر الزراعية لأن ثلثى أراضى مصر كانت ملكاً للحكومة أو للحكام من عهد المماليك	٣,٢٠٠,٠٠٠	فرنك
فيكون الباقى	١٠,٨٠٠,٠٠٠	
يضاف إلى ذلك صافى ما ينتج من ضريبة الفائظ التى تجبى نوعاً من الحبوب وهذه الطريقة كانت متبعة فى الوجه القبلى ومقداره	٢,٦٥٠,٠٠٠	فرنك
إيراد الجمارك والضرائب غير المباشرة	٥,٠٠٠,٠٠٠	فرنك
إيراد الضربخانة	٠,٧٥٠,٠٠٠	فرنك
صافى الدخل	١٩,٢٠٠,٠٠٠	فرنك

ويقول المسيو (بوسليج) فى تقريره إن إيراد الجمارك والضرائب غير المباشرة فى سنة الحرب وهى السنة التى وضع فيها تقريره (سنة ١٧٩٩) هبط إلى ١,٥٠٠,٠٠٠ فرنك بسبب وقوف دولاب الأعمال والحصار الحربى الذى ضربته إنجلترا على شواطئ مصر ، وهبط كذلك مقدار

الحبوب التى تجبى نوعاً من أطيان الوجه القبلى لعدم إمكان بيعها فى جهاتها وقلة وسائل المواصلات التى تسمح بنقلها إلى الوجه البحرى ، فلم يحصل من صافى ثمنها سوى مليون فرنك ، ونقص كذلك دخل الضرائب العقارية بمقدار مليون ونصف مليون فرنك لتلف بعض الأراضى الزراعية التى لم تروها مياه النيل ، يضاف إلى هذا العجز مبلغ ثلاثة ملايين فرنك وهى النفقات التى التزمت بها الحكومة ومرتبات عمالها فيكون صافى دخل الحكومة بعد النفقات من تسعة إلى عشرة ملايين فرنك وهو المخصص للإنفاق على الجيش الفرنسى .

وذكر المسيو (بوسليج) ما ابتكره نابليون من الضرائب علاوة على ما كان يجبى من قبل فى عهد المماليك ، فقال إنه فرض على مختلف الملاك والتجار نحو أربعة ملايين فرنك من الضرائب غير الاعتيادية وهى التى فرضها على البيوت والتجار والصناع ، وإنه جبى مقدماً خمس المفروض على الأملاك العقارية عن سنة مقبلة ، فحصل من هذا الباب وحده على ١,٢٠٠,٠٠٠ فرنك ، وإن هذه الوسائل الشاذة قد استنفدت موارد البلاد بحيث لا يمكن الاستمرار فى اتباعها لأن التجارة كسدت وبارت ، ومعين المال قد نضب فى يد الأفراد بحيث يخشى أن تؤدى جباية أموال جديدة إلى الثورة ، وأصبح سكان المدن يؤثرون الإرهاق والسجن بل والقتل على دفع ما يطلب منهم ، والفلاحون لا يدفعون ما يطلب منهم إلا بالقوة والإكراه ، فكانوا لا يؤدون ما يفرض عليهم حتى تصل إليهم القوة المسلحة التى تطوف كل مديرية لجباية الأموال الأميرية ، ولا يتأخرون عن مقابلة القوة بمثلها إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وكثيراً ما يلوذون بالفرار إذا عجزوا عن مقاومتها ، وكثيراً ما سجن مشايخ البلاد (العمد) لإجبار أهل بلادهم على دفع الضرائب ، على أن هذه الحالة تستلزم تخصيص قوة مسلحة من الجنود فى كل مديرية من الست عشرة مديرية التى يتألف منها القطر المصرى لتحصيل الضرائب ، وكثيراً ما كان الجنود الفرنسيون يعتدون على الأهالى بحجة تحصيل الأموال ويرتكبون كثيراً من المظالم .

أما جباية الضرائب فيقول المسيو بوسليج إن الأمر فيه أشق وأنكى ، فإن القرى كانت لا تسلم غلالها إلا بالقوة ، وكان لابد من خزن هذه الغلال فى مخازن خاصة قريبة من شاطئ النيل ثم شحنها على السفن إلى القاهرة ، على أن عدد السفن قد قل فى عهد الحملة الفرنسية بسبب غرق كثير منها وتحطيم الفرنسيين لجزء آخر بقصد استعمال أخشابه للوقود لقلة الوارد من الأخشاب للقطر المصرى . فضلا عن أن اضطراب الأحوال فى الوجه القبلى والوجه البحرى

كان يضطر السلطة الفرنسية إلى استعمال معظم السفن فى نقل الجنود ، ومن جهة أخرى فإن النيل لم يكن صالحاً للملاحة فى الوجه القبلى إلا مدة أربعة أشهر فى السنة ، فكل هذه العوامل مجتمعة كانت تعطل نقل الغلال إلى القاهرة ، وقد أثرت هذه الحالة فى التجارة فأفضت بها إلى الكساد . وهذا الكساد عطل تحصيل الضرائب نقداً وعيناً لأن الأهالى لم يكن فى مقدورهم بيع غلاتهم للتجار لوقوف حركة الأخذ والعطاء ، ومع ذلك كانت السلطة تطالبهم بدفع الضرائب المفروضة عليهم ، وبذلك كان الضيق يشتد بالأهالى وتستحكم حلقاته .

وكانت السلطة الفرنسية عاجزة عن سد حاجات الجيش من المال لأن الجيش كان يقتضى كل شهر ١,٣٠٠,٠٠٠ فرنك ، ولم تكن موارد البلاد تسمح بتحصيل أكثر من ٣٠٠,٠٠٠ فرنك فى الشهر .

يتبين من كل ما تقدم أن حالة مصر الاقتصادية والمالية قد ساءت على عهد الحملة الفرنسية ، وتقهقرت الزراعة وكسدت الصناعة وبارت التجارة ، وبالرغم من زيادة الضرائب والأتاوات والمصادرات فقد نقص دخل الحكومة عما كان قبل الحملة وعانت البلاد من كل ذلك أشد ما يمكن تصوره من الضيق والفاقة ، وأخذ الضنك يشتد بالناس يوما بعد يوم ، وابتدع الفرنسيون إتاوات وغرامات جديدة فى عهد كليبر ومنو كما ستراه فيما يلى .

حالة الشعب النفسية

ولا جدال أن اشتداد الضيق بالشعب وشعور الناس بأن حالتهم الاقتصادية قد ازدادت سوءاً فى عهد الفرنسيين كان من البواعث التى زادت من سخطهم على الحكم الفرنسى ، وليس فى مقدور القوة المسلحة إخضاع شعب ينفر بفطرته من تحكم دولة أجنبية فى شئونه ، ويرى اشتداد الضيق فى عهد حكمها ، فالمقاومة الشعبية التى لقيها الفرنسيون من بدء الحملة كان من شأنها أن تزداد على مرور الأيام ، ويكفيك لتتبين حالة الشعب النفسية أن ترجع إلى أقوال أقطاب الحملة الفرنسية فى هذا الصدد .

قال الجنرال كليبر يصف هذه الحالة فى عهد قيادته [١٩] .

« إن مصر بالرغم من السكون الظاهرى الذى شملها لا تعتبر إلا مذعنة لحكم القوة ،

(١٩) من رسالته إلى حكومة الديركتوار فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٧٩٩ .

والشعب المصرى موزع الفكر ، قلق على مصيره . ولا يرى فينا مهما فعلنا إلا أعداء ملكه وماله ، وقلبه متجه دائماً إلى الأمل فى حدوث الانقلاب الذى يتوقعه » .

وقال المسيو بوسليج فى هذا الصدد[٢٠] :

« إن الشعب المصرى بالرغم من ثوراته العديدة ضدنا يمكن اعتباره شعباً وديعاً ، على أنه يكرهنا ، وهيهات أن يحبنا ، مع أننا نعامله بأحسن ما يمكن أن تعامل بلاد محتلة ، إن اختلاف العادات ، وأهم منه اختلاف اللغة ، وخاصة اختلاف الدين . كل ذلك من العقبات التى لا يمكن تذليلها والتى تحول دون إيجاد صلات الود بيننا وبين المصريين . إنهم يمقتون حكم المماليك . ويرهبون نير الآستانة ولا يحبون حكمها . ولكنهم لا يطيقون حكمنا ولا يصبرون عليه إلا بأمل التخلص منه » .

فهذه الحالة النفسية للشعب كانت أكبر عقبة تحول دون توطيد سلطة فرنسا على ضفاف النيل ، وكانت وحدها نذيراً كافياً بزوال هذه السلطة وانقراضها .

مساعى كليبر فى عقد الصلح ورأيه فى مركز مصر السياسى

بعد أن درس الجنرال كليبر حالة مصر ونفسية الشعب وأمعن النظر فى موقف الجيش الفرنسى فيها وعرف إجمالا الحالة العامة فى أوروبا وفى فرنسا ، اقتنع بأن لا فائدة ترجى من استمرار الاحتلال الفرنسى فى مصر وأن هذا الاحتلال مهما بقى فمصيره إلى الفشل ، لذلك أخذ يعمل الفكرة فى إنهاء هذا الاحتلال بطريقة تنقذ شرفه العسكرى ، لأنه لم يكن خافياً أنه وقد ولاه نابليون القيادة العامة لجيش الشرق ، أصبح يحمل تبعة مصير هذا الجيش وسمعته ، لذلك فكر فى فتح باب المفاوضات مع تركيا لعقد صلح على قاعدة الجلاء عن مصر .

وكانت حجته فى الدخول فى مفاوضات الصلح أن نابليون فاتح الصدر الأعظم فى هذا الصدد بالرسالة التى بعث بها إليه قبل رحيله إلى فرنسا ، وأنه فوض إلى كليبر إتمام هذه المفاوضة وخوله سلطة عقد الصلح مع تركيا ولو كانت قاعدته الجلاء عن مصر ، فلم يكن عليه

---

(٢٠) فى تقريره إلى حكومة الديركتوار .

غبار إذا هو نفذ هذه الفكرة خصوصاً إذا كانت ظروف الموقف السياسى والحربى تقضى بالمفاوضة وتجعل استمرار القتال عقيماً .

كتب الجنرال كليبر فى رسالة منه إلى حكومة الديركتوار يبرر مفاوضاته فى سبيل الصلح بقوله :

« إنى أعترف بأهمية احتلالنا مصر ، وقد كنت أقول فى أوروبا إن مصر بالنسبة لفرنسا كنقطة الارتكاز التى نستطيع بها أن نقبض على ناصية التجارة ونتولى زمامها فى سائر أنحاء العالم ، ولكن يجب لذلك أن يكون لفرنسا محرك قوى ، وهذا المحرك هو البحرية ، ولقد كانت لنا بحرية ، ثم ضاعت ، فتغير كل شىء ، وتغيرت المسألة من كل وجه ، ولم يعد لنا فيما يظهر لى سوى عقد صلح مع تركيا لنمهد لأنفسنا طريقاً شريفاً نخلص به من حملة لا يمكن أن تتحقق أغراضها التى دعت إليها » .

وكتب المسيو بوسليج فى هذا الصدد يقول :

« إن مصر بلاد بديعة ، ومركزنا فيها يجب أن يتبع الظروف ، وقد دلت هذه الظروف على أننا جئنا مصر قبل الأوان ، وليس من شك فى أننا لو كنا حكام مصر لأنقذناها من الآفات التى تفتك بها وأحيينا زراعتها وتجارتها بحيث تعود تلك البلاد إلى عظمتها القديمة وتصبح أجمل بلاد الدنيا ، ولا تلبث أن تحمل فى يدها ميزان التجارة فى العالم ، ولكن مصر يحيط بها بحران وصحراوان ، فالوصول إليها يستلزم بحرية قوية . وهذه البحرية ضرورية لاستثمارها وحماية تجارتها ومواصلاتها . والآن ليس للجمهورية الفرنسية بحرية . ولابد لها من زمن طويل لتنشئ عمارة تضارع عمارة خصومها . فالبقاء فى مصر بدون وسائل فعالة للاتصال بها وإرسال المدد إليها يؤدى إلى تمكين الروسيا أو إنجلترا من احتلالها والبقاء فيها بحجة طردنا منها » .

هذا ما كتبه المسيو بوسليج فى ٢٣ سبتمبر سنة ١٧٩٩ ، فتأمل فى عباراته ، وارجع بفكرك إلى الماضى القريب والبعيد ، واستعرض الحوادث التى تعاقبت على البلاد فى خلال نيف ومائة عام ، تجد أنها قد أيدت بعض هذه التنبؤات ، فإن إنجلترا أخذت من ذلك الحين ترقب الفرص لتضع يدها على مصر ، ولقد سعت فى إخراج الفرنسيين لتحل محلهم ، واستعانت على ذلك بقواتها البحرية والبرية ، وأرادت أن تحقق أطماعها فى وادى النيل فلم تفلح ، وجردت فى أوائل عهد محمد على حملتها المعروفة بحملة الجنرال (فريزر) لاحتلال البلاد ، لكنها وجدت فى مصر القوة التى صدتها وقاومت عدوانها ، فارتدت عن البلاد سنة ١٨٠٧ خائبة ،

وجلت جنودها عن أرض الكنانة ، على أنها ما لبثت بعد ذلك ترقب فريستها السنين الطوال إلى أن سنحت لها الفرصة لتحقيق أطماعها سنة ١٨٨٢ فانتهزت الحرب الداخلية التى وقعت فيها والضعف المعنوى الذى سرى إلى نفوس أبنائها واحتلت البلاد بجنودها . ولم تجد فيها القوة التى تصدها عنها مثلما وجدت عام ١٨٠٧ . فما أقوى العظة ! وما أبلغ الاعتبار !

اعتزم إذن كليبر أن يفاوض تركيا فى عقد صلح معها على قاعدة الجلاء عن مصر ، فبعث إلى الصدر الأعظم رسالة مطولة ذكَّره فيها برسالة نابليون له قبل سفره . وجدد طلب إنهاء حالة الحرب بين الدولتين . وأعرب عن مقاصد فرنسا الودية نحو تركيا ، قائلا إن فرنسا لم تقصد مصر إلا لمحاربة إنجلترا ، وأنها لم تقاتل إلا المماليك . وأنها تركت الإدارة المدنية فى مصر لهيئة العلماء . وكبار الأعيان . واحترمت رعايا السلطان وأملاكهم . وأبقت على الوجاقلية ومندوبى السلطان . وأنها لا تنازع حقوق تركيا فى مصر . وطلب إليه فى ختام رسالته أن يوفد إليه مندوباً للمفاوضة فى قواعد الصلح . والظاهر أن هذه الرسالة والرسالة التى تقدمتها من نابليون ألقتا فى روع تركيا أن مركز فرنسا أصبح من الحرج والضعف بحيث اضطرت إلى طلب الصلح ، فتلكأت فى الرد واستمرت فى تعبئة جيوشها للزحف على مصر .

تجدد القتال وهزيمة الأتراك فى عزبة البرج

(أول نوفمبر سنة ١٧٩٩)

استمرت تركيا تعبئ جيوشها للحملة على مصر برا وبحرا . وأعدت حملتها البحرية قبل أن تتمم حشد جيشها فى سوريا . وبدأت تهاجم مصر من شواطئها الشمالية قبل أن يزحف جيشها من طريق برزخ السويس . وهكذا وقعت فى الخطأ الذى وقعت فيه من قبل فى شهر أغسطس سنة ١٧٩٩ بإنزال جيشها إلى شواطئ (أبو قير) قبل أن يزحف جيشها الآخر من طريق البر . وكانت نتيجة ذلك الخطأ هزيمة الجيش العثمانى فى معركة أبو قير . ومع ذلك زلت فيه مرة أخرى فى أواخر شهر أكتوبر سنة ١٧٩٩ . وهذا راجع إلى ما كانت عليه القيادة العثمانية من ضعف الكفاية .

أقبلت العمارة العثمانية تجاه شواطئ دمياط فى أواخر شهر أكتوبر سنة ١٧٩٩ ، وكانت

مؤلفة من ثلاث وخمسين سفينة تقل سبعة آلاف من خيرة الجنود الانكشارية بقيادة السيد على بك ، تصحبها البارجة الإنجليزية «تايجر» (النمر) وعليها الكومودور السير سدنى سميث قائد الأسطول البريطانى .

نزل الجنود العثمانيون إلى شاطئ البحر بالقرب من بوغاز دمياط فاحتلوا برج البوغاز الذى كان يحمى مصب النيل بالبر الشرقى ، وكانت الجنود الفرنسية معسكرة بين عزبة البرج وشاطئ البحر الأبيض المتوسط بقيادة الجنرال فردييه Verdier ، فسار بجنوده يوم أول نوفمبر سنة ١٧٩٩ لملاقاة الجنود العثمانية الذين رابطوا على شاطئ البحر بين بوغاز دمياط وبحيرة المنزلة ، وهاجمهم فى مواقعهم ، ونشبت بينهم معركة انتصر فيها الجنرال فردييه انتصاراً كبيراً ، ويقول الفرنسيون إنه قتل فى أثناء هذه المعركة زهاء ثلاثة آلاف من الأتراك وأسر منهم ثمانمائة[٢١] ، وعلم كليبر وهو فى القاهرة نبأ نزول العثمانيين إلى الشاطئ والهزيمة التى حلت بهم ، فشدد هذا الانتصار عزائم الفرنسيين وأعاد إليهم الاطمئنان على مصيرهم .

أعمال كليبر العلمية

أعاد انتصار الجنرال فردييه إلى نفس كليبر روح الأمل فى البقاء فى مصر وتوطيد سلطة الفرنسيين فيها وإمكانه رد هجمات العثمانيين ، فأخذ يعنى بتنظيم الإدارة واستأنف الأبحاث العلمية التى بدأها نابليون من قبل ، فقد أسلفنا أن نابليون ألف قبيل رحيله عن القاهرة لجنتين علميتين من أعضاء المجمع العلمى لاكتشاف الآثار المصرية فى الوجه القبلى[٢٢] فعزم كليبر أن يقفو آثار سلفه ، فألف[٢٣] لجنة علمية ثالثة لدرس حالة مصر الحديثة من ناحية نظام الحكم فيها وشرائعها وقوانينها وعاداتها ودينها وحالتها الاجتماعية وعلومها وتجارتها وصناعتها وزراعتها وجغرافيتها ، وكان غرضه من تأليفها أن تكمل عمل اللجنتين الأوليين ليتاح للجان الثلاث دراسة الحضارة المصرية القديمة وتخطيط مصر الحديثة ، وعين لعضوية تلك اللجنة جماعة من

---

(٢١) رسالة الجنرال كليبر إلى الديركتوار بتاريخ ١٦ نوفمبر سنة ١٧٩٩ .

(٢٢) انظر الفصل الرابع .

(٢٣) فى شهر نوفمبر سنة ١٧٩٩ .

أقطاب المجمع العلمى ولجنة العلوم والفنون ، فأخذت اللجنة توالى اجتماعاتها وأبحاثها ، ووضعت خطة العمل ، ووزعت مواضيع البحث على الأعضاء وعلى غيرهم من علماء الحملة الفرنسية ومهندسيها ، ومن أبحاث هؤلاء العلماء يتألف شطر كبير من كتاب « تخطيط مصر » الذى تكلمنا عنه فى الفصل التاسع عشر من الجزء الأول .

* * *

الفصل السابع

معاهدة العريش

كان الجنرال كليبر مع استعداداته الحربية يسعى سعياً حثيثاً فى عقد الصلح على قاعدة الجلاء عن مصر ، وبالرغم من انتصار الفرنسيين على الجنود التركية فى عزبة البرج فإن كليبر كان مقتنعاً بضرورة الصلح وبإنهاء حالة الحرب التى كانت تركيا تعد المعدات لاستئنافها ، فقد أخذت قوات الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا ترابط فى غزة تمهيداً للزحف على مصر ، وكانت بوارج الأسطول الإنجليزى بقيادة السير سدنى سميث تجوب البحر من يافا إلى الإسكندرية وتراقب سواحل مصر مراقبة دقيقة ، فاتخذ كليبر مصطفى باشا قائد الحملة التركية فى معركة (أبو قير) البرية وسيطاً فى فتح مفاوضات الصلح ، فجرت مفاوضة مبدئية بينهما فى الشروط التى تكون أساساً للمعاهدة ، واتفق الطرفان على جعل قاعدة جلاء الفرنسيين عن مصر أساساً للصلح وأن تترك شروط الجلاء للمفاوضات الرسمية ، وفى غضون ذلك عاد رشيد أفندى يحمل جواب الصدر الأعظم على رسالة نابليون[1] ، وخلاصة هذا الجواب أنه أعد جيشاً جراراً لطرد الفرنسيين من مصر ولكنه تلقاء دعوة نابليون فإنه مستعد لإعداد السفن اللازمة لرحيل الفرنسيين إلى فرنسا وأنه يضمن ألا يتعرض لهم الروس والإنجليز فى الطريق ، وإذا تم جلاء الفرنسيين فإنه يقبل المفاوضة فى إعادة الصلح بين تركيا وفرنسا ، والكتاب مكتوب بلهجة التهديد والوعيد .

وصل هذا الجواب بعد رحيل نابليون بما ينيف على شهرين ، وبالرغم من أنه لم يكن مرضياً فإن الجنرال كليبر أعاد طلب المفاوضة فى سبيل الصلح وبعث برسالة جديدة إلى الصدر الأعظم .

وكان السير سدنى سميث يميل من جهته ولو ظاهراً إلى عقد الصلح على هذا الأساس ، ويؤثر هذه الوسيلة على إجبار الفرنسيين بقوة القتال على تسليم أنفسهم كأسرى حرب ، لأنه

---

(١) انظر الفصل الخامس .

كان يعتقد فى قوة الجيش الفرنسى وكفاية قواده ، ولا يثق بفوز الجيش العثمانى إذا دارت رحى الحرب ثانية ، وكان كليبر من ناحيته يرفض بتاتاً التسليم الذى يضر بسمعته العسكرية ويؤثر استمرار الحرب على التسليم بلا شرط ولا قيد ، أما الصدر الأعظم فكان متصلباً فى قبول الصلح معتزاً بعدد جنوده ومحالفة انجلترا والروسيا مع الباب العالى ، راغباً فى سحق الجيش الفرنسى وأسره فى ميدان القتال .

لكن السير سدنى سميث تدخل فى الأمر لإقناع الصدر الأعظم بقبول فكرة الصلح وتبادل هو والجنرال كليبر الرسائل لفتح باب المفاوضات الرسمية والاتفاق على هدنة يكف فيها الفريقان المتحاربان عن القتال ، وكان يعتقد أن هذه الهدنة تنفع تركيا لأنها تمكن الجيش العثمانى من إتمام استعداده للزحف على مصر ، وقد دلت الحوادث المقبلة على حقيقة هذا الغرض .

مفاوضات الصلح فى دمياط وغزة :

أوفد الجنرال كليبر إلى السير سدنى سميث الأدجودان موران جوران Morand للاتفاق على وضع خطة لإجراء المفاوضات ، فالتقى به فى يافا ووضعت الخطة ، وهى التقاء مندوبى الدول المتحالفة الثلاث تركيا وإنجلترا والروسيا بمندوبى فرنسا للشروع فى المفاوضات ، وعين السير سدنى سميث عن انجلترا ، والصدر الأعظم يوسف باشا ضيا عن تركيا ، والقنصل فرانكينى Franchini عن الروسيا ليدافع كلٌ عن وجهة نظر دولته فى المفاوضات ، وعاد موران إلى القاهرة ليعرض على كليبر اختيار مندوبه لإجراء المفاوضة الرسمية ، فعين الجنرال ديزيه قائد الجنود الفرنسية فى الصعيد والمسيو بوسليج مدير الشئون المالية مندوبين عنه فى المفاوضات ، وفوضهما فى قبول الشروط التى ارتضاها أساساً للصلح .

ابتدأت مفاوضات الصلح على ظهر البارجة الإنجليزية (تايجر) Tigre التى رست فى عرض البحر تجاه بوغاز دمياط ، وكانت أول مقابلة بين المندوبين الفرنسيين والسير سدنى سميث يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١٧٩٩ ، وكان سدنى سميث يتكلم بالنيابة عن إنجلترا وحلفائها ، أما الصدر الأعظم يوسف باشا فكان منهمكاً فى الزحف على مصر ، واستمرت المفاوضات عدة أيام عرض الجنرال ديزيه والمسيو بوسليج فى خلالها شروط الفرنسيين لجلائهم عن مصر ، وأهمها أن تعاد إلى فرنسا أملاكها فى البحر الأبيض المتوسط [٢] ، وتفسخ تركيا معاهدة التحالف التى

(٢) هى الجزائر الأيونية وقد آلت لفرنسا بمقتضى معاهدة (كامبوفورميو) ثم احتلتها الجنود الروسية والتركية أثناء=

عقدتها مع الروسيا وإنجلترا ، وتعقد صلحاً نهائياً مع فرنسا بحيث تعود العلاقات بين تركيا وفرنسا كما كانت قبل الحرب ، وأن تمضى إنجلترا تعهداً جديداً بالمحافظة على كيان السلطنة العثمانية ، وأن يجلو الجيش الفرنسى عن مصر بأسلحته وأمتعته على أن يكون له مطلق الحرية فى اختيار الثغر الذى ينزل به فى أوروبا ، ولم يكن السير سدنى سميث يتوقع من مندوبى فرنسا مثل هذه الشروط لأنه كان يرجو أن يتم الجلاء بلا شرط ولا قيد ، فأبدى اعتذاره بأن ليس لديه سلطة تخوله البت فى مثل هذه الشروط وأنه ليس إلا وسيطاً بين فرنسا وتركيا ، ووعد بالتوسط إلى الصدر الأعظم لوضع شروط للجلاء يقبلها الطرفان ، وعرض على المندوبين الفرنسيين أن تبحر البارجة (تايجر) إلى مياه سوريا كى يتمكن من مقابلة الصدر الأعظم الذى كان معسكراً بالقرب من غزة ، فرضى المندوبان الفرنسيان ، وأبحرت السفينة إلى يافا ، وهناك وصل إلى علم المندوبين الفرنسيين نبأ كان له وقع أليم فى نفوسهم وأثر كبير فى سير المفاوضات ، وهو سقوط قلعة العريش فى يد العثمانيين .

زحف الجيش العثمانى واحتلال قلعة العريش

(٣٠ ديسمبر سنة ١٧٩٩)

ذلك أنه فى خلال المفاوضات التى جرت بين كليبر والسير سدنى سميث فى سبيل الصلح ، كان الجيش العثمانى بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا قد أتم معداته للزحف على مصر من طريق سوريا ، وبدأ يتقدم من غزة قاصداً العريش فى منتصف شهر ديسمبر ، فوصل تجاهها يوم ٢٢ ديسمبر فضرب الحصار عليها وطلب من حاميتها تسليم القلعة .

كانت حامية العريش مؤلفة من ٤٥٠ جنديًا فرنسيًا بقيادة الكابتن جازلاس Gazlas من ضباط فرقة الهندسة ، وقد عنى الفرنسيون بتحصين القلعة وتزيدوها بالمدافع والذخائر لتستطيع رد هجوم الجيش العثمانى وتعطل زحفه مدة طويلة من الزمن ، لكن فريقاً من حامية العريش دبت فيهم روح التمرد والخروج على النظام واعتبروا إرسالهم إلى العريش عقوبة لهم ، فاشتد سخطهم وتمردهم ، وسرت بين الجنود فكرة الانتفاض والتمرد ، فضعفت روحهم المعنوية وجعلوا يرقبون أول فرصة لإلقاء السلاح والكف عن القتال ، فلما وصل الجيش العثمانى

= القتال فطلب كليبر أن تعاد إلى فرنسا وطلب أيضا أن يضمن لفرنسا امتلاك مالطة .

وضرب الحصار عليهم تمرد فريق من الحامية وطلبوا من القومندان تسليم القلعة فلم يجبهم إلى طلبهم وتهدد المتمردين بأشد العقاب فعاد النظام مؤقتاً بين صفوف الجنود واستمرت المقاومة عدة أيام ، ولكن روح التمرد بقيت كامنة فى النفوس إلى أن انفجرت يوم ٢٩ ديسمبر لمناسبة هجوم شديد من الجنود العثمانية على القلعة ، فامتنع المتمردون عن المقاومة وسلموا القلعة وسهلوا للعثمانيين دخولها فاحتلوها يوم ٣٠ ديسمبر وأعملوا فى حاميتها السيف وقتلوا منهم ٢٣٠ وأسروا الباقين ومنهم الكابتن جازلاس .

وصل نبأ احتلال الأتراك للعريش إلى القاهرة فعجل الجنرال كليبر بالانتقال بمعسكره إلى الصالحية ليكون على استعداد لرد هجومهم إذا لم يتم الصلح .

علم الجنرال ديزيه والمسيو بوسليج بهذه الأنباء وهما على ظهر البارجة (تايجر) ، وبديهى أنها كانت من بواعث تساهلهما فى قبول شروط الصلح ، وقد التقى السير سدنى سميث بيوسف باشا واتفقنا على أن يجتمعا بالمندوبين الفرنسيين فى معسكر الصدر الأعظم بالعريش لوضع شروط الصلح ، فوصل المندوبان الفرنسيان إلى العريش يوم ١٣ يناير سنة ١٨٠٠ ، وهناك بدأت المفاوضات النهائية ، فكان يتولى المفاوضة عن تركيا مصطفى رشيد أفندى دفتر دار الصدر الأعظم ، ومصطفى راسخ افندى رئيس الكتاب ، وعن فرنسا الجنرال ديزيه والمسيو بوسليج ، وعن إنجلترا السير سدنى سميث ، وعن الروسيا القنصل فرنكينى Franchini

المجلس الحربى الفرنسى لإقرار الصلح :

استمرت المفاوضة عدة أيام كان الجنرال كليبر فى خلالها مرابطاً بالصالحية يستعد للقتال ، ذلك أنه بعد احتلال العثمانيين للعريش اعتقد أنهم ينوون استمرار الحرب ، فحشد قواته استعداداً للمقاومة ، واتخذ الصالحية معسكره العام واجتمع بقواد جيشه يتداولون فى الخطة التى يجب اتباعها ، وكان كليبر يميل إلى الصلح ، لكنه لم يشأ أن ينفرد باحتمال هذه التبعة ، فجمع مجلساً حربياً فى الصالحية من نخبة قواد الجيش ليقرر رأيه فى قبول الصلح أو استمرار القتال ، وكان المجلس مؤلفاً من الجنرال كليبر رئيساً ، والجنرال داماس رئيس أركان حرب الجيش ، والجنرال رنييه Reynier وفريان Friant من قواد الفرق ودافو Davout ورامبون Rampon ولاجرانج Lagrange وروبان Robin من قواد

الأورط والجنرال سونجى Songis قائد المدفعية والجنرال سانسون Sanson قومندان فرقة الهندسة أعضاء والقوميسير دور Daure مدير مهمات الجيش سكرتيراً للمجلس .

اجتمع المجلس فى المعسكر العام بالصالحية يوم ٢١ يناير سنة ١٨٠٠ ، فعرض عليهم كليبر خلاصة المفاوضات التى بدأ بها نابليون قبل سفره واستأنفها ، وبيان الشروط المعروضة لعقد الصلح ، وطلب من المجلس أن يبدى رأيه فيما يجب اتباعه حيال الموقف الحربى فى مصر ، فتكلم القواد وبحثوا الموقف من كافة وجوهه ، ثم اتفق رأيهم بالإجماع على وجوب قبول الصلح والجلاء بدلا من المغامرة فى قتال لا ينتهى إلى نتيجة صالحة حتى ولو انتصر الجيش الفرنسى ، إذ كان الانتصار لا يؤدى إلى تحسين موقف الفرنسيين ، ونصح القواد فى قرارهم بوجوب التعجيل بعقد الصلح حتى لا يضطر الجيش بعد شهرين إلى قبول شروط أقل ملاءمة لشرفه ، وطلبوا من المفاوضين أن يهتموا فى شروط الصلح بأن يكون الجلاء عن القاهرة فى أبعد زمن ممكن ، وتركوا لحكمة المفاوضين أخذ الضمانات لتنفيذ شروط المعاهدة وسلامة الجيش .

وقد استند القواد فى قرارهم على أن عدد الجنود الذين يمكن للجيش الفرنسى أن يحشدهم لمقاومة الحملة العثمانية ثمانية آلاف مقاتل للدفاع عن قطية والصالحية وبلبيس والقاهرة (وهذا العدد دون الحقيقة) فى حين أن عدد الجيش العثمانى الزاحف يبلغ ٢٥,٠٠٠ مقاتل عدا الاحتياطى المرابط فى غزة ، وأن تسليم قلعة العريش فى الظروف التى حصل التسليم فيها يدل على روح الملل الذى دب فى نفوس الجنود ، وأنه يخشى فى حالة انتصار الجيش العثمانى وقيام ثورات فى داخلية البلاد أن تستهدف حياة العشرين ألف فرنسى من عسكريين وملكيين للخطر وأن عدم ورود تعليمات من الحكومة الفرنسية إلى القيادة العامة مع مضى نحو خمسة أشهر على رحيل بونابرت إلى فرنسا دليل على موافقة الحكومة ضمناً على الجلاء .

وقد أرسل الجنرال كليبر نتيجة قرار المجلس الحربى إلى المفاوضين فى العريش وكلفهم التعجيل بإتمام الصلح ، ولفت نظرهم إلى تفصيلات الجلاء كاشتراط مواعيد لتنفيذه ، وتدبير رسائل النقل ، والاتفاق على خط سير الجيش وتسليمه المواقع الحصينة عند الجلاء .

التوقيع على المعاهدة :

انتهت المفاوضات بتوقيع معاهدة الصلح التى عرفت فى التاريخ باسم (معاهدة العريش) يوم ٤ بلوفيوز من السنة الثامنة للجمهورية (٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ — ٢٧ شعبان سنة ١٢١٤) ،

وقعها بالنيابة عن الصدر الأعظم كل من مصطفى رشيد أفندى الدفتر دار ، ومصطفى راسخ أفندى رئيس الكتاب ، وعن القائد العام للجيش الفرنسى كل من الجنرال (ديزيه) والمسيو بوسليج ، ولم يوقع عليها أحد من قبل الحكومة الإنجليزية .

وقد تضمنت المعاهدة بيان الغرض منها ، وهو جلاء الفرنسيين عن مصر ، فجاء فيها أن الجيش الفرنسى لرغبته فى وضع حد لسفك الدماء وإنهاء النزاع القائم بين الجمهورية الفرنسية والباب العالى قد قبل أن يجلو عن مصر على النحو الوارد فى هذه المعاهدة مؤملا أن يكون هذا النزول منه تمهيداً للصلح العام فى أوروبا .

شروط المعاهدة :

تقضى معاهدة العريش بجلاء الجنود الفرنسية عن مصر بأسلحتهم وأمتعتهم وأثقالهم ، وإقلاعهم بحراً من ثغور الإسكندرية ورشيد وأبو قير على السفن الفرنسية والسفن التى تعدها الحكومة العثمانية ، ولهذا الغرض ترسل الحكومة العثمانية إلى الإسكندرية بعد شهرين من التصديق على المعاهدة قوميسيرا ومعه خمسون شخصًا لإعداد السفن التى تقل الجنود ، ويتم الجلاء فى مدى ثلاثة أشهر تكون بمثابة هدنة لتنفيذ شروط المعاهدة ، وفى حالة عدم ورود السفن التركية لنقل الجنود فى خلال هذه المدة تمد الهدنة إلى أن يتم رحيلهم ، وتعهد الطرفان بالمحافظة على سلامة هذه الجنود والأهالى أثناء الجلاء ، ويتم نقل الجنود فى السفن بحسب النظام الذى يوضع بمعرفة قوميسيرين يعينهما الباب العالى والجنرال كليبر ، وإذا وقع خلاف بين القوميسيرين فى حالة نقل الجنود يعين السير سدنى سميث قوميسيراً من قبله لحسم الخلاف طبقًا للوائح البحرية البريطانية .

مواعيد الجلاء : نصت المعاهدة على أن يكون جلاء الجنود الفرنسية فى المواعيد الآتية :

قطية والصالحية : بعد ثمانية أيام أو عشرة على الأكثر من التصديق على المعاهدة .

المنصورة : بعد خمسة عشر يومًا

دمياط وبلبيس : بعد عشرين يومًا

السويس : قبل الجلاء عن القاهرة بستة أيام

القاهرة : بعد أربعين أو على الأكثر خمسة وأربعين يومًا من التصديق على المعاهدة .

المدن الواقعة بالبر الشرقى للنيل : بعد عشرة أيام .

بلاد الدلتا : بعد خمسة عشر يومًا من الجلاء عن القاهرة .

المدن الواقعة بالبر الغربى للنيل – يجلو عنها الجيش عند الجلاء عن القاهرة ، ومع ذلك فللجنود الفرنسية احتلالها إلى أن تصل الجنود القادمة من الوجه القبلى ، ويمكن مد هذا الموعد إلى آخر يوم من أيام الهدنة .

وتسلم المواقع التى يجلو عنها الفرنسيون إلى الجيش العثمانى بالحالة التى هى عليها وقت التوقيع على المعاهدة مع المحافظة على سلامة الجنود الفرنسية ، ومع اتخاذ الوسائل لجعل مواقع الجنود العثمانية بعيدة عن الجنود الفرنسية أثناء الجلاء منعاً للتصادم بينهما . ونصت المعاهدة على وجوب إطلاق سراح المعتقلين من الجانبين فى فرنسا أو فى مصر أو فى تركيا والمحافظة على سلامة وأملاك من أظهروا الولاء من المصريين نحو فرنسا أثناء الاحتلال الفرنسى ، وإعطاء جوازات مرور للجيش الفرنسى من قبل الحكومة العثمانية وحليفتيها (إنجلترا والروسيا) لضمان وصول الجيش إلى فرنسا وعدم التعرض له فى البحر لا من جانب تركيا ولا من جانب حلفائها ، وصرح لتركيا أن ترسل تواً بعد التصديق على المعاهدة مندوبين من قبلها إلى القاهرة والمدن المحتلة لدفع نفقات ترحيل الجنود وتوفير المؤونة اللازمة لهم ، وتعهد الفرنسيون بعدم جباية أموال بعد التصديق على المعاهدة ، ويبدأ سريان المعاهدة من يوم التصديق ، ويتم التصديق فى خلال ثمانية أيام من التوقيع عليها ، وكتبت المعاهدة باللغتين الفرنسية والتركية ، وقد صدق الجنرال كليبر على المعاهدة فى معسكر الصالحية يوم ٢٨ يناير سنة ١٨٠٠ ، وأرسل صورتها إلى الجنرال دوجا بالقاهرة ليبلغها إلى الديوان .

قال الجبرتى فى هذا الصدد :

« تم عقد الصلح على اثنين وعشرين شرطًا رسمت وطبعت فى طومار[٣] كبير ، وورد الخبر بذلك إلى مصر وفرح الناس بذلك فرحًا شديداً ، وأرسل سارى عسكر الفرنساوية (كليبر) مكاتبة بصورة الحال إلى دوجا قائممقام ، فجمع أهل الديوان وقرأ عليهم ذلك ، ولما ورد ذلك الطومار المتضمن عقد الصلح والشروط عربوه (لأنه كان محرراً بالفرنسية والتركية) وطبعوا منه نسخاً كثيرة فرقوا منها على الأعيان وألصقوا منها بالأسواق والشوارع » .

وقد نشر الجبرتى فى تاريخه صيغة الترجمة للمعاهدة كما وزعت فى القاهرة فى ذلك العهد وطبعت على المطبعة الفرنسية العربية التى أنشأها الفرنسيون فى مصر ، لكن هذه الترجمة

(٣) الطومار كما فى لسان العرب (الجزء السادس) معناه الصحيفة .

سقيمة ، وفيها أغلاط كثيرة جدًّا ، فآثرنا أن نعرب المعاهدة عن الأصل الفرنسى وقد لخصنا فيما تقدم أهم شروطها ونشرناها بنصها فى قسم الوثائق التاريخية[٤] ليرجع إليها القارئ إذا شاء زيادة البيان .

نظرة فى معاهدة العريش :

إن معاهدة العريش تتحصل فى كلمة وجيزة وهى جلاء الفرنسيين عن مصر بلا قيد ولا شرط . وهى أول وثيقة من الوثائق الدولية الحديثة اعترفت فيها الدولة المحتلة مصر فى أواخر القرن الثامن عشر بفشل احتلالها وتعهدت بجلائها عن البلاد ، فهى بهذا الاعتبار خطوة فى سبيل تكوين مصر المستقلة ، لأن تركيا وإن كانت قد تولت عقد هذه المعاهدة على أنها صاحبة الولاية على مصر وقتئذ إلا أنها فى الواقع لم تستطع أن تسترجع حكمها القديم على ضفاف وادى النيل ، أو تضع يدها على البلاد ، وبذلك خلصت البلاد لأهلها ، وأسلم الشعب مقاليد الحكم إلى محمد على الكبير كما سنفصل ذلك فى موضعه ، فمعاهدة العريش هى الوثيقة الرسمية التى تعهدت فيها فرنسا بالجلاء عن مصر ، فهى إذن من أهم الوثائق الرسمية فى تاريخ مصر الحديث .

وقد شعر الجنرال كليبر بأن هذه المعاهدة قضت نهائياً على أحلام الفرنسيين فى إنشاء مستعمرة فى وادى النيل ووضعت حداً للحملة الفرنسية التى كان نابليون يبنى عليها الآمال الكبار ، ومع أن كليبر كان من أشد أنصار الجلاء ، إلا أنه أحس الذلة بعد التصديق على المعاهدة لأن اسمه قد اقترن بانسحاب الفرنسيين من مصر ، وقد أفضى بشعوره إلى أخصائه وصرح به كتابة فى رسالة له إلى المسيو بوسليج بتاريخ يناير سنة ١٨٠٠ ، قال فيها :

« إن هذه المعاهدة لم تسىء إلى أى أحد سواى ، فإن مصلحتى كانت تقضى على بأن أكسب فخر منازلة الصدر الأعظم فى ميدان القتال ، وأن أقدم هذا الفخر على كل الاعتبارات الأخرى ، لكنى لا أكون قد قمت بواجبى الوطنى إذا أنا ضحيت حياة عشرين ألف فرنسى فى سبيل مجدى الشخصى ، وسأستهدف الآن لمطاعن من كانوا حتى اليوم أكثر الناس خوفًا من نتائج استمرار القتال ، فهم الآن سينادون بأنه كان يجب أن نواصل الحرب ، على أنى وطنت نفسى على ألا تغرينى المدائح كما لا تؤثر فى نفسى المثالب القائمة على الإفك

(٤) وثيقة رقم ٤ .

والبهتان مادام ضميرى يشهد بأنى قد أديت واجبى » .

طوت معاهدة العريش صحيفة القتال وقتياً ، وعاد الجنرال كليبر من الصالحية إلى القاهرة يصحبه المندوبان المفوضان اللذان وقعا على المعاهدة ، فوصلوا إلى القاهرة يوم ١٨ فبراير ، وأخذوا يعدون معدات الجلاء .

الاستعداد للجلاء

عاد كليبر إلى القاهرة وأخذ يستعد لجلاء الجنود الفرنسية عن مصر ، وألف لجنة لإنفاذ الجلاء فى المواعيد المحددة فى المعاهدة ، وكان جاداً فى تنفيذ شروط الصلح غير حاسب أن فى الجو مفاجآت أدت بعد ذلك إلى نقض المعاهدة ، فقد كان كليبر فى عودته إلى القاهرة يصحبه أحد الرؤساء العثمانيين من حاشية يوسف باشا اسمه « محمد أغا » ليتولى إدارة الحكومة ، فساعده الجنرال كليبر فى عمله وأمر حسن أغا نجاتى المحتسب بأن يتلقاه فى بيته ويبالغ فى إكرامه ، قال الجبرتى فى هذا الصدد :

« فلما كان بعد العشاء دخل ذلك الأغا إلى مصر فى موكب ، فحصلت بين الناس ضجة عظيمة ، وازدحموا لمشاهدته والفرجة عليه » .

مظالم الحكم التركى

لكن مندوب تركيا أدى مهمته بطريقة نفرت قلوب المصريين وكانت أعماله نموذجاً سيئاً جعلت المصريين ينظرون بعين السخط إلى الحكم التركى ، وسترى من الحوادث المقبلة التى وقعت بعد جلاء الفرنسيين أثر هذه الحالة النفسية فى تطور الحوادث فى مصر .

دعا مندوب الدولة فى صباح تلك الليلة كبراء البلد من العلماء والأعيان والوجاقلية والتجار ، فلما اجتمعوا به تلا عليهم أمراً من الصدر الأعظم بتعيينه مديراً لجمارك القاهرة وبولاق ومصر القديمة ، ويقضى هذا الأمر باحتكار جميع الواردات من أصناف الأقوات . فيشتريها مدير الجمارك المذكور بالثمن الذى يسعره (بمعرفة المحتسب) ويودعها المخازن ، وتلا أمراً آخر يقضى بتعيين مصطفى باشا الذى سبق أن أسره الفرنسيون فى معركة أبو قير وكيلا عنه

وقائممقام بمصر إلى حين حضوره ، وإلزام السيد أحمد المحروقى كبير تجار القاهرة بتحصيل ثلاثة آلاف كيس[٥] لسد نفقات ترحيل الجنود الفرنسية ، ولا جدال أن مثل هذه التصرفات وما فيها من احتكار الأقوات وفرض الأتاوات والغرامات لم تكن فاتحة سارة لأعمال المندوب العثمانى ، بل كانت نذير الظلم والاعتساف ، قال الجبرتى فى هذا الصدد : « أخذ السيد أحمد المحروقى فى تحصيل ذلك القدر من الناس وفرضوه على التجار وأهل الأسواق والحرف وشرعوا فى تحكير الأقوات فغلت أسعارها وضاقت مؤن الناس ، ودهى الناس من أول أحكامهم (الأتراك) بهاتين الداهيتين ، وكان أول قادم منهم أمير المكوسات (مدير الجمارك) ومحكر الأقوات ، وأول مطلوبهم مصادرة الناس وأخذ المال منهم وتغريمهم » .

ومع ذلك فقد جبى السيد المحروقى هذه الغرامة من سكان القاهرة واجتهد فى توزيعها توزيعًا عادلا ، ودفع الناس ما طلب منهم عن طيب خاطر لعلمهم أن ذلك لجلاء الفرنسيين .

ولم يكتف يوسف باشا بذلك بل أصدر أوامره إلى البلاد « بتعيين المعينين والمباشرين لطلب المال والغلال والكلف من الأقاليم ، وأرسل إلى البنادر وجعل فى كل بندر أميراً ووكيلا لجمع الغلال والمطلوبات من الذخيرة وخزنها بالحواصل » ولا يخفى ما فى ذلك من الإرهاق والظلم .

وقال الجبرتى أيضًا : « إن العثمانيين تدرجوا فى دخول مصر ، وصاروا فى كل يوم يدخل منهم جماعة بعد جماعة ، وأخذوا يشاركون الناس فى صناعاتهم وحرفهم مثل القهوجية والحمامية والخياطين والمزينين وغيرهم ، فاجتمع العامة وأصحاب الحرف وذهبوا إلى مصطفى باشا قائممقام وشكوا إليه ، فلم يلتفت لشكواهم لأن ذلك من سنن عساكرهم وطرائقهم العقيمة » .

هذا ما كتبه الجبرتى فى بيان مساوئ الحكم التركى فى ذلك العهد ، وهو قول لا غبار عليه ، وقد أيدت الحوادث التى تتابعت ذلك حكم الجبرتى .

ولم تقف المغارم عند هذا الحد ، بل أخذ المماليك الذين جاءوا فى ركاب يوسف باشا يأمرون وينهون ويشمخون بأنوفهم ويعودون إلى أساليبهم ومظالمهم القديمة ويفرضون على الأهالى ما شاءت أهواؤهم من الجعالات والأتاوات .

أما الفرنسيون فقد انهمكوا فى إعداد الرحيل وشرعوا فى بيع أمتعتهم وما بقى من سلاحهم

---

(٥) الكيس خمسمائة قرش من عملة ذلك العصر .

ودوابهم ، وسلموا غالب الثغور والقلاع ، وبادر جماعة من أقطاب الحملة إلى السفر لفرنسا دون انتظار رحيل الجيش ، وكان الجنرال (ديزيه) أحد الموقعين على معاهدة العريش أول من بادر إلى السفر وصحبه فى سفره الجنرال دافو والقوميسير (ميو) Miot ومعهم بعض الضباط فأقلعوا من الإسكندرية قاصدين فرنسا ، لكن أوامر الأميرال اللورد كيث Keith قومندان القوات البحرية الإنجليزية فى البحر الأبيض المتوسط صدرت إلى بوارج الأسطول بإلغاء العمل بشروط معاهدة العريش . فضبط الجنرال ديزيه ورفاقه ولبثوا فى ثغر (ليفورن)[٦] رهن الاعتقال وهم يحتجون على هذه المعاملة وما فيها من نقض معاهدة العريش ، إلى أن سمح لهم بمواصلة السفر إلى فرنسا فوصل ديزيه إلى طولون يوم ٢٤ أبريل سنة ١٨٠٠[٧] .

وكذلك جرى للمسيو بوسليج والجنرال دوجا وغيرهما فإن السفن الإنجليزية صادرت سفرهم ولم يصلوا إلى فرنسا إلا بعد عناء كبير .

* * *

(٦) من ثغور إيطاليا .

(٧) علم ديزيه عند نزوله إلى طولون أن نابليون فى إيطاليا يحارب النمسويين فلحق به وحارب إلى جانبه فى معركة (مارنجو) التى انتصر فيها نابليون وقتل فيها ديزيه (١٤ يونية سنة ١٨٠٠) ومن غرائب الأقدار أنه قتل فى نفس اليوم الذى قتل فيه الجنرال كليبر بالقاهرة .

الفصل الثامن

نقض المعاهدة ومعركة عين شمس

لم تقع هذه المصادرات عفوا ، بل كانت نتيجة خطة اتبعتها الحكومة الإنجليزية حيال معاهدة العريش . فإنها لم تقر هذه المعاهدة وأعلنت أنها لا ترتبط بشروطها وأصدرت أوامرها إلى اللورد كيث بألا يأذن للجنود الفرنسية باجتياز البحر والوصول إلى فرنسا .

والواقع أن السير سدنى سميث لم يوقع على المعاهدة مع أنه كان وسيط الاتفاق بين الفرنسيين والعثمانيين والمتولى لسير المفاوضات والواضع لشروط الصلح . ولعله لم يوقع عليها ليترك حكومته حرة فى تنفيذ ما يروق لها من نصوص المعاهدة ورفض مالا يروقها فالحكومة الإنجليزية لم تقبل أن يبحر الجنود الفرنسيون بأسلحتهم إلى بلادهم وأصرت على أن يسلموا أسلحتهم ويسلموا أنفسهم كأسرى حرب ، وألا يسمح لهم بالذهاب إلى فرنسا . وكانت العقبات التى لقيها ديزيه وبوسليج ودوجا فى سفرهم نتيجة هذه التعليمات .

أدرك الجنرال كليبر أن الحكومة الانجليزية قد عبثت به فى مفاوضات العريش فتركته يتعهد بالجلاء عن مصر واعتزمت أن تأخذ جنوده كأسرى حرب . وفى الوقت نفسه كان يوسف باشا الصدر الأعظم يتقدم بجنوده فى داخلية البلاد تنفيذاً للمعاهدة فاحتلت جنوده قطية والصالحية وبلبيس والسويس والمنصورة وعزبة البرج ودمياط بدون قتال . واستقر فى بلبيس . وتقدم القسم الأول من الجيش العثمانى بقيادة ناصف باشا إلى الخانكة ثم إلى المطرية . وعين الصدر الأعظم درويش باشا واليًا على الصعيد فمضى إلى الوجه القبلى ليتولى حكمه .

فشعر كليبر بحرج موقفه ، وأخذ يستعد لاستئناف القتال وكان بعض الجنود العثمانيين قد دخلوا القاهرة أفراداً ، وحدثت بينهم وبين الجنود الفرنسية بعض مشاجرات ، فأصدر كليبر أمراً بألا يدخل القاهرة أى جندى عثمنى ، وأعاد تحصين القلاع المحيطة بالمدينة وأرجع الذخائر والمهمات إلى المعسكر العام ، واستدعى كتائب الجيش من الرحمانية ورشيد والوجه القبلى ،

فاحتشد الجيش ورابط بالقبة استعداداً لملاقاة الجيش العثمانى القادم ، وأرسل كليبر إلى الصدر الأعظم الذى كان لم يزل ببلبيس يذكر له ما كان من نقض الإنجليز للمعاهدة ، فأرسل الصدر الأعظم إلى السير سدنى سميث يطلب إليه احترام شروط الصلح ، وأخذ هو يزحف ببقية الجيش على القاهرة ، فوصل إلى الخانكة ثم تقدمت جنوده بقيادة ناصف باشا نحو القبة فصارت وجهاً لوجه أمام القوات الفرنسية ، وفى ذلك الحين وصل إلى القاهرة مندوب من قبل الأميرال اللورد كيث يحمل خطابًا أشبه ببلاغ نهائى إلى الجنرال كليبر ينذره بأنه تلقى من حكومته أمراً بألا يقبل أى اتفاق مع الجيش الفرنسى إلا إذا قبل أن يلقى السلاح من يده ويسلم ما لديه من الأسلحة والذخائر والأمتعة والسفن ويسلم الجنود أنفسهم كأسرى حرب ، وألا يسمح بوصول الجنود إلى فرنسا إلا على قاعدة تبادل الأسرى ، وأعلنه أنه سيضبط فى البحر كل سفينة تقل جنوداً فرنسية ولو كانت تحمل جواز مرور من أحد الحلفاء (يقصد تركيا) ويعتبرها غنيمة حربية ويعتبر الجنود الذين على ظهرها كأسرى حرب .

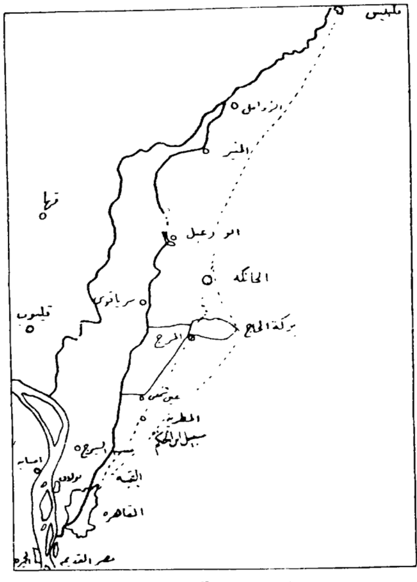
كان هذا الإنذار نقضاً صريحًا لمعاهدة العريش ، فهو بمثابة إعلان لحرب جديدة عقيم ، لأن جلاء الجنود الفرنسية عن مصر كان أمراً مقضيًا وكان الفرنسيون جادين فى تنفيذ المعاهدة ، ومصر لم يكن يهمها إلا الجلاء ، لكن الحكومة الإنجليزية كانت تريد إذلال فرنسا بسبب العداء الذى كان قائماً بين الدولتين ، ولم تقبل أن يعود الجيش الفرنسى إلى بلاده كى لا يشترك فى الحروب الأوروبية بين فرنسا من جانب وإنجلترا وحلفائها من جانب آخر ، وهكذا نفخت نار القتال فى مصر بغير جدوى بعد أن خمدت جذوتها واستعد الفرنساويون للجلاء ولقى الشعب المصرى فى ميدان الحرب الجديدة من الويلات والكوارث ما كان عنه بمنجاة ، ففى خلال هذه الحرب ثارت مدينة القاهرة ثورتها الثانية فسفكت فيها الدماء وأحرقت المدينة وتهدمت الدور وضاعت الأرواح وتفاقمت الخطوب ، كل ذلك لأن السياسة الإنجليزية أبت أن تنفذ معاهدة اشتركت فى وضعها .

اعتبر الجنرال كليبر إنذار اللورد كيث بمثابة إعلان للحرب ، فأخذ يستعد لقتال الجيش العثمانى ، وكان معظم جنوده قد اصطفوا للقتال فى سهول (القبة) فطلب وهو فى القاهرة إلى الصدر الأعظم أن ينسحب بجنوده إلى بلبيس ثم إلى الصالحية ثم إلى حدود سوريا وإلا أكرهه بقوة جيشه على الانسحاب ، وكان كليبر قد جعل هذا الإنذار مقدمة للهجوم الذى أعد له عدته .

معركة عين شمس

(٢٠ مارس سنة ١٨٠٠)

لم يضيع كليبر وقته ، وانتقل من القاهر إلى القبة ليلة ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ ، وهناك قضى الليل فى تعبئة جنوده استعداداً للقتال ، تمت هذه الاستعدادات وقواد الجيش العثمانى لا يدرون من أمرها شيئًا ولا يحسبون حسابًا لما سيأتى به الغد ، ذلك أن الجيش العثمانى كانت تنقصه القيادة الصالحة ، كما كان يعوزه النظام وحسن الترتيب .



بين القاهرة وبلبيس (تخطيط سنة ١٨٠٠)
وفيها بيان ميدان معركة عين شمس

نظم كليبر صفوفه على أربعة مربعات على الطريقة الفرنسية ، وجعل على صفوف الميمنة الجنرال (فريان) . وعلى الميسرة الجنرال (رينييه) وتحت إمرتهما قواد المربعات (بليار) و (دنزلو) ويتبعان فريان . والجنرال (روبان) و (لاجرانج) ويتبعان رينييه . ووضع المدفعية بين المربعات . والفرسان فى القلب بقيادة الجنرال لكليرك Leclerk

وكان عدد الجنود الذين حشدهم كليبر فى ميدان القتال عشرة آلاف مقاتل . وترك فى القاهرة ألفى جندى لحمايتها من ثورة الأهالى والدفاع عن الحصون المشرفة على المدينة .

أما الجيش العثمانى فكانت قواته الأمامية بقيادة ناصف باشا تحتل المطرية وعددها ستة آلاف من الجنود الانكشارية ، وكانت طلائعها تمتد يمنة إلى النيل ويسرة إلى سبيل ابن الحكم[1] وكانت جموع الجيش العثمانى ترابط بغير نظام خلف هذه المواقع بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا وتحتل الجهات الممتدة بين الخانكة وأبى زعبل .

ففى الساعة الثالثة من صبيحة يوم ٢٠ مارس بدأ كليبر يتحرك قاصداً مواقع ناصف باشا فى المطرية ، فوصلت قوات الميمنة الفرنسية تجاه سبيل ابن الحكم حيث كانت ترابط كتيبة من طلائع الجيش العثمانى ، فارتدت أمام هذا الهجوم ووصلت قوات الميسرة أمام المطرية ووقفت لتعطى قوات الميمنة الوقت الكافى لتصل إلى ما بين عين شمس والمرج ، وكان الغرض من هذه الحركة منع المدد الذى ينتظر أن يرسله الصدر الأعظم لشد أزر جنود ناصف باشا .

ابتدأ موقف الجيش العثمانى يتحرج لعد هذه الحركة ، على أن قوة من فرسان هذا الجيش ومشاته انفصلت عنه واتجهت إلى القاهرة بقيادة نصوح باشا ، وخشى الجنرال كليبر أن تقطع هذه القوة خط الرجعة على الجيش الفرنسى ، فأرسل لمحاربتها كتيبة من الجنود ولكن العثمانيين تغلبوا عليها وتمكنوا من دخول القاهرة فى الوقت الذى كانت نار المعركة مستعرة فى المطرية وعين شمس .

---

(١) ورد اسمه فى المراجع الفرنسية (سبيل الحم) وذكر اسمه بالعربية بهذا الوضع فى الخرطة التفصيلية التى خططها مهندسو الحملة الفرنسية ، ويلوح لنا أن ذلك تحريف من (ابن الحكم) وقد لاحظنا على موضعه بهذه الخرطة أنه ينطبق على الميدان الذى يعرف الآن بميدان ابن الحكم بحلمية الزيتون (خط مصر–المرج) والمرسوم بخرطة مصلحة المساحة الحديثة عن القاهرة وضواحيها ، وقد استفسرنا من صديقنا الأستاذ المحقق مصطفى بك منير أدهم الذى تولى وضع أسماء خطط القاهرة وأحيائها وشوارعها وإرجاعها إلى أصولها ومناسباتها التاريخية عن حكمة تسميته ذلك الميدان والشارع الذى يصل إليه من محطة الحلمية (ميدان ابن الحكم) و (شارع ابن الحكم) فأخبرنا أنه بهذا الإسم لأن بهذه الجهة وقعت المعركة المشهورة بين مروان بن الحكم وعبد الرحمن بن عتبة جحدم سنة ٦٤ هجرية .

ترك كليبر هذه القوة تدخل القاهرة وكلف الجنرال رينييه قائد الميسرة أن يهاجم بجنوده قرية المطرية التى كان جيش ناصف باشا متحصنًا بها ، فدار قتال شديد بين الفرنسيين والأتراك انتهى بفوز الفرنسيين واستيلائهم على معسكر العثمانيين بالمطرية[٢] وكان لمدافع الفرنسيين تأثير كبير فى سير المعركة .

انتصر الفرنسيون على جيش ناصف باشا واحتلوا المطرية ، ولكن قوات الصدر الأعظم كانت مرابطة كما قدمنا خلف مواقع ناصف باشا ، فلما علم بهزيمة ناصف باشا أقبل بمجموعه لمهاجمة الجيش الفرنسى ، ووصل الجنرال رينييه بفرقته قريبًا من مسلة عين شمس ، فتقدم الصدر الأعظم بجنوده واصطفوا على المرتفعات الكائنة بين (المرج) و (سرياقوس) وأخذ يتأهب للهجوم ، لكن الجنرال كليبر لم يترك له فرصة لترتيب هجومه فأصدر أوامره بهجوم عام على مواقع العثمانيين الجديدة ، وانتقل ميدان القتال من المطرية إلى ما بين المرج وسرياقوس (انظر الخرطة ص ١٤٥) ، وكانت المدفعية الفرنسية تحكم الرماية فتلقى قنابلها وسط معسكر العثمانيين وتحصد صفوفهم حصدًا وتوقع بهم خسائر جسيمة ، فأدرك الصدر الأعظم أن موقفه أصبح هدفًا للخطر ، فأخلى مواقعه وارتد إلى (الخانكة) وبذلك تم الفوز للجنرال كليبر .

انهزم الجيش العثمانى شمالا وتقهقر بغير نظام بعد أن فدحته الخسائر الجسيمة ، على أن ناصف باشا تمكن من الانسحاب من ميدان القتال فى رهط من الجنود واتجه إلى القاهرة ليمد القوات العثمانية التى قصدت إليها بقيادة نصوح باشا عند بدء القتال .

تعقب كليبر فلول الجيش العثمانى فى الخانكة ، ولكن الصدر الأعظم لم يبق بها واستمر فى انسحابه شمالا إلى بلبيس واحتلها بجنوده فأدركه فيها الجنرال كليبر مساء ذلك اليوم واستعد العثمانيون للامتناع بها ولكنهم رأوا الدفاع عنها عبثًا فأخلوها وتقهقروا إلى الصالحية .

رواية الجبرتى :

قال الجبرتى عن معركة عين شمس مايلى : « اليوم الثالث والعشرين من شوال سنة ١٢١٤ (٢٠ مارس سنة ١٨٠٠) ركب سارى عسكر كليبر قبل طلوع الفجر بعساكره وصحبتهم المدافع وآلات الحرب . وقسم عساكره طوابير فمنهم من توجه إلى عرضى (جيش)

---

(٢) يتبين من ذلك أن أكبر شطر من المعركة وقع فى المطرية ، ولذلك يسميها بعض المؤرخين معركة المطرية ، على أن اسمها الشائع معركة (عين شمس) لأن المطرية قائمة بالقرب من أطلال عين شمس القديمة .

الوزير (يوسف باشا) ومنهم من مال على جهة المطرية فضربوا عليهم فلم يسعهم إلا الجلاء والفرار وتركوا خيامهم ووطاقهم . وركب نصوح باشا ومن كان معه وطلبوا جهة مصر فتركهم الفرنساوية ولحقوا بالذاهبين من إخوانهم إلى جهة العرضى بالخانكاه بعد أن نهبوا ما فى عرضى ناصف باشا من المتاع والأغنام وسمروا أفواه المدافع وتركوها وساروا إلى جهة العرضى فلما قاربوه أرسلوا إلى الوزير يأمرونه بالرحيل بعد أربع ساعات . فلم يسعه إلا الارتحال والفرنساوية فى أثره وغالب عساكره مفرقون ومتشرون فى البلاد والقرى والنواحى لجمع المال ومقررات الفرض[٣] وظلم الفقراء » .

استمر الجيش التركى فى ارتداد من الصالحية حتى حدود فلسطين وبذلك تبدد الجيش العرمرم الذى جاء يقوده الصدر الأعظم ليتسلم مقاليد الحكم فى البلاد بعد إبرام معاهدة العريش . وجرت الأمور على غير ما يتوقعه الصدر ، وعادت السلطة مؤقتًا إلى يد الفرنسيين .

* * *

(٣) جمع فرضة أى ضريبة .

الفصل التاسع

ثورة القاهرة الثانية

(٢٠ مارس – ٢١ أبريل سنة ١٨٠٠)

كانت الحامية الفرنسية فى القاهرة أثناء احتشاد الجيش الفرنسى فى معركة عين شمس مؤلفة من ٢٠٠٠ مقاتل بقيادة الجنرال (فردييه) Verdiet موزعة على القلاع المحيطة بالمدينة والمعسكر العام بالأزبكية ، وقد أصدر الجنرال كليبر أوامره إلى فردييه قبل انتقاله إلى (القبة) أن يمتنع بالقلاع متى أحس بوادر الثورة فى المدينة ، وأن يحافظ على المواصلات بين قصر العينى وقلعة الجبل وقلعة قنطرة الليمون[1] وكان الجنرال زايو نشك مرابطاً بالجيزة مدداً لحامية المدينة عند الحاجة ، واعتقد الجنرال كليبر أن هذه الاستعدادات كافية لإخضاع القاهرة فى غيبته لقتال الجيش العثمانى ..

على أن انفصال الكتيبة المؤلفة من المقاتلة العثمانية والمماليك بقيادة نصوح باشا عن ميدان معركة عين شمس ودخولها القاهرة ، قد غير وجه المسألة ، لأن هذه الكتيبة من شأنها أن تشجع روح الثورة فى نفوس الشعب المستعد فى كل لحظة للمقاومة . كما أن ناصف باشا قد انسحب بعد المعركة كما علمت واتجه إلى القاهرة فى عدد حاشد من رجاله[2] واندس جماعة منهم فى مختلف البلدان والأقاليم يحرضون الناس على الثورة ، فذهب فريق إلى دمياط وفريق إلى الصعيد يستفزون الناس لقتال الفرنسيين ، وكانت النفوس متحفزة من قبل لمقاومتهم ، فتجددت حركات الثورة والمقاومة فى القاهرة وفى مختلف النواحى والجهات ، وهكذا لم يكد يخرج الجنرال كليبر ظافراً من معركة عين شمس حتى واجه فى القاهرة ثورة جديدة أشد وأعظم

---

(١) هى القلعة التى أنشأها الفرنسيون بقنطرة الليمون وسموها قلعة (كامان) ، Camin انظر خريطة القاهرة ص ٣١٢ الجزء الأول (الطبعة الأولى) .

(٢) انظر ص ١٤٦ .

من ثورتها الأولى ، وتجددت حركات الهياج فى الوجه البحرى ، فأصدر تعليماته إلى الجنرال (رامبون) فى منوف بأن يتجه بجنوده إلى دمياط ، وعهد إلى الجنرال (بليار) بمعاونته فى مهمته ، وكان الجنرال (لانوس) يجوب أنحاء الدلتا لإخماد الهياج ، ثم اتصل بالجنرال (رامبون) بالقرب من سمنود فى طريقه إلى دمياط .

شبت نار الثورة إذن فى القاهرة يوم ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ ومعركة عين شمس قائمة ، وكان من زعماء هذه الثورة السيد عمر مكرم نقيب الأشراف ، والسيد أحمد المحروقى كبير التجار ، والشيخ الجوهرى ابن الشيخ محمد الجوهرى[٣] .

بدء الثورة :

لم يكد يسمع سكان العاصمة قصف المدافع فى ميدان المعركة حتى بدأت الثورة فى حى بولاق ، وفى ذلك يقول الجبرتى : « أما بولاق فإنها قامت على ساق واحد ، وتحزم الحاج مصطفى البشتيلى وأمثاله (من دعاة الثورة) وهيجوا العامة وهيئوا عصيهم وأسلحتهم ، ورمحوا وصفحوا ، وأول ما بدءوا به أنهم ذهبوا إلى وطاق الفرنسيين الذى تركوه بساحل البحر (النيل) وعنده حرس منهم فقتلوا من أدركوه منهم ونهبوا جميع ما به من خيام ومتاع وغيره ، ورجعوا إلى البلد وفتحوا مخازن الغلال والودائع التى للفرنساوية وأخذوا ما أحبوا منها وعملوا كرانك حوالى البلد ومتاريس » .

والحاج (مصطفى البشتيلى) الذى ذكره الجبرتى هو من أعيان بولاق ، سمى البشتيلى نسبة إلى (بشتيل) من أعمال الجيزة ، وقد تكلم عنه الجبرتى لمناسبة اعتقاله قبل حوادث هذه الثورة بعدة أشهر ، فذكر أن الفرنسيين اعتقلوه ثانى ربيع الأول سنة ١٢١٤ (٤ أغسطس سنة ١٧٩٩) لما بلغهم من بعض الوشاة أن بوكالته قدوراً مملوءة باروداً ، ففتشوا الوكالة ووجدوا البارود فى القدور ، فضبطوها واعتقلوه ، ولم يذكر الجبرتى متى أفرجوا عنه قبل نشوب الثورة ، وظاهر من منطق الحوادث أنهم أطلقوا سراحه بعد إبرام معاهدة العريش لما عزموا على الجلاء ، فلما نقضت المعاهدة وتجددت الحرب كان البشتيلى من دعاة الثورة فى بولاق .

ثار أهل بولاق ، وحملوا ما وصلت إليه أيديهم من السيوف والبنادق والرماح والعصى ،

---

(٣) ذكر الجبرتى الاثنين الأولين ، أما ابن الشيخ الجوهرى فقد ذكره الجنرال كليبر فى يومياته ، وكتب كليبر كذلك فى مذكراته أن الشيخ السادات كان من المحرضين على الثورة .

واتجهوا بجموعهم صوب قلعة قنطرة الليمون (قلعة كامان) لاقتحامها ، ولكن حامية القلعة ردت هجومهم بنيران المدافع ، فأعاد الثوار صفوفهم واستأنفوا الهجمة ، فأرسل الجنرال (فردييه) مدداً من الجنود إلى الحامية فشتتوا جموع الثائرين بنيران المدافع والبنادق ، وقتل فى هذا الهجوم ثلثمائة من الثوار .

أثارت هذه الحركة ثائرة الأهالى فى الأحياء الأخرى من المدينة ، وزاد فى روح الثورة دخول ناصف باشا إلى القاهرة على النحو الذى عرفته ، وكان يصحبه عثمان بك كتخدا الدولة وهو من كبار موظفى الباب العالى ، وجماعة من البكوات المماليك كإبراهيم بك ومحمد بك الألفى وحسن بك الجداوى ، ومع أن ناصف باشا كان فى الواقع فاراً من ميدان القتال ، وبالرغم من أن وصوله كان بعد أن حلت الهزيمة بالجيش العثمانى ، فإن الإشاعات قد طارت فى المدينة بأن الجيش الفرنسى قد انهزم فى ميدان القتال ، وزاد فى تأييد هذه الإشاعات رؤية الناس جماعة من فرسان العثمانيين والمماليك يجوبون شوارع القاهرة وهم الذين تركوا ميدان معركة عين شمس .

هجوم الثوار على معسكر الفرنسيين :

عمت الثورة أنحاء المدينة ، واتجه الثوار بجموعهم إلى معسكر القيادة العامة للجيش الفرنسى بالأزبكية (بيت الألفى بك) وعددهم كما يقدرهم (ريبو)[٤] نحو عشرة آلاف ثائر ، وكان الجنرال ديرانتو يدافع عن معسكر الأزبكية بكتيبة من الجنود فتلقى الثائرين بنار شديدة من البنادق والمدافع ، فردهم على أعقابهم وتقهقروا واحتلوا بعض المنازل المجاورة للميدان لإطلاق النار على المعسكر ، فأقامت الجنود الفرنسية متاريس من جذوع النخيل للدفاع عن معسكرهم .

امتدت الثورة إلى كثير من النواحى ، وازداد عدد الجموع المنضمة إلى لوائها ، وانبث دعاة الثورة فى كل مكان يحرضون الناس على القتال ، وامتلأت بهم الشوارع والميادين والأسطحة حتى بلغ عددهم كما يقدرهم المسيو (جالان)[٥] خمسين ألف ثائر حاملين البنادق والأسلحة والعصى ، واندفعت جموعهم تتقدمهم طائفة من المماليك والانكشارية ، وانضم

(٤) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء السابع .

(٥) فى كتابه (صورة مصر أثناء إقامة الجيش الفرنسى) .

إليهم النساء والأطفال ، فكان لهم نداءدات وصيحاتَ تصم الآذان ، وهبت عاصفة الثورة على أحياء العاصمة كلها .

هجم الثوار على معسكر الفرنسيين ثانية فى ميدان الأزبكية واستعملوا فى الهجوم ثلاثة مدافع من مدافع العثمانيين التى كانت لهم فى المطرية ، ولعدم وجود القنابل استعاضوا عنها بكرات الموازين الحديد التى جلبوها من الوكائل والدكاكين ، لكن الحامية الفرنسية كانت متحصنة فى المعسكر ، فثبتت لهم واستمر القتال إلى اليوم التالى وأخذت القلاع منذ ابتداء الثورة تضرب المدينة بالمدافع وتسقط قنابلها على الأحياء الثائرة ، وكانت قلعة الجبل وقلعة ديبوى أشد القلاع فتكًا بالمدينة ، فوقع الرعب فى الناس وأزمع كثير منهم المهاجرة . ولكن دعاة الثورة تعلقوا بهم وأغلقوا باب النصر الذى كانت تقصد إليه الجموع للخروج من المدينة . فانبعثت روح الحماسة والقتال فى نفوس الناس ، وهجم الثوار على بيت مصطفى أغا (محافظ المدينة) الذى كان متهمًا بإيذاء الأهالى فأقاموا عليه البينة بما ارتكبه من الإيذاء وقتلوه .

وفى اليوم التالى (٢١ مارس سنة ١٨٠٠ — ٢٤ شوال سنة ١٢١٤) اتسع نطاق الثورة ، وغامرت فيها طبقات الشعب كافة ، قال الجبرتى فى هذا الصدد : « تهيأ كبراء العساكر



معسكر الفرنسيين بالأزبكية سنة ١٨٠٠ — أنظر ص ١٥١

والعساكر ومعظم أهل مصر ما عدا الضعيف الذى لا قوة له للحرب ، وذهب المعظم إلى جهة الأزبكية وسكن الكثير فى البيوت الخالية والبعض خلف المتاريس ، وأخذوا عدة مدافع [٦] زيادة عن الثلاثة الأخرى وجدت مدفونة فى بعض بيوت الأمراء (المماليك) وأحضروا من حوانيت العطارين من المثقلات التى يزنون بها البضائع من حديد وأحجار استعملوها عوضاً عن الجلل للمادفع ، وصاروا يضربون بها بيت سارى عسكر بالأزبكية [٧] .

فى هذا اليوم حضرت قوة الجنرال (لاجرانج) Lagrange التى أرسلها كليبر لنجدة حامية القاهرة ، جاءت فى نحو الثانية بعد الظهر وكانت ممتلئة حماسة بسبب انتصار الجيش الفرنسى فى معركة عين شمس ، فاكتسحت الشوارع الموصلة إلى معسكر الجنود فى الأزبكية ورفعت الحصار عنه وانضمت إلى الحامية وزادت فى تحصين المعسكر بحيث تعذر على الثوار اقتحامه ، لكنهم استطاعوا بمعاونة حلفائهم العثمانيين والمماليك احتلال البيوت التى كان يسكنها قواد الجيش الفرنسى حول ميدان الأزبكية كبيت الجنرال (رينييه) [٨] وبيت فرقة الهندسة المجاور له وغيرهما .

اشتداد الثورة :

ثم جاء الجنرال (فريان) Friant بجنوده ، وأراد أن يعيد النظام فى المدينة ، ولكنه لم يستطع اقتحام الشوارع لكثرة ما كان بها من المتاريس والمنازل المحصنة ، فقد أقام الثوار المتاريس على أبواب المدينة وفى معظم أحيائها ، كباب اللوق ، وناحية المدابغ ، والمحجر ، والشيخ ريحان ، والناصرية ، وقصر العينى ، وقناطر السباع ، وسوق السلاح ، وباب النصر ، وباب الحديد ، وباب القرافة ، وباب البرقية ، والسويقة ، والرويعى ، وكانت المتاريس على جانب كبير من المناعة ، فقد بناها الثوار فى الشوارع وبلغ علو بعضها اثنى عشر قدمًا ، وتحصن الناس حولها وتحمسوا للقتال ، وعبثاً حاول بعض العقلاء أن يقنعوهم بانتصار الجيش الفرنسى فى معركة عين شمس ، فأبوا أن يصدقوا ذلك ، ولم يقبلوا أى نبأ بكسر شوكة الثورة ، وقتلوا الرسل الذين جاءوا بالأخبار الصحيحة عن المعركة ، وبذل الأهالى ما فى طوقهم لتأييد

---
(٦) ذكر (ريبو) أن عددها عشرون مدفعاً .
(٧) العبارات التى بين قوسين منقولة عن الجبرتى .
(٨) هو الذى يعبر عنه الجبرتى ببيت أحمد أغا شويكار مالكه الأصلى .

الثورة ، وأتوا فى هذا السبيل من الأعمال ما أدهش الفرنسيين ، فقد أنشأوا فى أربع وعشرين ساعة معملا للبارود فى بيت قائد أغا بالخرنفش ، وأنشأوا معملا لإصلاح الأسلحة والمدافع ، ومعملا آخر لصنع القنابل وصبّ المدافع جمعوا له الحديد من المساجد والحوانيت ، وتطوع الصناع للعمل فيه ، وقدموا ما لديهم من الحديد والآلات والموازين وأخذوا يجمعون القنابل التى تتساقط من المدافع الفرنسية فى الشوارع ويستعملونها قذائف جديدة للضرب ، قال الجبرتى : « وأحضروا ما يحتاجون إليه من الأخشاب وفروع الأشجار والحديد وجمعوا إلى ذلك الحدادين والنجارين والسباكين وأرباب الصنائع الذين يعرفون ذلك فصار هذا كله يصنع ببيت القاضى والخان الذى بجانبه والرحبة التى عند بيت القاضى من جهة المشهد الحسينى » .

وقال مسيو مارتان أحد مهندسى الحملة[٩] وكان شاهد عيان لتلك الثورة : « لقد قام سكان القاهرة بما لم يستطع أحد أن يقوم به من قبل ، فقد صنعوا البارود ، وصنعوا القنابل من حديد المساجد وأدوات الصناع ، وفعلوا ما يصعب تصديقه — وما راء كمن سمع — ذلك أنهم صنعوا المدافع » .

وقال الجنرال كليبر فى يومياته : « استخرج الأعداء مدافع كانت مطمورة فى الأرض ، وأنشأوا معامل للبارود ومصانع لصبّ المدافع وعمل القنابل وأبدوا فى كل ناحية من النشاط ما أوحت به الحماسة والعصبية ، هذه هى بوجه عام حالة القاهرة عند قدومى إليها ، وإنى لم أكن أتصورها فى هذه الدرجة من الخطورة » .

تم كل ذلك فى ثلاثة أيام ، وتطوع الأهالى لإمداد الثوار بالزاد وتوزيع الأقوات « وباشر السيد المحروق وباقى التجار الكلف والنفقات والمآكل والمشارب ، وكذلك جميع أهل مصر كل إنسان سمح بنفسه وبجميع ما يملكه ، وأعان بعضهم بعضًا وفعلوا ما فى وسعهم وطاقتهم من المعونة ، وأما الفرنسيس فإنهم تحصنوا بالقلاع المحيطة بالبلد وببيت الألفى (دار القيادة العامة) بالأزبكية وما والاه من البيوت واستمر الناس بعد دخول الباشا (ناصف باشا) والأمراء ومن معهم من العسكر إلى مصر أيامًا قليلة وهم يدخلون ويخرجون من باب الفتوح وباب العدوى ، وأهل الأرياف القريبة تأتى بالميرة والاحتياجات من السمن والجبن واللبن والغلة والتبن والغنم فيبيعونه أهل مصر ثم يرجعون إلى بلادهم » .

---

(٩) فى كتابه (تاريخ الحملة الفرنسية فى مصر) .

اعتداءات يؤسف لها :

على أنه مما شوّه هذه الثورة وقوع بعض حوادث اعتداء على المسيحيين فى المدينة ، ولا يسع الكاتب المنصف إلا أن يشعر بأسف عميق لوقوع هذه الحوادث ، لأن الاعتداءات المذهبية تشوّه الثورات وتلقى عليها تبعات جساما وتجعلها بحق هدفاً للاستنكار والسخط ، ولا يخفف من هذه التبعة كون الاعتداء لم يقتصر على المسيحيين بل تناول فريقًا من المسلمين ممن اتهمهم الثوار بموالاة الفرنسيين فقد قتلوا محافظ المدينة (مصطفى أغا) بهذه الحجة كما قدمنا . واعتدوا كذلك على السيد خليل البكرى ، ولم يراعوا منزلته ولا مقام بيته ، وشهربه العامة فساقوه فى الشوارع عارى الرأس تتبعه الشتائم والإهانات ، وكادوا يفتكون به لولا أن حماه عثمان بك كتخدا الدولة وآواه السيد أحمد بن محمود محرم أحد أعيان التجار إلى بيته ، نقول إن مثل هذه الحوادث ليس من شأنها أن تخفف من تبعة الاعتداء على المسيحيين ، لأنها هى كذلك خليقة بالسخط والاستنكار ، وإنما يخفف من تبعتها عن العنصر المصرى أن مسئوليتها واقعة بالأكثر على عنصر الأتراك والمماليك ، فإنهم بشهادة المراجع الفرنسية هم الآمرون بالاعتداء على المسيحيين ، والمحرضون للعامة على هذا الاعتداء ، والعامة فى كل عصر تتبع بلا تفكير أو روية أوامر الزعماء وأهواءهم ، فالقوميسير (ميو) Miot وهو شاهد عيان لهذه الثورة — يقول فى مذكراته إن كتائب الجنود العثمانية بقيادة ناصف باشا هى التى ارتكبت حوادث الاعتداء على المسيحيين ، ويقول الجنرال كليبر فى مذكراته إن والى الشرطة نادى بين الناس بوجوب المحافظة على أرواح المسيحيين وتوجيه قوتهم ضد الفرنسيين وحدهم ، ويقول الجبرتى إن نصوح باشا هو الآمر بالاعتداء على المسيحيين وأن جماعة الحجازية والمغاربة هم الذين ارتكبوا المنكرات من نهب وقتل .

وهنا تبدو ملاحظة جديرة بالنظر ، وهى المقابلة بين هذه الثورة وثورة القاهرة الأولى ، فالثورة الأولى[١٠] بشهادة المراجع الفرنسية قد خلت من حوادث الاعتداء على المسيحيين ، بخلاف الثورة الثانية . والمقابلة هنا ذات مغزى هام إذا لاحظت أن الزعامة فى ثورة القاهرة الأولى كانت للعنصر المصرى وحده ، فلم يشترك فى قيادتها عنصر الترك ولا المماليك ، أما الثانية فإنه وإن كانت زعامتها قد اشترك فيها العنصر القومى إلى حد ما ممثلا فى أشخاص السيد عمر

---

(١٠) انظر الجزء الأول الفصل الثالث عشر.

مكرم والسيد أحمد المحروقى والشيخ الجوهرى وغيرهم إلا أن القيادة العليا فيها كانت للترك والمماليك مثل ناصف باشا ونصوح باشا وإبراهيم بك ، فخلو الثورة الأولى من حوادث الاعتداء على المسيحيين ووقوع هذا الاعتداء فى الثورة الثانية مما يشرف العنصر القومى ويبرهن على أن قيادته للثورة تجعلها أميل إلى جانب الإنسانية وأبعد عن الفظائع والاعتداءات المستنكرة ، ومن الإنصاف أن نستنتج من هذه المقابلة مبلغ ما جبلت عليه الروح القومية المصرية من الفطرة السليمة ونزاهة المقصد ، وأنها لا تفسد إلا بفساد القادة والزعماء . والناس على دين ملوكهم .

والآن فننتقل إلى تتبع حوادث الثورة وتطوراتها .

وصول الجنرال كليبر :

جاء الجنرال كليبر يوم ٢٧ مارس بعد أن ترك حاميات من الجنود فى الصالحية والقرين وبلبيس ، وعاد إلى مصر ، فألفى نار الثورة تضطرم فى أحيائها من أقصاها إلى أقصاها ، ورأى الضواحى والبلاد المجاورة لها قد اشتركت فى الثورة وأمدت ثوار القاهرة بالرجال والعتاد ، وشاهد فى بولاق ومصر القديمة حصوناً أقامها الثوار للدفاع ، ووجد جميع الوكائل والمخازن التى على النيل قد تحولت إلى شبه قلاع احتلها الثوار . وصارت الملاحة فى النيل تحت رحمتهم .

كانت القاهرة فى ذلك الحين معقلا كبيراً للثورة ، فأدرك كليبر خطر الحال ، وفكر طويلا فى الوسيلة الناجعة لإخمادها بعد أن تغلغلت فى المدينة إلى هذا الحد ، فرأى أن أخذ الثائرين بالقوة المسلحة لا يؤدى إلى إخماد الثورة لأن المتاريس كانت منتشرة فى أحياء القاهرة . والثوار مستبسلون فى المقاومة . ورأى أن مهاجمتهم فى معاقلهم قد يفقده جنوداً كان يومئذ فى حاجة إليهم ، فضلا عن أن جزءاً كبيراً من جيشه كان فى طريقه إلى دمياط بقيادة الجنرال (بليار) ، وفرقة الجنرال (رينييه) لم تزل مرابطة بالشرقية . وكانت معركة عين شمس قد استنفدت جزءاً كبيراً من ذخائر الجيش ، فرأى من كل هذه الظروف أن المبادرة إلى مهاجمة الثوار بقوة الحديد والنار مجازفة لا تؤمن عواقبها ، ورأى من الحكمة أن يأخذهم بالمطاولة ، ويستخدم الزمن فى فلّ حدهم وتخضيد شوكتهم وبذر الشقاق بين صفوفهم ، فعسى بعد ذلك أن يتبين الثوار حقيقة الهزيمة التى حلت بالجيش العثمانى ، فتضعف بطبيعة الحال روحهم المعنوية ، ومع

الزمن يدب الملل إلى صفوفهم بما يجدون من عاقبة وقوف الأعمال ، وتعطيل حركة الأسواق ، واستهداف المدينة لخطر المجاعة ، فالزمن إذن كان يخدم كليبر ويضعف حركة الثورة ، على أن كليبر أخذ فى فترة الانتظار يعد المعدات لقمع الثائرين آخر الأمر بقوة السيف والنار ، فأخذ يحصن القلاع ويقيم الاستحكامات ، ويركب المدافع ويعد المواد الملتهبة التى عزم على استخدامها لإحراق المدينة ، وفى الوقت نفسه كانت القلاع لا تنفك تضرب الأحياء الآهلة بالسكان بالمدافع .

استخدم كليبر الوقت لفصم عرى الاتحاد بين الثوار ، قبل أن يضرب الضربة النهائية ، فقد كانت الثورة تضم تحت لوائها ثلاثة عناصر ، وهم المصريون سكان القاهرة ، والأتراك والمماليك ، فهذه العناصر الثلاثة قد اجتمعت واتحدت لمحاربة العدو المشترك ، لكن اختلاف المصالح وتباين الأغراض كان عقبة فى سبيل دوام هذا الاتحاد ، وهذه العقبة وإن ذُللت تحت لواء الثورة إلا أنها لا تلبث أن تبدو للعيان عند أول فرصة ، ولقد أوجد كليبر هذه الفرصة بمفاوضة زعماء الأتراك فى وقف القتال ، واستخدم فى فتح هذه المفاوضة مصطفى باشا(١١) الذى كان لم يزل أسيراً فى يد الفرنسيين ، وكانوا يأسرونه بحسن المعاملة ، فتدخل مصطفى باشا وأقنع ناصف باشا بضرورة الكف عن القتال وأطلعه على تفاصيل هزيمة الصدر الأعظم وانسحابه إلى حدود سوريا ، واستمرت المفاوضة مع زعماء الأتراك ورؤساء المماليك فى وضع شروط الصلح ، أما أهالى القاهرة الذين على أكتافهم قامت الثورة فلم يحسب لهم حساب فى هذه المفاوضات ، ولم يمثلهم فيها أحد للدفاع عن مصالحهم ، والواقع أنهم العنصر الذى ثار غير مدفوع بأغراض شخصية أو أهواء ذاتية ، لكن زعماء الأتراك والمماليك ما كانوا يقصدون من التحريض على الثورة والاشتراك فيها إلا استعادة سلطانهم الممقوت فى البلاد ، ولقد أدرك الأهالى أن الأتراك والمماليك بدءوا يعبثون بهم ، ولذلك لم يكد يتم الاتفاق بين هؤلاء والفرنسيين على إلقاء السلاح حتى أدركوا أنهم فقدوا نفوذهم بين الجماهير ، فلم تعد تستمع لنصائحهم ، وأخذ دعاة الثورة من الأهالى يحرضون الناس على الاستمرار فى القتال ، وضموا إليهم الجماهير ، فتنادوا بمواصلة القتال وخيانة المماليك والأتراك .

وفى غضون ذلك كان مراد بك زعيم المماليك قد بدأ مفاوضاته مع الجنرال كليبر للاتفاق

---

(١١) هو قائد الجيش التركى فى واقعة أبو قير البرية وقد أسره الفرنسيون كما مر بيان ذلك واستخدموه فى مفاوضات الصلح ثم توفى فى دمياط سنة ١٢١٤ .

مع الفرنسيين كما سيجىء تفصيل ذلك ، فأدرك الجنرال كليبر أن مصلحته تقضى بأن يتم اتفاقه مع مراد بك ، ويخضع الجهات الثائرة فى الوجه البحرى ، وبذلك يتم له تطويق القاهرة ، ثم يتفرغ لإخماد ثورتها وإخضاع أهلها .

تلك هى الخطة التى رسمها لمواجهة الثورة والتغلب عليها .

إخضاع الوجه البحرى

وصل الجنرال بليار إلى دمياط تنفيذاً لتعليمات كليبر ، وكانت الجنود العثمانية تحتلها وتعسكر فى المدينة بغير نظام ولا قيادة ، فلما اقترب بليار بجنوده خرج العثمانيون لملاقاتهم من غير خطة محكمة ، ووصلوا إلى قرية (الشعراء) ، ودارت بينهم وبين الفرنسيين معركة انتهت بهزيمة العثمانيين ، واستولى الجنرال بليار على عشرة مدافع ، وقصد بجنوده دمياط فاحتلها واحتل حصونها ، واستولى كذلك على (عزبة البرج) ، وأذاع بين الأهالى خبر هزيمة الصدر الأعظم وانسحابه إلى الصحراء وفرض غرامة حربية قدرها ٢٠٠ ألف فرنك على سكان المدينة ، ثم سار إلى (منوف) وأخمد الثورة التى نشبت فيها ، وامتدت الثورة إلى (المحلة الكبرى) و (سمنود) و(طنطا) ، فجرد الجنرال لانوس عليها كتيبة من الجنود بقيادة الأدجودان جنرال فالنتين Valentin ، فأخمدت الهياج واستعملت القسوة وسفكت دماء الناس وصادرت أموالهم وضربت على البلاد التى أخضعتها غرامات حربية جسيمة ، واعتقلت الكثير من الأعيان لإكراههم على دفع الغارمات وتحصيلها .

أصدر الجنرال كليبر أمراً فى ٣ مايو سنة ١٨٠٠ بفرض غرامة خمسين ألف ريال على مشايخ (علماء) طنطا ألزموا بدفعها فى عشرة أيام ، قضى كليبر بهذه الغرامة « عقاباً لهم على الاشتراك فى الثورة التى شبت فى مدينتهم وفى الدلتا أثناء حصار القاهرة » وذكر فى أمره أن اثنين من هؤلاء العلماء اعتقلا فى سجن القلعة ، وفرض كذلك على أهالى طنطا خلاف الغرامة المتقدمة خمسين ألف أخرى لاشتراكهم فى الثورة ، وأمر بنقل الشيخين المعتقلين فى القلعة إلى سجن منوف حيث يبقيان إلى أن تسدد الغرامة كلها وأن يعادوا إلى سجن القلعة إذا لم تسدد الغرامتان فى مدة العشرة الأيام المحددة فى الأمر .

وذكر الجبرتى شيئاً من تلك الحوادث المروعة فقال عن ثورة المحلة :

« لما حضر العثمانية وشاع أمر الصلح وخضوع الفرنساوية لهم نزلت طائفة من الفرنسيس إلى المنوفية وطلبوا من أهلها كلفة (نفقات) رحيلهم ، فلما مروا بالمحلة الكبيرة تعصب أهلها واجتمعوا إلى قاضيها وخرجوا لحربهم ، فكمن الفرنسيس لهم وضربوهم بالمدافع والبنادق فقتلوا منهم نيفاً وستمائة إنسان منهم القاضى وغيره ولم ينج منهم إلا من فر وكان طويل العمر » . ثم ذكر رجوعهم عليها بعد ذلك بغرامه جسيمة . قال : وقرروا عليها نيفاً ومائة ألف ريال فرنساوى وأخذوا فى تحصيلها وتوزيعها ومهاجمة دورها وتعقب المياسير من أهلها كل ذلك مع استمرار طلب الكلف الشاقة فى كل يوم منها » .

وذكر الثورة التى شبت فى طنطا وإخماد الفرنسيين لها وفرضهم على المدينة غرامة جسيمة « وزعت على الدور والحوانيت والمعاصر وغير ذلك واستمروا على ذلك إلى انقضاء العام (سنة ١٢١٤) حتى أخذوا عساكر المقام (تيجان مقام السيد أحمد البدوى) وكانت من ذهب خالص زنتها خمسة آلاف مثقال » .

الاتفاق مع مراد بك :

عادت السلطة للفرنسيين فى الوجه البحرى ، أما فى الوجه القبلى فقد توصل الفرنسيون إلى إخضاعه بالاتفاق مع مراد بك ، كان مراد تتوق نفسه بعد ما حل به من الهزائم إلى مصانعتهم ، ووقف وقفة الخائف الوجل عندما جردت تركيا حملتها الأخيرة على مصر لإخراج الفرنسيين ، لأن مراد بك كان يشعر بأن تركيا إذا فتحت مصر بحد السيف وتمكنت من إخراج الفرنسيين منها ، طمحت إلى التخلص من نفوذ المماليك وعملت على استرجاع سلطاتها الفعلية إذ لم تكن تنظر بعين الرضا إلى استئثار المماليك بسلطة الحكم فى مصر ، وإنما كانت تغض الطرف عنهم لضعفها وارتباك أحوالها ، أما وقد تغيرت الظروف وسنحت لها الفرصة لتجريد حملة على مصر وضمنت مساعدة إنجلترا فى محاربة الفرنسيين ، فكان من الطبيعى أن تحدثها نفسها باسترجاع سلطتها المطلقة فى وادى النيل ، وقد أحس مراد بك بهذا الخطر منذ شرعت تركيا تعبئ جيوشها فى سوريا للزحف على مصر ، أى قبل عقد معاهدة العريش بعدة أشهر ، وبدأت الروابط الودية تتصل بينه وبين الفرنسيين من ذلك الوقت ، وقد أشار الجبرتى إلى هذا التفاهم بقوله فى سياق حوادث شهر جمادى الأولى سنة ١٢١٤ أن الفرنسيين « أرسلوا جملة عساكر إلى مراد بك بناحية الفيوم وعليهم كبير (جنرال) فوقع بينهم وبينه أمور لم أتحقق

تفصيلها ، وترددت بينه وبين سارى عسكر الرسل والمراسلات ، ووقع بينه وبينهم الهدنة والمهاداة ، واصطلح معهم على شروط منها تقليده إمارة الصعيد تحت حكمهم » .

فالجبرتى يقول إن ابتداء المهادنة والمهاداة بين كليبر ومراد فى شهر جمادى الأولى أى فى أكتوبر سنة ١٧٩٩ ، وهو قول يتفق مع رواية المراجع الفرنسية ، لكنه زعم أنه اصطلح معهم على تقليده إمارة الصعيد فى هذا الشهر ، وهذا من « الأمور التى لم يتحقق تفصيلها » ، لأن الصلح إنما تم فى أوائل أبريل سنة ١٨٠٠ بعد واقعة عين شمس وفى أثناء ثورة القاهرة كما سيجىء بيانه ، أما قبل ذلك التاريخ فلم يكن الصلح قد تم بينهما .

على أن الجبرتى قد صحح روايته فى غضون كلامه عن ثورة القاهرة وذكر ما يدل على أن الصلح إنما تم فى شهر ذى الحجة ، فقال فى حوادث ذى الحجة سنة ١٢١٤(بعد إخماد الثورة) ما يأتى : « فلما كان يوم الخميس سابع ذى الحجة[١٢] ذهب كليبر إلى مراد بك بجزيرة الذهب بدعوة منه ، فمد له ولرجاله وليمة عظيمة وأعطاه ما كان أرسله درويش باشا معونة للباشا (الصدر الأعظم) والأمراء (المماليك) من الأغنام وغيرها وكانت نحو الأربعة آلاف رأس وولوه إمارة الصعيد من جرجا إلى إسنا ورجع (كليبر) عائداً إلى داره بالأزبكية » ، ومعنى ذلك أن المقابلة (التى وقعت عقب التوقيع على معاهدة الصلح) إنما وقعت بعد إخماد ثورة القاهرة ، وهذا يتفق تماماً مع رواية المراجع الفرنسية مع اختلاف بسيط فى تاريخ المقابلة ، فإن المسيو (مارتان) يقول إن المقابلة كانت يوم ٣٠ أبريل ، والجبرتى يقول إنها يوم ٧ ذى الحجة أى ٢ مايو ، وليس هذا بخلاف جوهرى .

على أن علاقات كليبر ومراد بك كانت ودية من يوم قدوم الحملة العثمانية ، وهذا باتفاق الجبرتى والمراجع الفرنسية ، يؤيد ذلك ما رواه الجبرتى عن استدعاء يوسف باشا وهو فى بلبيس لمراد بك ، وتباطؤ مراد فى إجابة الدعوة « إلا بعد أن استأذن من الفرنسيس سراً فأذنوا له بالمقابلة » ، وهذا يدلك على ما كان بينهما من العلاقات الودية .

قال الجبرتى فى هذا الصدد : « ورد الخبر بوصول حضرة الوزير (يوسف باشا) إلى بلبيس وصحبته الأمراء المصرية (المماليك) وأرسلوا إلى مراد بك ومن معه بالحضور إلى العرضى[١٣] فأجاب بالاعتذار عن الحضور لأنه فى الصعيد ، فلم يقبلوا عذره وأكدوا عليه بالحضور ،

---

(١٢) يوافق ٢ مايو سنة ١٨٠٠ .

(١٣) كلمة (عرضى) مأخوذة من التركية (أوردو) ومعناها الجيش أو الفيلق وتؤدى معنى المعسكر .

فاستأذن الفرنساوية سراً فأذنوا له بالمقابلة ، وكان سفيره فى ذلك عثمان بك البرديسى ، ثم أنه حضر وقابل الوزير بصحبة إبراهيم بك وخلع عليهما ورجع مراد بك فخيم جهة العادلية » .

ولم يقل (ريبو) فى صراحة إن مراد بك قابل يوسف باشا ، على أن رواية الجبرتى فى هذه النقطة أدق وأرجح . لأن المقابلة واقعة علنية مادية بمكن الجبرتى الذى عاش ذلك العهد فى القاهرة أن يتحققها ، ويقول (ريبو) إن مراد بك تفاوض هو وكليبر بعد نقض معاهدة العريش ، وقبيل معركة عين شمس فى الموقف الذى يقفه بين الأتراك والفرنسيين . وكان الجنرال موران **Morand** رسول التفاهم والمفاوضة بينهما ، فرضى كليبر من مراد بك بأن يقف موقف الحياد . وقد بر مراد بك بعهده ووقف غير بعيد من ميدان القتال فى معركة عين شمس . وظل يرقب سير القتال دون أن يشترك فيه . وفى ذلك يقول الجبرتى : « أما مراد بك فإنه بمجرد ما عاين هجوم الفرنسيس على الباشا (يوسف باشا) والأمراء بالمطرية (واقعة عين شمس) وكان هو بناحية الجبل ركب من ساعته هو ومن معه ومروا من سفح الجبل وذهب إلى ناحية دير الطين[١٤] ينتظر ما يحصل من الأمور وأقام مطمئنًا على نفسه واعتزل الفريقين واستمر على صلحه مع الفرنساوية » .

ولعل مراد بك كان « ينتظر ما يحصل من الأمور» ويرقب نتيجة القتال بين الأتراك والفرنسيين ، لينضم إلى الفريق الغالب ، فلما رأى أن النصر حليف الفرنسيين فى معركة عين شمس صمم على إبرام الصلح على قاعدة أن يتركوا له حكم الصعيد ويكون تابعاً لهم ، وفى هذا الصدد يقول الجنرال كليبر فى مذكراته : « إن مراد بك لم يكد يتحقق من هزيمة الصدر الأعظم حتى أرسل لى يبدى رغبته فى عقد الصلح معى ، فأجبته بأنه إذا كان ذلك قصده فعليه أن يرسل لى أحد البكوات من أتباعه لأفاوضه ، فأوفد لى أولا حسين كاشف فسألته عن طلبات صاحبه ، فأجابنى بأنه راغب فى الانفصال عن العثمانيين الذين يكرههم ، وأنه يريد أن يعيش مع الفرنسيين فى سلام على شرط أن يضمن له كبيرهم عيشة راضية ، وأنه يستطيع أن يستخدم فى مقابل ذلك نفوذه فى القاهرة ليتدخل لوضع حد للمأساة التى تقع فيها ، ولما لم يكن لدى حسين كاشف السلطة الكافية التى تخوله التعاقد باسم رئيسه طلبت إليه أن يرسل إلىَّ مراد بك مندوبًا مفوضًا عنه ، فاختار مراد بك عثمان بك البرديسى الذى جاء صحبة حسين كاشف ومعه جواب بأن مراد بك يفوضه تفويضًا تامًا فى عقد الاتفاق ، فوضعنا شروط

---

(١٤) بين مصر القديمة وحلوان .

الصلح ، وتبادلنا التوقيع عليها فى ١٥ جرمينيال (٥ أبريل سنة ١٨٠٠) ، على أن مراد بك كتم أمر هذا الاتفاق عن أتباعه ، وهذا يرجع إلى واحد من سببين ، فإما أن مراد بك خشى إذا ذاع أمر الاتفاق أن يسئ إلى البكوات والمماليك من أتباعه الذين غامروا بأنفسهم فى ثورة القاهرة ويجعلهم عرضة لانتقام العثمانيين . وإما أنه كان غير واثق من أن النصر النهائى سيكون لنا فأراد أن يرقب الحوادث قبل أن يكشف عن حقيقة موقفه ، وهذا ما أرجحه[١٥] .

هذا ما قاله كليبر فى مذكراته ، ولعمرى لقد صور نفسية مراد بك تصويراً دقيقًا ووصفه وصفًا صحيحًا عن خبرة وعيان ، وفى الحق أن مراد بك لم يكن يهمه إلا أن يكون مع الغالب فحسب ، وقد زاد كليبر فى وصف نفسيته بقوله : « ومهما يكن من حقيقة الواقع ورغمًا من الإبهام الذى أراد مراد أن يحيط به أمراً لابد أن يعلن للكافة ، فإنه لم يفته أن يوفد إلى القاهرة أحد أتباعه (عثمان بك البرديسى) الذى كان موضع ثقته ليصرف المماليك عن الثورة ويدعوهم إلى النكوص على أعقابهم . وقد ارتاب ناصف باشا فى مسلك المماليك فأمر بضبط خيولهم وجمعها فى الوكائل تحت حراسة جماعة من الانكشارية ، وكان عثمان بك البرديسى لا يفتأ يتردد علىَّ ويبلغنى ما يصادف مسعاه من النجاح ، وأرسل لى مراد بك عدة قطعان من المواشى ليبرهن لى على إخلاصه ، لكنه فى الوقت نفسه كان يكتب إلى الصدر الأعظم بأنه مقيم فى طره خصيصًا ليمنعنا من جلب المؤونة من الصعيد »[١٦] .

أقول وإذا تأملت فى تاريخ البكوات المماليك لا تجد فيما ذكره كليبر عن مسلك مراد بك أمراً جديداً ، اعتبر ذلك فى موقف المماليك حين حضر حسن باشا الجزائرلى إلى مصر موفداً من قبل الآستانة لمطاردتهم سنة ١٧٨٦[١٧] أى قبل هذه الحوادث بنحو أربعة عشر عاماً ، وكان مراد بك وإبراهيم بك زعيمى المماليك وقتئذ ، فقد فر البكوات إلى الوجه القبلى ، وأخذوا يرسلون الرسل والمكاتبات يرجون توسط المشايخ والعلماء بينهم وبين حسن باشا ، ولم يكونوا يطلبون إلا أن تعين لهم أماكن فى الوجه القبلى يقيمون بها ويعيشون هناك[١٨] ، فمراد بك لم يطلب من كليبر سنة ١٨٠٠ إلا ما طلبه هو وزميله إبراهيم بك من حسن باشا الجزائرلى سنة ١٧٨٦ .

(١٥) مذكرات الجنرال كليبر .

(١٦) مذكرات الجنرال كليبر .

(١٧) انظر الجز الأول ص ٢٢ من الطبعة الأولى .

(١٨) الجبرتى الجزء الثالث .

واعتبر ذلك أيضاً فيا حدث بعد جلاء الفرنسيين ، فإنه لما أسندت ولاية مصر إلى خسرو باشا واستعد لقتال المماليك أرسل زعماؤهم إبراهيم بك ومحمد بك الألفى وعثمان بك البرديسى وكانوا قد فروا إلى الوجه القبلى يطلبون أن يقطعوا جهة يتعيشون فيها ، فهم فى كل عصر لم يكن يهمهم إلا منافعهم المادية .

وهكذا كان شأنهم إلى أن دالت دولتهم ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا :

معاهدة الصلح بين كليبر ومراد بك

(٥ إبريل سنة ١٨٠٠)

ظل مراد بك أثناء ثورة القاهرة مقيماً فى (طره) بعيداً عن حركات القتال ، وتمت مفاوضات الصلح وشروط الاتفاق بينه وبين كليبر وأمضيت بينما كانت مدافع الفرنسيين تمطر قنابلها على سكان العاصمة .

وضعت صيغة المعاهدة وتم الاتفاق عليها فى القاهرة بين عثمان بك البرديسى بالنيابة عن مراد بك ، وكل من الجنرال داماس Damas رئيس أركان الحرب والمسيو جلوتييه Gloutier القوميسير الفرنسى لدى الديوان بالنيابة عن كليبر ، وتم التوقيع عليها فى ٥ أبريل سنة ١٨٠٠ .

نشر (ريبو) نص هذه المعاهدة ، ولم تنشر من قبل فى أى مرجع آخر ، وقد نقلها بنصها عن النسخة الباقية من النسخ الأصلية التى كتبت حين توقيع المعاهدة ، وهذه مقدمتها نقلا عن النسخة الواردة فى ريبو[١٩] :

« نظراً لما أبداه الأمير سامى المقام الحائز لكمال الشرف والاعتبار مراد بك محمد[٢٠] من الرغبة فى أن يعيش فى سلام ووفاق مع الجيش الفرنسى فى مصر ، ولما يرغبه القائد العام كليبر من الإعراب عما له فى نفوس الفرنسيين من الاحترام الذى استوجبته شجاعته واقتضاة مسلكه حيالهم فقد تم الاتفاق على مايأتى » .

ويلى ذلك نصوص المعاهدة ، وهى مؤلفة من عشر مواد تقضى باعتراف القائد العام

(١٩) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء السابع .

(٢٠) نسبة إلى محمد أبى الذهب لأن مراد بك من مماليكه .

للجيش الفرنسى بصفته ممثلا للحكومة الفرنسية بمراد بك أميراً وحاكماً للوجه القبلى ، ويخوله بناء على ذلك السلطة على تلك البلاد ابتداء من بلصفورة الكائنة بمديرية جرجا إلى أسوان فى مقابل أن يؤدى للجمهورية الفرنسية الخراج الواجب دفعه لصاحب الولاية على مصر ، وقد حدد هذا الخراج فى الاتفاقية بـ ٢٥٠ كيس[٢١] علاوة على ١٥,٠٠٠ أردب من القمح و ٢٠٠٠٠ أردب من الشعير والحبوب[٢٢] ، ويخصص لمراد بك إيراد جمرك القصير وإسنا ، ويحتل الجيش الفرنسى ثغر القصير على أن يكون لمراد بك الحق فى إبقاء فصيلة من الجنود المماليك فيها ، وعليه دفع نفقات الحامية الفرنسية فى (القصير) وألا يقل عدد هذه الحامية عن مائتى جندى ، وعلى كل من الطرفين أن يسلم الطرف الآخر الجنود اللاجئة إليه ، ولا يجوز لكل منهما قبول الفلاحين الذين يمتنعون عن دفع الضرائب ، ويفرون إلى منطقة الطرف الآخر ، وتكون إقامة مراد بك فى بندر جرجا ، وعليه أن يوفد إلى القاهرة أحد البكوات من أتباعه مندوباً لدى القائد العام يقيم بالقاهرة ، ويضمن القائد العام لمراد بك تمتعه بإيراد المنطقة التى يحكمها ، ويتعهد بحمايته فى حالة مهاجمته ، وإذا حصل هجوم على المنطقة التى يحتلها الجيش الفرنسى فعلى مراد بك أن يرسل إليها قوة من جنوده توازى على الأكثر نصف قواته ، ويتعهد القائد العام بألا يقبل أى اتفاق فيه مساس بالمزايا المخولة لمراد بك فى هذه المعاهدة ، وعليه أن يحيط الحكومة الفرنسية بهذه المعاهدة لتراعيها فى اتفاقاتها الخاصة بمصر.

هذه خلاصة معاهدة (كليبر–مراد[٢٣]) ، وهى تتلخص فى أن مراد بك قبل أن يحكم الصعيد تحت حماية الحكومة الفرنسية ، وغنىٌ عن البيان أنه لم يراع فى هذه المعاهدة إلا مصلحته الشخصية دون أن ينظر أية نظرة إلى مصلحة البلاد . وهكذا كان على الدوام شأن المماليك من يوم أن أطلقت يدهم فى شئون مصر ، فإنهم لم يكن يهمهم إلا ولاية الحكم ليرهقوا البلاد بأنواع المظالم . وقد بالغ مراد بك فى الولاء للفرنسيين بعد هذه المعاهدة ، فلم يكد يتم التوقيع عليها حتى أنفذ إلى معسكر الفرنسيين الهدايا والمهمات والغلال والمؤن ، وسلمهم بعض العثمانيين اللاجئين إليه ، وطرد من الصعيد درويش باشا الذى جعله يوسف باشا الصدر الأعظم والياً على الصعيد ، وكان قد نزل الوجه القبلى طبقاً لمعاهدة العريش ، فلما نقضت

---

(٢١) الكيس يساوى خمسمائة قرش من عملة ذلك العصر.

(٢٢) يبلغ ذلك كله نحو ٦٥٠,٠٠٠ فرنك فى السنة كما قدره المسيو (ريو) .

(٢٣) نشرنا نص المعاهدة فى قسم الوثائق الرسمية وثيقة رقم ٥ .

المعاهدة وتجدد القتال جمع حوله نحو عشرة آلاف من الفلاحين والعرب وأجمع الزحف على القاهرة لقتال الفرنسيين ، فطلب كليبر إلى مراد بك مطاردته تنفيذًا للاتفاق المبرم بينهما ، فتعقبه مراد بك واضطره إلى الانسحاب شمالا قاصداً فلول الجيش العثمانى فى غزة .

قال الجبرتى فى هذا الصدد مايأتى : « إن مراد بك عند توجهه إلى الصعيد بعد انقضاء (نقض) الصلح أخذ ما جمعه درويش باشا من الصعيد من أغنام وخيول وميرة وكان شيئاً كثيراً ، فتسلم الجميع منه ، وعدى درويش باشا إلى الجهة الشرقية متوجهاً إلى الشام وأرسل مراد بك جميع ذلك للفرنساوية بمصر» .

وقال فى حوادث سنة ١٢١٤ بعد نقض الصلح بين الفرنسيين والعثمانيين : « أرسل الفرنسيين عسكراً إلى مستلم السويس فتعصب معه أهل البندر وحاربوهم ، فغلبهم الفرنسيس وقتلوهم عن آخرهم ، ونهبوا البندر وما فيه من البن والبهار الذى بحواصل التجار غير ما فعلوه مع درويش باشا ، وكان المعضدون له مراد بك وصحبته الفرنسيس فأخذوا ما معه ونجا بنفسه » .

وسعى مراد بك سعياً حثيثاً فى أن يضم المماليك الذين فى القاهرة إلى صفوف الفرنسيين ، ولما أعيته الحيل أشار على كليبر بإضرام النار فى القاهرة إخماداً للثورة !

ويقول (ريبو) إنه أرسل فعلا إلى كليبر عدة مراكب محملة مواد ملتهبة لإحراق العاصمة [٢٤] .

ويقول المسيو (جالان) [٢٥] وهو شاهد عيان لتلك الحوادث ما خلاصته « بعد أن تم التوقيع على معاهدة (كليبر- مراد) أرسل لنا مراد بك المؤن وسلم لنا العثمانيين اللاجئين إلى معسكره . وسعى لدى أعوانه فى القاهرة لتسليم المدينة . لكنه رأى أن مسعاه لم يؤد إلى نتيجة سريعة فعرض علينا إحراق المدينة وأرسل لنا لهذا الغرض المراكب محملة أحطابًا » .

وفى كتاب المسيو مارتان Martin [٢٦] (وهو أيضاً شاهد عيان لثورة القاهرة) تأييد لهذه الرواية ، ويقول المسيو دفيليه De Villiers أحد مهندسى الحملة الفرنسية فى مذكراته [٢٧] إن مراد بك ظل مواليًا للفرنسيين أثناء حصار القاهرة وإنه أرسل لهم الأحطاب

(٢٤) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء السابع .

(٢٥) فى كتابه (صورة مصر أثناء إقامة الجيش الفرنسى) .

(٢٦) تاريخ الحملة الفرنسية فى مصر.

(٢٧) يوميات وذكريات عن حملة مصر.

لإحراق المدينة » ولكننا أبقينا عليها حتى نحصل منها على الغرامة الحربية التى كنا فى حاجة إليها » ، هذا ما يقوله دفيلييه ، ومنه يتبين صراحة أن الفرنسيين لم يتورعوا عن إحراق القاهرة إلا ليبتزوا من أهلها المال والغرامات الفادحة .

على أنهم مع ذلك قد أضرموا النار فى كثير من أحيائها كما سيجىء بيانه ، ومن ذلك يتضح لك أن مراد بك قد اشترك فى مأساة إحراق القاهرة ، وهكذا سعى ذلك الأمير الغادر فى تدمير المدينة العظيمة التى مكنّت له فى البلاد وأغدقت عليه زمنًا ما نعمة الحكم والجاه .

إخماد ثورة القاهرة

تم للفرنسيين إخضاع الوجه البحرى فى أوائل أبريل سنة ١٨٠٠ ، وكان ذلك بمثابة تطويق لمدينة القاهرة وتأهب لإخماد الثورة التى كانت تستعر نارها منذ ٢٠ مارس ، وكانت مدافع الفرنسيين فى خلال هذه المدة تصلى المدينة ناراً حامية وتطلق قذائفها على المنازل التى كانت ملجأً للثوار ، فلما جاءت فرقة الجنرال (رينييه) من الحدود الشرقية عسكرت أمام القاهرة واحتلت الآكام المشرفة على المدينة من قلعة كامان (قنطرة الليمون) إلى قلعة سلكوسكى (جامع الظاهر) ، ومنه إلى قلعة المقطم ، فأحاطت بالمدينة شمالا وشرقًا ، وابتدأ الهجوم على مواقع الثوار ليلة ٤ أبريل ، فأمر الجنرال كليبر بتقدم الكتائب الفرنسية من ناحية باب الحديد وكوم أبى الريش وقنطرة الحاجب وبركة الرطلى والحسينية وباب النصر ، وعهد كليبر إلى الجنرال رينييه أن يبذل كل ما فى طوقه للاستيلاء على جهة باب النصر وأن يصوب نيرانه إلى الجامع الأزهر .

قام جنود الجنرال (رينييه) بهذه المهمة بقيادة الجنرال (ألميرا) **Almeyras** فبدءوا هجومهم من باب الحديد واصطدموا فى أول القتال بمتراس من متاريس الثورة ، فقتل الضابط الذى يقود الكتيبة الأولى وتراجع الجنود إلى الوراء ، ثم تقدمت الكتيبة ثانية ، وطاردت الثوار واقتلعت المتاريس التى كانوا يتحصنون فيها واقتحمت المنازل التى كانوا ممتنعين بها وأضرمت النار فى المبانى التى كانت تعوق تقدم الجنود ، واستطاعت أن تسند ميسرتها إلى سور القاهرة القديم ، وميمنتها إلى مواقع الفرنسيين فى ميدان الأزبكية ، واشتد القتال حول المواقع التى احتلها الفرنسيون ، واستردها الثوار المرة بعد المرة ، ولكن الفرنسيين تمكنوا فى المرة

الثالثة من تثبيت أقدامهم فيها ، وظلت المناوشات بين الفرنسيين والثوار من يوم ٥ أبريل إلى ١٠ منه .

وفى يوم ١٢ أبريل اعتزم الجنرال كليبر توطيد مركز جنوده باحتلال كوم أبى الريش[٢٨] الذى كان الثوار والأتراك متحصنين به ، وكان هذا الكوم نقطة ارتكاز قوية للثوار لأنه قائم على أكمة تقطع المواصلات بين جامع الظاهر (قلعة سلكوسكى) والمعسكر العام للجنود الفرنسية فى الأزبكية ، فعهد كليبر إلى جنود الجنرال رينييه باحتلاله ، فهجم الجنود بقيادة الجنرال (روبان) وأجلوا عنه الثوار ، وفى الوقت نفسه هجمت قوة أخرى على المنازل المحيطة ببركة الرطلى واقتحمتها وأضرمت فيها النار واستبقت منها بعض المنازل التى تصلح للتحصن فيها ، وتحصن الجنود فى كوم أبى الريش وأقاموا به الاستحكامات ، فكرّ عليهم الثوار ، ولكن الجنود ردوهم على أعقابهم ، واستمر القتال حوله إلى صبيحة ١٣ أبريل حيث رسخت قدم الفرنسيين فيه .

هذا ما وقع فى الميسرة ، أما الميمنة فى جهة الأزبكية فقد كان الثوار يحتلون بيت فرقة الهندسة الكائن بميدان الأزبكية ، فضربه الجنود بالمدافع وأحدثوا به ثغرات هجم منها الفرنسيون واحتلوا المنزل بعد أن أجلوا عنه الثوار وحلفاءهم العثمانيين ، لكن الثوار امتنعوا فى بيت آخر بالقرب من بيت فرقة الهندسة يعرف ببيت أحمد أغا شويكار[٢٩] وركبوا مدفعاً فى حديقة منزل السيد البكرى[٣٠] فأخذوا يطلقون النار من الجهتين على الجنود الفرنسية ، لكن الفرنسيين أصابوا المدفع المركب فى حديقة البكرى بقنابلهم وأتلفوه ، فانحصر الثوار فى بيت أحمد أغا شويكار .

استمر القتال سجالا والثوار لا يذعنون ولا يسلمون ، وبدأت ذخائر القلاع تنقص بسبب كثرة الضرب ، فأخذت القذائف فى النقصان ، وخفت وطأة الرمى ، فظن الأهالى أن هذا علامة على ضعف القوات الفرنسية فاشتدت حماستهم واستعدوا لمضاعفة الجهد والقتال ، لكن الفرنسيين تلقوا مدداً جديدًا ، وذلك أن الجنرال (بليار) عاد من دمياط بعد ما أخضعها وترك بها كتيبة من الجنود بقيادة الجنرال (رامبون) ورجع بمعظم قواته إلى القاهرة يوم ١٣ أبريل ،

---

(٢٨) بالفجالة .

(٢٩) هو الذى يسميه الفرنسيون بيت رينييه (انظر ص ١٥٣) تسمية له باسم ساكنه ، أما الجبرتى فيسميه باسم مالكه .

(٣٠) مكانه صندوق الدين الآن (١٩٢٩) .

فعسكر أمام بولاق التى كانت معقل الثورة ، فلما وصل هذا المدد اعتزم الجنرال كليبر أن يستولى عنوة على حيّ بولاق ويخمد فيه الثورة بكل ما لديه من قوة .

الوساطة فى الصلح وإخفاقها

حمل سكان القاهرة الشدائد والأهوال من الضرب المتتابع وما حاق بهم من سفك الدماء وإزهاق الأرواح ، وتخريب الدور ، واشتداد الخطوب .

قال الجبرتى يصف تلك المأساة :

« وصل كليبر إلى داره بالأزبكية ، وأحاطت العساكر الفرنساوية بالمدينة وبولاق من الخارج ، ومنعوا الداخل من الدخول والخارج من الخروج ، وذلك بعد ثمانية أيام من ابتداء الحركة (أى حوالى ٢٨ مارس وهو يوافق اليوم التالى لحضور كليبر إلى القاهرة) وقطعوا الجالب على البلدين (مصر وبولاق) وأحاطوا بها إحاطة السوار بالمعصم ، فعند ذلك اشتدت الحرب ، وعظم الكرب ، وأكثروا من الرمى المتتابع ، بالمكاحل والمدافع ، وأوصلوا وقع القنابر والبُنْبات ، من أعالى التلول والقلعات ، خصوصاً البنبات (القنابل) الكبار على الدوام والاستمرار ، آناء الليل وأطراف النهار ، فى الغدو والبكور والأسحار ، وعدمت الأقوات ، وغلت أسعار المبيعات وعزت المأكولات وفقدت الحبوب والغلات ، وارتفع وجود الخبز من الأسواق ، وامتنع الطوافان به على الأطباق » .

وقال فى موضع آخر :

« واستمر الحال على ما هو عليه من اشتعال نيران الحرب ، وشدة البلاء والكرب ، ووقوع القنابل على الدور والمساكن من القلاع ، والهدم والحرق ، وصراخ النساء من البيوت والصغار من الخوف ، والجزع والهلع ، مع القحط وفقد المآكل والمشارب ، وغلق الحوانيت والطوابين والمخابز ، ووقوف حال الناس من البيع والشراء ، وتفليس الناس وعدم وجدان ما ينفقوه إن وجدوا شيئاً ، واستمر ضرب المدافع والقنابر والبنادق والنيران ليلا ونهاراً حتى كان الناس لا يهنأ لهم نوم ولا راحة ولاجلوس لحظة واحدة من الزمن ، ومقامهم دائماً أبداً بالأزقة والأسواق ، وكأنما على رءوس الجميع الطير ، وأما النساء والصبيان فمقامهم بأسفل الحواصل والعقودات تحت طباق الأبنية إلى غير ذلك » .

ولخص الجبرتى فصول تلك الرواية الفاجعة بقوله : « وجرى على الناس ما لا يسطر فى كتاب ، ولم يكن لأحد فى حساب ، ولا يمكن الوقوف على كلياته ، فضلا عن جزئياته ، منها عدم النوم ليلا ونهاراً ، وعدم الطمأنينة ، وغلو الأقوات ، وفقد الكثير منها خصوصاً الأدهان ، وتوقع الهلاك كل لحظة ، والتكليف بما لا يطاق ، وغلبة الجهلاء على العقلاء ، وتطاول السفهاء على الرؤساء ، وتهور العامة ، ولغط الحرافيش ، وغير ذلك مما لا يمكن حصره » .

وإنك لترى فى تلك العبارات وصفاً دقيقاً لحالة القاهرة خلال ثورتها الثانية ، ولا يمكن أن يصفها شاهد عيان بأدق مما وصفها الجبرتى ، وأبلغ ما فى وصفه من عظة وعبرة « غلبة الجهلاء على العقلاء ، وتطاول السفهاء على الرؤساء » ، وهو داء وبيل تظهر أعراضه فى أوقات الفتن ، واشتداد الكروب والمحن ، ويفضى إلى فساد النفوس واختلاط العقول ، وتنكب الجماهير سبيل السداد ، واستهداف البلاد للكوارث والويلات . وإذا أردت أن تعرف إلى أى حد جره « تغلب الجهلاء على العقلاء . وتطاول السفهاء على الرؤساء » أثناء ثورة القاهرة . فانظر إلى ما كان من أمر مساعى الصلح التى قام بها العقلاء فى ذلك الحين لوضع حد للمأساة المروعة والمجزرة البشرية التى صبغت القاهرة دماءً وحرائق وكيف أخفقت تلك المساعى أمام غلبة الجهلاء وتطاول السفهاء ، فقد كان العلماء يسعون فى حقن الدماء . وأرسل الجنرال كليبر إلى ناصف باشا وكتخدا الدولة (عثمان بك) وأمراء المماليك يطلب إليهم وفداً من العلماء ليكونوا سفراء بينه وبين الجماهير . فأرسلوا المشايخ الشرقاوى . والمهدى . والسرسى . والفيومى وغيرهم ، وقابلوا الجنرال كليبر . فعرض عليهم أن يوقف القتال ويعطى أهل القاهرة « أماناً وافياً شافياً » ، على أن يخرج ناصف باشا والجنود العثمانية من المدينة ويلحقوا بإخوانهم من فلول جيش يوسف باشا . ولمن شاء من المقاتلين المصريين أن يخرج معهم . ولمن شاء أن يبقى . فقال العلماء إن المصريين يخشون إذا وقف القتال وخرج العثمانيون من المدينة أن ينكل بهم الفرنسيون . فقال كليبر : إذا قبلت شروطنا اجتمعنا بكم وبهم (العثمانيين والمماليك) وعقدنا صلحاً ولا نطالبكم بشىء والذى قتل منا فهو بمن قتل منكم (ولم يكن كليبر صادقًا فى عهده) ، فعاد العلماء بهذه الشروط ليعرضوها على رؤساء العثمانيين وزعماء الثوار . قال الجبرتى : « فلما رجع المشايخ بهذا الكلام وسمعه الانكشارية والناس قاموا عليهم وسبوهم وشتموهم وضربوا الشرقاوى والسرسى ورموا عمائمهم . وأسمعوهم قبيح الكلام . وصاروا

يقولون هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيس . ومرادهم خذلان المسلمين وأنهم أخذوا دراهم من الفرنسيس . وتكلم السفلة والغوغاء من أمثال هذا الفضول » .

هذا ما ذكره الجبرتى عن تغلب الجهلاء على العلماء وعلو صيحة الفتنة على صوت العقل والحكمة . وبلغ تهور العامة أن الشيخ السادات كان أثناء المفاوضات فى بيت الشيخ الصاوى وعلم بما جرى للمشايخ من الإهانة والسب والضرب ، فخشى عاقبة مخالفة العامة فى ميولهم . ومعارضتهم فى أهوائهم « فتحير واحتال بأن خرج وأمامه شخص ينادى بقوله الزموا المتاريس ليقى بذلك نفسه من العامة » .

أما رؤساء العثمانيين ناصف باشا وعثمان كتخدا الدولة فإنهم لم يستطيعوا ضبط عساكرهم . وأرسلوا إلى كليبر يقولون : « إن العساكر لم يرضوا بالصلح ويقولون لا نرجع عن حربهم حتى نظفر بهم أو نموت عن آخرنا » .

وبذلك أخفقت المساعى وتجددت المذبحة . وتجددت معها فجائع القتل وسفك الدماء والإحراق والتدمير . ثم انتهت المأساة بالتسليم بعد أن نزل بالناس من الخطوب والأهوال ما لم يشهدوا مثله من قبل .

مأساة بولاق

فى اليوم الرابع عشر من شهر أبريل سنة ١٨٠٠ أنذر الجنرال كليبر العاصمة بالتسليم ، ولكن الثوار لم يعبأوا بالإنذار ، ففى اليوم التالى (١٥ أبريل) بدأت الجنود بالهجوم على حى بولاق قبل شروق الشمس بقيادة الجنرال بليار ، وأخذوا يضربونه بالمدافع ، وكانت مداخل الحى محصنة ، والثوار ممتنعون خلف المتاريس وفى البيوت ، فأجابوا على ضرب المدافع بإطلاق النار من المتاريس والبيوت المحصنة ، ولكن نار المدفعية الفرنسية حطمت المتاريس القائمة على مدخل الحى ، فثغرت فيها ثغرة كبيرة اندفق منها الجنود إلى شوارع بولاق . وأضرموا النار فى البيوت القائمة بها . فاشتعلت فيها واتسع مداها . وامتدت إلى مبانى الحى من مخازن ووكائل ومحال تجارة فالتهمتها وما كان فيها من المتاجر العظيمة ، ودمرت هذا الحى الكبير الذى يعد ميناء للقاهرة ومستودعًا لمتاجرها ، وهدمت الدور على سكانها . فباد كثير من العائلات تحت الأنقاض أو فى لهب النار ، وكانت مأساة مروّعة وصفها الجبرتى بقوله :

« هجموا على بولاق من ناحية البحر (النيل) ومن ناحية بوابة أبي العلاء ، وقاتل أهل بولاق جهدهم ورموا بأنفسهم فى النيران حتى غلب الفرنسيس عليهم وحصروهم من كل جهة ، وقتلوا منهم بالحرق والقتل وبلوا بالنهب والسلب ، وملكوا بولاق وفعلوا بأهلها ما تشيب من هوله النواصى ، وصارت القتلى مطروحة فى الطرقات والأزقة ، واحترقت الأبنية والدور والقصور ، وخصوصا البيوت والرباع المطلة على البحر ، وكذلك الأطارف ، وهرب كثير من الناس عندما أيقنوا بالغلبة فنجوا بأنفسهم إلى الجهة القبلية ، ثم أحاط الفرنسيس بالبلد ، ومنعوا من يخرج منها واستولوا على الخانات والوكائل والحواصل والودائع والبضائع ، وملكوا الدور وما بها من الأمتعة والأموال والنساء والخوندات والصبيان والبنات ومخازن الغلال والسكر والكتان والقطن والأبازير والأرز والأدهان والأصناف العطرية ، ومالا تسعه السطور ، ولا يحيط به كتاب ولا منشور ، والذى وجدوه منعكفا فى داره أو طبقته ولم يقاتل ومن لم يجدوا عنده سلاحاً نهبوا متاعه ، وعروه من ثيابه ، ومضوا وتركوه حيًا ، وأصبح من بقى من ضعفاء أهل بولاق وأهلها وأعيانها الذين لم يقاتلوا فقراء لا يملكون ما يستر عوارتهم » .

تلك رواية الجبرتى عن مأساة بولاق ، وهى رواية شاهد عيان ، وليس فيها على ما نعتقد مبالغة فى الوصف ، ويكفيك أن نرجع إلى وصف المسيو جالان[٣١] وهو شاهد آخر لتلك الحوادث المروعة ، فنجد التوافق بين الروايتين فى مجموعهما ، قال : « فى اليوم الحادى والعشرين من شهر جرمنيال (يوافق ١٤ أبريل سنة ١٨٠٠) أنذرت بولاق بالتسليم ، فرفض أهلها كل إنذار وأجابوا بإباء وكبرياء أنهم يتبعون مصير القاهرة ، وأنهم إذا هوجموا فهم مدافعون عن أنفسهم حتى الموت ، فأخذ الجنرال فريان Friant [٣٢] يحاصر المدينة وبدأ يصب عليها من المدافع ضرباً شديداً أملا منه فى إجبار الأهالى على التسليم ، لكنهم أجابوا بضرب النار ، فأطلقت المدافع قنابلها على المتاريس ، وهجم الجنود على الاستحكامات فاقتحموا أكثرها وظل بعضها يقاوم ، واستبسل الأهلون فى الدفاع ولجأوا إلى البيوت فاتخذوها حصونًا يمتنعون بها فاضطرت الجنود إلى الاستيلاء على كل بيت منها ، والتغلب عليها بقوة الحديد والنار ، وبلغ القوم فى شدة الدفاع حدًا لا مزيد بعده ، وفى هذا البلاء عرض العفو على الثوار فأبوا واستحرّ القتال ، فجعلنا المدينة ضرامًا ، وأسلمناها للنهب ، وصار أهلها

---

(٣١) فى كتابه (صورة مصر أثناء إقامة الجيش الفرنسى) .

(٣٢) لعله يريد الجنرال (بليار) قائد العسكر فى هذا الهجوم وإن كان الجند من فرقة (فريان) .

عرضة لبطش الجنود وتنكيلهم ، فجرت الدماء أنهاراً فى الشوارع ، واشتملت النار أحياء بولاق من أقصاها إلى أقصاها ، وعادت تلك المدينة العامرة الزاهرة هدفاً للخراب ، وأكلتها أهوال الحرب وفظائعها ، ولما بلغت المأساة مداها طلب الأهالى التسليم فأجيبوا إلى طلبهم ، ولكن بولاق ستظل زمناً طويلا تتردى فى هاوية من الخراب إلى أن تستطيع النهوض من أعباء الكوارث التى حلت بها ، فإن معظم بيوتها أصبحت ركاماً من الخرائب والأطلال المحترقة ، ولقد مضت ثمانية أيام والنار تلتهمها ولا تزال تشتعل فيها(٣٣) » .

لم يكتف الفرنسيون بما حل ببولاق من الخراب والتدمير بل فرضوا على أهلها غرامة جسيمة قيمتها ٢٠٠ ألف ريال وأخرى على متاجرها ما قيمتها ٣٠٠ ألف ريال تجبى عروضًا من السكر والبن والزيت والحبال والتيل والقطران والنحاس والحديد والرصاص ، وفرضوا على الأهالى أن يسلموا ما عندهم من المدافع والذخائر الموجودة فى ترسانة بولاق وما لديهم من الأخشاب والغلال والشعير والأرز والعدس والفول وأن يسلموا أربعمائة بندقية ومائتى طبنجة ، وقبض الفرنسيون على الحاج مصطفى البشتيلى رئيس الثوار وطلبوا من أتباعه أن يقتلوه لأنه السبب فيما حل بهم ، فضرب بالعصى حتى مات .

الهجوم على مواقع الثوار

أثرت النكبة التى حلت ببولاق فى سائر أنحاء القاهرة ، وانتهز الجنرال كليبر فرصة الفزع الذى استولى على النفوس فأمر جنوده بالهجوم العام على مواقع الثوار ، وعاق المطر هذا الهجوم يومين ، ثم ابتدأ يوم ١٨ أبريل سنة ١٨٠٠ ، وكان نذيره بينهم إشعال النار فى لغم دسه الفرنسيون تحت جدار بيت أحمد أغا شويكار الذى كان الثوار مايزالون يحتلونه ، فلما انفجر اللغم نسف المنزل بمن فيه واحترقوا عن آخرهم ، وهاجم الفرنسيون المدينة هجومًا عامًا من جهة الناصرية وباب اللوق ، والمدابغ والفجالة وكوم أبى الريش وباب الشعرية .

تولى الكولونيل سيلى Silly مهاجمة حى الناصرية لكنه أخفق فى احتلاله .

وهجم الجنرال دنزلو Donzelot على حى المدابغ فاعترضه خندق عميق يحيط به منازل

(٣٣) كتاب (صورة مصر أثناء إقامة الجيش الفرنسى) للمسيوجالان أحد أعضاء بعثة العلوم والفنون فى عهد الحملة الفرنسية .

يحتلها الثوار . فانهال عليه الرصاص منها . فاضطر إلى الانسحاب وتحصن بالقرب فى شارع الجباسة .

وهجم عسكر الجنرال فريان والجنرال بليار من ميدان الأزبكية . والجنرال رينييه Reynier من الفجالة وكوم أبى الريش وباب الشعرية . فاشتد القتال فى تلك الجهات وكانت الحرب فيها سجالا ونتيجتها فى مجموعها مغنما للفرنسيين وتوطيدًا لمراكزهم . وكان من عواقبها إلقاء الذعر بين الثوار ، وكثر القتلى والجرحى من الجانبين ، وأصيب الجنرال بليار فيمن أصيبوا بجرح بليغ .

وانقضت الأيام التالية والقتال مستمر ولكنه أقل شدة مما كان فى اليوم الأول ، وكان الفرنسيون فى خلال هذه الأيام يوطدون مركزهم فى المواقع التى غنموها ويضيقون على الثوار ؛ واشتد الضيق بالأهالى وسرى إليهم الملل من استمرار حالة الحرب وما حاق بهم من الفظائع والأهوال ، فتجددت فكرة الصلح ووضع حد لمأساة القتال .

فظائع الفرنسيين فى إخماد الثورة :

أسرف الفرنسيون فى ارتكاب الفظائع لإخماد الثورة ولجأوا إلى الطريقة الوحشية التى اتبعوها فى كثير من المواطن وهى إضرام النار فى الأحياء الآهلة بالسكان وإرسالها على المدينة وأهلها موتًا أحمر ، فأحدثت الحرائق تخريبًا فظيعًا فى القاهرة واحترقت أحياء برمتها وتهدمت بيوت عامرة ودفنت تحت أنقاضها عائلات بأكملها ، ومن الأحياء التى التهمتها النار خط الأزبكية وخط الساكت والفوالة والرويعى وبولاق وبركة الرطلى وما جاورها وباب البحر والخروبى والعدوى إلى باب الشعرية .

فأصبح منظر المدينة بعد ما حل بها من التخريب والإحراق والتدمير مفزعا يملأ القلوب حزنًا وأسى .

وصف الجبرتى الأحياء التى دمرتها النيران ونعاها بعبارات ينفطر لها الفؤاد حسرة وأسفًا ، قال يصف آثار الحريق فى حى الأزبكية وما جاورها :

« انهدم جميع ما هناك من الدور والمبانى العظيمة والقصور المطلة على البركة واحترقت جميع البيوت التى من عند بين المفارق بقرب جامع عثمان كتخدا إلى رصيف الخشاب والخطة المعروفة بالساكت بأجمعها إلى الرحبة المقابلة لبيت الألفى سكن سارى عسكر الفرنساوية

وكذلك خطة الفوالة بأسرها وكذلك خطة الرويعى بالسباطين العظيمين وما فى ضمن ذلك من البيوت إلى حد حارة النصارى وصارت كلها تلالا وخرائب كأنها لم تكن مغنى صبابات ، ولا مواطن أنس ونزاهات ، وجنت عليها أيدى الزمان وطوارق الحدثان حتى تبدلت محاسنها وأقفرت مساكنها » .

وقال ينعى بركة الرطلى وما دمره الحريق من عمائرها الجميلة :

« وأما بركة الرطلى وما حولها من الدور والمتنزهات والبساتين فإنها صارت كلها تلالا وخرائب وكيمان أتربة ، وقد كانت هذه البركة من أجمل متنزهات مصر قديمًا وحديثًا » ، وقال أيضًا : « ومما تخرب أيضا حارة المقس من قبل سوق الخشب إلى باب الحديد وجميع ما فى ضمن ذلك من الحارات والدور صارت كلها خرائب متهدمة محترقة تسكب عند مشاهدتها العبرات » ، وقال المسيو جالان[٣٤] يصف هذه المأساة وكان من شهودها : « وقع الهجوم العام على القاهرة يوم ٢٨ جرمنيال وكان هولا هائلا شاملا جميع الجهات ، فصبَّت المدافع قنابلها على المدينة الثائرة ، ودوى صوت الضرب فى كل مكان ، وظل إطلاق القنابل والرصاص متواصلا طول الليل وشبت الحرائق فى جهات متعددة . وأخذت النيران فى كل لحظة تلتهم المنازل بعضها إثر بعض ، وأحدثت النار من الخرائب والحرائق فى القاهرة مالم يحدث مثله منذ بدأ الحصار ، وقد قتلنا عددًا كبيرًا من الناس فى تلك الموقعة المروعة ، ولكننا فقدنا كثيراً من جنودنا الشجعان قبل أن تصبح المدينة فى قبضة يدنا » .

وقال فى موضع آخر يصف آثار الحريق بعد إخماد الثورة : « فى ١٥ فلوريال[٣٥] رجعتُ إلى القاهرة واضطررت أن أبحث لى عن منزل آوى إليه فى ميدان الأزبكية بدل المنزل الذى كنت أسكنه والتهمته النيران ، وقد لاحظت أن الحصار أضر بالقاهرة أكثر مما كنت أتصور ، فقد عم الخراب أحياء بأكملها وتمثل لنا شبحه المخيف فى الأزبكية ؛ وأثرت فى نفسى صورته المفزعة ، فليس فى الإمكان أن نخطو خطوة إلا على كثبان من الخرائب والأتربة ، وكانت رائحة العفونة تنبعث من الرمم المدفونة تحت الردم ، وزاد هذا المنظر فظاعة أن الجنود مدفوعين بفكرة النهب كانوا ينبشون الجثث من تحت الأنقاض والخرائب فكلما أظهروا جثة زاد المنظر هولا وفظاعة » .

---

(٣٤) فى كتابه «صورة مصر أثناء إقامة الجيش الفرنسى» .

(٣٥) يوافق ٥ مايو سنة ١٨٠٠ .

المفاوضة فى التسليم :

استأنف علماء القاهرة مسعاهم فى سبيل حقن الدماء ، وألحوا على ناصف باشا وإبراهيم بك وأصحابهما أن يعملوا على وضع الحد لقتال لا يجلب على المدينة سوى الخراب والدمار ، وانضم عثمان بك البرديسى وكيل مراد بك إلى العلماء فى السعى للصلح ، وعرض على زعماء الثورة أن يدخل مراد بك فى الصلح على شرط أن يسلموا المدينة ، فأذعن الثوار لهذه المساعى وانتدب ناصف باشا عثمان أفندى وكيل الصدر الأعظم وانتدب إبراهيم بك عثمان بك الأشقر لمفاوضة الجنرال كليبر فى وقف القتال .

واستمرت المفاوضة فى شروط التسليم إلى أن تم إبرام الاتفاق يوم ٢١ أبريل سنة ١٨٠٠ ، ووقع عليه ناصف باشا وعثمان أفندى وإبراهيم بك ، وتتضمن هذه الشروط تعهد الجنود العثمانية والمماليك بالجلاء عن القاهرة وأن تتم استعدادات الجلاء فى مدة ثلاثة أيام وأن يجلو العثمانيون والمماليك حاملين أسلحتهم وأمتعتهم ما عدا المدافع فإنهم يتركونها فى مواقعها فى القاهرة ، وأن ينفذ الجلاء يوم ٢٥ أبريل (الموافق ٣٠ ذى القعدة سنة ١٢١٤) بحيث لا يكون منهم أحد بالقاهرة بعد ظهر ذلك اليوم ما عدا الجرحى ، وتعهدوا بمواصلة الجلاء حتى حدود سوريا .

وتعهد الجنرال كليبر فى المعاهدة بأن يعفو عفوًا عامًا عن جميع أهالى القاهرة وعن المصريين الذين اشتركوا فى الثورة ، ولكنه اشترط ألا يغادر المدينة أحد من المصريين بقصد اللحاق بالجيش العثمانى .

وأخذ الأتراك والمماليك بعد التوقيع على معاهدة التسليم يعدون معدات الرحيل ، ثم ارتحلوا بطريق بلبيس ، وسار معهم زعماء الثورة من المصريين أمثال السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والسيد أحمد المحروقى كبير التجار ، وهاجر من العاصمة عدة آلاف من السكان ممن توقعوا انتقام الفرنسيين ، فتفرقوا فى البلاد ، وقد كانوا محقين فى مخاوفهم لأن كليبر نقض عهده كما سيجىء بيانه ، وبإبرام شروط التسليم انتهت ثورة القاهرة بعد قتال دام ثلاثة وثلاثين يومًا .

عودة السلطة إلى الفرنسيين :

عادت السلطة إلى الفرنسيين بعد إخماد ثورة القاهرة ، وسادت السكينة أنحاء الوجه البحرى والوجه القبلى ، وأصبح الجنرال كليبر حاكمًا بأمره فى البلاد وهو الذى كان قبل شهرين يعد معدات الرحيل عنها ، ولكن السياسة الإنجليزية هى التى غيرت سير الأمور وتسببت فى نقض معاهدة العريش ومنعت الجنود الفرنسية من السفر إلى فرنسا فأشعلت نار الحرب ثانية بين الأتراك والفرنسيين وانتهت هذه الحرب بانتصار الفرنسيين فى معركة عين شمس وإخماد ثورة القاهرة بقوة السيف والنار ، وبذلك تحركت فى نفس كليبر مطامع الفتح والاستعمار ، واعتزم البقاء فى الديار المصرية وإدارة شئونها إلى ما شاء الله كمستعمرة فرنسية ، وأراد أن يبعث الرهبة فى نفوس الشعب ويعلن عن قوة الجيش الفرنسى بالرغم مما أصابه فى المعارك الأخيرة ؛ فعرض الجنود عرضاً كبيرًا فى سهول (القبة) ؛ ودعا أكابر أعيان القاهرة ليشهدوا العرض وليتحققوا من قوة الجيش الفرنسى وحسن نظامه ، ولما انتهى العرض دخل الجيش العاصمة واخترق شوارعها فى رهبة . بين قصف مدافع القلاع . وكأنما أراد كليبر أن يدخل المدينة دخول الغزاة ليدعى لنفسه حق الفتح والتصرف فى مصير البلاد ، وإليك ما ذكره الجبرتى عن دخول كليبر المدينة ومقابلته للمشايخ والأعيان . قال ما خلاصته :

« ودخل الفرنساوية إلى المدينة يسعون ، وإلى الناس بعين الحقد ينظرون ، واستولوا على ما كان اصطنعه وأعده العثمانية من المدافع والقنابل والبارود وآلات الحرب جميعها وقيل إنهم حاسبوهم على كلفته ومصاريفه وقبضوا ذلك من الفرنساوية ، وركب المشايخ والأعيان عصر ذلك اليوم وذهبوا إلى كبير الفرنسيس ، فلما وصلوا إلى داره ودخلوا عليه وجلسوا ساعة أبرز لهم ورقة مكتوبًا فيها النصر لله الذى يريد أن المنصور يعامل الناس بالشفقة والرحمة ، وبناء على ذلك يريد سارى عسكر العام أن ينعم بالعفو العام والخاص على أهل مصر وعلى أهل برمصر ، ولو كانوا يخالطون العثملى فى الحروب ، وأنهم يشتغلون بمعايشهم وصنائعهم ، ثم نبه عليهم بحضورهم إلى قبة النصر بكرة تاريخه ، ثم قاموا من عنده وشقوا المدينة وطافوا بالأسواق وبين أيديهم المناداة للرعية بالاطمئنان والأمان ، فلما أصبح ذلك اليوم ركبت المشايخ والوجاقلية وذهبوا إلى خارج باب النصر وخرج أيضًا القلقات والقبط والشوام وغيرهم ، فلما تكامل حضور الجميع رتبوا موكبا وساروا ودخلوا من باب النصر وقدامهم جماعة من القواسة يأمرون

الناس بالقيام ، وبعض فرنساوية راكبين خيلا وبأيديهم سيوف مسلولة ينهرون الناس ويأمرونهم بالوقوف على أقدامهم ، ومن تباطأ فى القيام أهانوه ، فاستمرت الناس وقوفًا من ابتداء سير الموكب إلى انتهائه ، ثم تلا الطائفة الآمرة للناس بالوقوف جمع كثير من الخيالة الفرنساوية بأيديهم سيوف مسلولة وكلهم لابسون جوخًا أحمر وعلى رءوسهم طراطير من الفراوى على غير هيئة خيالتهم ومشاتهم ؛ ثم تتالى بعد هؤلاء طوائف العساكر ببوقاتهم وطبولهم وزمورهم واختلاف أشكالهم وأجناسهم وملابسهم من خيالة ورجالة ، ثم الأعيان والمشايخ والوجاقية وأتباعهم إلى أن قدم سارى عسكر الفرنساوية ووراءه عثمان بك البرديسى وعثمان بك الأشقر (مندوبى مراد بك) وخلفهم طوائف من خيالة الفرنسيس ، ولما انقضى أمر الموكب نادوا بالزينة فزينت البلد ثلاثة أيام آخرها يوم الثلاثاء مع السهر ووقود القناديل ليلا » .

فتأمل فى قول الجبرتى أن مندوبى مراد بك كانا يسيران فى الموكب خلف الجنرال كليبر مباشرة ، وهذا يدلك على ارتباط المماليك بالفرنسيين وقتئذ ، وهذه إحدى نتائج معاهدة الصلح بين كليبر ومراد بك ، ففى الوقت الذى كان الشعب يعانى فيه الأهوال خلال الثورة وبعد إخمادها كان ضلع المماليك مع الفرنسيين ، بل كانوا أعوانهم فى إذلال الشعب .

بعد إخماد الثورة

غرامات فادحة — اعتقال واضطهاد

كان أول عمل للجنرال كليبر بعد دخوله المدينة أن نقض عهده فى العفو العام عن كل من لهم يد فى الثورة ، فقد أمر بالاقتصاص من سكان القاهرة جميعهم بفرض غرامة جسيمة تنوء بها أكبر العواصم وبخاصة بعد ما حل بها من الخراب والدمار .

فرض على سكان القاهرة غرامة قدرها اثنا عشر مليون[٣٦] فرنك يوفى نصفها نقدًا ونصفها عروضًا ، وألزم سكان المدينة بتسليم عشرين ألف بندقية وعشرة آلاف سيف وعشرين ألف طبنجة ، وخص بعض كبار الأعيان والعلماء بنصيب فادح من هذه الغرامة .

فصودرت أملاك السيد أحمد المحروقى كبير التجار . وفرض على السيد محمد السادات غرمٌ

(٣٦) يقول الجبرتى إنها عشرة آلاف ألف فرنك أى عشرة ملايين فرنك ، ولكن المراجع الفرنسية ومنها مذكرات نابليون مجمعة على أنها اثنا عشر مليون فرنك فاعتمدنا هذا الرقم .

قدره ١٥٠,٠٠٠ ريال (٨٠٠ ألف فرنك تقريبًا) والشيخ مصطفى الصاوى ٥٠,٠٠٠ ريال (٢٦٠ ألف فرنك) والشيخ محمد الجوهرى وأخيه الشيخ فتوح ٥٠,٠٠٠ ريال ، وأمر بتوزيع الباقى على سكان المدينة على اختلاف طوائفهم وطبقاتهم ، واعتقل خمسة عشر رجلا من كبرائهم رهينة لوفاء هذه الغرامة ، قال الجبرتى ما خلاصته : « فوزعوها على الملتزمين وأصحاب الحرف حتى الحواة والقرداتية والتجار وأهل الغورية وخان الخليلى والصاغة والنحاسين ، والدلالين والقبانية وقضاة المحاكم وغيرهم كل طائفة عليها مبلغ معلوم ، وكذلك بياعو الدخان والتنباك والصابون والخردجية والعطارون والزياتون والشواعون والجزارون والمزينون وجميع أهل الصنائع والحرف ، وجعلوا على الأملاك والعقار والدور أجرة سنة كاملة » .

هذا ما يقوله الجبرتى . فالغرامة الفادحة التى فرضها كليبر على القاهرة أنهكت المصريين على اختلاف طبقاتهم ، الأغنياء والفقراء والمعدمون سواء ، وقد هال سكان القاهرة فداحة تلك الغرامة وزادت فى مصائبهم وآلامهم ، فكأن الفرنسيين لم يكتفوا بما ابتليت به العاصمة من أهوال القتل والنهب وسفك الدماء والحريق والتدمير والمجاعة ، فتمموا عليها بتلك الغرامة الباهظة .

ومن الصعب أن تتعرف كيف وفق كليبر بين هذه الغرامة والعهد الذى قطعه على نفسه بأن يعفو عمن اشتركوا فى ثورة القاهرة ، لكنها القوة الغشوم لا عهد لها ولا ميثاق .

وإذا أردت أن تعرف مبلغ نقض العهد فتأمل فيما رواه الجبرتى عن مقابلة كليبر أعيان المدينة وإبلاغهم نبأ الغرامة ، فقد ذكر أن كليبر قال لهم فيما قال :

« حيث إننا أعطيناكم الأمان فلا ننقض أماننا ! ولا نقتلكم ! وإنما نأخذ منكم الأموال ، فالمطلوب منكم عشرة آلاف ألف فرنك » .

وقد أسرف الفرنسيون فى إرهاق سكان القاهرة وإذلالهم ، واعتقلوا الكثيرين منهم لإكراههم على دفع نصيبهم فى الغرامة ، وفتشوا جميع المنازل بحجة البحث عن السلاح ، وتفننوا فى ضروب القهر والنكال ، واشتد الضيق بالناس مما لاقوه من المصائب والأهوال ، فخربت بيوت عامرة . وخرج كثير من الناس عن أموالهم وباعوا متاعهم . ومات كثير منهم فى السجون . وهاجر من استطاع الهجرة فرارًا من الظلم والاضطهاد .

قال الجبرتى فى هذا الصدد

« وألزموا الأغا (المحافظ) بعدة طوائف كتبوها فى قائمة بأسماء أربابها وأعطوه عسكرًا وأمروه بتحصيلها من أربابها ، وكذلك على أغا الشعراوى (رئيس الشرطة) وحسين أغا المحتسب وعلى كتخدا سليمان بك ، فنبهوا على الناس بذلك ، وبثوا الأعوان بطلب الناس وحبسهم وضربهم ، فدهى الناس بهذه النازلة التى لم يصابوا بمثلها ولا ما يقاربها ، ومضى عيد النحر ولم يلتفت إليه أحد بل ولم يشعروا به ، ونزل بهم من البلاء والذل مالا يوصف ، فإن أحد الناس غنيًا كان أو فقيراً لابد أن يكون من ذوى الصنائع أو الحرف فيلزمه دفع ما وزع عليه فى حرفته أو فى حرفتيه وأجرة داره أيضًا بسنة كاملة ، فكان يأتى على الشخص غرامتان أو ثلاثة ونحو ذلك ، وفرغت الدراهم من عند الناس واحتاج كل إلى القرض فلم يجد الدائن من يدينه لشغل كل فرد بشأنه ومصيبته ، فلزمهم بيع المتاع فلم يوجد من يشترى ، وإذا أعطوهم ذلك لا يقبلونه ، فضاق خناق الناس وتمنوا الموت فلم يجدوه ، ثم وقع الترجى فى قبول المصوغات والفضيات ، فأحضر الناس ما عندهم فيقوَّم بأبخس الأثمان ، وأما أثاثات البيوت من فرش ونحاس وملبوس فلا يوجد من يأخذه ، وأمروا بجمع البغال ومنعوا المسلمين من ركوبها مطلقًا سوى خمسة أنفار من المسلمين وهم الشرقاوى والمهدى ، والفيومى ، والأمير ، وابن محرم (من كبار تجار القاهرة) ، والنصارى المترجمين وخلافهم لا حرج عليهم فى كل وقت ، وحين يشتد الطلب وينبث المعينون والعسكر فى طلب الناس ومهاجمة الدور وجرجرة الناس حتى النساء من أكابر وأصاغر وبهدلتهم وحبسهم وضربهم ، والذى لم يجدوه لكونه فر وهرب يقبضون على قريبه أو حريمه أو ينهبون داره فإن لم يجدوا شيئًا ردوا غرامته على أبناء جنسه وأهل حرفته ... هذا والكتبة والمهندسون والبناءون يطوفون ويحررون أجر الأماكن والعقارات والوكائل والحمامات ويكتبون أسماء أربابها وقيمتها ، وخرجت الناس من المدينة وجلوا عنها وهربوا إلى القرى والأرياف ، ثم إن أكثر الفارين رجع إلى مصر لضيق القرى وعدم ما يتعيشون به فيها وانزعاج الريف بقطاع الطريق والعرب والمناسر بالليل والنهار والقتل فيما بينهم وتعدى القوى على الضعيف ، واستمرت الطرق مجفرة والأسواق مقفرة والحوانيت مقفولة والعقول مخبولة ، والخانات والوكائل مغلوقة والنفوس مطبوقة ، والغرامات نازلة والأرزاق عاطلة ، والمطالب عظيمة والمصائب عميمة ، والعكوسات مقصودة والشفاعات مردودة ... وبالجملة فالأمر عظيم والخطب جسيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » .

هذا وصف شاهد عيان للمأساة التى حلت بالقاهرة بعد إخماد ثورتها الثانية ، ويقيننا أنه قلما توجد فى تاريخ الثورات فجائع تشبهها أو تدانيها فى ويلاتها وخطوبها وأهوالها .

اضطهاد الفرنسيين للسيد السادات :

كان السيد محمد السادات هدفًا لأقسى ضروب الانتقام والاضطهاد ، فقد خصه الجنرال كليبر بأكبر غرامة ، وعامله الفرنسيون بقسوة لا نظير لها ، فاعتقلوه غير مرة وأهانوه وصادروا أمواله واضطروه إلى بيع أملاكه توفية للغرامة التى فرضوها عليه ، وأفرطوا عليه فى القسوة ، ولم يرعوا مقامه بين الناس ولا منزلته فى البلاد ، وقد احتمل من صنوف الإرهاب مالم يصب غيره من أنداده ولا من قومه ، فلا جرم أن أفردنا لاضطهاده مبحثا خاصا ، لأن من يتأمل فيما رواه الجبرتى عما أرهقه من صنوف الأذى والانتقام لا يسعه إلا أن يترحم على ذكراه .

قال الجبرتى ما خلاصته : « نزل الشيخ السادات وركب إلى داره فذهب معه عشرة من العسكر وجلسوا على باب داره ، فلما مضت حصة من الليل حضر إليه عشرة من العسكر أيضًا ، فأركبوه وطلعوا به إلى القلعة وحبسوه فى مكان ، فأرسل إلى عثمان بك البرديسى وتداخل عليه فشفع فيه فقالوا له : أما القتل فلا نقتله لشفاعتك ، وأما المال فلابد من دفعه ، ولابد من حبسه وعقوبته حتى يدفعه ، وقبضوا على فراشه ومقدمه وحبسوهما ، ثم أنزلوه إلى بيت قائممقام (حاكم القاهرة) فمكث به يومين ثم أصعدوه إلى القلعة ثانيًا وحبسوه فى حاصل ينام على التراب ويتوسد بحجر ، وضربوه تلك الليلة ، فأقام كذلك يومين ثم طلب زين الفقار كتخدا فطلع إليه هو وبرطلمين (برتلمى الرومى) فقال لهما أنزلونى إلى دارى حتى أسعى وأبيع متاعى ، فاستأذنوا له وأنزلوه إلى داره ، فأحضر ما وجده من الدراهم فكانت تسعة آلاف ريال معاملة عنها ستة آلاف ريال فرانسه[٣٧] ثم قوموا ما وجده من المصاغ والفضيات والفراوى والملابس وغير ذلك بأبخس الثمن فبلغ ذلك خمسة عشر ألف ريال فرانسه ، فبلغ المدفوع بالنقدية والمقومات واحدًا وعشرين ألف ريال ، والمحافظون عليه من العسكر ملازموه لايتركونه يطلع إلى حريمه ولا إلى غيره ، وكان وزع حريمه وابنه إلى مكان آخر ، وبعد أن فرغوا من الموجودات جاسوا خلال الدار يفتشون ويحفرون الأرض على الخبايا فلم يجدوا شيئا ، ثم نقلوه إلى بيت قائممقام ماشيًا ، وصاروا يضربونه خمس عشرة عصا فى الصباح ومثلها فى

---

(٣٧) أى تساوى ستة آلاف ريال فرنسوى .

الليل ، وطلبوا زوجته وابنه فلم يجدوهما ، فأحضروا محمد السندوبى تابعه وقرروه (أكرهوه على الإقرار) حتى عاين الموت حتى عرفهم بمكانهما ، فأحضروهما وأودعوه ابنه عند أغات الانكشارية (المحافظ) وحبسوا زوجته معه فكانوا يضربونه بحضرتها ، وهى تبكى وتصيح وذلك زيادة فى الإنكاء ، ثم إن المشايخ وهم الشرقاوى ، والفيومى ، والمهدى ، والشيخ محمد الأمير ، وزين الفقار كتخدا تشفعوا فى نقلها من عنده ، فنقلوها إلى بيت الفيومى [٣٨] وبقى الشيخ على حاله وأخذوا مقدمه وفراشه وحبسوهما ، وتغيب أكثر أتباعه واختفوا ، وفى خامس محرم سنة ١٢١٥ [٣٩] أصعدوا الشيخ السادات إلى القلعة وكان أرسل إلى كبار القبط بأن يسعوا فى قضيته ورهن حصصه ويسدد ما عليه فردوا عليه بأنه لابد من سداد قدر نصف الباقى أولا ولا يمكن غير ذلك ، وأما الحصص فليست فى تصرفه . ثم نقله الفرنسيس إلى القلعة ومنعوه الاجتماع بالناس وهى المرة الثالثة » .

هذه رواية الجبرتى عما نزل بالسادات من الاضطهاد والتعذيب ، وفى المراجع الفرنسية ما يؤيد روايته . وبخاصة فى مذكرات نابليون ، فقد تقدم الكلام بالجزء الأول (ص ٣٠٤ من الطبعة الأولى) عما جاء فى تلك المذكرات خاصًا باتهام الفرنسيين للسادات بالتحريض على ثورة القاهرة الأولى وما رآه نابليون من الإبقاء عليه لما اعتقده من أن الحكم بإعدامه يضر بمركز الفرنسيين أكثر مما ينفعهم ، ونضيف إلى ذلك أن نابليون يقول فى مذكراته إن الجنرال كليبر راجعه فى رأيه هذا عقب إخماد الثورة الأولى (أكتوبر سنة ١٧٩٨) وسأله كيف لا يقضى بإعدامه وهو زعيم الثورة فأجابه نابليون أن إعدام مثل هذا الشيخ الجليل لا يفيد الفرنسيين بل يؤدى إلى عواقب وخيمة ، ويقول نابليون أيضاً : « وقد وقعت بعد ذلك حوادث أثارت ذكرى هذه المحادثة ، فإن الشيخ السادات هذا هو الذى أمر الجنرال كليبر بتعذيبه وضربه ، وكان هذا من أهم الأسباب التى أدت إلى مقتل كليبر » [٤٠] .

وقال نابليون فى موضع آخر عند الكلام على إخماد ثورة القاهرة الثانية : « إن السادات قد

---

(٣٨) جاء فى الأمر الصادر من الجنرال كليبر بتاريخ ٢٢ مايو سنة ١٨٠٠ إلى الجنرال داماس رئيس أركان الحرب ما يؤيد رواية الجبرتى إذ يقضى « بنقل زوجة الشيخ السادات إلى بيت الشيخ سليمان الفيومى » ويظهر أن هذا الأمر كان نتيجة مسعى المشايخ .

(٣٩) يوافق ٢٩ مايو سنة ١٨٠٠ .

(٤٠) مذكرات نابليون التى أملاها على الجنرال برتران فى جزيرة سانت هيلين.

خص بغرامة فادحة ، وكان معروفًا عنه كرهه للفرنسيين ، على أنهم أسرفوا فى إهانته لدرجة أنهم نسوا مقامه المستمد من نسبه ومولده ، فقد رفض أن يدفع الغرامة فاعتقل وسجن بالقلعة ، ولم يعبأ بالتهديد والوعيد ، فأمر كليبر بضربه بالعصى ، وهكذا ضرب السادات وأهينت السلالة النبوية ، فعم السخط رجال الشرع والعلماء والشعب ، وكانت هذه المعاملة على النقيض من معاملة نابليون للسادات عقب ثورة سنة ١٧٩٨ فقد قابله بالعفو والتسامح مع قيام البينات عليه بأنه زعيم الثورة »[٤١] .

ويقول نابليون أيضاً فى مذكراته إن لاضطهاد السادات دخلا فى مقتل الجنرال كليبر ، لأنه لا يمكن أن يجهل علماء الأزهر ما كان ينويه سليمان الحلبى من اغتيال كليبر ، فقد قضى بالأزهر نحو ثلاثين يومًا مصمما على القتل ، لكنهم تجاهلوا نية القاتل وتجاهلوا كل ماله علاقة به لأنهم كانوا يودون الانتقام من الجنرال كليبر[٤٢] .

وقال المسيو جومار[٤٣] Jomard الذى عاصر السادات : « إن الشيخ محمد السادات كانت له مكانة كبيرة فى البلاد خلال الحملة الفرنسية ، وكان يعرف كيف يثير عواطف الشعب ، والمعروف عنه أنه هو الذى هاج ثورة القاهرة الأولى ، وحرض على الثانية ، على أنه دفع ثمنًا غاليًا لمكانته بين الشعب ، فقد فرض عليه القائد العام الجنرال كليبر بعد واقعة عين شمس غرامة فادحة وأسرف فى القسوة معه إلى حد أن أمر بضربه بالعصى ، ولم يقره ضباط الجيش على هذه القسوة »[٤٤] .

بقى السيد السادات معتقلا فى القلعة ، ولم يفرجوا عنه إلا فى ١٩ يولية سنة ١٨٠٠ (٢٦ صفر سنة ١٢١٥) فى عهد قيادة الجنرال منو بعد أن سدد الغرامة المفروضة عليه ، قال الجبرتى واستولى الفرنسيون على « حصصه وأقطاعه ، وقطعوا مرتباته وكذلك جهات حريمه والحصص الموقوفة على زاوية أسلافه ، وشرطوا عليه عدم الاجتماع بالناس وألا يركب بدون إذن منهم ويقتصد فى أموره ومعاشه وتقليل أتباعه »[٤٥] ، أى أنه بقى فى داره رهن المراقبة ، ثم اعتقلوه للمرة الرابعة فى أوائل مارس سنة ١٨٠١ بعد وصول الحملة الإنجليزية العثمانية إلى (أبو قير) .

---

(٤١)و(٤٢) مذكرات نابليون التى أملاها على الجنرال برتران فى سانت هيلين .

(٤٣)أحد مهندسى الحملة الفرنسية ، انظر ما كتبناه عنه بالجزء الأول ص ١٢٦ (من الطبعة الأولى) .

(٤٤)تعليقات جومار على كتاب تاريخ مصر فى عهد محمد على لفلكس مانجان .

(٤٥)الجبرتى الجزء الثالث .

ويقول الجبرتى إنهم أصعدوه فى هذه المرة الرابعة إلى القلعة «من غير إهانة» والظاهر أن الفرنسيين أحسوا فى هذه المرة بقرب ارتحالهم عن البلاد فخففوا من غلوائهم مع من اعتقلوهم كما سيجىء بيان ذلك .

موقف كليبر بعد إخماد ثورة القاهرة

أصبح موقف كليبر بعد جلاء الجنود العثمانية وإخمادثورةالقاهرة على جانب عظيم من المنعة ، فقد دلت الظواهر على أن مصر دانت له من أقصاها إلى أقصاها ، وأنها خلصت له فلا يخشى عليها من اعتداء دولة أجنبية أو قيام ثورة داخلية ، وجعله انقطاع المواصلات بين مصر وفرنسا شبه حاكم مستقل ، فأخذ يحكم البلاد ويدير شئونها على هذا النحو ، ومضى ينظم قواته ويدعم موقفه الحربى ، وأمر بإنشاء قلاع جديدة فى القاهرة حتى لا تنشب فيها ثورة أخرى ، وهذا عدا القلاع التى أنشأها نابليون بعد إخماد الثورة الأولى مما بسطناه بالفصل الثالث عشر من الجزء الأول (ص ٣٠٨ من الطبعة الأولى) .

وقد أدركت تركيا مناعة موقف كليبر بعد الحوادث الأخيرة فشرعت تفاوضه فى تنفيذ معاهدة العريش ، ووصل حسين قبطان باشا إلى مياه الإسكندرية ومعه عدة بوارج من الأسطول العثمانى ، فاعتقد كليبر أن تركيا تريد أن تستأنف إنزال جنودها فى شواطئ مصر ، فغادر القاهرة يوم ٣ يونية سنة ١٨٠٠ وأخذ يحشد جنوده استعداداً للقتال ، وفيما هو فى الرحمانية فى طريقه إلى الاسكندرية وصلته رسالة من قومندان الثغر بأن قبطان باشا لا يقصد من مروره بأسطوله إلا أن يفتح باب المفاوضة من جديد فى سبيل عقد الصلح بين الدولتين ، فأجاب كليبر على هذه الرسالة بأنه يرفض بتاتًا أن يفتح باب المفاوضة فى الصلح لأنه يعتبر أن مصر أصبحت له ! ! .. وأصدر تعليماته إلى قومندانات ثغور الإسكندرية ورشيد ودمياط بأن لا يأذنوا لأى رسول يأتى للكلام فى الصلح بالنزول إلى البر تفاديًا من أن يكون لهؤلاء الرسل غاية أخرى وهى التجسس على مواقع الفرنسيين ، وأفرد قوة متنقلة من الجنود تراقب سواحل البحر الأبيض المتوسط ومنافذ برزخ السويس لتكشف حركات العثمانيين المقبلة ، وعاد كليبر إلى القاهرة يوم ٢١ يونية واثقًا من ثبات مركزه فى مصر ، وكذلك رفض دعوة الصلح التى جاءته من المراجع الإنجليزية ، فقد أرسل له المستر موريبه سكرتير اللورد إلجين Elgin سفير

إنجلترا فى الآستانة ينبئه بأن التعليمات الأخيرة الصادرة من الحكومة الإنجليزية تقضى بقبول تنفيذ نصوص معاهدة العريش حرفيا وأن السلطات الانجليزية مستعدة لإعطاء جوازات المرور لنقل الجنود الفرنسية بحرًا ، وأنه لم يبق إلا موافقة الجنرال كليبر للشروع حالا فى تنفيذ المعاهدة ، ولكن كليبر لم يعبأ بهذه الرسالة واعتبر أن معركة عين شمس وإخماد ثورة القاهرة قد أوجدتا «حالة جديدة» هى بمثابة فتح لمصر وأن هذه الحالة لا تتفق ومعاهدة العريش .

على أن كليبر أخذ يفكر فى المفاوضة رأسًا مع الباب العالى على أساس جديد وهو التودد إلى تركيا ودعوتها إلى فسخ التحالف بينها وبين إنجلترا وإقناعها بأن إنجلترا لا تنظر إلا إلى مصلحتها وأنها لا تقصد من مساعدة الباب العالى فى الحملة على مصر إلا إلى تمهيد السبيل لقواتها الحربية لتحتل الإسكندرية ورشيد والسويس ، وبذلك تضمن وضع يدها على مصر ، وأراد كليبر أن يطلع الباب العالى على مقاصد إنجلترا ليلزم الحياد مبدئيًا فى القتال بين الفرنسيين والإنجليز ، وقد أفضى بهذا المشروع إلى خاصة قواده وأخذ يعمل على تحقيقه لولا أن عاجلته منيته فحالت دون مراده .

* * *

الفصل العاشر

مقتل الجنرال كليبر

كان موقف كليبر إذن فى أوائل شهر يونية سنة ١٨٠٠ غاية فى المنعة ، وقد قويت آماله فى أن يخلد مركزه فى وادى النيل ويحقق مشروعاته السياسية والحربية ، لكن هذه الآمال تحطمت فى لحظة واحدة . وهى اللحظة الرهيبة التى امتدت إليه فيها يد سليمان الحلبى بطعنة خنجر أردته صريعًا .

كان ذلك يوم السبت ١٤ يونية سنة ١٨٠٠ (١٢ محرم سنة ١٢١٥) ، ففى صباح هذا اليوم ذهب كليبر إلى جزيرة الروضة ليعرض كتيبة الأروام الذين انخرطوا فى سلك الجيش الفرنسى بمصر[1] وعاد بعد العرض إلى الأزبكية ليتفقد أعمال الترميم التى كانت تعمل فى دار القيادة العامة ومسكن القائد العام (سراى الألفى بك) لإزالة آثار الإتلاف الذى أصابها من قنابل الثوار[2] ، وكان يصحبه المسيو بروتان Protaian المهندس المعمارى وعضو لجنة العلوم والفنون ، فتفقدا الأعمال معًا ، ثم ذهبا إلى دار الجنرال داماس Damas رئيس أركان الحرب حيث أعد وليمة غداء للقائد العام دعا إليها طائفة من القواد وأعضاء المجمع العلمى ورؤساء الإدارة ، فتغدى كليبر مع المدعوين ، وكان منشرح الصدر على المائدة يتحدث مطمئنًا عن الحالة فى مصر ، واستمرت الوليمة إلى الساعة الثانية بعد الظهر ، ثم انصرف كليبر يصحبه المهندس بروتان عائدين إلى دار القيادة العامة ليستأنفا تفقد أعمال الترميم والإصلاح فيها ،

---

(١) نظم الفرنسيون هذه الكتيبة فى عهد نابليون كما ذكرنا ذلك بالجزء الأول ص ٣١٦ (من الطبعة الأولى) وجعلوا القبطان الرومى نيقولا بابازوغلو قومندانا لها ورقوه إلى رتبة جنرال بعد إخماد ثورة القاهرة الثانية ، وكان فى عهد المماليك خادما عند مراد بك ورئيسا للترسانة التى أنشأها بالجيزة ، ويقول المسيو مارتان فى كتابه (تاريخ الحملة الفرنسية فى مصر) انه خدم المماليك إلى أن حلت بهم الهزيمة فى معركة الأهرام فعرض خدمته على الفرنسيين ومن ذلك الحين وضع نفسه تحت تصرفهم ، ويقول الجنرال رينييه فى كتابه (مصر بعد واقعة عين شمس) إن عدد جنود هذه الكتيبة بلغ فى عهد كليبر ١٥٠٠ مقاتل .

(٢) كان كليبر يقيم فى ذلك الحين بالجيزة ريثما يتم إصلاح سراى الألفى بك بالأزبكية .

وكانت حديقة السراى تتصل بدار الجنرال داماس برواق طويل تظله تكعيبة من العنب .

فسار كليبر وبجانبه بروتان فى هذا الرواق يتحدثان فى إصلاح السراى ، وبينما هما سائران إذ خرج عليهما رجل يكمن وراء بئر عليها ساقية ، فاقترب من الجنرال كليبر كمن يريد أن يستجديه أو يتوسل إليه ، فلم يرتب الجنرال فى نية ذلك السائل ، لكنه لم يكد يلتفت إليه حتى عاجله القاتل بطعنة خنجر مميتة أصابته فى صدره ، فصاح الجنرال . « إلى أيها الحارس » ، ثم سقط على الأرض مضرجًا فى دمه ، وهنالك أسرع المسيو بروتان فى تعقب الجانى . فلما أدركه تماسك الاثنان . فطعنه القاتل ست طعنات سقط منها على الأرض بجوار كليبر . وعاد الجانى مرة ثانية إلى كليبر فطعنه ثلاث طعنات ليجهز عليه ، بيد أن الطعنة الأولى كانت القاضية لأنها نفذت إلى القلب . ولاذ الجانى بالفرار وتوارى عن الأنظار مختفيًا فى حديقة السراى . ولم يبق فى مكان الجريمة مما يدل على القاتل سوى جزء من عمامته التى تمزقت أثناء صراعه مع بروتان . وأقبل الحارس الذى سمع الصيحة يعدو . فلما رأى هذا المنظر الرهيب ولى مسرعًا إلى دار الجنرال داماس فأخبر القوم بما رآه ، فأقبل من كانوا موجودين إلى مكان الحادثة ، فرأوا الجنرال كليبر مضرجاً فى دمائه وبجانبه بروتان مغمى عليه من شدة الطعنات التى أصابته . فهالهم ما أبصروه ونقلوا الجنرال كليبر إلى دار الجنرال داماس وجاء الطبيب ديجنت كبير أطباء الجيش لإسعاف الجنرال كليبر فألفاه قد أسلم الروح دون أن ينطق بكلمة .

انتشر الخبر فى القاهرة بسرعة البرق . فتلقاه الأهالى بالدهشة والجزع الشديد لتوقعهم الانتقام والنكال . وتلقاه الجنود الفرنسيون بالغضب والسخط والتحفز للوثبة على الأهالى الأبرياء . وضُرب النفير العام فى أحياء القاهرة جمعاً لشتات الجنود فأقبلوا من كل صوب وحدب إلى ميدان الأزبكية يتنادون بالانتقام والأخذ بالثأر ويتهددون بإحراق المدينة . فاستولى الفزع على الناس . وأقفلت الدكاكين ، وخلت الطرق من المارة . وذهب كل إلى داره يطلب النجاة من عواقب هذا الحادث الجلل ، وأخذت دوريات الجنود تطوف الشوارع والأحياء وخاصة المجاورة لميدان الأزبكية للبحث عن القاتل الذى كان بعد مختفيًا عن الأنظار . وأخذ جماعة الحراس يبحثون فى حديقة السراى لعلهم يعثرون عليه مختبأ فيها .

اتجهت أنظار الفرنسيين فى بادئ الأمر إلى اتهام المشايخ الذين عرفوا بالتحريض على الثورة الأخيرة والحض على كراهية الحكم الفرنسى ، وأخذ ولاة الأمور يبحثون عنهم ، وتطوع جماعة من المماليك برآسة حسين كاشف مندوب مراد بك للبحث عن أولئك المشايخ ،

واستصحبهم بعض ياوران القائد العام وفتشوا منازلهم ، لكنهم لم يجدوا فيها ما يدينهم أو يبعث على الاشتباه فيهم .

رواية الجبرتى :

نقلنا هذه البيانات عن المراجع الفرنسية وبخاصة كتاب ريبو الذى كان من أهم مصادره مذكرات بيروس السكرتير الخاص للجنرال كليبر ، وهى مصادر دقيقة يصح الاعتماد عليها ، والآن ننقل ما ذكره الجبرتى عن رواية الواقعة وهى فى جوهرها لا تخرج عن رواية المراجع الفرنسية ، قال الجبرتى : « وفى ذلك اليوم – السبت ٢١ محرم سنة ١٢١٥ – وقعت نادرة عجيبة وهى أن سارى عسكر كليبر كان مع كبير المهندسين يسيران بداخل البستان الذى بداره بالأزبكية ، فدخل عليه شخص حلبى وقصده ، فأشار إليه بالرجوع وقال له « مافيش » وكررها ، فلم يرجع ، وأوهمه أن له حاجة وهو مضطر فى قضائها ، فلما دنا منه مد إليه يده اليسار كأنه يريد تقبيل يده فمد إليه الآخر يده ، فقبض عليه وضربه بخنجر كان أعده فى يده اليمنى أربع ضربات متوالية فشق بطنه وسقط على الأرض صارخًا ، فصاح رفيقه المهندس فذهب إليه وضربه أيضاً ضربات ، وهرب ، فسمع العسكر الذى خارج الباب صرخة المهندس ، فدخلوا مسرعين فوجدوا كليبر مطروحًا وبه بعض الرمق ولم يجدوا القاتل ، فانزعجوا وضربوا طبلهم وخرجوا مسرعين ، وجروا من كل ناحية يفتشون على القاتل ، واجتمع رؤساؤهم وأرسلوا العساكر إلى الحصون والقلاع وظنوا أنها من فعل أهل مصر فاحتاطوا بالبلد وعمروا المدافع وحرروا القنابر . وقالوا لابد من قتل أهل مصر عن آخرهم . ووقعت هوجة عظيمة فى الناس وكرشة وشدة انزعاج . وأكثرهم لا يدرى حقيقة الحال ، ولم يزالوا يفتشون على ذلك القاتل حتى وجدوه منزوياً فى البستان المجاور لبيت سارى عسكر » .

وذكر الجبرتى إجراءات التحقيق مما لا يخرج عن المراجع الفرنسية . ونقل محاضر التحقيق ومحاضر جلسات المحاكمة كما دونها الفرنسيون فى ذلك الحين فقد نشروها بالفرنسية وترجموها إلى التركية والعربية بلغة ركيكة مفككة مملوءة بالأغلاط . فضربنا صفحًا عن الترجمة الواردة فى الجبرتى ورجعنا إلى المصادر الفرنسية .

القبض على القاتل واعترافاته :

وبعد ساعة من ارتكاب الجريمة عثروا على القاتل مختفيًا فى الحديقة الملاصقة لدار القيادة وراء حائط مهدوم ، وأدركه اثنان من صف ضباط الحرس من الملازمين لدار الجنرال كليبر ، فحاول الهرب ولكنهما قبضا عليه وساقاه إلى دار أركان احرب حيث كان قواد الجيش مجتمعين ، وكانت دلائل الجريمة بادية فى المكان الذى قبض عليه فيه ، فالحائط الذى كان مختفياً وراءه كان به آثار دماء ، كما أن ملابسه كانت ملوثة بدم الجريمة ، وعثروا على الخنجر مدفونًا فى المكان الذى قبض فيه على القاتل وعلى نصله دماء القتيل ، فلما سيق القاتل إلى دار الجنرال داماس استجوبه الجنرال منو[٣] وواجهه بالمهندس بروتان فتعرفه وأرشد إليه من بين جماعة من العمال وضع بينهم خصيصًا للتأكد من صحة التعرف ، وشهد الشهود بأن القاتل كان يتبع خطوات الجنرال كليبر منذ عدة أيام ، فقد رأوه فى الجيزة يسعى فى الدخول إلى مقر القائد العام بحجة تقديم عريضة إليه ، ولكن المسيو بيروس Peyrusse سكرتير كليبر رفض الإذن له بالمقابلة .

وفى صباح الجريمة اندس القاتل بين جماعة من الخدم ورآه الياور ديفوج Devouge أحد ياوران كليبر وكان يظن أنه من العمال الذين يشتغلون فى عمارة السراى فأمر بطرده من الحديقة ، ومع هذه البينات القاطعة كان القاتل ينكر الجريمة ، فاتبع معه برتلمى الرومى طريقة التعذيب لإكراهه على الاعتراف وأخذ فى ضرب القاتل حتى اعترف بجريمته وأبان عن شخصيته ، فإذا هو طالب علم من حلب عمره أربع وعشرون سنة اسمه سليمان الحلبى وأبوه تاجر من حلب اسمه الحاج محمد أمين وأنه غادر بلدته فى سوريا وذهب إلى بيت المقدس ثم حضر إلى القاهرة خصيصًا لقتل الجنرال كليبر وقضى بها واحدًا وثلاثين يومًا ، وتبين من اعتراف القاتل فى التحقيق وأمام المحكمة أن القتل وقع بتحريض رؤساء الجيش العثمانى ، وذلك أن القاتل التقى فى القدس بضابط من ضباط الجيش العثمانى اسمه (أحمد أغا) يعرفه سليمان الحلبى منذ كان رئيسًا للانكشارية فى حلب ، وكان هذا الضابط معزولاً من وظيفته وجاء إلى القدس ليسعى إلى مقابلة الصدر الأعظم ويلتمس منه إعادته إلى منصبه ، فالتقى به سليمان

---

(٣) عينه كليبر قومنداناً للقاهرة فى شهر مايو إخماد الثورة وبقى بها إلى أن قتل كليبر فتولى استجواب القاتل بصفته قومندان المدينة وأقدم القواد .

الحلبى وشكا إليه مظالم إبراهيم باشا والى حلب وإرهاقه أباه وإجباره على أداء غرامات فادحة ، وطلب من أحمد أغا أن يشفع لوالده ليرفع عنه ما حاق به من الظلم ، فوعده أحمد أغا بمساعدته وإنصاف والده على أن يسافر إلى مصر ويغتال قائد الجيش الفرنسى ، وكان هذا الحديث بعد رجوع الجيش العثمانى منهزماً إلى سوريا ، فقبل سليمان الحلبى ارتكاب الجريمة وصمم عليها فأرسله أحمد أغا إلى حاكم غزة (يس أغا) وأوصاه بأن يعطيه ما يحتاج إليه من المال ليبلغ إلى مصر ، وسافر الحلبى من القدس إلى الخليل ومنها إلى غزة وقابل يس أغا فوعده برفع المغارم عن أبيه وأعانه بالمال وسافر من غزة إلى مصر صحبة قافلة من التجار فأدرك القاهرة فى ستة أيام وبلغها يوم ١٤ مايو وكان يعرف المدينة من قبل إذ قضى بها ثلاث سنوات يطلب العلم فى الأزهر ، فنزل عند وصوله بدار معلم تركى (خطاط) اسمه مصطفى أفندى البروسه لى[٤] وهو شيخ يبلغ الثمانين من العمر كان يتعلم القاتل على يده فى صغره ، فنزل بداره وبات عنده أول ليلة ولكنه لم يفض إليه بعزمه ، ثم انتقل من عنده وسكن الجامع الأزهر وانتظم فى سلك طلبة العلم ، وقضى بالأزهر نحو ثلاثين يومًا ، وأفضى بعزمه إلى أربعة من الطلبة وهم محمد الغزى ، وأحمد الوالى ، وعبد الله الغزى ، وعبد القادر الغزى ، فأنكر الأربعة عليه هذا العزم ورموه بالطيش والجنون ، ونصحوه بالإقلاع عن عزمه ، فلم يسمع لنصحهم ، وذهب مساء ١٣ يونية إلى الجيزة حيث كان كليبر ، واستفهم من النوتية الذين فى خدمة الجنرال عن موعد خروجه ، فأخبروه أن الجنرال يتروض فى مساء كل يوم فى حديقة سراى القيادة العامة بالأزبكية ، وقد حاول سليمان الحلبى أن يدخل الحديقة ذلك المساء فلم يفلح ، وقضى الليلة فى أحد المساجد ، وفى صباح ١٤ يونية تتبع خطوات الجنرال ، فسار على أثره إلى الروضة ثم عاد وراءه إلى القاهرة ، وتمكن من التسلل إلى حديقة دار القيادة العامة ووصل إلى الرواق الذى ارتكب فيه الجناية ، فلما اعترف القاتل بجنايته أمروا بالقبض على الأزهريين الأربعة الذين وردت اسماؤهم فى أقواله ، فاعتقلوا منهم ثلاثة وفر الرابع (عبد القادر الغزى) واستجوب الثلاثة فانكروا ما نسبه إليهم القاتل .

قال الجبرتى فى هذا الصدد : « ثم إنهم أمروا بإحضار الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر والشيخ أحمد العريشى (قاضى مصر) وأعلموهما بذلك وعوقوهما (أى حجزوهما) إلى نصف الليل وألزموهما إحضار الجماعة الذين ذكرهم القاتل وأنه أخبرهم

(٤) نسبة إلى (بروسة) من بلاد الأناضول .

بفعله ، فركبوا وصحبتهم الأغا (المحافظ) وحضروا إلى الجامع الأزهر وطلبوا الجماعة ، فوجدوا ثلاثة منهم ولم يجدوا الرابع (عبد القادر الغزى) فأخذهم الأغا وحبسهم ببيت قائمقام (حاكم القاهرة) بالأزبكية ثم إنهم رتبوا صورة محاكمة على طريقتهم فى دعاوى القصاص » .

قضية مقتل كليبر

بهذه الاعترافات والبينات بدأت قضية مقتل الجنرال كليبر ، وتعد هذه القضية من أكبر القضايا التاريخية بالنسبة لشخصية المجنى عليه والظروف التى وقعت فيها الجناية والنتائج التى ترتبت عليها .

كانت المحاكمة تقتضى معرفة من الذى يخلف الجنرال كليبر فى قيادة الجيش الفرنسى ، لأن القائد العام الجديد هو الذى يقرر إجراء المحاكمة ويأمر بتأليف هيئة المجلس العسكرى الذى يحاكم المتهمين ، وكان القانون العسكرى الفرنسى يقضى فى حالة خلو منصب القائد العام للجيش بأن تكون القيادة لأقدم قائد من قواد الفرق إلى أن تعين الحكومة خلفاً له ، والجنرال (منو) هو أقدم أقرانه من قواد الفرق فضلا عن أنه كان قومندان القاهرة ، كما قدمنا ، فآلت له قيادة الجيش وخلف الجنرال كليبر فى منصبه ، قال الجبرتى فى هذا الصدد : « واستقر عوضه فى السر عسكرية قائمقام[٥] عبد الله جاك منو وهو الذى كان متولياً على رشيد من قدومهم ، وقد كان أظهر أنه أسلم وتسمى بعبد الله وتزوج بامرأة مسلمة وقلدوا عوضه فى القائممقامية بليار» ، وأصدر يوم ١٥ يونية غداة مقتل كليبر منشوراً عسكرياً للجيش ينعى إليه الجنرال كليبر وينوه بخدماته العسكرية والإدارية ويبلغ الجنود أنه بحكم أقدميته قد تولى قيادة الجيش بصفة مؤقتة .

تأليف المحكمة العسكرية :

وأصدر منو فى اليوم نفسه أمراً بتأليف محكمة عسكرية لمحاكمة قتلة كليبر ، وهذه المحكمة مؤلفة من تسعة أعضاء من كبار رجال الجيش وهم الجنرال رينييه Reynier (رئيس

(٥) قومندان (حاكم) القاهرة .

المحكمة) ، والجنرال فريان Friant ثم استبدل به الأدجودان جنرال مارتينيه ، والجنرال روبان Robin ، والأدجودان جنرال موران Morand ، والكولونل جوجى Goguet ، والكولونل فور Faure ، والكولونل برتران Bertrand، والقوميسير رجنيه Regnier ، ومدير مهمات البحرية لروا Leroy (ويسميه الجبرتى دفتردار البحر) .

وعهد إلى القوميسير سارتلون Sartelon [٦] مدير مهمات الجيش القيام بوظيفة المدعى العمومى وندب القوميسير لبير Lepére نائباً عن السلطة العسكرية .

انعقدت المحكمة يوم ١٥ يونية وندبت الجنرال رينيه والقوميسير سارتلون لإجراء التحقيق وجمع البينات للوصول إلى معرفة المتهمين .

التحقيق مع المتهمين :

تولى القوميسير سارتلون مدير مهمات الجيش تحقيق القضية ، فكتب محضراً باستجواب سليمان الحلبى عقب الحادثة واستجواب المتهمين الآخرين ، وأخذ فى سماع أقوال الشهود ، فقرر جوزيف بيران Joseph Perrin من فرسان الحرس أنه هو والفارس روبرت Robert عثرا على القاتل مختبئًا فى الحديقة وراء حائط متهدم وعلى الحائط آثار الدماء ، وأن القاتل كان أيضا ملوثًا بالدم ، فقبضا عليه وهو فى هذه الهيئة ، وأنهما عثرا بعد ساعة من اعتقال الجانى على خنجر مدفون فى المكان الذى كان مختبئًا به ، وعلى نصله دماء .

وشهد الفارس روبرت بما شهد به صاحبه .

وانتقل المحقق بعد ذلك إلى دار المهندس بروتان Protain الذى كان يرافق الجنرال كليبر وقت الجريمة ، وكان ضجيعاً من الجراح التى أصابته ، فشهد برؤيته القاتل يرتكب الجناية وأنه ضربه بعصاه ليدافع عن الجنرال كليبر ، فانقض عليه القاتل وطعنه عدة طعنات فسقط بعدها على الأرض مغشيًا عليه ، وقرر أنه رغم صياحه وصياح الجنرال كليبر فقد بقى عشر دقائق قبل أن تصلهم النجدة ، وأنه تعرَّف القاتل بعد القبض عليه .

وسمع الملحق أقوال الملازم ديفوج Devouges ياور الجنرال كليبر فقرر أنه فى يوم الحادثة كان يصاحب الجنرال فى تفقده دار القيادة العامة بالقاهرة وأن القاتل كان لا ينفك يتعقب الجنرال وكانوا يظنون أنه أحد العمال الذين يعملون فى ترميم السراى فلم يرتابوا فى شأنه ، لكن

(٦) عينه كليبر مديراً لمهمات الجيش بدلا من المدير السابق المسيو « دور » .

ديفوج لاحظ أن القاتل تعقب الجنرال بعد أن خرج من حديقة السراى قاصداً دار الجنرال داماس رئيس أركان الحرب ، فسأله عما يريد وأمر بطرده ، وطرده الخدم فعلا ، وبعد ساعتين وقعت الجناية ، ولاحظ ديفوج وجود جزء من ملابس القاتل تركها فى مكان الجناية فتعرَّفها الشاهد وعرف أنها ملابس ذلك الرجل الذى أمر بطرده ، ولما قبض على القاتل وجىء به ورآه تحقق منه .

وأعاد المحقق استجواب سليمان الحلبى ، وكان يتولى ترجمة أقواله وأقوال المتهمين المسيو براسفيش Braswich رئيس تراجمة القائد العام ، فكرر المتهم اعترافاته السابقة وأقر بأن المحرضين له على القتل هما أحمد أغا ويس أغا من ضباط الجيش العثمانى كما تقدم ، وأن أحمد أغا اختاره لأنه يعرف القاهرة معرفة تامة حيث قضى فيها من قبل ثلاث سنوات فى طلب العلم بالأزهر ، وأنه كاشف الأزهريين الأربعة بعزمه وكان يفضى إليهم به كل يوم ، ولكنهم كانوا ينصحونه بالإقلاع عنه لاستحالة نجاحه ، وأنه فى يوم القتل قابل محمد الغزى أحد زملائه الأربعة وأخبره بأنه ذاهب إلى الجيزة لينفذ عزمه وأنكر أنه أفضى بعزمه إلى المدرس التركى (مصطفى أفندى) وأنكر كذلك أنه أخذ نقودًا من أحد من الأهالى .

وأمر المحقق بمواجهة سليمان الحلبى بالأزهريين الثلاثة المقبوض عليهم واستجوبهم فيما قرره بشأنهم ، والظاهر من التأمل فى أسئلة المحقق أن الفرنسيين كانوا شديدى الارتياب فى مسلك علماء الأزهر وخاصة الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع . وكان سير التحقيق متجهًا إلى جمع البينات لإثبات علم الشيخ الشرقاوى بنية القاتل قبل ارتكاب الجناية ، ولكن التحقيق لم يسفر عن إدانة الشيخ الشرقاوى أو غيره من كبار العلماء .

سئل محمد الغزى أحد الأزهريين الأربعة فقرر أنه يعرف سليمان الحلبى ولكنه أنكر أنه أفضى إليه بعزمه على القتل ، وقال إن سليمان كاذب فى ادعائه ، وسأله المحقق ألم يبت غالبًا فى بيت الشيخ الشرقاوى وخاصة فى الأيام الأخيرة ؟ فأجاب بأنه من يوم مجىء الفرنسيين لم يبت عنده قط ، وأنه قبل ذلك كان يبيت عنده أحيانا ، فكذّبه المحقق قائلا أنه فى استجوابه الأول اعترف بأنه كان يبيت غالبًا عند الشيخ الشرقاوى ، فأجاب المتهم أنه لم يقل ذلك ، وواجهه المحقق بسليمان الحلبى فى نقطة إفضائه له بعزمه على قتل الجنرال كليبر ، فأصر المتهم على الإنكار . فأمر المحقق بضربه ليعترف . وضربه إلى أن تعهد بأن يقر بالحقيقة . ثم أقر بأن الحلبى أفضى إليه بذلك ليلة الحادث .

سئل : لماذا لم يبلغ الأمر إلى الجهة المختصة ، فأجاب بأنه لم يكن يصدق أن رجلا مثل سليمان الحلبى يجرؤ على قتل القائد العام للجيش الفرنسى فى حين أن الوزير (يوسف باشا) لم يستطع ذلك .

سئل : ألم يبلغ ما سمعه من سليمان الحلبى إلى أحد فى المدينة وخاصة إلى الشيخ الشرقاوى ، فأجاب بأنه لم يذكر ذلك لأحد ، وأصر على جوابه قائلا إنه لا يعدل عنه ولو أمروا بقتله .

ثم استجوب المحقق أحمد الوالى ثانى الأزهريين الأربعة ، فأجاب بأن سليمان الحلبى أخبره عند قدومه إلى مصر أنه جاء ليجاهد فى سبيل الله ولكنه لم يخبره بعزمه على قتل القائد العام ، فواجهه المحقق بسليمان الحلبى فأقر عليه بأنه أخبره بعزمه ، فعدل المتهم عن إنكاره وقال إنه يذكر أنه أخبره بعزمه .

سئل : لماذا لم يبلغ الأمر إلى الجهة المختصة فأجاب بمثل ما أجاب به محمد الغزى .

سئل : ألم يخبره سليمان الحلبى بأن له شركاء ، وهل لم يبلغ أحداً ما أفضى به إليه وخصوصاً شيخ الجامع الأزهر (الشرقاوى) فأجاب بأن الحلبى لم يخبره بأن له شركاء وأنه لم يبلغ شيخ الجامع ما سمعه منه لأنه لم يظن أن ذلك من واجبه .

ثم استجوب المحقق عبد الله الغزى ثالث الأزهريين ، فاعترف بأن سليمان الحلبى أخبره من يوم حضوره أنه جاء ليقتل القائد العام وأنه حاول أن يثنيه عن عزمه فلم يفلح .

سئل لماذا لم يبلغ الأمر إلى جهة الاختصاص ، فأجاب بأنه كان يظن أن سليمان الحلبى سيفضى بعزمه إلى كبار المشايخ وأنهم سيتولون إرجاعه عن عزمه .

سئل عما إذا كان يعرف أن فى القاهرة أشخاصاً آخرين مكلفين قتل الفرنسيين فأجاب بأنه لا يعرف شيئاً عن ذلك ولا يظنه .

ثم استجوب مصطفى أفندى البروسه لى المدرس ، وسئل عن علاقته بالقاتل فأجاب بأنه كان تلميذه منذ ثلاث سنوات وأنه جاءه عند قدومه الأخير إلى القاهرة وبات عنده ليلة ثم طلب منه أن يبحث له عن مثوى آخر إذ لا يستطيع لفقره أن يؤويه فى بيته ، وقال إنه لم يخبره بسبب حضوره ولم يعرف عن نيته شيئًا .

سئل ألم يخبره عما إذا كان قابل أحداً من أهالى القاهرة وخاصة من كبار العلماء فأجاب بأنه لا يعرف شيئًا عن ذلك وأنه لشيخوخته ومرضه لا يخرج من بيته إلا نادراً .

سئل أليس فى القرآن ما يحض على الجهاد فى سبيل الله ، فأجاب نعم ، سئل ألم يدرس هذه القواعد لتلاميذه وخاصة لسليمان الحلبى ، فقال إنه كان يعلمه الكتابة فقط .

سئل ألا يعلم بأن مسلماً قتل بالأمس القائد العام وهل يعتقد أن القرآن يعد هذا القتل جهاداً فى سبيل الله ، فأجاب بأن القاتل يجب أن يقتل .

ثم ووجه مصطفى أفندى بسليمان الحلبى ، فأقر هذا بأنه لم يخبره بعزمه وأنه لم يقابله إلا مرة واحدة للسلام عليه لأنه معلمه القديم ، وسئل الحلبى ألم يحرضه علماء المدينة على القتل ، فأجاب بأنه لم يفض بعزمه إلا للأزهريين الأربعة .

سئل ألم تخاطب فى ذلك الشيخ الشرقاوى ، فأجاب بأنه لم ير الشيخ الشرقاوى قط لأنه شافعى المذهب أما هو فعلى مذهب الأمام أبى حنيفة .

المحاكمة :

أسفر التحقيق عن اتهام سليمان الحلبى والأزهريين الأربعة الذين أفضى إليهم بعزمه على ارتكاب الجناية ، وهم محمد الغزى ، وأحمد الوالى ، وعبد الله الغزى ، وعبد القادر الغزى وكذلك مصطفى أفندى البروسه لى الذى بات عنده حين حضوره إلى مصر ، فكان عدد المتهمين ستة ، ولما كان رابع الأزهريين وهو عبد القادر الغزى فاراً قبل المحاكمة فقد حوكم غيابياً .

وطلب المدعى العمومى من المتهمين أن يعهدوا بالدفاع عنهم إلى رجل ليرافع أمام المحكمة ، فأجابوا بأنهم لا يعرفون أحداً ، فندب للدفاع عنهم المترجم لوماكا .

وانعقدت المحكمة العسكرية يوم ١٦ يونية وأخذت فى سماع مرافعة المدعى العمومى ودفاع المتهمين ، فقام المدعى العمومى طلب الحكم بتوقيع العقاب على القاتل وشركائه ، ونعى فى مرافعته الجنرال كليبر وأشاد بمواقفه الحربية فى ميادين القتال ، ونسب الجريمة إلى تحريض الصدر الأعظم يوسف باشا وقال إن الذى تولى إغراء سليمان الحلبى على القتل هو أحمد أغا الذى كان مغضوبًا عليه من الوزير فأراد أن يتقرب إليه بهذا العمل الفظيع لينال رضاه ، وأن القاتل اندفع إلى القتل تحت تأثير هذا التحريض ، وأن تهمة شركائه المشايخ الأربعة أنهم علموا بنية القاتل وتصميمه عليها ومع ذلك لم يخبروا ولاة الأمور بعزمه ، فهم يعتبرون شركاء للقاتل فى جريمته ، وقال عن مصطفى أفندى أنه لا دليل على اشتراكه فى الجريمة لأنه ثبت أنه

لم يعلم بنية القاتل ، وعلى ذلك طلب له البراءة ، وطلب الحكم على سليمان الحلبي بإحراق يده اليمنى التي باشر بها القتل ثم إعدامه على الخازوق وترك جثته تأكلها جوارح الطير ، وبالنسبة للمشايخ الأربعة طلب الحكم فى غيبة عبد القادر الغزى وبحضور الثلاثة الآخرين بقطع رءوسهم ، وبعد أن تمت مرافعة المدعى العمومى طلبت المحكمة من المتهمين أن يدافعوا عن أنفسهم فلم يجيبوا بشىء وأعيدوا إلى السجن ، وأمرت بإخلاء قاعة الجلسة ، فأخليت من الحاضرين .

الحكم :

واختلت المحكمة للمداولة ، ثم أصدرت حكمها باعتبار سليمان الحلبي وشركائه الأربعة مذنبين ، وبراءة مصطفى أفندى وإطلاق سراحه ، وحكمت بإحراق يد سليمان الحلبي اليمنى ثم إعدامه على الخازوق وترك جثته تأكلها الطير ، وإعدام شركائه الأربعة بقطع رءوسهم وإحراق جثثهم بعد الإعدام مع مصادرة أموال المتهم الغائب عبد القادر الغزى (ولم يكن له مال) .

ولا جدال فى أن محاكمة المتهمين فى هذه القضية كانت عنوانًا للعدالة العسكرية ، وخاصة إذا لاحظنا شخصية المجنى عليه والظروف التى رقعت فيها الجناية ، ومن الإنصاف أن نقول إن القضاة الفرنسيين الذين تولوا تحقيق القضية والحكم فيها قد أظهروا شيئاً كثير من ضبط النفس والميل إلى العدل ، وقد كان فى استطاعتهم أن يأخذوا كثيرا من الأبرياء بجناية القاتل ، لكنهم لم يفعلوا ، فكانوا نموذجًا للعدل ومدعاة للإعجاب ، ولم يفت الجبرتى فى تاريخه أن يعرب عن هذا الإعجاب لمناسبة نقله محاضر جلسات التحقيق والمحاكمة فقال إنها « تتضمن خبر الواقعة وكيفية الحكومة ولما فيها من الاعتبار وضبط الأحكام من هؤلاء الطائفة الذين يحكمون العقل ولا يدينون بدين ، وكيف وقد تجارى على كبيرهم ويعسوبهم[٧] رجل آفاقى أهوج وغدره وقبضوا عليه وقرروه (أى حملوه على الإقرار) ولم يعجلوا بقتله وقتل من أخبر عنهم بمجرد الإقرار بعد أن عثروا عليه ووجدوا معه آلة القتل مضمخه بدم سارى عسكرهم وأميرهم ، بل رتبوا حكومة ومحاكمة وأحضروا القاتل وكرروا عليه السؤال والاستفهام مرة بالقول ومرة بالعقوبة ، ثم أحضروا من أخبر عنهم وسألوهم على انفراد

(٧) أى عظيمهم وقائدهم .

ومجتمعين ، ثم نفذوا الحكم فيهم بما اقتضاه التحكيم ، وأطلقوا مصطفى أفندى البرصلى الخطاط حيث لم يلزمه حكم ولم يتوجه عليه قصاص كما يفهم جميع ذلك من فحوى المسطور ، بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من أفعال أوباش العساكر (العثمانيين) الذين يدعون الإسلام ويزعمون أنهم مجاهدون وقتلهم الأنفس وتجاريهم على هدم البنية الإنسانية » .

جنازة كليبر :

وبعد أن تمت المحاكمة أخذوا يستعدون للاحتفال بتشييع رفات الجنرال كليبر فى مشهد مهيب ، فشيعت جنازته يوم الثلاثاء ١٧ يونية (٢٥ محرم سنة ١٢١٥) وأطلقت مدافع القلاع عند تحرك موكب الجنازة ، وسارت الجنازة تتقدمها كتائب الجيش من الفرسان والمدفعية وحرس القائد العام والموسيقى ، ووراءها النعش مجللا بالسواد محمولا على مركبة تجرها ستة من الجياد الصافنات ، وعليه سيف كليبر وقبعته وشاراته ، ووراء النعش الجنرال (منو) وقواد الجيش وأركان الحرب وياوران كليبر ووراءهم قومندان المدينة فأركان حربه وضباط فرقة الهندسة وأعضاء المجمع العلمى وكبار رجال الادارة وحسين كاشف مندوب مراد بك ومماليكه والأغوات (رؤساء الشرطة) والقاضى وأعضاء الديوان والعلماء والقساوسة ومندبو طوائف الصناع فى القاهرة وغيرهم ، وسارت الجنازة من الأزبكية إلى درب الجماميز إلى الناصرية إلى أن وصلوا إلى تل العقاب على مقربة من القلعة التى بنوها هناك[٨] وخرجوا من باب (غيط الباشا) القريب من دار المجمع العلمى، ثم تابعوا السير إلى (قصر العينى) حيث أعدوا فى حديقته قبر الجنرال على درج عال وضعوا فوقه التابوت وأقاموا حول القبر حاجزا ، وزرعوا حوله أعواد السرو ، وهناك دفنت الجثة فى خشوع رهيب ، وألقى المسيو فورييه سكرتير المجمع العلمى والقوميسير الفرنسى لدى الديوان كلمة تأبين طويلة ذكر فيها صفات الجنرال كليبر « بطل معركتى مايستريك وعين شمس » ومواقفه الحربية على ضفاف الرين والأردن والنيل . وذكر كيف هزم جيش يوسف باشا وكيف أخمد ثورة القاهرة ! ثم عفا بعد ذلك عمن اشتركوا فى الثورة وكيف أن القاتل قد حرضه رؤساء الجيش العثمانى على اغتيال حياة الجنرال كليبر بعد ما انتصر عليهم فى ميدان القتال . وحيى فورييه ذكرى الفرنسيين الذين ماتوا فى معارك سوريا

---

(٨) طابية قاسم بك بالناصرية ويسميها الفرنسيون طابية المجمع العلمى ، انظر الجزء الأول ص ٣١٣ من الطبعة الأولى .

وأبو قير وعين شمس . وخاصة ذكرى كافرييلي الذى كانت تربطه بكليبر صلات الصداقة والود .

وعقب انتهاء الجنازة ودفن الجثة نفذ حكم الإعدام[٩] فى المحكوم عليهم عند تل العقارب قريبًا من طابية قاسم بك على مشهد من الجنود وأعيان المدينة . فقطعت رءوس الأزهريين الثلاثة ، ثم أعدم سليمان الحلبى على الخازوق[١٠] .

وانقضت تلك الأيام الثلاثة والفزع مخيم على القاهرة والناس تعروهم الدهشة من تعاقب الحوادث الرهيبة على المدينة العظيمة التى ظلت السنين الطوال قبل الحملة الفرنسية غارقة فى لجة الهدوء والسكون .

إقفال الأزهر :

زاد ارتياب الفرنسيين فى الأزهر بعد مقتل الجنرال كليبر إذ كان يأوى إليه سليمان الحلبى وشركاؤه ، وبه قضى القاتل نحو ثلاثين يومًا مصصمًا على القتل ، فلم يقتنع الفرنسيون بأن علماء الأزهر كانوا يجهلون نية القاتل قبل ارتكاب الجناية ، وقد مر بك ما قاله نابليون فى مذكراته فى هذه الصدد ، فلما انقضت محاكمة سليمان الحلبى وشركائه ذهب الجنرال (منو) إلى الأزهر يصحبه قومندان المدينة (الجنرال بليار) والأغا (المحافظ) وطافوا به وشرعوا فى حفر ما به من الأماكن بحجة التفتيش على السلاح ، فأخذ طلبة العلم فى نقل أمتعتهم منه ونقل كتبهم وإخلاء الأروقة ، وكتب الفرنسيون أسماء الطلبة فى كشوف وأمروهم أن لا يؤووا بالجامع غريبًا ، وأخرجوا منه المجاورين العثمانيين ، فلما رأى العلماء أن الأزهر أصبح عرضة للريبة والتفتيش عرضوا على الفرنسيين إقفاله مؤقتًا ، قال الجبرتى فى هذا الصدد :

« إن المشايخ الشرقاوى والمهدى والصاوى توجهوا عند كبير الفرنسيس (منو) واستأذنوه فى

---

(٩) يقول الجبرتى إن حكم الإعدام نفذ قبل دفن جثة كليبر ، وهذا خطأ فإن تنفيذ الحكم كان بعد الدفن باتفاق المراجع الفرنسية فضلا عن أن حكم المحكمة العسكرية كان يقضى بذلك ، ولعل الجبرتى لم يحضر الجنازة ولا تنفيذ الحكم ولم يغادر بيته فى ذلك اليوم الرهيب فلم تصله حوادثه كلها على حقيقتها .

(١٠) شرح كبير الجراحين لارى Larrey جثة سليمان الحلبى بعد إعدامه واستبقى هيكل رأسه ونقله إلى غرفة التشريح بمدرسة الطب بباريس ، كما أن الخنجر الذى قتل به كليبر محفوظ فى مدينة كاركاسون Carcassonne بفرنسا فقد أودعه المسيو بيروس Peyrusse سكرتير الجنرال كليبر بعد عودته من مصر (وكاركاسون هى مسقط رأس بيروس) .

إقفال الجامع ، وكان قصدهم من ذلك منع الريبة بالكلية فإن للأزهر سعة لا يمكن الإحاطة بمن يدخله ، فربما دس العدو من يبيت به واحتج بذلك إلى إنجاز غرضه ونيل مراده من المسلمين والفقهاء ، ولا يمكن الاحتراس من ذلك ، فأذن كبير الفرنسيين بذلك لما فيه من موافقة غرضه باطنًا ، فلما أصبحوا(١١) أقفلوه وسمروا أبوابه من سائر الجهات » .

وظل الأزهر مقفلا إلى أن شرع الفرنسيون فى الجلاء عن مصر فأعيد فتحه فى ١٩ صفر بعد أن صرح بفتحه فى غاية محرم سنة ١٢١٦(١٢) .

وساد الذعر فى المدينة بعد مقتل الجنرال كليبر ومحاكمة القاتل وشركائه فهاجر كثير من العلماء والأعيان إلى الأقاليم وتبعتهم الجماهير من الناس حتى اضطرت السلطة الفرنسية لوقف تيار الهجرة إلى إصدار أمرها بمنع انتقال الناس ورجوع المهاجرين منهم وأنذرت من لم يرجع بعد خمسة عشر يومًا بنهب داره ، فعاد أكثر المهاجرين خوفًا على بيوتهم أن تنهب وأموالهم أن تصادر .

* * *

(١١) يوم الجمعة ٢٨ محرم سنة ١٢١٥ - ٢١ يونية سنة ١٨٠٠ .

(١٢) ٢ يونية سنة ١٨٠١ .

الفصل الحادى عشر

قيادة الجنرال منو Menou

لم يكن تولى الجنرال (منو) قيادة الجيش الفرنسى راجعًا إلى كفاية عسكرية أو مواهب سياسية أو إدارية ، بل لأنه أقدم قواد الفرق فى الخدمة ، فالصدفة هى التى قضت بأن يخلف كليبر ونابليون ، أما منو فى ذاته فلم يكن على صفات تؤهله لتولى ذلك المنصب الخطير ، فقد كان فى حياته الحربية بعيدًا عن خوض غمار المعارك ، وكأنما كان يجتهد على الدوام فى أن يكون بعيدًا عنها .

ولد جاك فرنسوا منو سنة ١٧٥٠ من عائلة عريقة فى النسب ، وانتظم فى سلك الجندية ، ولما اقترب عصر الثورة الفرنسية كان مؤمنًا بمبادئها وانتخب سنة ١٧٨٩ عضوًا فى الجمعية العمومية ، وبالرغم من أنه من نواب الأشراف فإنه انضم إلى نواب الشعب وأعلن تنازله عن امتيازاته ورتبته (بارون) وعاد إلى سلك الجندية بعد انحلال الجمعية الوطنية الفرنسية الأولى ، وحارب لإخماد فتنة (الفاندية) فهزم فى تلك الحرب الداخلية ، ثم عهدت إليه حكومة الجمعية الوطنية قمع فتنة الخارجين عليها بباريس ، لكنه أظهر عجزًا كبيرًا فى أداء هذه المهمة فأبدلت به الجنرال بونابرت (نابليون) الذى قمع الفتنة وأنقذ الجمعية الوطنية من فتنة الثائرين ودسائس الملكيين فى أكتوبر سنة ١٧٩٥ ، وقد لمح (منو) من ذلك الحين نجم نابليون يتألق فى سماء العبقرية والعظمة ، فأخذ يتملق القائد العظيم ويحوم حوله ، ومن هنا جاء عطف نابليون عليه ، وقد اصطحبه ضمن قواد الحملة الفرنسية ، وأصيب (منو) بجرح فى حصار الإسكندرية ، فعينه نابليون حاكمًا لرشيد ، وظل منزويًا فيها دون أن يشترك فى وقائع الحملة ، ودعاه نابليون عندما زحف على سوريا ليلحق بالجيش المقاتل وعينه قومندانًا لفلسطين[١] ، فأخذ يتباطأ ويتنحل الأعذار حتى انتهى القتال ولم يتحرك للسفر إلا بعد أن

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة ٤٠٣١ .

أخفقت الحملة ورجع الجيش الفرنسى إلى حدود مصر.

وعندما قاتل الفرنسيون الجيش العثمانى فى معركة (أبو قير) لم يشترك فى القتال وإنما قام بعمل حربى ضئيل عهده إليه نابليون وهو القيام على حصار قلعة أبو قير بعد انتهاء المعركة [٢] ودعاه كليبر ليقاتل فى معركة (عين شمس) فلم يحضر إلا بعد انتهاء المعركة وإخماد ثورة القاهرة ، فهو من الوجهة الحربية لم يألف خوض غمرات الحرب وقلما رآه الجنود فى ميادين القتال ، فلم ينل فى الجيش منزلة القواد الذين أكسبتهم بطولتهم محبة الجند واحترامهم.

وكان من الوجهة السياسية مجردًا من الكفاية والحزم وحسن التدبير ، على أنه كان على جانب كبير من الغرور والاعتداد بنفسه ، ولعل السبب فى ذلك راجع إلى أنه كان زمناً ما عضواً فى الجمعية الوطنية الفرنسية وشهد المعارك السياسية وخالط أقطاب الثورة الفرنسية الكبرى ، فظن أن عضويته فى الجمعية الوطنية قد وضعته فى مصاف رجال السياسة والدولة ، على أنه فى الواقع كان خلوًا من الكفاية السياسية ولكنه وصل إلى التقرب من نابليون بالتملق والرياء والتظاهر بالإخلاص له ، فكسب عطفه ورعايته ، ورسائله إلى نابليون عديدة وطويلة تنم عن ادعائه العلم بالمسائل التشريعية والاقتصادية والإدارية وهو مجرد منها ، وكان معروفاً عنه الحقد على كليبر لمنزلته بين القواد والجند ، والجنرال كليبر هو الذى عينه قومندانًا للقاهرة بعد إخماد ثورتها الثانية ، ويرجع ذلك إلى أن كليبر كان يشك فى إخلاصه وقد بلغه عنه أنه كان يبعث بالرسائل من الإسكندرية ورشيد إلى نابليون بعد رحيله إلى فرنسا للوقيعة بكليبر ، فأراد أن يبعده عن الثغور ويجعله تحت نظره فلا يسهل عليه أن يراسل نابليون ، وقد بقى قومندانًا للقاهرة إلى أن قتل الجنرال كليبر ، ولو ترك أمر اختيار من يخلفه لقواد الجيش الفرنسى وضباطه لما فكر واحد منهم فى اختيار (منو) ولا اختاروا الجنرال (رينييه) الذى كان موضع احترامهم كما كان موضع ثقة كليبر ، وكان منو يحس فى نفسه العجز عن الاضطلاع بهذ المركز الخطير ، فاجتمع بالجنرال (رينييه) عقب مقتل كليبر وتباحث وإياه فيمن يخلف القائد المقتول ، وكان منو يعلم أن القواد لا يرضون به فى منصب القيادة العامة ، لكن أقدميته تخوله هذا الحق فى الظروف التى خلا فيها المنصب ، فتظاهر بأنه لا يرغب فى تولى القيادة العامة وأنه إذا شغلها بحكم أقدميته فلا يكون إلا بصفة مؤقتة ، ولهذا نوه فى الأمر العسكرى الذى أصدره للجيش فى ١٥ يونية أنه يشغل هذا المنصب «مؤقتًا» بحكم أقدميته.

---

(٢) انظر ص ٨٢.

سياسة (منو) إزاء الجيش :

على أنه لم يكد يتولى القيادة حتى عمل على توطيد مركزه فيها ، ولما كان يعتقد أنه لا يستطيع أن يصل إلى كسب احترام القواد والضباط فقد أخذ يوطد مركزه بالدسائس والسعايات ، وكان معروفًا عنه كراهيته لسلفه ، فأخذ يعمل على إقصاء أصدقاء كليبر وخلق حزب من المتملقين الذين يأسرهم بترقيتهم وإغداق النعم عليهم ليكونوا عونًا له فى قضاء أغراضه ، فنقم عليه قواد الجيش وضباطه الأكفاء وسخروا منه لما كان يأتيه من الأعمال البعيدة عن الحكمة ، وغنىٌّ عن البيان أن الجيش الذى يتولاه قائد غير حائز لثقة رجاله لا يمكن أن يستبقى قوته ووحدته ولابد أن يدب فى صفوفه التفكك والانقسام ، وقد كان هذا حال الجيش الفرنسى فى مصر بعد ما تولى (منو) قيادته العامة ، وشعر قواد الجيش وكبار ضباطه أنه يعبث بهم ويعرض مصير الجيش للخطر ، فمن ذلك أنه أكثر من تنقلات الجنود بلا جدوى ونقل بعض القواد من مراكزهم ، فاستدعى الجنرال (لانوس) الذى كان قومندانًا للإسكندرية [٣] إلى القاهرة وتركه بلا عمل لأنه كان من أصدقاء الجنرال كليبر ، وعزل الجنرال (داماس) رئيس أركان الحرب من منصبه للسبب نفسه وجعله قومندانًا لبنى سويف والفيوم ، وعين بدله الجنرال لاجرانج Lagrange وعزل القوميسير دور Daure مدير مهمات الجيش من وظيفته وأسند إليه وظيفة كبير مفشى الجيش وجرده من كل سلطة وعين بدله أحد أصدقائه القوميسير سارتلون Sartelon ، ورقى كثيرًا من الضباط إلى رتب أعلى ليكونوا تبعاً له ، فأصبح محاطًا ببطانة من الأصدقاء والمحاسيب استولى بهم على زمام الجيش والإدارة ، فالجنرال لاجرانج فى رآسة أركان الحرب ، وسارتلون فى الإدارة ، وأبقى المسيو « استيف » Estéve مديرًا للإيرادات العامة وكان بمثابة مدير للشئون المالية لأنه لم يلق منه معارضة فى خططه [٤] .

---

(٣) عينه الجنرال كليبر فى هذا المنصب فى أوائل عهد قيادته ، ويذكر القارئ أن نابليون قبل رحيله عين (منو) قومندانا للإسكندرية ورشيد والبحيرة وكان هذا المركز يقتضى اتخاذه للإسكندرية مقراً له ، لكن (منو) ظل مستقراً برشيد واعتزم أن يجعلها عاصمة للمديريات الثلاث فتركه كليبر برشيد ثم طلبه إلى القاهرة وعين الجنرال لانوس قومندانا للإسكندرية ، فاستاء من ذلك وأسرها فى نفسه ، فلما تولى قيادة الجيش بعد مقتل كليبر عزل لانوس من قومندانية الإسكندرية وعين الجنرال فريان Fraint بدله .

(٤) لما أبحر المسيو بوسليج الذى كان مديراً للشئون المالية فى عهد نابليون وكليبر إلى فرنسا عين كليبر مكانه المسيو جلوتيه ثم مات هذا أثناء ثورة القاهرة فألغى كليبر هذا المنصب وعين المسيو استيف مدير الخزانة سابقاً مديراً للإيرادات العامة .

ولم يكتم (منو) كراهيته لكليبر ولا كان يبدو منه احترام لذكراه ، وبلغت به كراهيته أنه رزق ولدًا من زوجته المصرية . فأسماه « سليمان » ، وهذا الاسم كان يثير فى نفوس الجنود والقواد الفرنسيين لوعة الحزن على فقيدهم لأنه اسم سليمان الحلبى قاتل الجنرال كليبر ، فكان لاختيار منو لهذا الاسم أثر استياء كبير فى نفوس الجيش .

سخط رجال الجيش من تصرفات (منو) وسخط عليه كذلك أعضاء لجنة العلوم والفنون والمجمع العلمى ، فقد أخذ يصدر إليهم الأوامر ويتدخل فى شئونهم العلمية ويضع لهم الخطط ويختار لهم الجهات التى يكتشفونها وينقبون فيها فى حين أنه كان لا يدرى شيئاً من أبحاثهم واكتشافاتهم ؛ فنقموا عليه تدخله وخاصة عند ما حال بينهم وبين اكتشافاتهم العلمية ، وكان كليبر قد استدعاهم من الصعيد بعد التوقيع على معاهدة العريش استعداداً للرحيل إلى فرنسا ، ولكن بعد تجدد القتال والاتفاق مع مراد بك عزموا على استئناف أبحاثهم واكتشاف الآثار المصرية والتنقيب عليها حتى بلاد النوبة ، ولكت منو لم يأذن لهم بالسفر ، وكان كثير التردد يعدهم تارة ويسوف أخرى وظلوا ثلاثة أشهر معطلين فى القاهرة ، مع أنهم أعدوا عدتهم فى كل لحظة للسفر إلى الصعيد لخدمة العلم واكتشاف الآثار ، ولما أدركوا أن ليس فى مقدورهم السفر بهيئتهم الكاملة لمعارضة منو شرعوا فى العمل فرادى متفرقين ونقبوا فى الآثار وبين الأطلال .

ولما أسرف (منو) فى سوء التدبير عزم قواد الجيش على مفاتحته فى الأمر ولكنهم لم يفوزوا منه بطائل ، وزاد صلفه بعد ما ورد من فرنسا أمر تثبيته فى منصب القيادة العامة للجيش (نوفمبر سنة ١٨٠٠) فاعتمد منو على هذا الأمر وطلب من القواد الناقين عليه الرحيل إلى فرنسا وهم لانوس ، وفردييه ، وداماس ، ولكن ضباط الجيش رفضوا أن يغادرهم أولئك القواد وبقوا فى مصر رغم إرادته

- **مسألة إسلام منو وزواجه :**

فكر الجنرال منو وهو حاكم لرشيد فى التقرب إلى الشعب لدرجة الاندماج فيه ، فاعتزم التزوج من سيدة مصرية شريفة المحتد ، والجنرال منو كما رأيت من سلالة أشراف فرنسا ، فأراد أن يجمع بين شرف أسرته وشرف مصاهرته عائلة مصرية عريقة فى النسب ، وقد استتبع هذا المشروع اعتناقه للإسلام ليتسنى له التزوج من سيدة مسلمة ، فأسلم قبل الزواج .

ولم يكن منو يقصد اختيار سيدة بالذات كما زعم بعض المؤلفين بل كل ما كان يرمى اليه أن يصاهر عائلة تتصل بالسلالة النبوية ، فرغب بداءة ذى بدء فى مصاهرة الشيخ الجارم عميد أسرة الجارم العريقة فى الشرف والعلم ، ولكن يظهر أن الشيخ تورع عن هذه المصاهرة ، وأراد أن يسد الطريق أمام الجنرال منو فلم يكد يسمع بهذه الرغبة حتى بادر بتزويج كريمتيه الاثنتين إلى اثنين من الأهلين ، ليتخلص من مصاهرة الجنرال ، وقد حققت الحوادث صدق نظره فإن الجنرال منو أساء معاملة زوجته المصرية بعد جلاء الفرنسيين كما سيجىء بيانه ، وإذ ذاك طلب منو التزوج من سيدة أخرى تدعى زبيدة كريمة السيد محمد البواب أحد أعيان رشيد ، وكانت مطلقة سليم أغا نعمة الله ، فقبل أبوها وقبلت هى الزواج بالجنرال ، وتم عقد زواجهما فى وثيقة شرعية تضمنت اعتناقه للإسلام وزواجه بالسيدة المذكورة ، وتسمى منو فى وثيقة الزواج باسم « عبد الله باشا منو » ، وهذه الوثيقة مؤرخة فى ٢٥ رمضان سنة ١٢١٣ [٥] ، وقد اكتشفها العلامة على بك بهجت فى دفتر خانة محكمة رشيد الشرعية واكتشف كذلك عقد الاتفاق الملحق بها ، وأخذ صورة الوثيقتين بالفوتوغرافيا وترجمهما إلى اللغة الفرنسية وعلق عليهما بمحاضرتين ألقاهما بدار المجمع العلمى بالقاهرة ونشرتا فى مجلة المجمع [٦] .

وقد تظاهر الجنرال منو بتمسكه بالشعائر الإسلامية حتى كان يؤدى صلاة التراويح فى شهر رمضان المعظم بمساجد رشيد وكتب إلى نابليون ينبئه بذلك ويقول فى رسالة إليه أن هذه الطريقة قد حببته إلى نفوس الأهالى .

وكانت حادثة زواج منو فريدة فى بابها لأنه لم يسبقه إليها أحد من قواد الجيش الفرنسى ، فلا غرو أن كان موضع تهكم زملائه .

وقد رزق من زوجته ولداً أسماه (سليمان مراد جاك منو) وكانت ولادته كما ذكر الجبرتى فى شهر شعبان سنة ١٢١٥ (يناير سنة ١٨٠١) وأقامت السيدة زبيدة مع زوجها برشيد وبقيت بها بعد أن تولى القيادة العامة للجيش الفرنسى وظلت بها إلى أن احتلها الأتراك والإنجليز فخرجت صحبة أخيها لأمها السيد على الحمامى (ويسميه الجبرتى السيد على الرشيدى) وانتقل بها إلى الرحمانية ، ولما احتلها الحلفاء قدم بها إلى مصر فدخلاها فى أوائل محرم سنة ١٢١٦ ونزلا بدار

---

(٥) يوافق ٢ مارس سنة ١٧٩٩ .

(٦) مجموعة سنة ١٨٩٨ وعدد فبراير سنة ١٩٠٠ .

القائد العام– بيت الألفى بك – بالأزبكية ثم انتقلا إلى القلعة ليكونا بمأمن من الاضطرابات ، وكان (منو) وقتئذ بالإسكندرية .

وبقيت السيدة زبيدة وابنها وحاشيتها بالقاهرة إلى أن أبرم الجنرال بليار شروط التسليم وتم جلاء الفرنسيين عنها فأذن لها الجنرال هتشنسون قائد الجيش الإنجليزى بالسفر إلى الإسكندرية لتلحق بزوجها ، على أن منو طلب الإذن لها بالسفر إلى فرنسا فرحلت إليها على إحدى السفن التى أقلت جيش الجنرال بليار ، ولما جلا الجيش الفرنسى عن الإسكندرية ووصل منو إلى فرنسا التقى بزوجته هناك وظلت فى عصمته ، على أنه يؤخذ من الوثائق التى رجع إليها العلامة على بك بهجت [٧] . ومما ذكره المسيو ريجو فى كتابه [٨] أن منو قد أساء معاملة زوجته المصرية وتنكر لها وهجرها فى تورينو (بإيطاليا) وأبدل بها بعض الراقصات واتخذهن خليلاته ، وتركها تعانى غصص العيش وغضاضة الهجر إلى أن توفيت بها ، وقد نشرنا فى قسم الوثائق التاريخية الوثيقتين اللتين اكتشفها العلامة على بك بهجت فى دفتر خانة محكمة رشيد الشرعية .

سياسة منو إزاء المصريين

أوضحنا سياسة (منو) إزاء مواطنيه الفرنسيين ، فلننظر ماذا كانت سياسته حيال المصريين .

كان (منو) من دعاة اتخاذ مصر مستعمرة فرنسية ، فهو فى سياسته نحو المصريين من حزب الاستعمار ، وهذا وحده كاف للدلالة على ما فى نفسه من نزعة الظلم والعدوان ، وهذه النزعة تفسر لك كثيراً من تصرفاته ، فإنه لم يكن فى علاقته بالشعب خيرًا من سلفه .

ضرائب وإتاوات فادحة :

فقد أخذ يجبى الباقى من الغرامة التى فرضها كليبر على المدينة ، وفرض عليها هو ضريبة جديدة قدرها أربعة ملايين فرنك فرضها على ملاك الدور ومستأجريها والملتزمين والتجار وأرباب الحرف ، فهال الناس أمر هذه الضريبة لقرب عهدهم بالغرامة الفادحة التى فرضها

(٧) مجلة المجمع العلمى المصرى عدد فبراير سنة ١٩٠٠ .

(٨) الجنرال عبد الله منو والفترة الأخيرة من الحملة الفرنسية فى مصر.

كليبر عليهم وما قاسوه بسبب جبايتها من الأهوال ، وعهد الفرنسيون أمر تحصيل الضريبة الجديدة إلى مشايخ الحارات والمماليك الساكنين بالمدينة وكانوا إذا أصابوا داراً مغلقة قد غاب صاحبها يأخذون الضريبة التى عليها من الجيران ؟ ! وفرضوا كذلك ضريبة أخرى قدرها مليون فرنك على التجار وأرباب الصنائع والحرف ، قال الجبرتى فى هذا الصدد : « واستهل شهر رجب (سنة ١٢١٥[٩]) والطلب والنهب والهدم مستمر ومتزايد ، وأبرزوا أيضًا أوامر بتقرير مليون على أرباب الصنائع والحرف يقومون بدفعه كل سنة قدره مائة ألف وستة وثمانون ألف ريال فرانسه ، فدهى الناس وتحيرت أفكارهم واختلطت أذهانهم وزادت وساوسهم » .

وقال الجنرال رينييه Reynier أحد قواد الحملة الفرنسية[١٠] : « إن التجارة التى أرهقتها المكوس والأتاوات المختلفة قد ازداد كسادها وحل بها البوار بعد الأمر الذى أصدره (منو) بفرض أتاوات جديدة على نقابات الحرف والتجار ، فإن تجار القاهرة وبولاق الذين نهبت دكاكينهم أو صودرت متاجرهم بعد الثورة وإخمادها ودفعوا نحو نصف الاثنى عشر مليون فرنك التى فرضت على المدينة كغرامة حربية لم يكادوا يتنفسون ويعودون إلى العمل حتى باغتتهم الأتاوات الجديدة ، وكذلك حدث لتجار دمياط والمحلة الكبرى وطنطا وغيرها ، ففرضت عليهم ضرائب أوقعتهم فى الضيق فاضطر معظمهم إلى إقفال دكاكينهم وترك الاشتغال بالتجارة » .

ويقول المسيو ريجو[١١] : « إن تجارة مصر قد تلاشت فى عهد الحملة الفرنسية » فإن الحصر البحرى الذى ضربه الإنجليز على سواحل البحر الأبيض المتوسط منع حركة التجارة وكذلك وجود قوات الصدر الأعظم فى حدود سوريا ، هذا فضلا عن أن الغرامات والضرائب التى فرضها نابليون وكليبر قد أفقرت تجار المدن ، وقد اتبع (منو) سنة سلفيه فى فرض الغرامات والقروض الإجبارية » .

ففى هاتين الشهادتين تأييد لرواية الجبرتى .

---

(٩) نوفمبر سنة ١٨٠٠ .

(١٠) فى كتاب (مصر بعد واقعة عين شمس) .

(١١) فى كتابه (الجنرال عبد الله منو والفترة الأخيرة للحملة الفرنسية فى مصر) .

نهب وإرهاق وتخريب :

ضج سكان العاصمة من ترادف المظالم ، وضاقت بهم المسالك ، فكثر عدد المهاجرين من المدينة فرارًا من الظلم ، فنادى الفرنسيون بين الناس بأن من لم يحضر بعد اثنين وثلاثين يوماً من يوم المناداة نهبت داره وصودرت أملاكه واعتبر من المذنبين ، قال الجبرتى : « وتابعوا نهب الدور بأدنى شبهة ولا شفيع تقبل شفاعته أو متكلم تسمع كلمته ، واحتجب سارى عسكر (منو) عن الناس وامتنع عن مقابلة المسلمين وكذلك عظماء الجنرالات وانحرفت طباعهم عن المسلمين زيادة عن أول واستوحشوا منهم ونزل بالرعية الذل والهوان » .

وصادروا العروض والبضائع ونهبوها فى مقابل سداد ما فرضوه من الغرامات والإتاوات ، وهدموا كثيراً من الدور وخاصة بيوت من هاجروا من المدينة ، قال الجبرتى :

« وأغلقوا جميع الوكائل والخانات على حين غفلة فى يوم واحد[١٢] وختموا على جميعها ، ثم كانوا يفتحونها وينهبون ما فيها من جميع البضائع والأقمشة والعطر والدخان خانًا بعد خان ، فإذا فتحوا حاصلا من الحواصل قوموا ما فيه بما أحبوا بأبخس الأثمان ، وحسبوا غرامته ، فإن بقى لهم شىء أخذوه من حاصل جاره ، وإن زاد له شىء أحالوه على جاره الآخر ، ونقلوا البضائع على الجمال والحمير والبغال وأصحابها ينظرون وقلوبهم تنقطع حسرة على مالهم ، وإذا فتحوا مخزنًا دخله أمناؤهم ووكلاؤهم فيأخذون ما يجدونه من الودائع الخفيفة أو الدراهم وصاحب المحل لا يقدر على التكلم بل ربما هرب أو كان غائباً ، وحرروا دفاتر العشور وأحصوا جميع الأشياء الجليلة والحقيرة ورتبوها بدفاتر وجعلوها أقلامًا يتقلدها من يقوم بدفع مالها المحرر ، وجعلوا جامع أزبك بالأزبكية سوقا لمزاد ذلك بكيفية يطول شرحها ، وأقاموا على ذلك أيامًا كثيرة يجتمعون لذلك فى كل يوم ويشترك الاثنان فأكثر فى القلم الواحد وفى الأقلام المتعددة ، وكثر الهدم فى الدور وخصوصاً فى دور الأمراء ومن فر من الناس ، واستهل شهر جمادى الأولى سنة ١٢١٥[١٣] والأمور من أنواع ذلك تتضاعف والظلومات تتكاثف » .

وقد أكثروا من الهدم والتخريب لأغراض حربية ، ذلك أنهم أخذوا فى إتمام بناء القلاع

---

(١٢) خلال شهر ربيع الثانى سنة ١٢١٥ (أغسطس سنة ١٨٠٠) .

(١٣) سبتمبر سنة ١٨٠٠ .

التى شرع الجنرال كليبر فى إنشائها لإحاطة المدينة بسلسلة من الحصون تمنع قيام ثورة أخرى ، فهدموا كثيرًا من البيوت والعمارات إما لأخذ أخشابها وأدوات البناء منها واستخدامها فى بناء القلاع والحصون أو كشف الجهات التى شرعوا فى إقامة الحصون فيها ، وهدموا بيوتًا أخرى لبيع أخشابها أو اتخاذها وقودًا ، فعم الهدم والتدمير خططًا بأكملها كالحسينية ، والخروبى (١٤) وبركة جناق ، وبركة الفيل ، وكشفوا سور القاهرة القديم من باب النصر إلى باب الحديد وحصنوا أبوابه وأقاموا حولها الأسلاك الشائكة ، وسدوا باب الفتوح بالبناء وكذلك باب البرقية وباب المحروق .

ومن العمارات التى هدموها جامع الجنبلاطية بباب النصر ومبانى رأس الصوة حيث الحطابة وباب الوزير ، وهدموا أعالى المدرسة النظامية ، ومدرسة القانبية ، والجامع المعروف بالسبع سلاطين وجامع الجركسى وجامع خوند بركة خارج باب البرقية وكذلك أبنية باب القرافة ومدارسها ومساجدها ، والقباب والمدافن الكائنة تحت القلعة ، وجامع الرويعى وقد جعلوه خمارة ، وجزء من جامع عثمان كتخدا الفزدغلى بالقرب من رصيف الخشاب . وجامع خير بك حديد بدرب الحمام بالقرب من بركة الفيل ، وجامع البنهاوى ، والطرطوشى ، والعدوى ، وجامع عبد الرحمن كتخدا المقابل لباب الفتوح ولم يبق منه إلا بعض الجداران .

قال الجبرتى : « فهدم للناس من الأملاك والعقار ما لا يقدر قدره ، وذلك مع مطالبتهم بما قرر على أملاكهم ودورهم من الفردة (الضريبة) ، فيجتمع على الشخص الواحد النهب والهدم والمطالبة فى آن واحد ، وبعد أن يدفع ما على داره أو عقاره وما صدق أنه سدد ما عليه إلا وقد دهموه بالهدم فيستغيث فلا يغاث ، فترى الناس سكارى وحيارى ، ثم بعد ذلك كله يطالب بالمنكسر من الفردة » .

وأمعنوا فى الهدم والتخريب بمختلف الوسائل ، فهدموا مساطب الحوانيت واقتلعوا

(١٤) خط الخروبى بمصر القديمة ، ولم يزل جزء من المدرسة الخروبية قائمًا إلى اليوم على رأس شارع القبوة بمصر القديمة أمام الطريق الموصل إلى مقياس الروضة ، وبركة جناق هى المعروفة الآن ببركة درب عجور بباب الشعرية ، وجامع الجنبلاطية هو المعروف بجامع جنبلاط ، ورأس الصوة بنهاية شارع المحجر بالميدان القائم الآن بين جامع السلطان حسن والقلعة (باب العزب) والذى به جامع المحمودية ، ومدرسة القانبية هى مسجد قايتباى الموجود على رأس درب السماكين ، أما جامع السبع سلاطين فهو الآن متخرب لا تقام فيه الشعائر وواقع بالقرب من باب الوداع الموصل منه إلى قرافة باب الوزير من جهة القلعة ، وجامع الشركسى بميدان السيدة عائشة بالمنشية ، وقبة خوند بركة هى بقرافة المجاورين بقرب شارع السلطان أحمد ، وقد رجعنا فى هذه البيانات إلى صديقنا الأستاذ المؤرخ مصطفى بك منير أدهم ، فله منى جزيل الشكر والثناء .

أحجارها . وتعللوا فى ذلك برغبتهم توسيع الشوارع والأزقة . وغرضهم الحقيق منع الناس من اتخاذها متاريس فى حالة قيام الثورة كما حدث فى ثورة القاهرة الأولى والثانية . وهدموا تلك المساطب فى أحياء بأكملها . كالصليبة . وقناطر السباع . ودرب الجماميز ودرب سعادة وباب الخلق فما يليه إلى باب الشعرية . فاشتد الضيق بأصحاب الحوانيت لأنهم اضطروا بعد هدم مساطبهم أن ينزووا داخل حوانيتهم فصارت أشبه بالسجون .

وأمعنوا فى مصادرة الأخشاب فقطعوا الأشجار والنخيل من جميع الحدائق والبساتين الكائنة بالقاهرة وبولاق وقصر العينى والروضة ومصر القديمة وخارج الحسينية وبركة الرطلى وأرض الطبالة وبساتين الخليج وكذلك فى كثير من الأقاليم ، وأخذوا أيضاً أخشاب المراكب والسفن مع شدة الحاجة إليها وعدم إمكان إنشاء مراكب جديدة . فتعطلت المواصلات مما أدى إلى صعوبة النقل وارتفاع أجور الشحن وغلو الأسعار وإشتداد الضيق بالناس .

يتبين مما تقدم أن السياسة التى اتبعها (منو) حيال الشعب كانت إذن سياسة إرهاق وظلم ، ونهب ومصادرة ، وهدم وتخريب ، فلا غرو أن زادت النفوس نفورًا من حكم الفرنسيين على الرغم من اعتناق منو الإسلام فإن المصريين قد رأوا بأعينهم وشاهدوا بأنفسهم أن سيل المظالم والمغارم على عهده فى ازدياد وطغيان .

إعادة الديوان :

/أبطل الديوان بعد التوقيع على معاهدة العريش وأخذ الفرنسيون من ذلك الحين يستعدون للجلاء عن مصر/ فلما نقض الإنجليز المعاهدة وتجدد القتال وشبت الثورة فى القاهرة استمر الديوان معطلا ولم يفكر كليبر فى إعادته بعد إخماد الثورة ، ويقول الجنرال رينييه فى كتابه[١٥] إن كليبر رأى ألا يعيد الديوان إلا بعد أن تسدد القاهرة الغرامة التى فرضها عليها ، وسواء أصحَّ هذا التعليل أم أن كليبر لم يفكر أصلا فى إعادة الديوان فإنه مما لا ريب فيه أن الديوان بقى معطلا من حين التوقيع على معاهدة العريش ، /فلما تولى منو القيادة العامة سار سيرة سلفه فى إرهاق الناس بالمغارم والضرائب ، ثم عزم على إعادة الديوان لاستمالة قلوب المصريين ، فأعاد تنظيمه فى شهر أكتوبر سنة ١٨٠٠ . /

---

(١٥) مصر بعد واقعة عين شمس .



بركة الفيل بالقاهرة فى أواخر القرن الثامن عشر

صورتها قبل أن تخرب فى عهد الحملة الفرنسية « انظر ص ٢٠٧ » وقد ذكر الجبرتى ما أصابها من الخراب فى حوادث سنة ١٢١٥ هـ (١٨٠٠ م) بقوله : « ومنها توالى خراب بركة الفيل وخصوصاً بيوت الأمراء « المماليك » التى كانت بها وأخذوا أخشابها لعمارة القلاع ووقود النيران وكذلك ما كان بها من الرصاص والحديد والرخام وكانت هذه البركة من جملة محاسن مصر »

تأليف الديوان :

لم يتبع (منو) النظام الذى ابتكره نابليون من جعل الديوان هيئتين ، الديوان العمومى والديوان الخصوصى ، بل جعله ديوانًا واحدًا مؤلفاً من تسعة أعضاء كلهم من المسلمين ، وقد ظن أنه بهذه الوسيلة يكسب رضاء غالبية الشعب ويستميلهم إليه ، على أن ذلك لم يكن له أثر ما فى حالتهم النفسية ولا فى عواطفهم حيال الفرنسيين .

أما الأعضاء الذين اختارهم منو للديوان الجديد فهم : الشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ محمد المهدى ، والشيخ سليمان الفيومى ، والشيخ محمد الأمير ، والشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ عبد الرحمن الجبرتى مؤرخ ذلك العصر ، والسيد على الحمامى[١٦] (نسيب الجنرال منو) والشيخ خليل البكرى ، والشيخ موسى السرسى .

أولئك هم الأعضاء ، وقد وردت أسماؤهم فى كتاب «ريبو»[١٧] ، وذكرت بالفرنسية والعربية فى كتاب تخطيط مصر Description de L'Egypte[١٨] ، وذكرها الجبرتى فى تاريخه ، وأشار إلى نفسه بقوله (وكاتبه) .

وقد انتخب الشيخ الشرقاوى رئيساً للديوان والشيخ المهدى سكرتيراً له (كاتم السر) .

موظفو الديوان :

أما موظفو الديوان فهم الشيخ إسماعيل الزرقانى قاضيًا ، السيد إسماعيل الخشاب أميناً لمحفوظات الديوان وكاتبًا لسلسلة التاريخ ، والشيخ على كاتبًا عربيًا ، وقاسم أفندى أمين الدين كاتبًا روميًا (تركيا) ، والقس روفائيل ترجمانًا أول ، وإلياس فخر ترجمانًا مساعدًا ، والمسيو فوربيه وكيلا (قوميسيرا) للديوان ومديرًا لسياسة الأحكام الشرعية[١٩] ، ومقدم ، وخمسة قواسة .

والسيد إسماعيل الخشاب هو من أدباء ذلك العصر ، ترجمه الجبرتى فى وفيات سنة ١٢٣٠

(١٦) يسميه الجبرتى السيد على الرشيدى .

(١٧) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثامن .

(١٨) الجزء الخامس عشر .

(١٩) فى الأصل الفرنسى للأمر أن المسيو فوربيه عين « مديراً للإدارة القضائية ووكيلا فرنسياً للديوان » والجبرتى يسميه الوكيل فوربيه ، وفى بعض المواطن يسميه الوكيل الكثارى (كذا) فوربيه .

هجرية فوصفه بالبليغ النجيب . والنبيه الأريب ، نادرة الزمان ، وفريد الأوان ، وذكر عنه أنه قال الشعر الرائق ونثر النثر الفائق[٢٠] .

سلسلة التاريخ :

أما (سلسلة التاريخ) فهى عبارة عن محاضر جلسات الديوان وسجل الحوادث اليومية الهامة ، وقد ذكرها الجبرتى فى ترجمة السيد إسماعيل الخشاب بقوله : « ولما رتب الفرنساوية ديوانًا لقضايا المسلمين تعين المترجم فى كتابة التاريخ لحوادث الديوان وما يقع فيه من ذلك اليوم لأن القوم كان لهم مزيد اعتناء بضبط الحوادث اليومية فى جميع دواوينهم وأماكن أحكامهم ثم يجمعون المتفرق فى ملخص يرفع فى سجلهم بعد أن يطبعوا منه نسخاً عديدة يوزعونها فى جميع الجيش حتى لمن يكون منهم فى غير المصر من قرى الأرياف ، فتجد أخبار الأمس معلومة للجليل والحقير منهم . فلما رتبوا ذلك الديوان كما ذكر كان هو المتقيد برقم كل ما يصدر فى المجلس من أمر أو نهى أو خطاب أو جواب أو خطأ أو صواب ، وقرروا له فى كل شهر سبعة آلاف نصف فضة فلم يزل متقيداً فى تلك الوظيفة مدة ولاية عبد الله جاك منو حتى ارتحلوا من الإقليم مضافة لما هو فيه من حرفة الشهادة بالمحكمة وديوانهم هذا ضحوة يومين فى الجمعة ، فجمع من ذلك عدة كراريس ولا أدرى ما فعل بها » .

دار الديوان :

وقد اختاروا للديوان بيت رشوان بك بحارة عابدين . وكان يسكنه برتلمى الرومى فانتقل منه وخصص للديوان بعد أن عمر ، وهيئت قاعة الحرم لجلسات الديوان وفرشوها فرشًا فاخرًا وحددوا لانعقاده عشر جلسات فى كل شهر ، وجعلوا دار الديوان مسكنًا للقوميسير فوربيه وأعدوا به جناحًا للمترجمين والكتبة الفرنسيين يجلسون به على الدوام لترجمة أوراق الديوان وجعلوا به خزائن للسجلات وألحقوا بالديوان دارًا للمحكمة التجارية للفصل فى دعاوى التجار .

---

(٢٠) له ديوان شعر موجود فى دار الكتب .

وصف إحدى جلسات الديوان :

وصف الجبرتى إحدى جلسات الديوان وما حصل فيها من الإجراءات والمناقشات قال : « وشرعوا فى جلسة الديوان ، وصورته أنه إذا تكامل حضور المشايخ يخرج إليهم الوكيل فورييه وصحبته المترجمون فيقومون له . فيجلس معهم . ويقف الترجمان الكبير رفائيل ويجتمع أرباب الدعاوى فيقفون خلف الحاجز عند آخر الديوان وهو من خشب مقفص وله باب كذلك وعنده الجاويش يمنع الداخلين خلاف أرباب الحوائج ويدخلهم بالترتيب الأسبق فالأسبق . فيحكى صاحب الدعوى قضيته فيترجمها له الترجمان . فإن كانت من القضايا الشرعية فإما أن يتمها قاضى الديوان بما يراه العلماء أو يرسلوها إلى القاضى الكبير بالمحكمة إن احتاج الحال فيها إلى كتابة حجج أو كشف من السجل ، وإن كانت من غير جنس القضايا الشرعية كأمور الالتزام أو نحو ذلك يقول الوكيل ليس هذا من شغل الديوان ، فإن ألح أرباب الديوان فى ذلك يقول اكتبوا عرضًا لسارى عسكر فيكتب الكاتب العربى والسيد إسماعيل يكتب عنده فى سجله كل ما قال المدعى والمدعى عليه وما وقع فى ذلك من المناقشة ، وربما تكلم قاضى الديوان فى بعض ما يتعلق بالأمور الشرعية ، ومدة الجلسة من قبيل الظهر بنحو ثلاث ساعات إلى الأذان أو بعده بقليل بحسب الاقتضاء ، ورتبوا لكل شخص من مشايخ الديوان التسعة أربعة عشر ألف فضة فى كل شهر عن كل يوم أربعمائة نصف فضة[٢١] وللقاضى والمقيد والكاتب العربى والمترجمين وباقى الخدم مقادير متفاوتة » .

اختصاص الديوان :

أمل الناس خيرًا بإعادة الديوان وظنوا أنه سينصفهم من المظالم التى تكاثرت عليهم فازدحم الديوان بكثرة الشاكين ، قال الجبرتى : « وسر الناس لظنهم أنه انفتح لهم باب الفرج بهذا الديوان ، ولما كانت الجلسة الثانية ازدحم بكثرة الناس وأتوا إليه من كل فج يشكون » .

ولكن سلطته كانت محدودة ولم يكن فى مقدوره رفع المظالم ولا منع إقرار المغارم ، وتبين من تجربته أنه لا حول له ولا قوة ، واستمر الفرنسيون يفرضون الضرائب بعد إعادة الديوان

(٢١) كذا فى الجبرتى ، على أن مقتضى الحساب مادام المرتب اليومى أربعمائة نصف فضة أن يكون المرتب الشهرى اثنى عشر ألف نصف فضة ، والله أعلم .

والطلب والنهب والهدم مستمر مزداد .

على أن الجنرال (منو) قد وسع من عمل الديوان وزاد فى اختصاصه القديم ، فجعله بمثابة محكمة استئناف لها حق نقض الأحكام التى يتبين خطؤها وتتقدم له بشأنها (فتاوى) بما حوته من الخطأ أو من مخالفة الأحكام الشرعية ، وجعله كذلك مجلساً استشارياً للحكومة للسهر على تقرير العدالة وإدارة المساجد والتكايا وجهات البر ومعاهد التعليم والإنفاق على الحج ، وعليه أن يعلن للأهالى المنشورات التى يوجهها القائد العام إليهم ويتصل بالقائد العام لعرض مطالب الأهالى على الحكومة[٢٢] .

وكذلك جعل من اختصاصه انتخاب القضاة وترشيحهم لمناصبهم وطلب عزلهم ، أى أنه عمم الطريقة التى وضعها نابليون لانتخاب قاضى مصر كما رأيت فى الكلام على مسألة القضاء الشرعى[٢٣] ، وقد طلب (منو) من الديوان طبقاً لهذا النظام أن ينتخب قاضى مصر من جديد ، فوقع اختياره على الشيخ أحمد العريشى الذى كان متولياً القضاء من قبل[٢٤] ، وإليك ما ذكره الجبرتى عن انتخاب القضاة : « وفيه أمر الوكيل بتحرير قائمة تتضمن أسماء الذين تقلدوا قضاء البلاد من طرف القاضى والذين لم يتقلدوا ، وأخبر أن السر فى ذلك أن مناصب الأحكام الشرعية استقر النظر فيها له وأنه لابد من استئناف ولايات القضاة حتى قاضى مصر بالقرعة (بالانتخاب) من ابتداء سنة الفرنساوية ويكتب لمن تطلع له القرعة تقليد من سارى عسكر الكبير ، فكتبت له القائمة كما أشار ، وفى سادسه عملت القرعة على شرطها ، بل زاد تكرارها ثلاث مرات لقاضى مصر واستقرت للعريشى على ما هو عليه وخرج له التقليد بعد مدة طويلة » .

ويظهر أن السبب فى إعادة الاقتراع لانتخاب قاضى مصر أن الفرنسيين كانوا مرتابين فى الشيخ العريشى من يوم وقوع حادثة مقتل كليبر لأن القاتل كان سوريًّا والشيخ العريشى كان شيخاً لرواق الشوام بالأزهر ، فعزلوه من المشيخة ؛ ثم تبينت لهم براءته ؛ وبالرغم من ذلك كانوا غير راضين عنه ؛ فلما أعيد الديوان وفوض إليه منو انتخاب قاضى مصر وقعت القرعة على

---

(٢٢) مادة ٣ من الأمر الصادر من (منو) المؤرخ ١٠ فاندمير من السنة العاشرة (٢ أكتوبر سنة ١٨٠٠) .

(٢٣) ص ٧١ الفصل الرابع .

(٢٤) وهو الذى اختاره العلماء لقضاء مصر كما سبق بيان ذلك فى الفصل الرابع وكان قد اعتزل القضاء لما دخل العثمانيون ، وبعد إخماد ثورة القاهرة الثانية أعاده الفرنسيون إلى القضاء قبل مقتل كليبر.

الشيخ العريشى نفسه ، والظاهر أن الفرنسيين لم يكونوا مرتاحين لهذه النتيجة فأعادوا الانتخاب ثلاث مرات كما يقول الجبرتى فاستقرت للعريشى ، وقد ظل متولياً هذا المنصب إلى أن جاء العثمانيون فعادوا إلى طريقتهم القديمة فى تعيين قاضى مصر من الأتراك ، فانفصل العريشى عن القضاء وتوفى سنة ١٢١٨ هجرية .

وخلاصة ما تقدم أن الديوان فى عهد منو كان بمثابة هيئة استشارية للحكومة تنظر فى الشئون المدنية والدينية ، وكان فى الوقت نفسه محكمة استئناف ومجلساً أعلى لانتخاب القضاة .

مشروعات منو

كان منو كثير المشروعات كثير النظريات متضارب الآراء والأفكار ، فمن مشروعاته إعادة تنظيم الديوان وتوسيع اختصاصه على النحو المتقدم .

ومنها أنه قرر أن يكون تعيين مشايخ البلاد[٢٥] فى القرى بأمر من القائد العام وأن يسرى هذا النظام على جميع المشايخ الموجودين فعلا ، وكان يرمى بذلك إلى جمع ما يستطيع جبايته من المال من المشايخ فى مقابل أوامر التعيين ، وكان ينوى تكرار صدور أوامر التعيين وتجديدها كل سنة ، وجعل لهيئة مشايخ البلاد مفتشين ، وجعل لها رئيسين أحدهما فرنسى وهو المسيو بريزون Brizon والآخر مصرى وهو الشيخ سليمان الفيومى ، وفى ذلك يقول الجبرتى :

« واستهل شهر جمادى الثانية سنة ١٢١٥[٢٦] وفيه قرروا على مشايخ البلدان مقررات يقومون بدفعها فى كل سنة ، أعلى وأوسط وأدنى ، فالأعلى وهو ما كانت بلده ألف فدان فأكثر خمسمائة ريال ، والأوسط وهو ما كانت خمسمائة فأزيد ثلثمائة ريال ، والأدنى مائة وخمسون ريالا ، وجعلوا الشيخ سليمان الفيومى وكيلا فى ذلك فيكون عبارة عن شيخ المشايخ ، وعليه حساب ذلك ، وهو تحت يد الوكيل الفرنساوى الذى يقال له بريزون ، فلما شاع ذلك ضجت مشايخ البلاد لأن منهم من لا يملك عشاءه ، فاتفقوا على أن وزعوا ذلك على الأطيان وزادت فى الخراج » .

ويقول المسيو ريجو Rigualt فى كتابه[٢٧] إن الشيخ الفيومى كان يعمل تحت رقابة المسيو

---

(٢٥) العمد .

(٢٦) أكتوبر سنة ١٨٠٠ .

(٢٧) الجنرال عبد الله منو والفترة الأخيرة للحملة الفرنسية فى مصر.

بريزون ، وهذا يؤيد رواية الجبرتى .

وعزم منو على تنفيذ مشروع إحصاء المواليد والوفيات وهو المشروع الذى فكر فيه نابليون ونفذه فيما يتعلق بالوفيات فعرض المسيو فوربيه على أعضاء الديوان فى جلسة السادس عشر من شعبان سنة ١٢١٥ [٢٨] رغبة الجنرال منو فى تنفيذ هذا المشروع ، وبين لهم مزاياه التى منها ضبط الأنساب ومعرفة الأعمار وبذلك يتيسر للحاكم الشرعى الحكم بالعدل والإنصاف ، وينقطع الخلف والخصام بين الورثة وطلب إليهم أن يبحثوا فى طريقة تنفيذه فوافق الأعضاء على المشروع واتفق رأيهم على أن يعهدوا بالإحصاء إلى قلقات الحارات والخطط وهم يكلفون بها من تحت أيديهم من مشايخ الحارات وهؤلاء يتعرفون المواليد والوفيات من أهل كل بيت من النساء القوابل وخدمة الموتى وغيرهم ، والمعروف أن نظام ضبط الوفيات كان معمولا به من بدء الحملة الفرنسية ، وكان يتولى هذا الإحصاء الطبيب ديجنيت Desgenette كبير أطباء الحملة .

وشرع منو فى تحرير دفاتر للزواج .

ووضع نظامًا لمساحة الأطيان الزراعية .

وأنشأ حديقة للنبات بالقاهرة .

وشرع فى إصدار جريدة يومية اختار لها اسم (التنبيه) وأصدر أمرًا بذلك فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٠٠ ، وأسند رياسة تحريرها إلى الشيخ إسماعيل الخشاب أمين محفوظات الديوان [٢٩] لكن الأمر لم ينفذ والجريدة لم تصدر .

ولما ظهر الطاعون فى شهر يناير سنة ١٨٠١ وانزعج الفرنسيون لاستفحاله وضعوا نظامًا للوقاية من عدواه وعرضه المسيو فوربيه على الديوان ، ولم يكن الغرض من عرضه تعليق تنفيذه على إقراره بل كان القصد استشارته ومجاملته ، وقد نفذ فعلا .

وفكر فى إنشاء مصنع للجوخ فى القاهرة لسد الحاجة الماسة إلى الأجواخ التى انقطع ورودها من أوروبا بسبب الحصر البحرى ، لكن أعضاء اللجنة الإدارية [٣٠] عارضوا فى قبول العمال المصريين فى هذا المصنع بحجة الضرر الذى يلحق الصناعة الفرنسية إذا عرف المصريون

---

(٢٨) ٢ يناير سنة ١٨٠١ .

(٢٩) أمر منو وثيقة رقم ٣١ ، كتاب كليبر ومنو فى مصر للمسيو روسو .

(٣٠) هى لجنة فرنسية تشرف على أعمال الحكومة الإدارية ويدخل فى خصائصها الشئون المالية والزراعية والاقتصادية .

أسرارها ، وكتبت اللجنة رسالة فى هذا الصدد قالت فيها :

« إن مقدرة المصريين فى تقليد المبتكرات الصناعية من شأنها أن تضر بالمصانع الفرنسية » ، وصرح المسيو كونتى Conté مدير المصنع الميكانيكى الذى أنشأه الفرنسيون أنه لا يقبل البتة تعليم أحد من الأهالى أساليب الصناعة ، وأخيراً تم الاتفاق بين (منو) واللجنة الإدارية على إنشاء مصنع للأجواخ بإدارة المسيو كونتى على ألا يقبل فيه عامل مصرى[٣١] ، وهكذا أقام الحكم الفرنسى دليلا جديدًا على أن الفرنسيين لم يبتغوا من الحملة على مصر إلا اتخاذها مستعمرة يستغلونها لمصلحتهم ويضحون فى سبيل هذه الغاية بمصالح مصر والمصريين.

استعداد الإنجليز والأتراك للزحف على مصر

ما فتئت الحكومة الانجليزية بعد هزيمة الأتراك فى معركة عين شمس تسعى سعيًا حثيثاً فى إعداد حملة عثمانية إنجليزية للزحف على مصر.

سياسة إنجلترا إزاء مصر :

إن سياسة انجلترا حيال مصر تقتضى أن لا ترى لدولة قوية سواها نفوذاً فى وادى النيل ، وهى أيضا لا تدع مصر نفسها تنهض وتصبح دولة قوية مهيبة الجانب محفوظة الكيان . ذلك أن مطامع إنجلترا الاستعمارية جعلتها تطمح إلى التسلط على وادى النيل واتخاذ مصر قاعدة حربية وبحرية لتضمن سيادتها فى البحر الأبيض المتوسط وتبسط نفوذها السياسى والتجارى فى الشرق وتطمئن على مستعمراتها فى الهند وفيما وراء البحار ، تلك كانت ، ولم تزل سياستها من القرن الثامن عشر إلى اليوم ، وعلى هذه القاعدة تقوم وجهة النظر الإنجليزية فى المسألة المصرية ، ومن أجل ذلك حاربت محمد على وخلقت له العقبات والعراقيل ، وجردت عليه الحملة الإنجليزية المشهورة بحملة الجنرال فريزر سنة ١٨٠٧ التى يأتى الكلام عنها فى الفصل الأول من كتاب (عصر محمد على) ، وما فتئت تقاومه طوال مدة حكمه ، وكل الحوادث السياسية التى وقعت فى وادى النيل خلال القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين تدور من الوجهة الإنجليزية على هذا المحور.

---

(٣١) كتاب الجنرال عبد الله منو والفترة الأخيرة من الحملة الفرنسية تأليف المسيو ريجو.

كانت الحكومة الإنجليزية تحرض تركيا على محاربة فرنسا وإجلائها عن مصر ، وكانت ترمى لا إلى جلاء الفرنسيين عنها فحسب ، بل أخذت تنتهز الفرص لاحتلالها وتثبيت قدمها فيها ، وكانت مهمة إنجلترا فى الحملة العثمانية الأولى مقصورة على معاونتها بأساطيلها فى البحر الأبيض المتوسط ، ولكن هزيمة العثمانيين فى موقعة عين شمس جعلتها تفكر فى الدخول إلى ميدان القتال برًا وإعداد جيش إنجليزى يشترك مع الجيش العثمانى فى الزحف على مصر ، لأن الجيش العثمانى قد برهن على عجزه عن طرد الفرنسيين منها ، فأخذت إنجلترا تعد حملة برية ، وجعلت فى الوقت نفسه تواصل سعيها فى الآستانة ليعد الباب العالى حملة جديدة تسير بالاشتراك مع الحملة الإنجليزية لتتحد حركاتها وتتناصر القوات العثمانية والإنجليزية براً وبحراً .

كانت الخطة الحربية التى رسمتها الحكومة الإنجليزية بالاتفاق مع الباب العالى أن يزحف الجيش العثمانى براً من طريق العريش وقطية ، وفى الوقت نفسه ينزل فى (أبو قير) جيش انجليزى تركى بحماية الأسطول البريطانى والعمارة التركية ، وينزل بالسويس جيش هندى قادم من الهند على ظهر العمارة الإنجليزية فى البحر الأحمر ، فتلتقى القوات الثلاث فى أرض مصر وتطوق الجيش الفرنسى بها .

مساعى نابليون فى إمداد الحملة الفرنسية

لم تفت هذه الاستعدادات عين نابليون البصيرة على الرغم من تكتم الحكومة الإنجليزية معدات المشروع ، فقد فطن إلى مشروع الدولتين واستشفه من حركات الانجليز فى البحر الأبيض المتوسط وإعدادهم فى جبل طارق والجزائر الإيونية ومساعيهم لدى الباب العالى ومن الأخبار التى تلقاها من الآستانة عن مشروع الحملة الجديدة ، وأخذ يعمل لإمداد الجيش الفرنسى فى مصر ، بعد أن شغلته الحوادث السياسية والأوروبية وقتًا ما عن التفكير فيه ، فإنه عقيب عودته إلى فرنسا انصرف فى الأشهر الأولى إلى إحداث الانقلاب الذى رفعه إلى قمة السلطة ، فأسقط حكومة الديركتوار وحل مجلس الخمسمائة ، وأنشأ نظام القنصلية ونودى به «قنصلا أول» ، فصار صاحب السلطة الفعالة والكلمة التى لا ترد فى شئون فرنسا ، وبعد أن استتب له الأمر أخذ يسعى لإعادة السلم فى أوروبا ، وعرض على إنجلترا والنمسا دعوة الصلح والسلام ، لكن إنجلترا والنمسا وقفتا له بالمرصاد وحالتا دون توطيد مركزه واستمتاعه بالسلم ،

وكانت إنجلترا تحاصر جزيرة (مالطة) وتشدد الحصار عليها بغية أخذها لأن احتلالها يبسط سيادتها فى البحر الأبيض المتوسط ويمكنها من تجريد حملة برية على مصر ويحول دون إمداد فرنسا لجيشها بوادى النيل ، والنمسا كانت تعمل على تثبيت قدمها فى إيطاليا ، فتجدد القتال فى القارة الأوروبية ، وزحف نابليون بجنوده على شمال إيطاليا ، وهزم جيوش النمسا فى معركة « مارنجو » الشهيرة (١٤ يونية سنة ١٨٠٠) ، واسترد إيطاليا .

ولما عاد ظافراً من هذه الحرب أخذ يفكر فى إمداد الجيش الفرنسى فى مصر ، ولكن سيادة إنجلترا فى البحر الأبيض المتوسط حالت دون تحقيق مشروعه ، وقد زاد فى تمكين هذه السيادة احتلال الإنجليز جزيرة (مالطة) فى شهر سبتمبر سنة ١٨٠٠ ، فقد كانت الحامية الفرنسية محصورة فى ميناء مالطة تدافع عنها مدى عامين والإنجليز يشددون فى حصارها حتى سلمت الحامية واحتلت إنجلترا تلك المحطة البحرية التى جعلها موقعها الطبيعى نقطة ارتكاز مهمة فى مواصلات البحر الأبيض المتوسط ، وكان لسقوط مالطة فى يد الإنجليز أثر كبير فى التعجيل بإتمام معدات الحملة الإنجليزية على مصر ، فإنها لم تكد تحتل مالطة حتى حشدت جيشاً فى جبل طارق لتبعث به إلى السواحل المصرية .

على أن نابليون ما فتئ يسعى لإيجاد الصلة بين فرنسا وجيشها فى مصر رغم رقابة البوارج الإنجليزية ، وأخذت المراكب الفرنسية تغامر فى الرحلة إلى مصر فتضبط السفن الإنجليزية بعضها ويصل بعضها سالمًا إلى السواحل المصرية ، وكان نابليون يقصد من هذه المحاولات تقوية الروح المعنوية للجنود الفرنسية وإحياء الأمل فى نفوسهم بأنه لا ينساهم على البعد ، وأنه ممدهم بالجند والعتاد ، وكان لوصول هذه السفن إلى الإسكندرية أثر ابتهاج كبير فى نفوس الفرنسيين ، ومن هذه السفن سفينتان حربيتان جاءتا الإسكندرية يوم ٣ فبراير سنة ١٨٠١ وعلى ظهر كل منهما ثلثمائة جندى وكثير من الذخائر والمدافع ، وقد ذكر الجبرتى نبأ وصولها بقوله :

« وفى رابع عشرين رمضان سنة ١٢١٥ (يوافق ٨ فبراير سنة ١٨٠١) ضربت مدافع كثيرة لورود مركبين عظيمين من فرنسا فيهما عساكر وآلات حرب وأخبار بأن بونابارته أغار على بلاد النمسا وحاربهم وحاصرهم وضايقهم وأنهم نزلوا على حكمه وبقى الأمر بينهم وبينه على شروط الصلح ، وأنه استغنى عن هذه الأشياء المرسلة وسيأتى فى أثرها مركبان آخران فيهما أخبار تمام الصلح ، ويستدل بذلك على أن مملكة مصر صارت فى حكم الفرنسيس لا

يشاركهم غيرهم فيها ، هكذا قالوا وقرءوه فى ورقة بالديوان » .

وغنى عن البيان أن ما ذكره الفرنسيون من أن الحرب بين فرنسا والنمسا أسفرت عن بقاء مصر فى حكمهم كان من تمويهاتهم التى أرادوا أن يؤثروا بها على المصريين ، فإن المعاهدة التى ختمت بها الحرب بين الدولتين لم تتعرض لمصر ، وقد صدق الجبرتى فى ارتيابه فى صحة الخبر مما يفهم من قوله « هكذا قالوا إلخ » .

وأشار الجبرتى إلى وصول سفينتين أخريين بقوله :

« وفى ذلك اليوم (٢٠ شوال سنة ١٢١٥ الموافق ٦ مارس سنة ١٨٠١) عملوا شنكاً وضربوا عدة مدافع من القلاع ، فارتاع الناس لذلك واضطربوا اضطراباً شديداً ، فسئل من الفرنسيس فأخبروا أن ذلك سرور بقدوم مركبين من فرانسه إلى الإسكندرية » .

وأعد نابليون فى ميناء (برست)[٣٢] عمارة حربية بقيادة الكونتر أميرال جانتوم Ganteaume تقل أربعة آلاف إلى خمسة آلاف مقاتل وكثيراً من الذخائر والمهمات لإنفاذها إلى مصر ، وقد تمكنت هذه العمارة من اختراق الإقيانوس واجتياز بوغاز جبل طارق واتخذت سبيلها نحو الإسكندرية ، ولكن الأميرال جانتوم لمح فى طريقه بعض السفن الإنجليزية فخشى أن يلتقى بالأسطول الإنجليزى ، ومع أن هذه السفن كانت أقل عدداً من عمارته إلا أن ما استحوذ عليه من الذعر جعله يعدل عن المضى إلى مصر ، وذهب بعمارته إلى ثغر طولون[٣٣] ، وانفصلت عنه سفينة استطاعت الوصول سالمة إلى ثغر الإسكندرية يوم أول مارس سنة ١٨٠١ ، وحاول جانتوم أن يقلع بعمارته إلى مصر مرة ثانية ثم ثالثة ، ولكنه أخفق فى محاولته .

وانقطعت المواصلات نهائياً بين فرنسا والثغور المصرية فى الوقت الذى أتمت فيه إنجلترا معدات حملتها وسارت فى طريقها إلى مصر.

موقف منو :

تمت هذه المعدات والجنرال (منو) غارق فى تأملاته ومشروعاته ، وقد علم مراد بك وهو فى الصعيد بأنباء هذه الاستعدادات إذ كان يتلقاها عن رسل المماليك الذين أوفدهم إليه زميله إبراهيم بك من معسكر الجيش العثمانى ، وكان مراد فى ذلك الحين على تمام الولاء للفرنسيين ،

---

(٣٢) ثغر حربى لفرنسا على شاطئ المحيط الأطلنطى .

(٣٣) على شاطئ فرنسا الجنوبى .

فاعتزم أن يفضى بهذه الأنباء إلى الجنرال (منو) ليأخذ للأمر عدته ، وأوفد إليه عثمان بك البرديسى لمناسبة سداد الخراج عن الصعيد ، وأطلعه على رسائل إبراهيم بك وأبلغه نبأ اقتراب الحملة التركية الإنجليزية وطلب إليه أن يغنى فى حالة فتح باب المفاوضة للتفاهم مع تركيا بالمحافظة على الامتيازات التى نالها مراد بك[٣٤] ، وأكد له أنه فى حالة إخفاق المفاوضة وتجدد القتال يضع قواته تحت تصرف القيادة الفرنسية طبقًا للاتفاق المبرم بينهما ، على أن منو لم يكترث لهذه الأنباء ولم يأخذ عدته لمواجهة الحملة القادمة ، فلما قدمت لم تلق المقاومة التى لقيتها أيام نابليون وكليبر ، وصدقت نبوءة عثمان بك البرديسى التى تنبأ بها حينما يئس من إقناع الجنرال منو بضرورة الاستعداد لمصادمة الحملة التركية الإنجليزية ، فإنه قابل الجنرال داماس أحد قواد الحملة وقال له : «إن قائداً مثل الجنرال منو سيكون سببًا فى ضياع الجيش الفرنسى» .

وصول الحملة الإنجليزية العثمانية إلى (أبو قير)

استغرق إعداد الحملة المشتركة بين إنجلترا وتركيا ووصولها إلى مصر عدة أشهر ، فقد تحرك الجيش الإنجليزى من جبل طارق فى أوائل نوفبر سنة ١٨٠٠ وأقلعت به العمارة الإنجليزية إلى شواطئ الأناضول ورست بميناء مرمريس[٣٥] فى أواخر ديسمبر وأوائل يناير ، ونزل الجيش الإنجليزى ببر الأناضول ، وهناك قضى زمنًا طويلا ليتزود من المؤونة ويتدرب على الرسو بمراكبه على سواحل اليابسة ، وينتظر أن تتم تركيا استعدادها وتتفق الدولتان على الخطة المشتركة فى القتال ، وأعدت تركيا جيشين ، الأول بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا يزحف عن طريق برزخ السويس ، والثانى يبحر من ميناء مرميس على ظهر العمارة التركية بقيادة حسين قبطان باشا قاصداً شواطئ مصر الشمالية .

لكن عمارة حسين باشا أبطأت فى السفر ، فأقلعت العمارة الإنجليزية فى ٢٢ فبراير سنة ١٨٠١ بقيادة الأميرال اللورد كيث قائد القوات البحرية البريطانية فى البحر الأبيض المتوسط ، وكان يصحبها بعض سفن المدفعية التركية ونحو ستمائة جندى من الأتراك ، وسارت

(٣٤) بمقتضى اتفاقية كليبر – مراد .

(٣٥) من ثغور الأناضول .

قاصدة سواحل مصر ، فوصلت تجاه الإسكندرية مساء أول مارس ، وفى صباح اليوم التالى ألقت مراسيها فى خليج (أبو قير) وعلى ظهرها الجيش الإنجليزى وعدده ١٧,٥٠٠ مقاتل[٣٦] بقيادة الجنرال السير رالف أبركرومبى Ralph Aberecromby ، وظلت العمارة عدة أيام فى عرض البحر لا تستطيع إنزال الجنود لهياج الماء واضطرابه ، فانتهز الجنرال (فريان) قومندان الجنود الفرنسية فى الإسكندرية هذه الفرصة لإعداد الدفاع وسار إلى أبو قير لملاقاة الإنجليز ، وأعد مدافع قلعة أبو قير للضرب وركب مدافع أخرى على أكمة عالية تشرف على الشاطئ .

نزول الإنجليز إلى البر :

بدأت الجنود الإنجليزية تنزل إلى شاطئ أبو قير يوم ٨ مارس ، وانحدر منهم ذلك اليوم ستة آلاف جندى ، فاشتبكوا فى قتال شديد مع قوات الجنرال فريان الذى جاء على عجل فى نحو ٢٠٠٠ من الجنود ، فأطلقت المدافع الفرنسية نيرانها على الجنود الإنجليزية فى طريقها إلى اليابسة ، فخسر الإنجليز كثيراً من القتلى فى المراكب وأثناء نزولهم إلى البر ، ودار قتال عنيف على الشاطئ ، لكن القوات الإنجليزية كانت أكثر عدداً وأعظم استعداداً ، فظهرت على الفرنسيين وهزمتهم ووضعت الحصار حول قلعة أبو قير[٣٧] ، وتقهقر الفرنسيون غربًا بعد أن خسروا فى تلك المعركة نحو ٤٠٠ قتيل وجريح ، وخسر الإنجليز نحو ٦٥٠ من القتلى والجرحى ، وقد أشار الجبرتى إلى هذه الواقعة بقوله : « إن الإنجليز وصلوا إلى أبو قير وطلعوا إلى البر وتحاربوا مع أمير الإسكندرية (يريد قومندانها الجنرال فريان) ومن معه من الفرنساوية وظهروا عليهم » .

تراجع الجنرال فريان وعسكر فى المندرة[٣٨] ، أما الإنجليز فقد أنزلوا بقية جنودهم إلى البر ، ودخلت قواربهم المسلحة إلى بحيرة أبو قير لتعرقل تقهقر الفرنسيين (أنظر خريطة بين الإسكندرية وأبو قير ص ٨٣ وخريطة معركة سيدى جابر ص ٢٢٣) .

---

(٣٦) أخذنا هذا الإحصاء عن كتاب الجنرال رينييه أحد قواد الحملة الفرنسية (مصر بعد واقعة عين شمس) . وفى كتاب الكابتن ولش أحد ضباط الجيش الإنجليزى الذى حارب فى هذه الحملة أن عددهم ١٦,٧٠٠ ، على أننا نرجح إحصاء رينييه لأن الكابتن ولش يميل فى إحصائه إلى إنقاص عدد الجيش الإنجليزى ليزيد من فخره ، وهذا العدد بخلاف المدد الذى تلقاه الجيش الانجليزى بعد ذلك إلى انتهاء القتال ويبلغ نحو ستة آلاف مقاتل .

(٣٧) ظلت القلعة تقاوم إلى أن سلمت فى يوم ١٨ مارس سنة ١٨٠١ .

(٣٨) ضاحية من ضواحى الإسكندرية على شاطئ البحر الأبيض المتوسط تقع الآن بين (سيدى بشر) و (المنتزه) .

معركة سيدى جابر

(١٣ مارس سنة ١٨٠١)

تقدم الإنجليز يوم ١٢ مارس قاصدين (المندرة) فانسحب الفرنسيون منها وواصلوا تقهقرهم حتى أطلال قصر القياصرة[٣٩] وتحصنوا به.

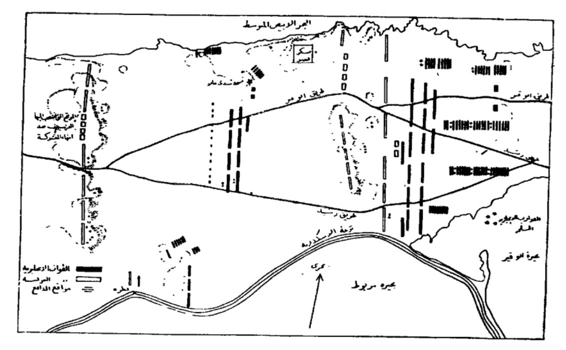
واصل الإنجليز تقدمهم إلى أن اقتربوا من مواقع الفرنسيين، فدارت معركة شديدة بين الفريقين يوم ١٣ مارس، وكان الجيش الفرنسى يقوده الجنرال لانوس Lanausse والجنرال فريان، ولما التقى الجمعان هجم الإنجليز على مواقع الفرنسيين، فأصلتهم المدافع الفرنسية ناراً حامية أوقعت فى صفوفهم خسائر فادحة، وكر عليهم الفرنسيون وحمى وطيس القتال ثم انتهى بهزيمة الفرنسيين وتراجعهم إلى أسوار الإسكندرية واحتلال الانجليز قصر القياصرة، وكان الفضل فى انتصارهم لكثرة عددهم؛ فإن الجيش الإنجليزى بلغ نحو ١٤,٠٠٠ مقاتل بينما الجيش الفرنسى نحو ٥٠٠٠، وقد تكبد الإنجليز خسائر فادحة، فبلغ عدد قتلاهم وجرحاهم نحو ١٣٠٠ قتيل وجريح، وخسر الفرسيون نحو سبعمائة بين قتيل وجريح.

سمينا هذه المعركة معركة (سيدى جابر) لأنها وقعت على مقربة من المسجد المعروف باسمه، أما الإنجليز فيسمونها معركة ١٣ مارس سنة ١٨٠١، والفرنسيون يسمونها معركة (نيكوبوليس)، ونيكوبوليس اسم رومانى لضاحية قديمة من ضواحى الإسكندرية انتصر فيها أكتافيوس على مارك أنطونيوس، ولذلك سميت نيكوبوليس ومعناها (مدينة مصر)، وتقع تقريباً فى الجهة المعروفة الآن ببولكلى وما حولها[٤٠]، وهذه التسمية فيها شىء من التعميم كما ترى، ولا تدل على المكان الذى وقعت فيه المعركة، لذلك اخترنا لها اسم (سيدى جابر)،

---

(٣٩) أو (معسكر قيصر) على شاطئ البحر بالقرب من النقطة المعروفة الآن بمحطة مصطفى باشا من محطات رمل الإسكندرية، وهو حصن من حصون الرومان بقيت أطلاله إلى سنة ١٨٧٥ وأطلق عليه علماء الجغرافية من العرب اسم (قصر القيصارة) وورد اسمه العربى فى خريطة دانفيل D'Anvile التى خططها حوالى سنة ١٧٧٢، ومنه اشتق الإفرنج اسم (معسكر قيصر) Camp de Cesar (كامب دى سيزار)، وبهذا الإسم سميت إحدى محطات رمل الإسكندرية ولكن هذه المحطات تبعد قليلاً عن موقعه القديم.

(٤٠) شرق مصطفى باشا لغاية الجهة المعروفة اليوم (١٩٨١) بجليمنوبولو.



خريطة معركة سيدى جابر (١٣ مارس سنة ١٨٠١)

وترى بها موقع مسجد سيدى جابر ، وعلى مقربة منه معسكر قيصر (قصر القياصرة) القديم ، ومواقع القوات الإنجليزية والقوات الفرنسية أثناء المعركة ، والمواقع التى انسحب إليها الفرنسيون بعد انتهاء المعركة ، وترعة الإسكندرية (المحمودية الآن) وبحيرة أبو قير (غير موجودة الآن) وفيها القوارب الإنجليزية المسلحة ، وبحيرة مريوط (تخطيط سنة ١٨٠١)

وهو اسم مشهور وموقعه معروف ، وكان المسجد قائمًا فى زمن المعركة ، فتسميتها باسمه تقرب إلى الذهن حقيقة موقعها .

تقدم الإنجليز بعد انتهاء المعركة يريدون الإسكندرية ، لكنهم استهدفوا لنيران المدافع الفرنسية المركبة فى قلعتى كريتان (كوم الدكة) وكافريللى (كوم الناضورة) ، فاضطروا إلى الانسحاب وتحصنوا على الأكمات القائمة حول قصر القياصرة ورابط جيشهم فى خط ممتد بين البحر وبحيرة أبو قير .

ارتباك الجنرال منو

لما علم الجنرال منو بقدوم العمارة الإنجليزية فى مياه أبو قير أسقط فى يده لأنه لم يكن مستعداً لمقاومتها ولم يفكر من قبل فى اتخاذ الحيطة بتحصين شواطئ أبو قير ، ولم يتبع خطة نابليون فى الإسراع بحشد جنوده والانتقال بهم إلى الشاطئ لمفاجأة الجنود النازلة من السفن قبل أن تتهيأ للقتال ، بل ارتبك فى أمره ، وطفق يصدر الأوامر والنداءات العقيمة ، وأخذ يوزع جنوده

شرقًا وغربًا ، فأنفذ الجنرال موران Morand إلى دمياط ، والجنرال رينيه Reynier إلى بلبيس لتوقعه مجيء الجيش التركي من الحدود الشرقية ، وأنفذ الجنرال لانوس إلى الإسكندرية ، فكانت القوات الفرنسية موزعة بين القاهرة والإسكندرية ، وأبو قير ، ودمياط ، وعزبة البرج ورشيد ، والسويس ، والجيزة ، والصالحية ، والمنصورة ، وميت غمر ، ومنوف ، والبرلس ، والرحمانية ، والوجه القبلي ، ولما تحقق منو من نزول الانجليز إلى البر عزم آخر الأمر على السير لملاقاتهم ، واستقدم الجنرال (موران) والجنرال (رينييه) ، ثم ارتحل ومعه نصف الجيش [٤١] إلى الاسكندرية فوصلها بعد هزيمة الفرنسيين في معركة (سيدى جابر) .

حالة الأفكار فى القاهرة

ساد الاضطراب بين الفرنسيين عندما علموا بقدوم الحملة الإنجليزية التركية ، وأخذ منو يتوعد كل من يذيع أخبارها بين الأهالى ، فأصدر منشورًا مؤرخًا ١١ شوال سنة ١٢١٥ [٤٢] يطمئن فيه المصريين ويحذرهم تصديق الأخبار (الكاذبة) وأنذر كل من يثبت عليه إذاعة هذه الأخبار بالقتل .

قال الجبرتى : « فعلم الناس من ذلك الفرمان (المنشور) ورود شيء وحصول شيء على حد «كاد المرتاب أن يقول خذونى» . وليس للناس ذكر ولا فكر إلا فى بواقى الفردة (الضريبة) وما لزمهم من المليون . ولا شغل لكل فرد إلا بتحصيل ما فرض عليه » .

وبالرغم من تكتم الفرنسيين أنباء الحملة وتوعدهم من يذيع بين الناس أخبارها فإن أنباءها قد استفاضت . وعلم بها الناس قاطبة . فلم ير (منو) بداً من أن يكاشف أعضاء الديوان بقدوم الإنجليز والعثمانيين . فانعقد الديوان فى ٢٠ شوال سنة ١٢١٥ [٤٣] . وحضر الاجتماع المسيو (فورييه) القوميسير الفرنسى . وخاطب الأعضاء فى شأن الموقف الحربى . فزعم أن السفن الإنجليزية التى قدمت أبو قير قد رجعت أدراجها . وأبلغ الأعضاء ترجمة منشور للجنرال

---

(٤١) ترك النصف الآخر بالقاهرة بقيادة الجنرال بليار .

(٤٢) ٢٥ فبراير سنة ١٨٠١ .

(٤٣) ٦ مارس سنة ١٨٠١ .

(منو) يذكر فيه أن الإنجليز « الذين يظلمون كل جنس للبشر » قد ظهروا فى السواحل ومعهم العثمانيون وأن الفرنسيين عازمون على ردهم جميعًا على أعقابهم ، وطلب من المصريين أن يلزموا السكينة ، وتوعد من يتحرك للفتنة بالقتل ، ونوه فى منشوره بما وقع بالمصريين من القتل والنكال والمغارم فى ثورة القاهرة الأخيرة ، وأمضى المنشور بتوقيع (خالص الفؤاد عبد الله جاك منو) .

فلما تليت ترجمة المنشور علم الأعضاء بخطورة الموقف ، ودارت مناقشة بينهم وبين المسيو فورييه فى تحديد مركزهم حيال هذا المنشور ، قال الجبرتى فى هذا الصدد ما فحواه : « ولما قرئ الفرمان المذكور قال بعض الحاضرين إن العقلاء لا يسعون فى الفساد ، وإذا تحركت فتنة لزموا بيوتهم ، فأجاب المسيو فورييه : ينبغى للعقلاء ولأمثالكم نصيحة المفسدين فإن البلاء يعم المفسد وغيره ، فقال بعضهم هذا ليس بجيد بل العقاب لا يكون إلا على المذنب ، قال تعالى : « كل نفس بما كسبت رهينة » وقال آخر قال تعالى أيضًا : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » فقال فورييه : المفسدون فيما تقدم هاجوا الفتنة فعمت العقوبة ، والمدافع لا عقل لها حتى تميز بين المفسد والمصلح ، فإنها لا تقرأ القرآن ، وقال آخر : والمخلص نيته تخلصه ، فقال فورييه : إن المصلح من يشمل صلاحه الرعية فإن صلاحه فى حد ذاته يخصه فقط والثانى أكثر نفعًا » .

وطال البحث والجدل على هذا النحو ، وانتهت الجلسة على غير نتيجة ، ولما علم الجنرال منو بما دار من المناقشة بين الأعضاء والمسيو فورييه ارتاب فى نية أعضاء الديوان ، وكتب منشورًا آخر أبلغه ذلك اليوم إلى فورييه ، وهذا أرسله إلى الأعضاء فى بيوتهم ليطالعهم به ، ومضمونه إنذارهم بأنه تلقى عليهم علانية تبعة كل ثورة تحصل من الأهالى ، ولعله أراد بتحميلهم هذه التبعة أن يرهبهم ويكرههم على استخدام نفوذهم لمنع وقوع أى حركة فى العاصمة وغيرها من البلاد .

ألقى هذا الإنذار على عاتق أعضاء الديوان تبعة رهيبة ، لأنهم إذا ضمنوا أنفسهم فمن أين لهم أن يضمنوا سلوك الجماهير ؟ على أنهم تلقاء الإنذار اجتمعوا بدار الشيخ الشرقاوى رئيس الديوان ، وحضر الاجتماع الأغا (المحافظ) والوالى (رئيس الشرطة) ، والمحتسب « وأحضروا مشايخ الحارات وكبراء الأخطاط ونصحوهم وأنذروهم ، وأمروهم بضبط من هو دونهم وألا يغفلوا أمر عامتهم وحذروهم وخوفوهم العاقبة وما يترتب على قيام المفسدين وجهل الجاهلين

وأنهم هم المأخوذين بذلك ، كما أن من فوقهم مأخوذ عنهم ، فالعاقل يشتغل بما يعنيه[٤٤] » .

والواقع أن سكان القاهرة فى ذلك الحين لم يكونوا يفكرون فى القيام بثورة أو فتنة ، لأن ما نزل بهم من المغارم والمظالم المتتابعة وما كان يشغلهم من سداد ما فرض عليهم من الضرائب الفادحة والغرامات كان يحول دون قيامهم بثورة .

وأخذ الفرنسيون من جهتهم يستعدون للحرب والقتال وينقلون أمتعتهم إلى القلعة ، فتوهم الناس أنهم سيضربون المدينة بالمدافع ، فشرعوا فى الهجرة من القاهرة إلى الأقاليم .

اعتقال واضطهاد :

واشتد انزعاج الفرنسيين واضطرابهم ، فاعتقلوا السيد محمد السادات وأصعدوه إلى القلعة (من غير إهانة) كما يقول الجبرتى « فسأل السيد السادات الموكل به عن ذنبه وجرمه ، فقال له لم يكن إلا الحذر من إثارة الفتنة فى البلد وإهاجة العامة لبغضك للفرنسيس لما سبق لك منهم من الايذاء » ، وبقى السيد السادات رهن الاعتقال إلى أن جلا الفرنسيون عن مصر ، ومات ولده أثناء الاعتقال فلم يفرجوا عنه وأذنوا له فقط بحضور الجنازة ونزل من القلعة يصحبه حارس إلى أن انتهت الجنازة وعاد به الحارس إلى السجن ، واعتقلوا كذلك حسن أغا المحتسب وحبسوه بالبرج الكبير بالقلعة . ولما عزم الجنرال (منو) على السفر إلى الإسكندرية استدعى إليه أعضاء الديوان ورؤساء التجار ، وآذنهم بعزمه على السفر ، وأنه أناب عنه الجنرال بليار « قائمقام » وقائداً على الجنود الباقين بالقاهرة ، وطلب إليهم أن يسهروا على ضبط الأمن فى المدينة ، وأبلغهم أنه كان فى عزمه اعتقالهم رهائن لمنع وقوع الفتن ، لكنه استصوب إرجاء ذلك ، وسافر (منو) بجيشه يوم ١٢ مارس[٤٥] ولم يعد بعد ذلك إلى القاهرة .

واتسعت حركة القبض والاعتقال عندما وردت الأخبار بقدوم الجيش العثمانى براً من جنوب سوريا بقيادة يوسف باشا ضيا واحتلاله العريش ، واشتد اضطراب الفرنسيين فى القاهرة ، فاستدعى المسيو فوربيه أعضاء الديوان للاجتماع يوم ٢٤ مارس سنة ١٨٠١ ، وحضر الجلسة مندوب عن الجنرال بليار ، وأبلغهم المسيو فوربيه أنه تحقق لهم أن الجيش

---

(٤٤) الكلمات التى بين قوسين مأخوذة عن الجبرتى .

(٤٥) اعتمدنا فى هذا التاريخ على كتاب المسيو مارتان أحد مهندسى الحملة الفرنسية وعلى مذكرات نابليون وكتاب المسيو ريجو (الجنرال عبد الله منو والفترة الأخيرة من الحملة الفرنسية) .

العثمانى بقيادة يوسف باشا قادم إلى مصر ، وأن السلطة الفرنسية رأت بناء على ذلك اعتقال بعض الأعيان كما تقضى بذلك ضرورات الحرب ، وتلطف فى إبلاغ الأعضاء نبأ الاعتقال ، فقال لهم على رواية الجبرتى : « ولا يكون عندكم كدر ولا هم بسبب ذلك ، فليس إلا الإعزاز والإكرام أينما كنتم ، والوكيل (فورييه) دائمًا نظره معكم ، ولا يغفل عن تعليل مزاجكم فى كل وقت ويوم » ، وانتهى الكلام بالقبض على أربعة من أعضاء الديوان ، وهم الشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ محمد المهدى ، والشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ سليمان الفيومى « فأصعدوهم إلى القلعة فى الساعة الرابعة من الليل مكرمين وأجلسوهم بجامع سارية ونقلوا إلى مكانهم الشيخ السادات فاستمر وإياهم بالمسجد ، وكلفوا الأربعة الباقين من أعضاء الديوان وهم الشيخ خليل البكرى ، والشيخ محمد الأمير ، والشيخ موسى السرسى ، والشيخ الجبرتى مؤرخ ذلك العصر[٤٦] أن يتولوا النظر فى شئون البلد ، وأن يجتمعوا بالجنرال بليار ولا ينقطعوا عنه وأبلغوهم أن المشايخ المعتقلين لا خوف عليهم ولا ضرر وأنهم معززون مكرمون ، وخصصوا لكل شيخ منهم خادماً يختلف إليه فى أعماله وما يحتاج إليه من منزله ، وسمحوا لمن يريد زيارتهم من أصدقائهم بأن يزورهم فى القلعة بتصريح كتابى من الجنرال بليار ، واعتقل الفرنسيون كذلك نحو خمسة عشر من أعيان القاهرة .

ثم أفرجوا فى ١١ ذى القعدة سنة ١٢١٥[٤٧] عن الشيخ سليمان الفيومى ، وأذنوا له بالاجتماع هو وأعضاء الديوان للنظر فى شئون البلد ، على أن حالة الاضطراب التى سادت المدينة قد جعلت الديوان قليل العمل ، واشتد فزع الفرنسيين وخاصة بعد أن وردت أنباء معركة كانوب التى سيرد الكلام عنها فيما يلى ، واستمروا ينقلون أمتعتهم وذخائرهم إلى القلعة ، وانتقل المسيو فورييه إلى القلعة أيضاً ولم ينزل منها ، وأرسل إلى الشيخ سليمان الفيومى بأن ينقل أمتعة الديوان إلى داره ، فنقلها ولم يبق منها إلا الحصر ، وأخذ أعضاء الديوان يحضرون كعادتهم ، « فكانوا يفرشون سجاجيدهم ويجلسون عليها وقت الاجتماع ثم ينصرفون » وحل المسيو جيرار محل المسيو فورييه فى وكالة الديوان ورئاسه الإدارة القضائية .

---

(٤٦) أعضاء الديوان تسعة كما تقدم ص ٢١٠ ، اعتقل منهم أربعة ، وكلف أربعة بالقيام بالعمل ، ولم يرد بالجبرتى ذكر للعضو التاسع السيد على الحمامى ، ولعل السبب فى ذلك أنه لم يكن بالقاهرة وقتئذ كما يستفاد من رواية الجبرتى نفسه فقد ذكر فى حوادث سنة ١٢١٦ هـ أن السيد على المذكور حضر إلى مصر صحبة أخته زوجة الجنرال منو وابنها فى أوائل محرم سنة ١٢١٦ ، فيفهم من ذلك أنه كان برشيد حينما اعتقل الفرنسيون الأعضاء الأربعة .

(٤٧) ٢٦ مارس سنة ١٨٠١ .

وقبضوا على الشيخ محمد الأمير أحد أعضاء الديوان فى أوائل محرم سنة ١٢١٦ (أواخر مايو سنة ١٨٠١) واعتقلوه مع المشايخ بجامع سارية بحجة أن ابنه كان من المحرضين على ثورة القاهرة الثانية ، وأنه لما انتهت الثورة هاجر من المدينة إلى الوجه البحرى ثم حضر إلى مصر فأقام بها أيامًا ، ثم قصد إلى (فوه) بإذن من السلطة الفرنسية ، فلما تجدد القتال واشتد انزعاج الفرنسيين وآخذوا الناس بأدنى شبهة وتقرب إليهم المنافقون بالدعاية والتجسس ، ووشى البعض للجنرال بليار بابن الشيخ الأمير وألقى فى روعه أنه انضم إلى الجيش العثمانى ، فاستدعى الجنرال بليار الشيخ الأمير وسأله عن ابنه فأجاب بأنه لم يزل فى فوه . فقال له الجنرال : إنه لم يكن هناك بل هو عند القادمين (العثمانيين) ، فأنكر الشيخ ذلك وقال إن شئتم أرسلت إليه بالحضور ، فأمهله الجنرال بليار ثمانية أيام أى مسافة الذهاب إلى فوه والمجىء منها فى ذلك العصر . ثم كرر عليه الطلب بلسان وكيل الديوان . فوعده الشيخ بحضور ابنه أو حضور الجواب بعد يومين . ولما انقضى الميعاد ولم يحضر ابنه اعتقله الفرنسيون وحبسوه فى القلعة .

وقد أفرجوا فى السادس عشر من محرم سنة ١٢١٦ عن الشيخ مصطفى الصاوى لمرضه .

* * *

الفصل الثانى عشر

هزيمة الفرنسيين وجلاؤهم عن مصر

(معركة كانوب – ٢١ مارس سنة ١٨٠١)

رحل الجنرال (منو) عن القاهرة ومضى قاصداً الإسكندرية كما قدمنا ، فبلغ الرحمانية ، وسار منها إلى دمنهور حيث لحق به القائدان رينييه Reynier ورامبون Rampon ثم واصل سيره فبلغ الإسكندرية يوم ١٩ مارس ، واستعد للمعركة التى نشبت بينه وبين الجيش الإنجليزى ، وكان الإنجليز فى غضون ذلك قد أنزلوا ما بسفنهم من الذخائر والمدافع ، واستعدوا للقتال استعداداً عظيماً .

اعتزم الجنرال (منو) أن يهاجم الجيش الإنجليزى ، وخشى إذا هو تأخر عن الهجوم أن يباغته الانجليز ويضربوا الحصار على الإسكندرية ، فيصبح الفرنسيون محصورين بين أسوارها ويستهدفون للمجاعة إذا أحكم الإنجليز حصارها براً وبحراً ، فضلا عن أن الجيش الإنجليزى يصبح حرًّا فى التوغل فى داخلية البلاد ، فرأى أن يغامر بمهاجمة الجيش الإنجليزى على أمل أن يكون النصر حليفه كما انتصر نابليون على الأتراك فى معركة أبو قير من قبل ، على أن الفرق كبير بين الموقفين ، فإن نابليون جمع فى يولية سنة ١٧٩٩ كل جنوده وهاجم بهم الجيش التركى قبل أن ينظم مصطفى باشا صفوفه ، وكان له من عبقريته وسرعته فى القتال ما كفل له النصر فى واقعة أبو قير ، لكن (منو) كان مجرداً من الكفاية الحربية ، فضلا عن أنه ترك نصف الجيش تقريبًا فى القاهرة وأبطأ فى التقدم بالنصف الآخر ، وترك للإنجليز الوقت الكافى لتنظيم صفوفهم وتثبيت أقدامهم شرقى الإسكندرية ، وقد أدرك معظم القواد الفرنسيين خطأ منو فى مغامراته المتأخرة ونصحوا إليه أن يتريث فى الأمر حتى يأخذ له عدته ، لكنه أصر على خطته ، فوقعت الواقعة يوم ٢١ مارس سنة ١٨٠١ ، وهى المعروفة بمعركة كانوب .

إذا أردت أن تعرف ميدان هذه المعركة فتأمل فى خريطة (بين الإسكندرية وأبو قير) ص

٨٣ والخرطة الملحقة بهذا الفصل ص ٢٣٢ ، تجد أن مواقع الإنجليز فى خط يمتد من البحر شرق قصر القياصرة إلى ترعة الإسكندرية (المحمودية الآن) بالقرب من حجر النواتية ، ومواقع الفرنسيين على بعد نحو أربعة آلاف متر تقريبًا شرق باب رشيد فى خط يمتد من البحر إلى ترعة الإسكندرية ، بالقرب من النقطة المعروفة الآن بمحطة (النزهة) ، وقد سميت المعركة واقعة (كانوب) لأنها وقعت على مقربة من باب من أبواب الإسكندرية القديمة يسمى باب كانوب (شرقى باب رشيد) ينتهى إليه شارع من شوارعها القديمة كان يعرف بشارع كانوب ويعرف الآن بشارع باب رشيد أو باب شرقى[1] .

فى هذا الميدان نشبت المعركة ، وهى من أهم المعارك التى كانت لها نتائج حاسمة فى سير القتال وتطور الموقف الحربى والسياسى فى مصر ، تولى قيادة الجيش الفرنسى فيها الجنرال (منو) ، والجيش الإنجليزى الجنرال السير رالف أبركرومبى ، وكان موقف الإنجليز من بدء القتال أرجح من مركز الفرنسيين ، فقد امتاز الجيش البريطانى بتفوقه فى العدد إذ كان مؤلفًا من نحو ١٦,٠٠٠ من المشاة ومائتين من الفرسان ، بينما كان الجيش الفرنسى لا يزيد عن ٨,٣٥٠ من المشاة و ١,٣٨٠ من الفرسان ، هذا فضلا عن أن الجيش الإنجليزى تحمى ميمنته من البحر بعض السفن المدفعية ، وميسرته بعض القوارب المسلحة فى بحيرة أبو قير ، فكان لهذه العمارة البحرية أثر كبير فى سير القتال إذ كانت تصب قنابلها على الصفوف الفرنسية أثناء هجومها ، فالجيش الفرنسى كان إذن أقل من الإنجليزى عددًا وأضعف مركزًا ، ولو تولى قيادته قائدًا أكفأ من الجنرال (منو) لما تغيرت نتيجة القتال تغيراً جوهريًا ، اللهم إلا فى مبلغ الخسائر الفادحة التى نالت الفرنسيين ، فإن أوامر (منو) عرضت صفوفهم للخسائر الفادحة .

بدأت القوات الفرنسية تتحرك من مواقعها الأولى شرقى باب رشيد فى نحو الساعة الثالثة من صبيحة يوم المعركة ، فكانت الميمنة بقيادة الجنرال (رينييه) ، والميسرة بقيادة الجنرال (لانوس) ، والقلب بقيادة الجنرال (رامبون) ، وابتدأ الهجوم بعد طلوع الفجر ، فأخذت كتيبة من الهجانة تهاجم بعض المواقع الإنجليزية الأمامية لتخادعها عن خطة الهجوم التى رسمتها القيادة الفرنسية ، ثم تقدمت فرقة الجنرال (لانوس) ، وتبعتها الفرق الأخرى ، ولم يكن الهجوم متناسقًا ، لضعف القيادة الفرنسية وارتباكها ، ففى خلال الهجمة الأولى تعرضت صفوف الفرنسيين لنيران القنابل والرصاص ، وأصيب الجنرال (لانوس) بقنبلة جاءته من

(١) يسمى اليوم طريق الحرية .

إحدى السفن المدفعية الإنجليزية ، فكانت القاضية على حياته ، فوقع الارتباك فى صفوف جنوده ، وعبثًا حاول الجنرال رامبون أن يهجم بجنوده ، فردتهم نيران المدافع والبنادق ، وهجمت الكتائب الأخرى ، ولكن المدافع الإنجليزية كسرت هجمتهم ، وصار الفرنسيون مكشوفين أمام أعدائهم ، فحلت بهم الخسائر الفادحة ، وظل الجنرال (منو) يرقب هزائم جنوده جامداً لا يدرى كيف يأخذ فى أمره ، إلى أن تراءى له أن يقذف بفرقة الفرسان التى يقودها الجنران رواز Roize إلى المعمعة ، وكانت هذه الحركة عقيمة ، فتردد الجنرال رواز فى أتباع ما أمر به القائد العام وأفضى إليه بما ينطوى تحت هذا الهجوم الجنونى من الخطر المحقق ، ولكن منو ألح فى التقدم ، فصدع الجنرال (رواز) بالأمر وهو عالم أن مصيره إلى الهلاك لا محالة ، ومما يؤثر عنه فى هذا الصدد أنه خاطب جنوده بقوله : « أيها الرفاق ! إنهم يبعثون بنا إلى المجد ، وإلى الموت ، فإلى الأمام ! » ، وهجم بجنوده هجوم اليائس المستميت ، واقتحم الفرسان الصفوف والاستحكامات الإنجليزية ، فأحيط بهم ، وأتاهم الموت من كل مكان ، وقتل الجنرال (رواز) ومعظم رجاله .

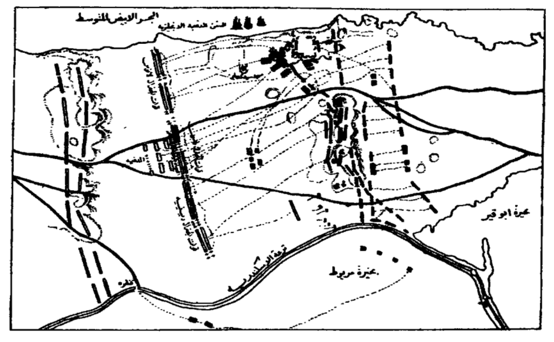
ولما رأى الجنرال منو أن لا سبيل إلى استمرار القتال أصدر أمره بالانسحاب إلى الإسكندرية ، فانتهت المعركة فى نحو الساعة الحادية عشرة بعد أن خسر الجيش الفرنسى نحو ألف وخمسمائة من القتلى وألف من الجرحى ، وكان من القتلى نخبة من القواد والضباط مثل الجنرال (لانوس) والجنرال (رواز) والجنرال بودو Baudot .

وبالرغم من انتصار الإنجليز فإن خسارتهم كانت فادحة ، فقد فقدوا نحو ١٥٠٠ قتيل ، منهم قائد الجيش نفسه الجنرال أبر كرومبى ، وجرح بعض قوادهم ومنهم السرسدنى سميث الذى اشترك فى القتال .

وخلف الجنرال ابركرومبى فى قيادة الجيش البريطانى الجنرال السر هتشنسون Hutchinson

يسمى الإنجليز هذه المعركة (معركة الإسكندرية) ، ولها فى تاريخهم الحربى منزلة ممتازة ، يدلك على ذلك أنهم أقاموا لها سنة ١٩٠١ نصبًا تذكاريًا لمناسبة مرور مائة عام على وقوعها ، فإذا ذهبت يومًا إلى محطة سيدى جابر وأخذت طريق شارع (مصطفى باشا) متجهًا إلى البحر ، تجد فى ملتقاه بشارع سيدى جابر ميدانًا صغيراً مقامًا بوسطه تمثال مصنوع من المرمر وعلى جوانبه منقوش بالإنجليزية أنه أقيم تذكارًا للجنرال السر رالف أبركرومبى ورفاقه الذين قتلوا فى

معركة الإسكندرية على مقربة من مكان التمثال ، فإذا جاوزت هذا التمثال تجد أمامك الثكنات التي أنشأها الإنجليز بعد الاحتلال البريطانى السابق ، والباقية إلى اليوم (سنة ١٩٢٩ تاريخ الطبعة الأولى) ، وهى المعروفة بثكنات مصطفى باشا (فاضل)[٢] ، ولعلهم اتخذوا هذه الجهة معسكراً لهم لأنها تذكرهم بانتصار حربى ناله أسلافهم ، كما اتخذوا جهة أبو قير معسكراً لهم[٣] لأنها كانت توحى إليهم ذكرى إنتصار الأميرال نلسن فى معركة أبو قير الشهيرة .



خريطة معركة كانوب (٢١ مارس سنة ١٨٠١)

كان من نتائج معركة كانوب أن ارتد الجيش الفرنسى إلى أسوار الإسكندرية وانفتح الطريق أمام الجيش الإنجليزى للتوغل فى البلاد ، على أنه بالرغم من تضعضع الجيش الفرنسى وما حل به من الخسائر فى معارك ٨ و ١٣ و ٢١ مارس فقد أحجم الإنجليز عن الزحف ، وكان الجنرال هتشنسون شديد التردد ، كثير الوجل ، فقضى وقتًا طويلا قبل أن يبت رأيًا فى الهجوم ، ولم يكن الجنزال (منو) أقل منه تردداً ، وكانت الظواهر تدل على أن الإنجليز لا يتجاوزون الشواطئ ولا يلبثون أن يعودوا إلى سفنهم ، والواقع أنهم كانوا مترددين فى التقدم إلى داخل البلاد ، وفكر بعض قوادهم فى الانسحاب والرجوع إلى السفن ، لولا قدوم المدد

(٢) جلوا عنها يوم ٨ فبراير سنة ١٩٤٧ .

(٣) جلوا عنه أيضاً يوم ٤ مارس سنة ١٩٤٧ .

على ظهر العمارة التركية التى جاءت إلى أبو قير يوم ٢٥ مارس سنة ١٨٠١ ، جاءت هذه العمارة يقودها حسين قبطان باشا تقل ستة آلاف جندى من خيرة الجنود الانكشارية ، فنزلوا إلى البر وانضموا إلى الجيش الإنجليزى ، فازداد بهم قوة ، وعزم على الزحف فى داخل البلاد .

احتلال رشيد

فى خلال شهر أبريل اعتزم الجنرال هتشنسون الزحف على رشيد بعد أن استطلع أخبارها وتبين له ضعف حاميتها الفرنسية ، فقصد إليها الكولونل سبنسر **Spencer** على رأس جيش مؤلف من خمسة آلاف مقاتل ، منهم أربعة آلاف من الأتراك ، تحرك هذا الجيش من أبو قير وسار حذاء الساحل قاصداً صوب رشيد ، فانسحبت منها الحامية الفرنسية واحتلها الحلفاء ، وأبدى الفرنسيون مقاومة فى قلعة رشيد ، لكن الحلفاء غلبوا عليهم واحتلوا القلعة ، ثم تقدموا يريدون الرحمانية .

قال الجبرتى فى حوادث شهر ذى الحجة سنة ١٢١٥ (٤) : « وفيه أشيع أن الإنجليز ومن معهم من العثمانيين ملكوا ثغر رشيد وأبراجها وحاربوا من كان بها من الفرنسيس حتى أجلوهم عنها ودخلوها » .

استطراد إلى قلعة رشيد وأهميتها التاريخية :

هى قلعة قديمة رممها الفرنسيون خلال الحملة وأطلقوا عليها اسم قلعة «جوليان» **Jullien** ، وهو قائد قتل فى أوائل عهد الحملة الفرنسية ، وتعرف القلعة بهذا الاسم فى كتبهم ، وهى واقعة بالبر الغربى لفرع رشيد ، فى منتصف المسافة تقريبًا بين رشيد والبوغاز ، وقد ورد ذكرها فى رحلات الافرنج قبل الحملة الفرنسية ، فوصفها المسيو سافارى **Savary** السائح الفرنسى خلال زيارته رشيد فى سنة ١٧٧٧ فقال إنها قلعة مربعة بها أربعة أبراج مركبة فيها المدافع وهى على بعد فرسخ شمالى رشيد على البر الغربى للنيل ، وذكر أن بالجهة المقابلة لها بالبر الشرقى قلعة أخرى ، وقال عن هاتين القلعتين إنهما كافيتان لمنع مرور

---

(٤) أبريل سنة ١٨٠١ .

السفن الحربية فى النيل وإن طبيعة بوغاز رشيد تجعل دخول السفن الحربية محفوفًا بالخطر[٥] ، وذكرهما المسيو سونينى Sonnini فى رحلته سنة ١٧٧٧ ، وقال إن إحداهما كانت فى حالة تهدم ، ومدافعها لم تكن تصلح للضرب[٦] .

ويظهر لنا أن إهمال حكومة المماليك هو السبب فى تهدم هاتين القلعتين ، فقد شاهدهما السائح الألمانى فانسليب Vansleb فى النصف الثانى من القرن السابع عشر سنة ١٦٧٢ ، أى قبل مشاهدة سافارى بمائة عام ، فقال عن القلعة القائمة بالبر الغربى إنها قلعة قديمة متينة البناء بها ٧٤ مدفعًا منها سبعة مدافع ضخمة ، أما القلعة الأخرى القائمة بالبر الشرقى فهى مسجد يحميه سبعة مدافع[٧] .

وقد شاهد المسيو جالوا[٨] Jallois فى الأيام الأولى من الحملة الفرنسية قلعة رشيد القديمة وكانت فى حالة تهدم وقال عنها :

« مررنا على بقايا القلعة القديمة التى كانت معدة لحراسة مصب النيل وهى التى رممت بعد ذلك وسميت قلعة جوليان ، وهذه القلعة هى التى هاجمها الإنجليز فى ٩ أبريل سنة ١٨٠١ ودافعت عنها حاميتها الفرنسية دفاع الأبطال إلى أن سلمت فى ٢٩ أبريل[٩] .

وشهد المسيو فيفان دينون Vivant Denon هاتين القلعتين سنة ١٧٩٨ ، كما ذكر ذلك فى كتابه[١٠] ، ورسمهما ، وقال إنه يقدر أن عهد بنائهما يرجع إلى ثلثمائة سنة ، ووصفها وقت أن شاهدهما فقال عن القلعة الغربية إنها حصن كبير مربع مقام على زواياه أربعة أبراج ضخمة ومركب بها مدافع طول الواحد منها ٢٥ قدماً ، أما القلعة الشرقية فقال عنها إنها مسجد (كما وصفها فانسليب سنة ١٦٧٢) وأمامه بطارية متخربة من المدافع .

وقد جرنا إلى هذا الاستطراد أن لقلعة رشيد (أو قلعة جوليان كما يسميها الفرنسيون) أهمية تاريخية كبيرة ، لأن فى أنقاضها اكتشف المسيو بوشار Bouchard أحد ضباط الحملة الفرنسية أثناء الحفر والترميم بالقلعة فى شهر أغسطس سنة ١٧٩٩ الحجر المشهور المسمى (حجر

---

(٥) كتاب (رسائل عن مصر) للمسيو سافارى .

(٦) رحلة فى الوجه البحرى ومصر العليا للمسيو سونينى .

(٧) رحلة فى مصر للرحالة فانسليب .

(٨) من مهندسى الطرق والجسور فى عهد الحملة الفرنسية .

(٩) كتاب تخطيط مصر الجزء الثامن عشر .

(١٠) رحلة فى الوجه البحرى ومصر العليا أثناء حروب الجنرال بونابارت الجزء الأول .

رشيد) ، وهذا الحجر كان مفتاح اللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية) ، فقد وجدت عليه كتابة باللغة الهيروغليفية وتحتها كتابة أخرى مصرية بالقلم المعروف بالعامى أو الديموتيكى ، وتحت هذه الكتابة ثالثة باليونانية ، فنقل هذا الحجر الأثرى إلى دار المجمع العلمى بالقاهرة أثناء الحملة الفرنسية ، ثم أخذه الجنرال هتشنسون قائد الجيش الإنجليزى عند جلاء الفرنسيين ، ووضع فى المتحف البريطانى بلندن ، ولايزال به إلى اليوم ، وهذا الحجر هو الذى حل رموزه العلامة الفرنسى شامبوليون Champollion مكتشف تفسير اللغة المصرية القديمة سنة ١٨٢٢ .

قطع سد أبو قير ، وعزلة الإسكندرية

تراجع الجنرال (منو) كما قدمنا إلى الإسكندرية بعد هزيمته فى معركة كانوب ، وأخذ يستعد للدفاع عنها ، على أن مركزه بات مزعزعًا وخاصة بعد أن قطع الجنرال هتشنسون سد أبو قير[١١] ليعزل الإسكندرية ويمنع ورود المياه العذبة إليها .

كان سد أبو قير يفصل بحيرة أبو قير القديمة عن بحيرة مريوط ، وفوق هذا السد كانت تجرى ترعة الإسكندرية[١٢] ، فلما قطع السد تلفت الترعة وطغت مياه البحر التى كانت تغذى بحيرة أبو قير على بحيرة مريوط[١٣] فغمرتها بالمياه ، وكانت بحيرة مريوط قبل هذا القطع قليلة المياه تكاد تكون جافة لعدم اتصالها بالبحر الأبيض ، ولم تكن تصل إليها إلا مياه الأمطار فى الشتاء ومياه النيل من ترعة الإسكندرية إذا زاد الفيضان ، فلما قطع السد أخذت مياه البحر تطغى على بطاح مريوط فغمرتها وخربت عدداً كبيراً من القرى والبلاد أحصاها المهندس جراتيان لوبير[١٤] بثلاثين قرية ، وانقطعت مواصلات الإسكندرية بالداخل ولم يبق للفرنسيين طريق مسلوك

---

(١١) أبريل سنة ١٨٠١ .

(١٢) انظر خريطة (بين الإسكندرية وأبو قير) ص ٨٣ .

(١٣) كانت بحيرة أبو قير تتصل بالبحر الأبيض بواسطة فتحة اسمها (المعدية) ومن هنا سماها الفرنسيون (بحيرة المعدية) وقد أمر محمد على باشا بسد هذه الفتحة وأقام جسراً عالياً لهذا الغرض لكى لا تطغى مياه البحر على ترعة المحمودية وقد أخذت مياه البحر تنحسر عن البحيرة إلى أن صار معظمها الآن أراضى زراعية ، ويلاحظ أن فتحة بحيرة أدكو الموجودة إلى اليوم تسمى أيضاً (المعدية) .

(١٤) أحد مهندسى الحملة الفرنسية . كتاب تخطيط مصر الجزء الثامن عشر .

سوى طريق الصحراء الشاقة (صحراء مريوط) وأصبحت محاطة بالمياه شمالا وجنوبًا ، وقد أشار الجبرتى إلى قطع سد أبو قير وحصار الإسكندرية فى موضعين ، الأول فى حوادث ذى القعدة سنة ١٢١٥ فقال : « وأخبر المخبرون أن الإنجليز أطلقوا حبوس المياه الملحة حتى أغرقت طرق الإسكندرية وصارت جميعها لجة ماء ولم يبق لهم طريق مسلوك إلا من جهة العجمى إلى البرية (الصحراء) وان الإنجليز تترسوا قبالهم من جهة الباب الغربى (غربى الإسكندرية) » ، وقال فى حوادث محرم سنة ١٢١٦ : « ان الأخبار تواترت بأن العساكر الشرقية (الأتراك) وصلت أوائلها إلى بنها وطحلا بساحل النيل وأن طائفة من الانجليز رجعوا إلى جهة اسكندرية ، وأن الحرب قائم بها ، وأن الفرنساوية محصورون بداخل الإسكندرية ، والإنجليز ومن معهم من العساكر يحاربون من خارج وهى فى غاية المنعة والتحصين ، وأن الإنجليز بعد قدومهم وطلوعهم إلى البر ومحاربتهم لهم المرات السابقة أطلقوا الحبوس عن المياه السائلة من البحر المالح إلى الجسر المقطوع حتى سالت المياه وعمت الأراضى المحيطة بالإسكندرية وأغرقت أطياناً كثيرة وبلاداً ومزارع ، وأنهم قعدوا فى الأماكن التى يمكن الفرنسيس النفوذ منها بحيث أنهم قطعوا عليهم الطرق من كل ناحية » .

معركة الرحمانية والزحف على القاهرة

(٩ مايو سنة ١٨٠١)

كانت الحامية الفرنسية فى الرحمانية أضعف من أن تقاوم هجوم الجيش العثمانى الإنجليزى القادم من رشيد ، ولم يكن فى استطاعة الجنرال بليار أن يرسل إليها المدد من القاهرة لأن القوات التى تحت قيادته لم تكن فى ذاتها كافية للدفاع عنها ، وقد أرسل الجنرال (منو) من الإسكندرية كتيبة من الجنود بقيادة الجنرال فالنتان Valantin لإمداد حامية الرحمانية ، لكنها لم تكن تكفى لنجدتها ، فأنفذ إليها فرقة من الجنود بقيادة الجنرال لاجرانج Lagrange رئيس أركان حربه ، وكان موقع الرحمانية على جانب عظيم من الأهمية لامتناع حاميتها بالقلعة التى أنشأها الفرنسيون بها ولكونها صلة الاتصال بين جيش القاهرة وجيش الإسكندرية ، وإذا سقطت فى يد الحلفاء انقطع الاتصال تماماً بين الجيشين ، لذلك اعتزم الفرنسيون الدفاع عنها جهد المستطاع وتحصنوا فيها وفى (فوه) و (العطف)[١٥] .

(١٥) انظر خريطة (بين رشيد وشبراخيت) ص ٦٤ .

بدأ الجنرال هتشنسون بتحرك من رشيد فى أوائل مايو قاصداً الزحف على الرحمانية بعد أن كلف الماجور جنرال كوت Coot المرابطة بقوة كافية أمام الإسكندرية لمنع الجنرال منو من الخروج منها .

بلغ عدد الجيش الفرنسى فى الرحمانية والعطف وفوه بعد المدد الذى تلقاه من الإسكندرية نحو خمسة آلاف بقيادة الجنرال (لاجرانج) ، فهاجم الأتراك والإنجليز مواقعهم تعاونهم السفن المدفعية الإنجليزية التى دخلت النيل من بوغاز رشيد ، وكان الجنرال لاجرانج مرابطاً فى العطف ، فأدرك حرج موقفه ، فأخلاها ، وانسحب إلى الرحمانية بقصد الامتناع فيها ، لكن قوات الجيش الزاحف والسفن الإنجليزية التى رافقت الجيش جعلت كل مقاومة غير مجدية ، فأخلى الجنرال لاجرانج الرحمانية ليلة ١٠ مايو بعد مقاومة ضعيفة ، واضطر أن يترك بها سفنه وما عليها من الذخائر والأقوات .

احتل الإنجليز والأتراك الرحمانية وقلعتها واستولوا على السفن الفرنسية ، وكان احتلالهم لهذا الموقع بعد ثلاثة وستين يومًا من نزولهم إلى أبو قير ، ومن ذلك يتبين مقدار البطء الذى سارت به الحملة العثمانية الإنجليزية رغم ضعف القوات التى حاربتها .

وقد ذكر الجبرتى نبأ احتلال الرحمانية فى حوادث شهر محرم سنة ١٢١٦ [١٦] قال : « وفيه حضر جملة من عساكر الفرنساوية من جهة بحرى وتواترت الأخبار بوصول القادمين من الإنجليز والعثمانية إلى الرحمانية وتملكهم القلعة وما بالقرب منها من الحصون الكائنة بالعطف وغيره ، وذلك يوم السبت خامس وعشرين الحجة » .

تراجع الجنرال لاجرانج بجنوده إلى القاهرة ، وانقطعت المواصلات بين مصر والإسكندرية ، وساءت حالة الجيش الفرنسى فى كلتيهما ، واشتدت المجاعة فى الإسكندرية لانقطاع مواصلاتها بالداخل ، ثم واصل الإنجليز والأتراك سيرهم على شاطئ النيل وساروا قاصدين القاهرة .

---

(١٦) مايو سنة ١٨٠١ .

انتقام منو من خصومه

وفى خلال ذلك كان الجنرال (منو) بالإسكندرية منهمكاً فى الانتقام من قواد جيشه الذين كان يضطغن عليهم من عهد قيادة كليبر ، وفى مقدمة هؤلاء القواد الجنرال (رينيه) ، ففى ليلة ١٤ مايو حاصر منزله بقوة من الجنود وأصدر أمراً بنفيه إلى فرنسا ، كما أمر بنفى الجنرال داماس Damas والقوميسير دور D'Aure والأدجوان جنرال بوييه Byoer ، فنقلوا على ظهر سفينتين نزحتا بهم عن مصر.

رواية الجبرتى :

ذكر الجبرتى خبر نفى الجنرال رينييه والجنرال داماس فى كلامه عن معركة كانوب وهو إن لم يذكر اسم المعركة إلا أن كلامه عنها والتاريخ الذى أورده فيها يدل على أنه يعنيها بروايته ، وإليك ما كتبه فى هذا الصدد :

« وفى تاسع عشر ذى القعدة سنة ١٢١٥ [١٧] سمع ونقل عن بعض الفرنسيس أنه وقع الحرب بين الفرنساوية والإنجليز وكانت الهزيمة على الفرنساوية ، وقتل بينهم مقتلة كبيرة ، وانحازوا إلى داخل الإسكندرية ووقع بينهم الاختلاف ، واتهم منو سارى عسكر رينه وداماس ورابه منهما ما رابه ، وكان سبباً لهزيمته فيما يظن ويعتقد فقبض عليهما وعزلهما من إمارتهما ، وذلك أن رينه وداماس لما ذهبا على الصورة المتقدمة ونظر رينه وأرسل من كشف على متاريس الإنجليز فوجدها فى غاية الوضع والإتقان ، فاجتمعوا للمشورة على عادتهم ، ودبروا بينهم أمر المحاربة فرأى سارى عسكر منو رأيه ، فلم يعجب رينه ذلك الرأى وقال إن فعلنا ذلك وقعت الغلبة علينا ، وإنما الرأى عندى كذا وكذا ، ووافقه على ذلك داماس وكثير من عقلائهم ، فلم يرض بذلك منو ، وقال أنا سارى عسكر وقد رأيت رأيى ، فلم يسعهم مخالفته ، وفعلوا ما أمر به ، فوقعت عليهم الهزيمة وقتل منهم فى تلك الليلة خمسة عشر ألفاً [١٨] ، وتنحى رينه وداماس ناحية ، ولم يدخلا فى الحرب بعسكرهم [١٩] فاغتاظ منو

---

(١٧) أبريل سنة ١٨٠١ .

(١٨) الصواب ألف وخمسمائة .

(١٩) الواقع أنهما قاتلا فى المعركة ، وكان رينييه قائد الميمنة وداماس من قوادها .

ونسبهما للخيانة والمخامرة عليه وتسفيههم لرأيه ، وأكد ذلك عنده أنهما لما حضرا إلى الإسكندرية أخذا معهما أثقالهما وما كان لهما بمصر لعلمهما عاقبة الأمر وسوء رأى كبيرهما ، فاشتد إنكاره عليهما ، وعزل عنهما العسكر ، وحبسهما ثم أطلقهما ، ونزلا إلى المراكب مع عدة من أكابرهم وسافروا إلى بلادهم » .

زحف الجيش العثمانى

معركة (الزوامل) — ١٦ مايو سنة ١٨٠١

أما الجيش العثمانى الذى قدم من سوريا بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا وعدده نحو عشرين ألف مقاتل فقد تحرك من العريش خلال شهر أبريل وتابع سيره دون مقاومة ، وأخلى الفرنسيون قطية والصالحية وبلبيس بعد أن نسفوا قلاعها والمخازن التى كانت لهم بها ، وارتدت حامياتها إلى القاهرة ، ولما وصل الصدر الأعظم إلى بلبيس عزم الجنرال بليار على أن يهاجمه بجيشه قبل أن يتفرغ لصد الجيش الإنجليزى العثمانى القادم من رشيد ، وكان بليار يأمل أن يهزم الجيش التركى كما هزمه كليبر من قبل ، ولا سيما بعد أن زاد عدد جنوده بعودة جيش الجنرال لاجرانج إلى القاهرة .

كان عدد الجنود الذين يقودهم بليار نحو عشرة آلاف مقاتل ، فترك بالقاهرة قوة من المشاة تحتل الجيزة والقلاع المشرفة على المدينة ، عهد بقيادتهم إلى الجنرال ألميرا Almeyras ، وسار ببقية جيشه لملاقاة الصدر الأعظم ، فوصل يوم ١٦ مايو إلى الزوامل فى منتصف الطريق بين الخانكة وبلبيس[٢٠] ، فاشتبك بطلائع الجيش العثمانى فيها ودارت معركة بدأت بانتصار الفرنسيين وانتهت بهزيمتهم وتراجعهم إلى القاهرة .

وفى خلال ذلك استولى الأتراك على دمياط بعد أن انسحب منها الفرنسيون ، وأخلى الفرنسيون كذلك قلعة عزبة البرج وقلعة البرلس .

---

(٢٠) انظر خريطة (بين القاهرة — وبلبيس) ص ١٤٥

تحرج موقف الفرنسيين فى القاهرة

موت مراد بك

امتنع الجيش الفرنسى فى القاهرة واتخذ فيها خطة الدفاع ، وفكر الجنرال بليار منذ تجدد القتال فى الاستنجاد بحليف الفرنسيين مراد بك ، وطلب إليه العمل بشروط الاتفاق المبرم بينه وبين كليبر ، فشرع مراد بك فى إمداد بليار وسار برجاله إلى مصر ، لكنه لم يكد يصل إلى سوهاج حتى أصيب بالطاعون وأدركته الوفاة يوم رابع ذى الحجة سنة ١٢١٥ — ١٨ أبريل سنة ١٨٠١ [٢١] ، ودفن بسوهاج عند الشيخ العارف ، وقد نعاه الجبرتى فى وفيات سنة ١٢١٥ هجرية ، ومن أبلغ ما قاله فيه : « أنه كان من أعظم الأسباب فى خراب الإقليم المصرى بما تجدد منه ومن مماليكه وأتباعه من الجور والتهور ومسامحته لهم ، فلعل الهم يزول بزواله » .

وكانت وفاته ضربة كبيرة أصابت آمال الفرنسيين ، لأنهم فقدوا بموته حليفاً قوياً كان يمكن أن يمدهم بما لديه من حول وقوة ، وحزنوا عليه حزناً شديداً ، واختار المماليك عثمان بك الطنبورجى خلفاً له واعتمده الفرنسيون خليفة لمراد بك وأميراً على الصعيد ، فأرسل هذا إلى بليار يعرب له عن ولائه وولاء المماليك للفرنسيين ، لكنه بعد ذلك نقض المعاهدة لما رأى كفة الإنجليز والأتراك راجحة واتصل بإبراهيم بك زميله القديم الذى جاء صحبة الصدر الأعظم .

انتشار الوباء

وازداد مركز الفرنسيين حرجاً باستفحال فتك الطاعون فى البلاد ، وخاصة فى القاهرة والصعيد ، بدأ هذا الطاعون فى شهر يناير ١٨٠١ واشتدت وطأته فى أوائل أبريل . فكان يموت به فى اليوم نحو مائة من الأهالى وعشرين من الفرنسيين . ومات من هؤلاء فى القاهرة نحو خمسمائة بالرغم من الجهود التى بذلها أطباء الجيش الفرنسى فى مقاومته . ولم يشهد الناس

---

(٢١) يوجد خلاف بين الجبرتى والمراجع الفرنسية فى تاريخ وفاة مراد بك ، الجبرتى يقول إن وفاته كانت رابع ذى الحجة سنة ١٢١٥ وهذا يوافق ١٨ أبريل سنة ١٨٠١ ، والمسيو مانجان يقول إنه مات فى ٢١ مارس ، ورواية الجبرتى أرجح .

وباءاً يحاكيه فى شدة وطأته منذ وباء سنة ١٧٩١ المعروف بوباء إسماعيل بك . ويقول الجبرتى أنه كان يموت بالطاعون من الفرنسيين الذين بالقلعة ثلاثون أو أربعون كل يوم « وينزلون بهم من كرنتيلة القلعة على الأخشاب فيدفنونهم جماعات فى حفرة عميقة خارج باب القرافة » ، ويقول المسيو جومار[٢٢] الذى شهد هذا الوباء أن فتكه كان ذريعاً فقد مات به فى شهر واحد عشرة آلاف شخص من سكان القاهرة[٢٣] .

ووصف الدكتور لارى Larrey كبير جراحى الحملة الفرنسية هذا الوباء فى مشاهداته عن الأمراض فى مصر فقال إنه أودى بحياة مائة وخمسين ألف نسمة من المصريين فى القاهرة والوجه القبلى[٢٤] . ولا نظن أن فى هذا الإحصاء مبالغة وخاصة إذا رجعنا إلى ما ذكره الجبرتى عن استفحاله فى الصعيد . فقد أورد رسالة عنه للشيخ حسن العطار الذى كان نزيل أسيوط وقتئذ قال فيها ما خلاصته : « إنه وقع فى قطر الصعيد طاعون لم يعهد ولم نسمع بمثله وخصوصاً ما وقع منه بأسيوط وقد انتشر هذا البلاء فى جميع البلاد شرقاً وغرباً وشاهدنا منه العجائب فى أطواره وأحواله وذلك أنه أباد معظم أهل البلاد وكان أكثره فى الرجال سيما الشبان والعظماء وكل ذى منقبة وفضيلة ، وأغلقت الأسواق وعزت الأكفان وصار معظم الناس بين ميت ومشيع ومريض وعائد ، وكان مبدؤه من شعبان سنة ١٢١٥ وأخذ فى الزيادة فى شهر ذى القعدة والحجة فكان يموت كل يوم بأسيوط خاصة زيادة عن الستمائة »[٢٥]

اجتماع بليار بأعضاء الديوان

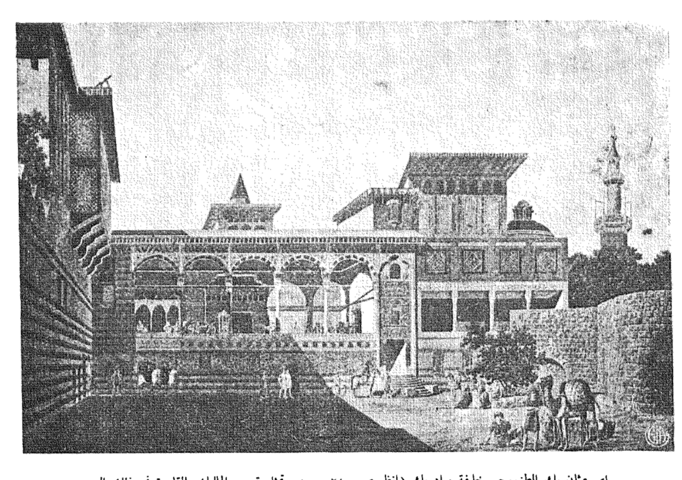
اجتمعت كل هذه الأسباب فكانت نذيراً للفرنسيين بانقراض حكمهم فى مصر ، على أن الجنرال بليار أظهر الجلد أمام الشعب ، وتظاهر بأن فى استطاعته مقاومة الجيوش الزاحفة على القاهرة ، وعاد يتهدد ويتوعد وينذر المصريين بالانتقام والنكال إذا جنحوا إلى الثورة ، فاستدعى أعضاء الديوان فى شهر محرم سنة ١٢١٦ وخاطبهم على لسان المترجم قائلا :

(٢٢) أحد مهندسى الحملة الفرنسية انظر ترجمته بالجزء الأول ص ١٢٦ (من الطبعة الأولى) .

(٢٣) كتاب تخطيط مصر الجزء التاسع عشر.

(٢٤) كتاب تخطيط مصر الجزء الثالث عشر.

(٢٥) الجبرتى الجزء الثالث .



سراى عثمان بك الطنبورجى خليفة مراد بك (انظر ص ٢٤٠ ، وهى تمثل قصور المماليك بالقاهرة فى ذلك العصر

« نخبركم أن الخصم قد قرب منا ، ونرجوكم أن تكونوا على عهدكم مع الفرنساوية وأن تنصحوا أهل البلد والرعية بأن يكونوا مستمرين على سكونهم وهدوئهم ، ولا يتداخلوا فى الشر والشغب ، فإن الرعية بمنزلة الولد . وأنتم بمنزلة الوالد ، والواجب على الوالد نصح ولده وتأديبه وتدريبه على الطريق المستقيم التى يكون فيها الخير والصلاح ، فإنهم إن داموا على الهدوء حصل لهم الخير ونجوا من كل شر ، وإن حصل منهم خلاف ذلك نزلت عليهم النار وأحرقت دورهم . ونهبت أموالهم ومتاعهم ، ويتمت أولادهم وسبيت نساؤهم ، وألزموا بالأموال والفرد (جمع فردة أى ضريبة) التى لا طاقة لهم بها . فقد رأيتم ما حصل فى الوقائع السابقة . فأحذروا من ذلك فإنكم لا تدرون العاقبة ، ولا نكلفكم المساعدة لنا ولا المعاونة لحرب عدونا وإنما نطلب منكم السكون والهدوء لا غير » قال الجبرتى فأجابوه بالسمع والطاعة وقولهم « كذلك » .

تقدم الحلفاء

اعتزم يوسف باشا بعد معركة الزوامل أن يتصل بجيش الجنرال هتشيسون ليزحف الجيشان معاً على القاهرة ، فواصل الجيش الإنجليزى تقدمه بالبر الغربى للنيل إلى أن بلغ إمبابة ، بينما وصلت طلائع الجيش العثمانى القادم من الشرق بقيادة يوسف باشا إلى منية الشيرج[٢٦] بالبر الشرقى للنيل ، والمراكب بينهما ، والتقى القائدان فى معسكر الصدر الأعظم بالبر الشرقى للنيل ، وكان يصحب الصدر الأعظم وزير الخارجية العثمانية وإبراهيم بك أمير المماليك وطائفة من كبار موظفى الدولة ، وصحب الجنرال هتشنسون طائفة من ضباطه وحسين قبطان باشا ، وكانت المقابلة فى غاية الود ، وضع القائدان فيها الخطة المشتركة للزحف على القاهرة ثم واصل الحلفاء تقدمهم ، فتجاوز الجيش الإنجليزى (إمبابة) وبلغ الجيش العثمانى (القبة) .

قطع الإنجليز المسافة بين الرحمانية وإمبابه فى أربعين يوماً ، وهى مدة طويلة ، ويرجع بعض المؤرخين هذا البطء إلى أن الجنرال هتشنسون كان ينتظر الجيش القادم من الهند بقيادة

---

(٢٦) غربى الوايلى الكبرى على نحو ربع ساعة منها بالقرب من شبرا واسمها كما فى المقريزى (منية الأمراء) انظر خرطة (بين القاهرة وبلبيس) ص ١٤٥

الجنرال بيرد Baird ، فإن هذا الجيش تأخر عن الموعد المضروب[٢٧] .

ولما وصل الجنرال هتشنسون إلى الجيزة جاءته كتيبة من جيش الجنرال بيرد انفصلت عن الجيش ونزلت بالسويس وجاءت إلى القاهرة بقيادة اللفتنت كولونل لويد Liyod وتلقى مدداً آخر جاء من شواطئ أبو قير فاحتشدت قوات الإنجليز على الشاطئ الأيسر للنيل وقوات يوسف باشا على الشاطئ الأيمن وأقام الإنجليز جسراً من المراكب بشبرا لاتصال الجيشين ، فبلغت قواتهما فى ذلك الحين نحو أربعين ألفاً من المقاتلة .

ولم يكن الجيش الفرنسى بالقاهرة يزيد على عشرة آلاف مقاتل على الأكثر صالحين للقتال موزعين على خط طويل يمتد من الجيزة إلى حدود القاهرة شرقا ، وشمالا ومن مصر القديمة إلى بولاق .

وغنىٌّ عن البيان أن مركز الجيش الفرنسى كان على جانب عظيم من الضعف إزاء قوات الحلفاء وتحفز سكان القاهرة للانقضاض عليه .

المجلس الحربى الفرنسى وقرار الجلاء عن مصر

أدرك الجنرال بليار ضعف مركزه فرأى أن يعقد مجلساً حربياً من قواد الجيش الفرنسى وكبار ضباطه كى يعرض عليهم الموقف الحربى ليقرروا ما يرونه ، اجتمع المجلس فى القلعة وعرض عليه بليار الحالة تفصيلا ، فشرح موقف الجيشين المتحاربين وقوات كل منهما ، وتكلم عن فتك الوباء بالجنود الفرنسية وعن النتيجة المحتملة للمقاومة ، ونوه بعدد جنود الحلفاء وانضمام أهل القاهرة إليهم عند اشتداد القتال ، واحتفظ برأيه فيما يجب عمله ، على أن أقواله كانت تنم عن ميله إلى التسليم وتجنب القتال ، وتكلم بعده الجنرال لاجرانج Lagrange رئيس أركان الحرب وهو من القواد المياليين إلى (منو) فقال إنه لا يصح الدخول فى مفاوضة مع الحلفاء قبل أن يأذن بذلك القائد العام لأن الاتفاق على تسليم خاص بجنود القاهرة هو تقرير لمبدأ الجلاء ،

(٢٧) لم يشترك هذا الجيش فى القتال ، فقد حشدته إنجلترا فى الهند وسافر من ضفاف الجنج فى ديسمبر سنة ١٨٠٠ واخترق المحيط الهندى فالبحر الأحمر ونزل بالقصير وبقى بها شهراً ينتظر تعليمات القائد العام للجيش الإنجليزى الذى كان منهمكاً فى قتال الفرنسيين ، ثم غادر ساحل البحر الأحمر سالكاً طريق وادى القصير فبلغ قنا ثم وصل إلى الجيزة فى شهر أغسطس سنة ١٨٠١ واستقر بها ثلاثة أسابيع وسار معظمه إلى رشيد بعد انتهاء الحرب وتسليم الجنرال منو ، فلم يخض غمار الحرب ، على أن الأمراض قد فتكت به كثيراً وخاصة الوباء الذى أصابه فى قنا وفى طريقه منها إلى رشيد .

وهذا من اختصاص القائد العام ، ونصح بأن يكون التسليم بعد استنفاد كل وسائل المقاومة .

ثم تكلم بعده الجنرال دنزلوا Donzelot وكان قادماً من الوجه القبلى عارفاً بأساليب القتال فيه ، فأشار بانسحاب الجيش الفرنسى من القاهرة وامتناعه فى الصعيد واستمراره فى المقاومة هناك مستنداً على أن الوجه القبلى أصلح من الوجه البحرى لمقاومة الجيوش النظامية ، وأن فى استطاعة الجيش الفرنسى إرهاق الإنجليز وإنهاك قواهم فى الصعيد إلى أن يتسنى للحكومة الفرنسية التفكير فى شأن مصر وإمداد الجيش الفرنسى بها ، وتكلم بعده بعض كبار الضباط وتعددت آراؤهم ، فعارض الكولونل دوباس Dupas قومندان قلعة القاهرة فكرة التسليم ، وقال باستمرار المقاومة فى القاهرة ، واتفق لاجرانج ودنزلوا ودوباس على المعارضة فى فتح باب المفاوضات مع الإنجليز والأتراك ، واعترض آخرون على هذا الرأى قائلين انه من العبث انتظار ورود أوامر من الجنرال (منو) لأن الحالة خطيرة تدعو إلى التعجيل فى اتخاذ قرار بشأنها لأن الانتظار ربما يؤدى إلى استفحال الضرر ووقوع الجيش الفرنسى فى الأسر وهنالك لا يمكن الاتفاق على شروط للتسليم ، وقالوا إن الانسحاب إلى الصعيد لا يؤدى إلى نتيجة ما لأن الانجليز والأتراك يستطيعون بقواتهم مطاردة الجيش الفرنسى إلى الشلالات ، وبعد أن تمت المناقشة أخذت الآراء ، فكانت الأغلبية الكبرى مؤيدة للمفاوضة مع الإنجليز على قاعدة الجلاء ، ولم يشذ عن هذا الرأى سوى الجنرال لاجرانج وديرانتو Duranteau وفالنتان ودوباس .

وبينما كان الجيش الإنجليزى التركى يتأهب للهجوم على مواقع الفرنسيين فى القاهرة هجوماً عاماً ، جاء مندوب من قبل الجنرال بليار إلى المعسكر الإنجليزى يوم ٢٢ يونية سنة ١٨٠١ يطلب وقف القتال وفتح باب المفاوضة على قاعدة الجلاء ، فقبل الجنرال هتشنسون والصدر الأعظم هذا الطلب بارتياح ، وفى اليوم التالى اجتمع مندوبو الفريقين فى مكان أعد لهم بير الجيزة ، فحضر البرجادييه جنرال هوب Hope عن الجنرال هتشنسون ، وعثمان بك عن الصدر الأعظم ، واسحق بك عن حسين قبطان باشا ، وعن الجنرال بليار كل من الجنرال موران Morand والجنرال دنزلوا Donzelot والكولونل تارير Tarayre

توقيع اتفاقية الجلاء

(٢٧ يونية سنة ١٨٠١)

استمرت المفاوضة أربعة أيام ، وانتهت باتفاق على جلاء الجيش الفرنسى عن مصر ، ووقع المندوبون على هذا الاتفاق ، وتقتضى شروطه أن تجلو الجنود الفرنسية البرية والبحرية التى تحت قيادة الجنرال بليار عن مدينة القاهرة وقلاعها وقلاع بولاق والجيزة وعن كل جهة تحتلها من الأراضى المصرية ، وأن يكون جلاء الجنود بأسلحتهم وأمتعتهم ومدافعهم وذخائرهم بطريق فرع رشيد ومن رشيد وأبو قير يبحرون إلى فرنسا على نفقة الحلفاء ، وأن يتم الجلاء فى أقرب وقت ممكن بحيث لا يزيد عن خمسين يوماًمن يوم التصديق على الاتفاق ، وحدد للجلاء عن القاهرة وبولاق اثنى عشر يوماً .

وتعهد قواد الجيش الإنجليزى والتركى بتقديم المراكب اللازمة لنقل الجنود وأمتعة الجيش وأثقاله ، وأن ترافق الفرنسيين فى انسحابهم كتائب من الجيش الإنجليزى والتركى لتقديم المؤونة اللازمة للجنود ، وتعهد الإنجليز والأتراك أيضا بتقديم السفن اللازمة لنقلهم إلى ثغور فرنسا ، ونص الاتفاق (المادة ١١) على أن الملكيين من موظفى الإدارة وأعضاء لجنة العلوم والفنون تسرى عليهم أحكام الاتفاق ، ويتمتعون بالمزايا المخولة للعسكريين ، ويحق لهم أن يحملوا معهم الأوراق التى ترتبط بعملهم وأوراقهم الخاصة والأشياء الأخرى التى تخصهم ، ونصت المادة ١٢ على أنه يجوز لأى مصرى أن يرافق الجيش الفرنسى فى الجلاء دون أن تصادر أملاكه أو تضطهد عائلته وذوو قرباه ، ولا يجوز إيذاء أى مصرى بما أظهره من الولاء للجيش الفرنسى مدة احتلاله للبلاد (مادة ١٣) ، ونصت المادة ٢٠ على أن هذا الاتفاق يبلغ إلى الجنرال (منو) بالإسكندرية ينهيه إليه أحد ضباط الجيش الفرنسى وله أن يقبله فيما يخص الجنود الذين معه بالإسكندرية وعليه أن يعلن بذلك قائد القوات البريطانية المرابطة أمام الإسكندرية ، وقد عملت أربع نسخ من هذا الاتفاق ، ووقع عليه المندوبون بتاريخ ٢٧ يونية سنة ١٨٠١ ، وصدق عليه فى اليوم التالى الجنرال هتشنسون القائد العام للجيش البريطانى ، والكابتن ستفنسن بالنيابة عن اللورد كيث ، ويوسف باشا الصدر الأعظم ، والقبطان حسين باشا ، والجنرال بليار[٢٨] .

---

(٢٨) نشرنا نص الاتفاق فى قسم الوثائق التاريخية ليرجع إليه القارئ إذا أراد زيادة البيان .

والظاهر أن نابليون لم ينقم على بليار إبرامه تلك الاتفاقية ، بدليل أن الجنرال بليار نال رضاه بعد عودته إلى فرنسا وحارب تحت لوائه فى حروب الإمبراطورية .

والمتأمل فى نصوص الاتفاق يجد أنه لا يختلف فى جوهره عن معاهدة العريش وهى المعاهدة التى رفضت الحكومة الإنجليزية تنفيذها ونقضتها ثم عادت إلى قبول اتفاق لا يختلف عنها بعد أن سفكت الدماء وضاعت الأرواح وخربت البلاد وعم البلاء .

إطلاق سراح المعتقلين :

علم الناس فى القاهرة بنبأ الصلح ، فقابلوه بابتهاج عظيم وأفرج الفرنسيون عن الأسرى العثمانيين ثم أطلقوا سراح المشايخ والأعيان المعتقلين فى القلعة وباقى المحبوسين من الفلاحين والعرب ، واستعد الجنود الفرنسيون للجلاء ونقل مهماتهم من القلعة وباقى قلاع المدينة ، ودعوا أعضاء الديوان للاجتماع لإبلاغهم نبأ الصلح ، فاجتمعوا يوم الثلاثاء ٣٠ يونية سنة ١٨٠١ وحضر المسيو جيرار Girard قوميسير (وكيل) الديوان وأعلن وقوع الصلح وعودة السلم ، ووعد بأن يتلو عليهم فى الجلسة المقبلة شروط الصلح ، وطبعوا منشورات بالعربية والفرنسية تتضمن نص الشرطين الثانى عشر والثالث عشر من شروط الصلح وألصقوها بالأسواق ليطلع عليها الجمهور .

وفى يوم الجمعة ٢١ صفر انعقد الديوان وحضر المشايخ والمسيو جيرار ، فتلا المترجم شروط الصلح ، فقال الأعضاء هذه شروط عليها علامة القبول وهذا الصلح رحمة للجميع وسيكون الصلح العام ، فقال المسيو جيرار إنى أرجو أن يكون هذا الصلح الخاص مبدأ للصلح العام فى أوروبا .

آخر جلسة للديوان :

ثم انعقد الديوان لآخر مرة يوم ٢٤ صفر سنة ١٢١٦ (٢٩) فاجتمع المشايخ والتجار وبعض الوجاقلية والمسيو استيف Esteve مدير الشئون المالية (ويسميه الجبرتى استيف الخازندار) والمسيو جيرار والترجمان روفائيل ، وكانت هذه جلسة الوداع ، فأظهر فيها الفرنسيون تلطفاً كبيراً مع الأعضاء ، وجاملهم الأعضاء كذلك فى جوابهم ، ومن غرائب المصادفات أن الجنرال منو

---

(٢٩) ٦ يوليو سنة ١٨٠١ .

كان يجهل توقيع الصلح وكان يظن وهو فى الإسكندرية أن الحرب مستمرة ، فأرسل إلى الجنرال بليار رسالة مؤرخة ١٨ صفر برسم أعضاء الديوان وقد وردت هذه الرسالة قبل انعقاد آخر جلسة للديوان ، ومع أنها صارت لغواً بعد التوقيع على الصلح فإن المسيو جيرار أمر المترجم بتلاوتها على مسامع الأعضاء ، وهى تتضمن الإعراب عن أحسن تمنيات منو لأعضاء الديوان ، وينبئهم فيها بأن جيوش الجمهورية الفرنسية قد انتصرت فى أوروبا ، وعما قريب ستنتصر فى مصر ، وطلب إليهم الاعتماد على الوكيل جيرار وعلى المسيو استيف « المأمور بتدبير الأمور » ، وأوصاهم بزوجته السيدة زبيدة وولده سليمان مراد ، وأبدى أسفه لوفاة مراد بك وأطرى فضائله وعزى الست نفيسه خاتون زوجته ، وختم كتابه بدعوته إلى الله تعالى« أن ينعم عليكم وعلى عيالكم فى الأيام بالبشرى والإقبال » ، وأمضاه « عبد الله جاك منو » ، ويقول الجبرتى إن الرسالة من تراكيب لوماكا الترجمان ، وقد تكلم المسيو جيرار بعد تلاوة الرسالة وأعرب عن تمنياته للبلد ، ثم أعقبه المسيو استيف مدير الشئون المالية فتلا خطبة طويلة بالفرنسية وتلا الترجمان روفائيل عربيتها ، وهذه الرسالة هى آخر وثيقة رسمية تليت فى الديوان دفاعاً عن الحكم الفرنسى فى مصر ، أعرب فيها المسيو «استيف» عن نيات نابليون الحسنة نحو البلاد وأهلها ، وأن الفرنسيين يريدون الخير لمصر ، وأعرب عن أمله فى أن يذكر المصريون مدة حكمهم بالخير ، وأن يكون هذا الفراق إلى حين ، وأن فرنسا لم تقصد من مجيئها إلى الديار المصرية إلا حب الخير لأهلها ، وأعرب عن أمله فى أن تدرك الدولة العثمانية التى استرسلت فى محالفتها لإنجلترا أن فرنسا لم تكن تقصد من الحملة الفرنسية إلا محاربة الإنجليز وإحباط مساعيهم فى السيطرة على البحار واحتكار متاجر العالم ، ولما انتهى من تلاوة الرسالة قال الأعضاء : « إن الأمر لله ، والملك له ، وهو الذى يمكن منه من شاء» وكان ذلك ختام آخر جلسات الديوان .

خلاصة تاريخ الديوان :

طويت بهذه الجلسة صحيفة الديوان الذى أسسه الفرنسيون فى مصر ، ولهذه المناسبة نرى أن نذكر هنا خلاصة ما فصلناه عن تاريخ الديوان والأدوار التى تعاقبت عليه .

الدور الأول : أنشأ نابليون أول ديوان بالقاهرة فى ٢٥ يولية سنة ١٧٩٨ وجعله مؤلفاً من تسعة أعضاء وأمر كذلك بإنشاء ديوان فى كل مديرية ، ثم أسس (ديواناً عاماً) وهو هيئة

تتألف من مندوبين يمثلون القاهرة وسائر مديريات القطر المصرى ، ولم يجتمع (الديوان العام) إلا مرة واحدة فى عهد الحملة الفرنسية ، وقد بسطنا الكلام عن هذه الدواوين ونظامها وتاريخها فى الفصل الثالث من الجزء الأول (ص ٩٥ وما بعدها من الطبعة الأولى) .

الدور الثانى : ولما ثارت القاهرة ثورتها الأولى (أكتوبر سنة ١٧٩٨) أبطل نابليون ديوان القاهرة عقاباً لأهلها على ثورتهم ، ثم بدا له بعد إخماد الثورة أن يعيده على نظام جديد فى ديسمبر سنة ١٧٩٨ ، فجعله من هيئتين (الديوان العمومى) وهو مؤلف من ستين عضواً[٣٠] يمثلون سكان القاهرة على اختلاف طبقاتهم ، و (الديوان الخصوصى) ويتألف من أربعة عشر عضواً ينتخبهم أعضاء الديوان العمومى ، وقد بسطنا الكلام على نظام الهيئتين فى الفصل الأول من الجزء الثانى (ص ٢٢ وما بعدها) .

أما دواوين الأقاليم فقد بقى نظامها كما وضعه نابليون من قبل .

وقد استمر هذا النظام فى جملته متبعاً على عهد كليبر إلى أن أبرمت معاهدة العريش ، فأبطل الديوان ثم نقضت وتجددت الحرب وثارت القاهرة ثورتها الثانية (مارس – أبريل سنة ١٨٠٠) ، فلما أخمدها الجنرال كليبر استمر الديوان معطلا وظل كذلك بقية مدة كليبر .

الدور الثالث : ولما قتل كليبر وخلفه الجنرال (منو) أعاد الديوان على نظام جديد ، إذ جعله هيئة واحدة مؤلفة من تسعة أعضاء ووسع فى اختصاصه كما فصلنا ذلك فى الصحيفة ٢٠٨ وما بعدها .

وهذا الديوان هو الذى استمر إلى حين جلاء الفرنسيين عن القاهرة .

جلاء الفرنسيين عن القاهرة

أخلى الفرنسيون قلعة المقطم وباقى القلاع والحصون والمتاريس وانتقلوا إلى الروضة وقصر العينى والجيزة استعداداً لنزولهم فى السفن التى أعدت لنقلهم بالنيل إلى رشيد تنفيذاً لشروط الصلح ، ودخلت الجنود العثمانية المدينة .

(٣٠) تجد بالصحيفة ٢٣ من هذا الجزء أسماء هؤلاء الأعضاء ، وإذا راجعت أسماءهم وعددهم فقد يلتبس عليك الأمر إذ تجد أن عددهم ٦١ ، ولكن حقيقتهم ستون ، لأن اسم أحمد المحروق تكرر ضمن تجار البن والبهار ثم ضمن تجار البضائع التركية باسم السيد أحمد العقاد المحروق ، وقد ورد هذا التكرار فى أصل البيان المنشور فى جريدة كوريه دليجبت ، جريدة الحملة الفرنسية ، لكنه اسم واحد لشخص واحد ، فعدة الأعضاء ستون .

وفى ١٤ يولية سنة ١٨٠١ (٤ ربيع الأول سنة ١٢١٦) أخلوا قصر العينى والروضة والجيزة وأقلعت بهم المراكب وعددها ثلثمائة مركب إلى رشيد ، وبذلك تم جلاؤهم عن القاهرة وضواحيها ، وأخذوا معهم رفات الجنرال كليبر ، وساروا من رشيد إلى أبو قير ومن هناك أبحرت بهم السفن فى أوائل شهر أغسطس سنة ١٨٠١ [٣١] إلى فرنسا وجلوا نهائياً عن الديار المصرية .

وكان عددهم يوم جلائهم نحو ١٣,٠٠٠ رجل ، منهم ٩,٠٠٠ مقاتل صالحون للقتال والباقون من الجنود المرضى والرجال الملكيين ، وبذلك تم جلاء أكثر من نصف الجيش الفرنسى الذى كان يحتل مصر ، وبقى النصف الآخر فى الإسكندرية .

ويقول نابليون فى مذكراته إنه لما خرج الفرنسيون من القاهرة عجب الإنجليز من كثرة عددهم وعتادهم واستعظموا الفوز الذى نالوه من غير قتال .

موقف (منو) فى الاسكندرية :

تم جلاء الفرنسيين عن القاهرة وآلت السلطة الفعلية فيها إلى قواد الجيش التركى والإنجليزى ، وبقى فيها الجنرال هتشنسون عدة أيام يشرف على نظام الحكم الجديد ، ثم اعتزم العودة إلى الإسكندرية لمحاربة الجيش الفرنسى بها .

كانت الإسكندرية فى حالة حصار من يوم انكسار الفرنسيين فى معركة كانوب ، وخاصة من حين قطع سد بحيرة أبو قير ، وقد ترك الجنرال هتشنسون قبل زحفه على القاهرة قوة من الجنود بقيادة الماجور جنرال كوت Coot لتشديد الحصار على الإسكندرية ، فساءت حالتها لقلة الزاد ونفاد المؤونة وغلاء الأسعار ، واستهدف الأهالى والجيش الفرنسى للمجاعة .

وفى خلال ذلك وصلت البارجة الفرنسية «هليوبوليس» من نوع الفرقاطة إلى ثغر الإسكندرية يوم ٩ يونيه سنة ١٨٠١ ، فتجدد الأمل فى نفوس الفرنسيين بقرب وصول المدد من فرنسا ، وظنوا أن البارجة القادمة هى طليعة الأسطول الفرنسى المنتظر ، والواقع أن نابليون بعد إخفاق الأميرال جانتوم فى الوصول بأسطوله إلى المياه المصرية ورجوعه إلى طولون لام جانتوم على تقصيره فى أداء مهمته وكلفه استئناف السفر لإمداد جيش فرنسا فى مصر ، فأقلع

---

(٣١) أول و ٢ و ٦ و ٩ و ١١ أغسطس سنة ١٨٠١ .

بأسطوله للمرة الثالثة من طولون[٣٢] وكانت التعليمات الصادرة إليه تقتضى أن يصل بالمدد إلى مصر ، وفى حالة مطاردة الأسطول الإنجليزى يرسو فى جهة شواطئ أفريقية ليسير براً إلى مصر ، وكان هذا المدد مؤلفاً من أربعة آلاف مقاتل مزودين بالذخائر والمهمات ، فلما اقترب جانتوم من الإسكندرية خشى الاصطدام بالبوارج الإنجليزية ، فعاد أدراجه محاذياً شواطئ أفريقية ، وانفصلت عنه البارجة هليوبوليس فوصلت سليمة إلى ميناء الإسكندرية[٣٣] وواصل جانتوم سيره إلى أن رسا ببنى غازى[٣٤] وأراد أن ينزل الجنود إلى البر ، ولكن الأهالى حينما شعروا بهذه الحركة تسلحوا جميعاً واستعدوا لقتال الفرنسيين عند نزولهم إلى الشاطئ ، فخشى الأميرال جانتوم عاقبة هذه المغامرة ورأى السلامة فى ارتداده ثانية إلى طولون .

نبهت هذه المحاولة أذهان الإنجليز إلى تشديد المراقبة على شواطئ مصر ، فشددوا الحصار البحرى على ثغر الإسكندرية ، فانقطع كل أمل للفرنسيين فى وصول المدد إليهم ، ولم يكن عدد جيشهم بها يزيد على سبعة آلاف مقاتل يقودهم الجنرال (منو) ويعاونه فى القيادة الجنرالات فريان ، ورامبون ، وسونجى Songis ودستانج ، وزايونشك ، والجنرال سانسون قائد فرقة الهندسة ، وكان الجيش الإنجليزى العثمانى المحاصر للإسكندرية يزداد عدداً بما كان يتلقاه من المدد وخاصة بعد انتهاء الحرب فى القاهرة ، ومع ذلك أصر الجنرال (منو) على عناده ، ولما بلغه تسليم الجنرال بليار ثار غضبه وأذاع منشوراً بين الجنود حمل فيه حملة شعواء على الجنرال بليار واعتبر تسليمه تفريطاً فى الشرف الحربى ، وأرسل إلى نابليون تقريراً يلقى على بليار تبعة الجلاء عن القاهرة ، على أنه لم يمض خمسون يوماً على تسليم القاهرة حتى أذعن الجنرال منو للتسليم بشروط أسوأ من الشروط التى قبلها الجنرال بليار .

وبيان ذلك أنه بعد أن تم جلاء الجنود الفرنسية عن القاهرة وأقلعت بهم السفن من أبو قير حشد الجنرال هتشنسون قواته حول الإسكندرية واستأنف قتال الفرنسيين المرابطين بها ، وشدد عليهم الحصار براً وبحراً ، واحتل جنود الجنرال كوت Coot ساحل العجمى (غربى الإسكندرية) واستولوا على قلعة العجمى[٣٥] ليلة ٢٢ أغسطس سنة ١٨٠١ ، ودخلت السفن الإنجليزية الميناء الغربية ، فصارت المدينة فى حصار محكم ، وتقدم الجنرال كوت

(٣٢) يوم ٢٥ أبريل سنة ١٨٠١ .

(٣٣) يوم ٩ يونية سنة ١٨٠١ .

(٣٤) بطرابلس الغرب .

(٣٥) بجزيرة العجمى . انظر الجزء الأول ص ١٦٥ ، و ٢٤٣ من الطبعة الأولى .

فاحتل طابية القمرية (غربي القبارى) بعد قتال شديد.

أشار الجبرتي إلى هذه الوقائع بقوله: «وفى يوم الأحد ٢٠ ربيع الثانى سنة ١٢١٦ (يوافق ٣٠ أغسطس سنة ١٨٠١) وردت أخبار من الإسكندرية بتملك العساكر الإسلامية والإنجليزية متاريس الفرنساوية وأخذهم المتاريس التى جهة العجمى وباب رشيد وجانباً من إسكندرية القديمة، وتخطت المراكب وعبرت إلى الميناء وأن الفرنساوية انحصروا داخل الأبراج وأخذ منهم نحو المائة وسبعين أسيراً وقتل منهم عدة وافرة ووقعت بين الفريقين مقتلة عظيمة لم يقع نظيرها، وقتل الكثير من عساكر قبطان باشا وكذلك من الإنجليز. ثم انجلت الحرب عما ذكره فلما ورد الخبر بذلك ضربوا عدة مدافع وسر الناس بذلك».

اشتد الضيق بالحامية الفرنسية وفتكت بها الأمراض ونفدت الأقوات حتى اضطروا أن يأكلوا لحوم الخيل الهزيلة، ولم يبق من الحامية من يصلح للقتال أكثر من سبعة آلاف مقاتل يحاربون وهم على تمام الاعتقاد بأنها حرب عقيم لا تؤدى إلى نتيجة، وأدرك القواد الذين تحت إمرة (منو) أن إطالة القتال ليس فيها إلا سفك الدماء، فاتفقوا على مفاتحته فى وقف القتال، فقابله الجنرال رامبون يوم ٢٥ أغسطس سنة ١٨٠١ وشرح له خطر الموقف وعقم الاستمرار فى المقاومة وضرورة الجلاء عن الإسكندرية، وعلم منه أن هذا هو رأى قواد الجيش، فمالت نفسه إلى المفاوضة ووقعت حادثة كان لها تأثير كبير فى نفس منو جعلته يجنح إلى كف القتال، ذلك أن زوجته المصرية وابنها وحاشيتها كانوا فى القاهرة حينما جلا الفرنسيون عنها، فطلبت من السلطات الإنجليزية السماح لها باللحاق بزوجها الجنرال فى الإسكندرية، فسهل لها الجنرال هتشنسون الوصول إلى الثغر ووصلت سالمة هى وحاشيتها، فكان لهذا العمل الإنسانى أثر كبير فى نفس منو.

المفاوضة فى الجلاء

وأخيراً أرسل منو اثنين من ياروانه يوم ٢٦ أغسطس الساعة الرابعة بعد الظهر إلى الجنرال هتشنسون والجنرال كوت يطلب وقف القتال ثلاثة أيام ريثما يعد طلب التسليم، فأجابه الجنرال هتشنسون إلى هذا الطلب، وفى خلال هذه المدة دعا الجنرال منو قواد الجيش الفرنسى إلى الاجتماع فى مجلس حربى على مثال المجلس الذى عقده الجنرال بليار فى القاهرة قبل التسليم ليقرر

قراراً حاسماً فى الحالة ، فاجتمع المجلس الحربى بوكالة فرنسا بالإسكندرية يوم ٢٨ أغسطس سنة ١٨٠١ برئاسة الجنرال منو وعضوية القواد فريان Friant ورامبون Rampon ، وسونجى Songis ، ودستانج Destaing ، وزايونشك Zayonchek ، وفوجيير Fugiere ،وسانسون Sonson وفولتريبه Faultrier ، وبوسار Boussart ، ودلجورج Delegorgue ، ولفيفر Lefebvre ، ودارمنياك Darmagnac ، وهبلر Hepler ، ومدير مهمات الجيش سارتلون ، ومدير مهمات البحرية لرواLe Roy، وقومندان الميناء ريشيه Recher ، فتداول المجلس فى الموقف واستقر رأيه على أن الحالة لا تسمح باستمرار الدفاع عن الإسكندرية لأن نسبة الحامية إلى القوات التى تحاصرها كنسبة واحد إلى عشرة ، ولأن الحلفاء يحاصرون المدينة براً وبحراً فى البحر أربعون بارجة مخصصة للحصار فضلا عن أن الأمراض قد فتكت بالحامية ونفدت الأقوات من المدينة وانقطع ورود المياه العذبة إليها ، وعلى ذلك قرر المجلس تكليف الجنرال منو مفاوضة قواد جيوش الحلفاء على قاعدة جلاء الجيش الفرنسى عن الإسكندرية على أن تكون الشروط «مشرفة لرجال الجيش والملحقين به » .

وترك المجلس للجنرالات رامبون وفريان وسونجى وسانسون ودلجورج وضع شروط الجلاء على أن تعرض على المجلس ، فلما عرضت اختلف القواد فيما بينهم وظهر الجنرال منو بمظهر المتردد ، وانتهى ميعاد الثلاثة الأيام المضروبة لتقديم طلب الجلاء ، فتهدد الجنرال هتشنسون باستئناف الهجوم على المدينة ، وأخيراً قبل مد الهدنة إلى صباح ٣٠ أغسطس ، وفى الموعد المحدد أرسل الجنرال منو شروط التسليم التى يرتضيها إلى الجنرال هتشنسون ، فأجاب هذا عليها بإرسال الشروط التى يفرضها الجيشان الإنجليزى والتركى للجلاء .

اتفاقية الجلاء

(٣١ أغسطس سنة ١٨٠١)

تم الاتفاق على شروط الجلاء يوم ٣١ أغسطس سنة ١٨٠١ ووقع عليها كل من اللورد كيث والجنرال هتشنسون وحسين قبطان باشا والجنرال منو.

وتقتضى هذه الشروط أن يتم جلاء الجنود الفرنسية عن المدينة وقلاعها وملحقاتها فى عشرة

أيام من يوم التوقيع على الاتفاق ، وأن يسلم الفرنسيون السفن التى لهم ، وأن تنقل الجنود الفرنسية على سفن الحلفاء ومعهم أسلحتهم وأمتعتهم وعشرة مدافع من مدافعهم ويسلموا باقى مدافعهم وذخيرتهم ثم تقلهم السفن إلى أحد الثغور الفرنسية بالبحر الأبيض المتوسط ، وأن يسلم أعضاء المجمع العلمى ولجنة العلوم والفنون جميع الآثار والمجاميع والخرط والرسوم والمخطوطات التى جمعوها فى مصر إلى قواد الحلفاء .

رواية الجبرتى :

قال الجبرتى فى حوادث ٢١ ربيع الثانى سنة ١٢١٦ [٣٦] : « وفيه ورد خبر من إسكندرية بانقضاء الحرب وطلب الفرنسيس الصلح بعد وقوع الغلبة عليهم وهزيمتهم وأخذ منهم عدة أسرى وانحصروا فى الأبراج فأمنوهم وأجلوهم خمسة أيام آخرها يوم الخميس سابع عشرينه » .

وقال فى موضع آخر : « وفى غايته (ربيع الثانى) عمل شنك ومدافع كثيرة وذلك لوصول خبر بتسليم الإسكندرية » .

جلاء الفرنسيين عن الاسكندرية

بدأ الفرنسيون يوم ٢ سبتمبر سنة ١٨٠١ يسلمون قلاع المدينة واستحكاماتها ومدافعها والسفن الحربية التى كانت لهم فى الثغر ، ولما جاء دور تسليم مقتنيات أعضاء المجمع العلمى ولجنة العلوم والفنون احتج أولئك الأعضاء على حرمانهم ثمرة أبحاثهم وجهودهم واكتشافاتهم ، وأوفدوا ثلاثة منهم وهم جوفروا سان هيلير Geoffroi Saint Hilaire وسافينى Savigny ، ودليل Delille لمقابلة الجنرال هتشنسون لإقناعه بالعدول عن هذا الشرط ، فرفض طلبهم ، فأجمعوا رأياً على الامتناع عن تسليم تلك الكنوز العلمية . وأنذروا القائد الإنجليزى بإحراقها بدلا من التفريط فيها وتسليمها ، وأبلغوه انهم يلقون على عاتقه تبعة حرمان العلم من هذه النفائس فى حالة إصراره على طلبه ، فبهت القائد الإنجليزى أمام هذا التهديد ، وقبل مكرها أن يتنازل عن نفاذ هذا الشرط ، وترك لهم مقتنياتهم ، بيد أنه منعهم من أخذ العاديات التى أرادوا تهريبها معهم ، وحجزها بحجة أنها

(٣٦) ٣١ أغسطس سنة ١٨٠١ .

ملك مصر ، لكن مصر حرمت منها ونقلها الإنجليز إلى بلادهم وزانوا بها متاحفهم ، ومن هذه الآثار (حجر رشيد) المشهور الموجود إلى اليوم فى المتحف البريطانى بلندن .

وفى خلال الوقائع الحربية التى انتهت بها الحملة الفرنسية كانت المفاوضات بين فرنسا وإنجلترا دائرة حول عقد الصلح بينهما بإقرار السلم فى القارة الأوروبية ، وانتهت هذه المفاوضات بتوقيع مقدمات الصلح المعروفة بمقدمات لندن (أول أكتوبر سنة ١٨٠١) ، وهذه المقدمات تتضمن القواعد الأساسية التى بنيت عليها فيما بعد معاهدة الصلح المعروفة بمعاهدة أميان Amiens (٢٧ مارس سنة ١٨٠٢) التى أبرمت بين انجلترا وفرنسا وحيلفتيها هولندا وأسبانيا .

جرت هذه المفاوضات والحرب قائمة فى مصر بين الجيش الفرنسى والجيشين التركى والإنجليزى ، وكان نابليون يعلم أن لا أمل له فى إنجاد جيش الجنرال (منو) فرضى أن يكون أساس الصلح بالنسبة لمصر جلاء الإنجليز والفرنسيين معاً ، فكان هذا الشرط أهم الشروط التى احتوتها (مقدمات لندن) أما الشروط الأخرى فخلاصتها أن تعيد إنجلترا إلى فرنسا وحليفتيها هولندا وإسبانيا الأملاك التى استولت عليها القوات البريطانية فى البحار ما عدا جزيرة (سيلان) بالهند وجزيرة (ترينتيه)[٣٧] فقد استبقتهما إنجلترا ورضيت بالجلاء عن الأملاك الأخرى وخاصة جزيرة مالطة .

ومن مصادفات القدر أنه لم تكد تنقضى ثمانى ساعات على إبرام (مقدمات الصلح) حتى ورد البريد إلى لندن يحمل نبأ تسليم الجنرال (منو) وتوقيعه شروط الجلاء عن مصر.

أخذت السفن المقلة للجنود الفرنسيين تقلع من الإسكندرية فى خلال شهر سبتمبر سنة ١٨٠١ [٣٨] قاصدة إلى فرنسا ، وكان عددهم يوم رحيلهم ٧٢٠٠ من الجنود و ١٥٠٠ من البحارة و ١٤٠٠ من المرضى و ٦٨٠ من الملكيين ، وكان آخر من أبحر منهم الجنرال (منو) الذى أصيب بالطاعون فى أواخر أيامه ، فغادر ثغر الإسكندرية يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٨٠١ [٣٩] .

وبجلاء الفرنسيين عن الإسكندرية طويت صحيفة الاحتلال الفرنسى فى مصر.

---

(٣٧) من جزر الأنتيل بأمريكا وكانت تابعة لإسبانيا .

(٣٨) يقول المسيو مالوس فى يومياته إن جلاء الفرنسيين عن الإسكندرية وقع بين ١٤ و ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٠١ .

(٣٩) لم ينقم نابليون على الجنرال (منو) أخطاءه فى مصر بل أعلن رضاه عنه لتملقه إياه وأنعم عليه فى عهد الإمبراطورية بلقب (كونت) وعينه حاكماً للبيمونت فى إيطاليا ثم للبندقية حيث مات بها سنة ١٨١٠ .

الفصل الثالث عشر

نتائج ظهور العامل القومى على مسرح الحوادث السياسية

ألمعنا فى مقدمة الكتاب إلى أن بدء الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث يرجع إلى أواخر القرن الثامن عشر ، وأن أول دور من أدوارها هو عصر المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر ، وقلنا فى بيان هذه الحقيقة : « بدأ العامل القومى يظهر على مسرح الحوادث السياسية خلال الحملة الفرنسية ، ذلك حين نهضت الأمة لمقاومة الاحتلال الفرنسى بكل ما أوتيت من حول وقوة ، وجادت بكل تضحية ، واحتملت ضروب العنت وصنوف الأذى لتتخلص من احتلال الفرنسيين ، وظل العامل القومى محتفظاً بقوته بعد جلاء الجيش الفرنسى ، فلم يستطع الترك ، ولا المماليك ، ولا الإنجليز ، أن يهزموه ، أو يقهروه ، أو يبعدوه عن الميدان ، وكان من نتائجه بعد انتهاء الحملة الفرنسية ثورة الشعب على حكم المماليك ، ثم على الوالى التركى ، ثم المناداة بمحمد على والياً مختاراً على مصر ، ثم إخفاق الحملة البريطانية التى جردتها إنجلترا لتحقيق أطماعها فى وادى النيل ، وهزيمتها فى رشيد والحماد »[1] .

ولقد فصلنا فى الجزء الأول والفصول التى مرت بك من الجزء الثانى مبلغ مقاومة الأمة للاحتلال الفرنسى ومدى الحركات الشعبية التى حدثت فى خلال تلك السنوات ، فانتهينا من ذكر النتائج الأولى لظهور العامل القومى ، والآن فلنتكلم عن النتائج التى أعقبت جلاء الفرنسيين ، وتمهيداً لهذا البيان يجدر بنا أن نوضح الحالة السياسية فى مصر بعد انتهاء الحملة الفرنسية .

---

(١) الجزء الأول (ص ٥ من الطبعة الأولى و ٧ من الطبعة الثالثة) ، و (الحماد) واقعة بالبر الغربى للنيل جنوبى رشيد ، وتجد موقعها بالخرطة المنشورة ص ٦٤ من الجزء الثانى .

الحالة السياسية فى مصر بعد جلاء الفرنسيين

جلا الفرنسيون عن مصر بعد احتلال ثلاثة أعوام وشهرين ، فتنازع السلطة فى البلاد ثلاث قوات مختلفة المصالح متباينة الأغراض ، اتحدت وقتاً ما على محاربة الفرنسيين ، ولما تم لها النصر عليهم بدأت كل قوة تعمل على تحقيق أطماعها الخاصة فى وادى النيل .

هذه القوات الثلاث هى : الأتراك ، والإنجليز ، والمماليك .

الأتراك :

تطلعت تركيا إلى بسط حكمها المطلق فى مصر بحجة أنها فتحتها بحد السيف ، وأرادت أن تجعل منها ولاية أو عدة ولايات تحكمها كما كانت تحكم ولايات السلطنة العثمانية بولاتها الذين لم تر البلاد منهم منذ عهد الفتح العثمانى سوى الظلم والفوضى وسوء الإدارة .

أرادت تركيا أن تستخلص مصر لنفسها ، لذلك استقر عزمها على محاربة المماليك والقضاء عليهم حتى لا ينازعوها سلطة الحكم فى البلاد ، فكانت تعليماتها للصدر الأعظم يوسف باشا ضيا تقضى بإبادة بقية المماليك كيلا تقوم لهم قائمة ، أو إبعادهم عن مصر وإسكانهم فى ولاية أخرى من ولايات السلطنة العثمانية .

كانت القوات العثمانية فى مصر مؤلفة من جيشين ، الجيش الأول وعدده نحو ٢٥ إلى ٣٠ ألف مقاتل بقيادة الصدر الأعظم ، ويتألف من الانكشارية وحرس الوزير والجنود الذين حشدهم فى سوريا ، والمعسكر العام لهذا الجيش فى القاهرة ، وجنوده تحتل العاصمة ومعظم بنادر مصر الوسطى والصعيد كبنى سويف والمنيا وأسيوط .

أما الجيش الثانى فكان مرابطاً شمالى الدلتا بقيادة حسين قبطان باشا قومندان العمارة العثمانية التى كانت راسية فى خليج أبو قير ، وعدد هذا الجيش نحو ستة آلاف مقاتل معظمهم من الأرناؤود والانكشارية يحتلون المواقع القريبة من مرسى العمارة .

الإنجليز :

كانت إنجلترا تطمع فى أن تبسط نفوذها فى وادى النيل وتحتل بعض المواقع المهمة على

شواطئه فى البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر لتضمن لنفسها السيادة فى البحار وترقب طريقها إلى الهند كما سبق لنا بيان ذلك (ص ٢١٦)، وكان الجيش الإنجليزى فى مصر مؤلفاً من ستة عشر ألف مقاتل بقيادة الجنرال هتشنسون يحتلون الإسكندرية ورشيد ودمنهور ويلحق به الجيش الذى قدم من الهند بقيادة الجنرال بيرد Baird وعدده نحو ستة آلاف مقاتل معسكرين فى الجيزة.

كانت إنجلترا ترمى إلى تخليد احتلالها لتلك المواقع، وقد احتلتها مرتكنة على معاهدة التحالف المعقودة بينها وبين تركيا فى ٥ يناير سنة ١٧٩٩، على أنها لم تكن ترمى من هذه المعاهدة إلى طرد الفرنسيين من مصر فحسب، بل كانت لها أطماع أخرى تضمرها لوادى النيل، ومع أن المعاهدة كانت مقصورة على «ضمان الحكومة البريطانية سلامة أملاك السلطنة العثمانية بلا استثناء كما كانت قبل الحملة الفرنسية على مصر» لكن اللورد إلجين Elgin سفير إنجلترا المفوض فى الآستانة توصل إلى إضافة شرط ملحق بالمعاهدة وهو «أن الجيش الإنجليزى لا يجلو عن مصر إلا بعد استتباب الأمن فى ربوعها».

فالحكومة الإنجليزية لم تضع هذا الشرط الإضافى عبثاً، بل كانت ترمى إلى التذرع به لتعطيل أجل احتلالها للبلاد، ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، وما أشبه هذا النص بالحجج التى تذرعت بها بعد ثمانين عاماً لتسيغ لنفسها احتلال مصر سنة ١٨٨٢ وتطيل أجل هذا الاحتلال، والتاريخ يعيد نفسه.

المماليك:

أما المماليك فقد كانوا يطمعون بعد انتهاء الحملة الفرنسية فى استعادة حكمهم فى مصر، وحجتهم أنهم حكامها الأقدمون الذين دانت لهم البلاد السنين الطوال، وقد فطنوا إلى أن الأتراك يأتمرون بهم ويريدون التخلص منهم، فاتجهوا بأنظارهم إلى الإنجليز يطلبون حمايتهم ويستمدون منهم المعونة لتحقيق أطماعهم، وكانت خطة الإنجليز حيال المماليك مغرية لهم على الاسترسال فى أوهامهم وآمالهم، ذلك أن الجنرال هتشنسون سعى قبل أن يزحف على القاهرة فى ضم المماليك من خلفاء مراد بك إلى صفوفه، وكانوا فى ذلك الحين موالين للفرنسيين بحكم اتفاق مراد — كليبر، فوعدهم أن يعيد لهم سلطتهم القديمة فى مصر إذا هم انضموا إلى جيوش الحلفاء، فرأى المماليك أن صفقة الإنجليز أربح وأن نجم الفرنسيين آخذ فى الأفول فانتقضوا

عليهم ونكثوا اتفاق مراد بك وانضموا إلى صفوف الإنجليز ، وعزم هؤلاء على أن يتخذوهم صنائع لسياستهم فى وادى النيل ، فأيدوهم وناصروهم ومالئوهم على استعادة سلطتهم القديمة فى مصر ، ولا عجب فى ذلك فإن حكم المماليك قائم على الظلم والفوضى ، ومن مصلحة إنجلترا انتشار الفوضى والمظالم فى البلاد لتجد سبيلا لاحتلالها والتدخل فى شئونها ، من أجل ذلك توثقت عرا المودة بين المماليك والإنجليز واعتقد المماليك أن سلامتهم فى الاستظلال بحمايتهم ، ولما انتهت الحرب بجلاء الفرنسيين أبدى الجنرال هتشنسون عطفاً كبيراً على مطالب المماليك .

على أن المماليك تضعضعت قوتهم وتحطمت شوكتهم فى المعارك التى نشبت بينهم وبين الفرنسيين خلال الحملة الفرنسية ، ولم يبق منهم سوى عدد يتراوح بين ثلاثة آلاف وخمسمائة إلى أربعة آلاف مملوك بما فيهم بضع مئين من الأرقاء الذين اشتروهم من القوافل القادمة من سنار ، وضموهم إلى صفوفهم ، وبضع مئات من الفرنسيين[٢] الذين لم يرحلوا مع الجنود الفرنسية حين الجلاء وآثروا البقاء فى مصر فانضموا إلى صفوف المماليك ، فمثل هذه القوة لم تكن لتقف أمام قوة الجيش العثمانى المرابط فى مصر وخاصة بعد أن منعت الدولة جلب الرقيق من بلاد الشركس ، فنضب معين المماليك وحرموا من إكمال النقص الواقع فى صفوفهم ، هذا فضلا عن عوامل الانقسام والتنافس التى كانت تضعف قوتهم وتصدع وحدتهم ، فإن التنافس القديم الذى كان بين حزبى إبراهيم بك ومراد بك قبل الحملة الفرنسية قد استمر بعد انتهائها ، فكان لكل منهما أنصار وشيعة من الأتباع والبكوات ، ولما مات مراد بك استمر الانقسام بين انصار إبراهيم بك وخلفاء مراد بك ، وقد استخدمت تركيا هذا التنافس لتضرب المماليك بعضهم ببعض ، وعمل الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا وحسين قبطان باشا على تحريك هذا التنافس القديم ، فكان كل منهما يعد كل حزب من حزبى المماليك بأن تكون السلطة والسيادة فى مصر ، وكان أنصار ابراهيم بك مقيمين فى القاهرة لأنهم قدموا صحبة الجيش العثمانى ، أما خلفاء مراد بك فقد اصطحب معظمهم حسين باشا القبطان ومضى بهم إلى شمال الدلتا وعهد إليهم حراسة الجنود الفرنسية عند جلائها عن القاهرة فى طريقها إلى رشيد ، وبعد أن تم رحيل الجنود الفرنسية تخلفوا بالإسكندرية وأبو قير يتلقون الأوامر من حسين باشا القبطان بعيدين عن إبراهيم بك وأنصاره ، فهذا التباعد بين المماليك والتنافس القديم بين

(٢) قدرهم المسيو فلكس مانجان فى كتابه بثلثمائة .

زعمائهم زاد فى ضعفهم وفل من حدهم ، وكان المماليك مختلفين كذلك فى وجهة النظر السياسية ، ففريق منهم وهو الأغلب كانوا يرون السلامة فى الاستظلال بحماية الإنجليز يتخذونهم حماة وأولياء ، وعلى رأس هذا الفريق محمد بك الألفى ، وفريق آخر كان يرى الاستنجاد بفرنسا ومنهم عثمان بك البرديسى ، وفريق ثالث يرى الكف عن القتال والتزام الحياد وموالاة الأتراك وعلى رأسهم عثمان بك حسن ، وكان الألفى والبرديسى زعيمى المماليك المرادية (أتباع مراد بك) ، وكان لإبراهيم بك حزب آخر يتبعه ينافس البكوات المرادية فى الزعامة والسلطة ، على أن ابراهيم بك قد تضعضعت شوكته لكبر سنه فلم يكن له من الاحترام إلا ما كان جديراً به لشيخوخته وسابق سلطته .

فالتباعد بين المماليك ، والتنافس القديم بين زعمائهم ، وأطماعهم الشخصية ، واختلاف وجهة نظرهم السياسية ، كل هذه الظروف مجتمعة كانت من الأسباب التى عجلت بانقراض دولتهم وإراحة مصر من حكمهم .

العامل القومى :

تلك هى القوات التى تنازعت النفوذ والسلطة فى مصر ، وهناك قوة رابعة ظهرت على مسرح النضال السياسى وأخذت تنمو ويشتد ساعدها دون أن تأبه لها تلك القوات الثلاث ، أو تحسب لها حساباً ، على أنها القوة الثابتة الخالدة المؤيدة بحقها الشرعى فى تقرير مصير البلاد ، تلك هى قوة الشعب المصرى .

بدأت هذه القوة تظهر فى الميدان خلال السنوات التى قضاها الجيش الفرنسى فى البلاد ، ظهرت الأمة بشخصية جديدة ، وروح فتية ، وعزيمة قوية ، كونتها الحوادث والشدائد ، وصقلتها التجارب والآلام ، كانت هذه السنوات الثلاث بمثابة مران على النضال والكفاح السياسى وتطور فى الحياة القومية ، رأت الأمة خلالها من الحوادث والانقلابات ما فتح أعينها وهز أعصابها واستثار فيها روح التطلع إلى المجد والعلا ، رأت نابليون بونابارت يخطب ودها ، ويشيد بعظمتها ، ويتملق كبرياءها القومى ، ويتغنى بماضيها ، ويعلن حقها فى أن تحكم نفسها بنفسها .

ثارت فى وجه الحكم الفرنسى غير مرة ، فاعتادت مقاومة الاضطهاد ومكافحة القوة المسلحة ، وألفت خوض غمار الوقائع والمعارك ، قاومت نابليون قاهر الملوك ومزلزل العروش ،

رأت خلاصة علماء فرنسا وأطبائها ومهندسيها يعرضون عليها آثار علمهم وفلسفتهم وحضارتهم وتجاريبهم ، رأت علوماً وأفكاراً جديدة ، ومنشآت ونظماً حديثة ، رأت « ديواناً » مؤلفاً من صفوة أبنائها بعد أن كان الديوان القديم مقصوراً على المماليك ، أيقظت الحوادث فيها روح المقاومة الشعبية ، تلك الروح التى تنهض بالأخلاق ، وترقى بالأفكار ، وتفتق الأذهان ، وتنير البصائر ، وتغرس الفضائل فى النفوس ، وأخذ ترادف الحوادث فى خلال تلك السنوات الثلاث يمزق أستار الصمت والجمود التى كانت تحجب عنها نور الحياة والنشاط ، فلا غرو أن ظهرت الأمة المصرية العريقة فى الحضارة والمدنية بشخصية جديدة ولّدتها الحوادث ، وأن تقتحم ميدان النضال السياسى بروح معنوية جديدة تختلف كثيراً عن حالتها القديمة ، وكذلك الأمم المستعدة للرقى تتطور نفسيتها وتتجدد شخصيتها تحت تأثير الحوادث السياسية والانقلابات ، وهنالك يظهر مبلغ استعداد كل أمة للرقى ، ومقدار ما هو كامن فى قرارة نفسها من المواهب الدفينة ، فالأمة المصرية التى ظلت السنين الطوال رازحة تحت نير الاستبداد لم تفقد مواهبها القديمة التى ورثتها عن المدنيات المتعاقبة ، بل كانت هذه المواهب كامنة تحت الرماد ، يعلوها الصدأ ، فما إن صدمتها الحملة الفرنسية حتى أخذت تبدو للعيان كما تُصقل المعادن وتُجلى جواهرها فى لهب النار ، ونهضت الأمة فى وجه الاحتلال الأجنبى تحمل بين جنبيها قوة حيوية كبيرة ، ظهر الشعب المصرى فى الميدان قوياً فتياً لا يمل الجهاد ولا ينكص على الأعقاب ، ولما طويت صحيفة الغزوة الفرنسية ظل يناضل عن كيانه فى وجه العوامل المثبطة والقوات المتألبة عليه ، وإذا تتبعت التقلبات التى أعقبت جلاء الفرنسيين رأيت العامل القومى ذا أثر فعال فى سير الحوادث وتطورها ، فهذا العامل الوليد الذى تمخضت عنه المقاومة المستمرة فى عهد الحملة الفرنسية أخذ ينمو ويترعرع ويشتد ساعده ، وأبى أن يعود إلى نظام الحكم القديم أو يكون مطية لأهواء الدول الطامعة فى وادى النيل ، وجعل يتطلع إلى نظام للحكم أرقى من النظم التى رزحت تحتها البلاد السنين الطوال .

فى خلال تلك السنوات ، وفى غمار المنازعات والأطماع المختلفة ، أخذ الشعب ينظر بعين السخط والمقت إلى عودة حكم المماليك وحكم الأتراك معاً ، أما حكم المماليك فلم يكن قد نسى مظالمه القديمة ، وما جره على البلاد من الخراب ، وأما الحكم التركى فقد ظهر من سيئاته ومظالمه فى خلال السنوات التى أعقبت جلاء الفرنسيين ما جعل الشعب يكره أن يعود إلى نيره القديم ، وكانت الجنود العثمانية التى ساقتها تركيا إلى مصر خليطاً من أردأ عناصر السلطنة

العثمانية ، مجردة من النظام والرق والتهذيب ، يقودها رؤساء جهلاء لم يألفوا من أساليب الحكم سوى الظلم والارتكاب ، لم يكن لهم همٌّ سوى النهب والتخريب والاستهانة بأرواح الناس وإرهاق الشعب بمختلف أنواع المظالم والمغارم ، كما ستراه مفصلا فيما يلى ، فلا جرم أن كره الشعب حكم المماليك والأتراك وأخذ يدأب ويعمل للتخلص من كلا الحكمين معاً .

قادة الشعب وزعماؤه

ظهر للشعب فى خلال تلك السنين زعماء معدودون كونتهم الحوادث وثقفتهم التجارب ، فكان لهم فضل كبير فى إظهار شخصية الأمة وتوجيهه إلى ما فيه خيرها وصالحها ، نالوا هذه الزعامة بما كان لهم من المقام المحمود بين الناس قبل الحملة الفرنسية وما أكسبهم اضطهاد الفرنسيين من المحبة والجلال . وما اشتهروا به من نصرة المظلوم وحماية الضعفاء فى وجه القوة والظلم .

وقد ساعد على زيادة نفوذهم بعد جلاء الفرنسيين أن التنازع بين المماليك والأتراك قد أضعف مركز الفريقين ، فاستطاع الشعب فى خلال هذا التنازع أن يكسب نفوذاً جديداً وسلطة جديدة ، وظهر لزعماء الشعب صوت مسموع فى حكومة البلاد وتطور الحوادث وعزل الولاة وتعيينهم ، فالنفوذ الجديد الذى اكتسبه الشعب وزعماؤه هو من أكبر مميزات سنوات الانتقال التى أعقبت الحملة الفرنسية .

فلنستعرض شخصية أولئك الزعماء الذين ملكوا قيادة الشعب فى دور من أهم أدوار حياته القومية ، ونخص بالذكر من كانوا أكثرهم عملا وأكبرهم أثراً فى سير الحوادث وتطورها .

السيد عمر مكرم :

هو أكبر شخصية ظهرت بين رجالات مصر فى فجر النهضة القومية ، كان أكبر زعماء الشعب نفساً ، وأكثرهم شجاعة وإقداماً ، وأعظمهم نفوذاً ، وأرفعهم كلمة ، فلا غرو أن نعده زعيم الزعماء ورئيس الرؤساء .

لا نعرف الشىء الكثير عن مولده ونشأته ، ذلك لأن الجبرتى لم يترجم له كما ترجم لمعظم

معاصريه ، لأن عادة الجبرتى أن يذكر تراجم الوفيات من رجالات مصر ، وهو لم يدرك وفاة السيد عمر مكرم ، ولذلك حرمنا ترجمة وافية لهذا الرجل النبيل من قلم مؤرخ محقق كانت ميزته البحث والاستقصاء ، على أننا مع ذلك لم نحرم إسهاب الجبرتى فى سرد أعمال السيد عمر مكرم والأدوار الخطيرة التى قام بها على مسرح الحوادث السياسية .

والذى عرفناه من خلال تحقيقات الجبرتى أن السيد عمر مكرم أسيوطى المولد والنشأة ، ولد فى أسيوط ونشأ فيها ، ولذلك يسميه فى بعض المواطن السيد عمر الأسيوطى ، وقد تحققنا أنه من سلالة الحسن بن على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

كان نقيبًا للأشراف فى مصر قبل مجىء الحملة الفرنسية ، فهو بحكم توليه النقابة فى مقدمة رجالات مصر منزلة وجاهًا ، فلما جاء الفرنسيون ظهرت شخصيته الكبيرة ونفسيته القوية بما دعا الشعب إليه من التطوع للقتال وما بثه فى نفوس الجماهير من روح المقاومة ، يدلك على ذلك ما ذكره الجبرتى عن حالة القاهرة قبل واقعة الأهرام بأربعة أيام من النداء بالنفير العام وخروج الناس بالمتاريس استعدادًا للمقاومة ، قال : « وصعد السيد عمر أفندى نقيب الأشراف إلى القلعة فأنزل منها بيرقًا كبيرًا أسمته العامة البيرق النبوى فنشره بين يديه من القلعة إلى بولاق وأمامه ألوف من العامة » . وهذا هو بعينه استنفار الشعب إلى التطوع العام لصد هجمات الفاتح المغير والسير فى طليعة المتطوعين للقتال ، فتأمل فى حالة نقيب الأشراف النفسية وهو ينزل من القلعة ناشرًا علم الجهاد يشق المدينة من شرقيها إلى غربيها وحوله الألوف من الناس ذاهبًا بهم إلى بولاق تجاه إمبابة حيث وقعت الواقعة ، إن هذه الحالة النفسية هى أرقى ما يتصف به زعماء الشعب فى ساعة الشدة ، وهى لا تقل نبلا عن الدعوة للتطوع العام التى بثها زعماء الثورة الفرنسية فى نفوس الشعب الفرنسى حينما نادوا « إن الوطن فى خطر » ، فالسيد عمر مكرم كان إذن فى طليعة المتطوعين للقتال المدافعين عن القاهرة فى وجه الاحتلال الفرنسى ، ولما وقعت الهزيمة فى معركة الأهرام لم يرض البقاء فى القاهرة بعد أن أصبحت تحت رحمة الغزاة ، ولم تلن قناته لهم على الرغم من أنهم اختاروه لعضوية الديوان الأول كما مر بيان ذلك بالجزء الأول[٣] ، فرفض عضوية الديوان وهاجر إلى سوريا وأبى العودة إلى القاهرة ، ولو هو عاد إليها لنال من احترام الفرنسيين وعطفهم ما يغرى النفوس ويكسر من حدتها ،

(٣) ص ٩٧ من الطبعة الأولى.



صور قادة الشعب وزعمائه فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، ومن لم نعثر على صورهم اكتفينا بكتابة أسمائهم داخل الإطار (تاريخ الحركة القومية الجزء ٢ من ص ٢٦٣ وما بعدها)

ولكنه آثر الهجرة والنفى وشظف العيش إباءً للضيم ونفورًا من الذل ، وترك فى مصر أملاكه وأمواله عرضة للنهب والمصادرة ، وظل فى منفاه بمدينة (يافا) إلى أن احتلها الفرنسيون أثناء الحملة على سوريا ، فقابله بها نابليون ، وكان يعرف منزلته من قبل ، فأمر بإرجاعه إلى مصر معززًا مكرمًا ، فعاد إليها ، لكنه اعتزل الفرنسيين واعتكف فى بيته ولم يشأ أن يتصل بهم أو يتقرب إليهم ، ولو أنه أراد ذلك لأغدقوا عليه النعم وخصه بأعظم المزايا ليجتذبوه إلى صفوفهم ، وبقى فى عزلته إلى أن أبرمت معاهدة العريش ثم نقضت وتجددت الحرب بين الفرنسيين والعثمانيين وثارت القاهرة ثورتها الثانية ، فكان من زعمائها ، وذلك باتفاق الجبرتى والمراجع الفرنسية ، ولما أخمد الفرنسيون تلك الثورة هاجر من مصر ثانية ، واستهدف فى هذه المرة أيضًا للنهب والمصادرة ، ثم عاد إلى مصر بعد جلاء الفرنسيين ، فزادت منزلته القديمة فى نفوس الشعب وعادت إليه نقابة الأشراف التى نزعت منه أثناء هجرته الأولى ، وإذا تأملت فى الحركات التى تتابعت فى البلاد بعد انتهاء الحملة الفرنسية تجد أن اسم السيد عمر مكرم يملأ الجو السياسى بما كان له من عظيم النفوذ والمكانة السامية والأثر البالغ فى تطور الحوادث ، وتتبين أن له اليد الطولى فى الثورة التى قامت ضد حكم المماليك سنة ١٨٠٤ ، وضد الوالى التركى سنة ١٨٠٥ ، وكان منظورًا إليه من الشعب كرئيس تستجاب دعوته وتطاع كلمته وملجأ يأوى إليه المظلومون فيرفع عنهم شر المظالم ويقيم طغيان الحكام .

فترجمته مقترنة بالحوادث الجسيمة التى وقعت فى البلاد بعد جلاء الفرنسيين إلى ارتقاء محمد على عرش مصر ، وتجد هذه الترجمة فى تتبع الفصول الآتية ، ولقد أفردنا له فوق ذلك نبذة خاصة تحت عنوان (عمر مكرم روح الحركة) يتبين منها مبلغ ما كان له من الفضل فى ثورة الشعب على الوالى التركى .

السيد محمد السادات :

سليل بيت السادات العريق فى المجد وشرف المحتد ، تربى فى مهاد العز والنعمة ، وتلقى العلوم الشرعية واللغوية على شيوخ الأزهر فوصل فى العلم والثقافة إلى ما وصل إليه علماء العصر ، وجمع بين العلم وشرف النسب ، ذلك إلى ما ورثه عن أسلافه من الثروة والجاه ، تولى خلافة آل السادات ومشيخة سجادتهم سنة ١١٨٢ هجرية على عهد على بك الكبير ، فعظمت مكانته وزادت منزلته لما اتصف به من الشمم والإباء والحزم ، مع الكرم وحسن

المعاشرة والترفع عن الصغائر ، وحب المحاضرة فى العلم والأدب ، وصفه الجبرتى من هذه الناحية وصفاً دقيقاً يعطيك صورة وافية عن نفسيته عندما تولى خلافة أسلافه ، قال :

« وأحسن سلوكه بشهامة وحشمة ورئاسة وتؤدة وأدب مع الأشياخ والأقران ، وتحبب إلى أرباب المظاهر والأكابر واستجلاب الخواطر وسلوكه الطرائق الحميدة والتباعد عن الأمور المخلة بالمروءة ، والأخذ بالحزم والرفق مع الاشتغال فى بعض الأحيان بالمطالعة والمذاكرة فى المسائل الدينية والأدبية ومعاشرة الأدباء والفضلاء والمناقشة معهم فى النكات ، واقتناء الكتب من كل فن ، كل ذلك مع الجد والتحصيل للأسباب الدنيوية وما يتوصل به إلى كثرة الإيراد بحسن تدخل وجميل طريقة مبعدة عما يخل بالمقدار » .

عاش السيد محمد السادات وافر الحرمة نافذ الكلمة عظيم المكانة بين الناس سواء قبل الحملة الفرنسية وفى خلالها وبعد انتهائها ، كان جريئاً فى الحق لا يهاب من بيدهم سلطة الحكم ، وبحسبك أن تتأمل فى موقفه حينما أوفدت الدولة العثمانية حسن باشا الجزائرلى سنة ١٧٨٦ إلى مصر لمحاربة المماليك واستعادة سلطتها المطلقة لتحكم على مبلغ ما اتصف به من الشهامة والمروءة ، فقد أسرف حسن باشا فى القسوة والجبروت واستباح أموال المماليك وقبض على نسائهم وأولادهم وأمر بإنزالهم سوق المزاد وبيعهم ، زاعماً أنهم أرقاء لبيت المال ، فاجتمع الشيوخ والعلماء وذهبوا إليه معترضين ، وكان السيد محمد السادات هو المتكلم عنهم ، فاشتد فى مخاطبته وقال له : أأنت أتيت إلى هذا البلد وأرسلك السلطان لإقامة العدل ورفع الظلم كما تقول أم لبيع الأحرار وأمهات الأولاد وهتك الحرمات ؟ فقال حسن باشا : هؤلاء أرقاء لبيت المال ، فقال له : هذا لا يجوز ولم يقل به أحد ، فحنق حسن باشا على السادات والمشايخ وتهددهم بأن يبلغ السلطان معارضتهم لأوامره ، فلم يعبأ السادات بتهديده وأصر على معارضته حتى أفحمه وحمله على العدول عن قصده .

كان السادات فى موقفه هذا معارضاً سياسة الدولة ، متحديًا نائبها ، مؤيداً قومًا تعدهم الدولة من العصاة ، ووقف كذلك فى وجه حسن باشا عند ما صادر أموال الأمراء المماليك ، فقد فر زعماؤهم من القاهرة إلى الوجه القبلى حتى لا يبطش بهم حسن باشا وأودع كبيرهم إبراهيم بك عند السادات ودائعه الثمينة ، فعلم بذلك حسن باشا ، فأرسل يطلب الوديعة ، فرفض بإباء أن يسلمها وقال فى ذلك :

« إن صاحبها لم يمت ، وقد كتبت على نفسى وثيقة بذلك فلا أسلمها ما دام صاحبها فى

- قيد الحياة » ، فحنق عليه حسن باشا وكاد يبطش به ، لولا أن خشى نفوذه ومنزلته بين قومه .

وقف السادات هذا الموقف وهو أعزل لا سلاح معه إلا سلاح الحق ، وقاوم إرادة وزير من وزراء الدولة جاء على رأس جيش ليعيد فى مصر سلطة الحكومة العثمانية ، ولا يقف الرجل مثل هذه الموقف وخاصة فى ذلك العصر إلا إذا كان على حظ عظيم من الشجاعة وعلو النفس ، فلا غرو أن يقول الجبرتى فى هذا الصدد : « فاشتد غيظ حسن باشا منه وقصد البطش به فحماه الله منه ببركة الانتصار للحق ، وكان الباشا يقول لم أر فى جميع الممالك التى ولجتها من اجترأ على مخالفتى مثل هذا الرجل » .

ومما يذكر عنه فى مجابهة أمراء المماليك أنه لما جاءت الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ ووصلت العاصمة أخبار احتلال الإسكندرية وجمع إبراهيم بك ومراد بك المشايخ للتشاور فى الأمر كان السيد السادات ضمن المجتمعين ، فوبخ الأمراء على سوء سياستهم وقال لهم : « إن كل هذا من سوء فعالكم وظلمكم ، وآخر أمرنا معكم أنكم ملكتمونا للإفرنج » ، وخص مراد بك بالتوبيخ قائلا له : « وخصوصًا بأفعالك وتعديك أنت وأمراؤك على متاجرهم وأخذ بضائعهم » .

فنقم عليه مراد بك هذه اللهجة فى الخطاب ، وأسرها فى نفسه ، قال الجبرتى فى هذا الصدد إن مراد بك بعد أن اصطلح مع الفرنسيين أغراهم بالسيد السادات فكان هذا الإغراء من أسباب اضطهادهم إياه ، وقد ذكر عنه المسيو فلكس مانجان[4] أنه لم يكن يحب المماليك وكان المماليك من جهتهم لا يحبونه ويحقدون عليه لمكانته من الشعب .

وقد رفض عضوية الديوان فى عهد الحملة الفرنسية ، وظل محفوظ الكرامة مقبول الشفاعة ، ولم تلن قناته للفرنسيين ، ولاهم كانوا يثقون له ، وحدثت بينه وبينهم مشادة فى بعض المواطن ، فقد تقدم القول بأنهم اتهموه بزعامة ثورة القاهرة الأولى وقامت عليه البينات بذلك ، ولكن نابليون رأى أن محاكمته تجعله شهيداً فى نظر الشعب وأن الضرر من قتله أكثر من نفعه[5] ، فأبقى عليه ، وحدث أنه لما أمر نابليون بعزل ملا زاده ابن القاضى التركى واعتقله كان الشيخ السادات أكثر العلماء اعتراضاً على حبسه ، وعلم نابليون بموقفه فى هذا الصدد ، فنقم ذلك منه فاستدعاه ولامه على مسلكه ، فتدخل بينهما الشيخ محمد المهدى

---

(٤) فى كتابه تاريخ مصر تحت حكم محمد على .

(٥) انظر الجزء الأول ص ٣٠٤ من الطبعة الأولى .

(الذى كان موضع ثقة نابليون) والقوميسير الفرنسى للديوان فانتهت المسألة بسلام ، قال الجبرتى فى هذا الصدد : « فتكلم بينهما الشيخ محمد المهدى ووكيل الديوان الفرنساوى حتى سكن غيظه وأمره بالإنصراف إلى منزله بعد أن عوَّقه[٦] حصة من الليل » .

ويقول عنه المسيو فيلكس مانجان أنه كان من زعماء ثورة القاهرة الثانية ، ووصفه بأنه رجل يميل إلى الهياج والشغب .

وقد ناله من اضطهاد الفرنسيين فى عهد كليبر ومنو ما تقدم بيانه فى الفصل التاسع والفصل الثانى عشر[٧] ، فلما جلا الفرنسيون عن البلاد علت منزلته فى نظر الشعب واشترك فى الحركات الشعبية التى قامت فى مصر على النحو الذى بسطناه فى هذا الجزء وفى الفصول الثلاثة الأولى من كتاب « عصر محمد على » ، ومع أن السيد عمر مكرم والسادات كانا فى مقدمة رؤساء الشعب منزلة ونفوذًا فقد وقعت بينهما المجافاة فى عهد محمد على باشا ، وانضم السادات إلى محمد على فى الوقيعة بالسيد عمر مكرم ، وتولى نقابة الأشراف بدله كما تراه مفصلا فى موضعه بالفصل الثالث من كتابنا « عصر محمد على » ، وتوفى السادات سنة ١٢٢٨ هجرية .

الشيخ عبد الله الشرقاوى :

هو الشيخ عبد الله بن حجازى بن إبراهيم ، ولد كما يقول الجبرتى فى حدود سنة ١١٥٠ هجرية فى قرية (الطويلة) بإقليم الشرقية ، ولذلك سمى الشرقاوى ، وحفظ القرآن فى قرية (القرين) القريبة من الطويلة ، ثم أرسله أبوه إلى الأزهر ليتلقى العلم على شيوخ ذلك العصر ، وكان شأنه شأن طلبة العلم الذين يفدون على الأزهر ويتلقون علومه ثم ينتظمون فى سلك العلماء ، وتميز بالجد والمثابرة فى التحصيل ، وكان شافعى المذهب وله مؤلفات فى العلوم الفقهية والتصوف ، وكان فى بداءة عهده « فى قلة من خشونة العيش وضيق المعيشة » كما يقول الجبرتى ، فكان بعض معارفه يواسونه ويمدونه بالعون إلى أن اشتهر ذكره بين الناس ، فواصله بعض السراة والتجار بالهدايا والصلات « فراج حاله وتجمل بالملابس وكبر تاجه » وبعد وفاة الشيخ أحمد العروسى سنة ١٢٠٨هـ تولى مشيخة الأزهر ، فعظمت منزلته وأكسبته المشيخة نفوذًا كبيرًا ومكانة عظمى فى مصر لأن شيخ الأزهر هو بمثابة كبير علماء العصر ، وكان أمراء

---

(٦) أى حجزه .

(٧) ص ١٨٠ وص ٢٢٦ .

المماليك يحترمونه ويراعون نفوذه الأدبي والديني ، وله في مقاومة مظالمهم مواقف تدل على مبلغ ما له من النفوذ والجاه .

ذكر الجبرتي ما خلاصته أنه في سنة ١٢٠٩ هجرية أي قبل مجيء الحملة الفرنسية بعدة سنوات حضر إليه أهل قرية بالشرقية له فيها حصة وذكروا له أن أتباع محمد بك الألفي ظلموهم وطلبوا منهم ما لا قدرة لهم عليه ، فغضب الشرقاوي ، وخاطب مراد بك وإبراهيم بك في رفع هذا الظلم ، فلم يكترثا للأمر ، فحضر إلى الأزهر وجمع المشايخ وأقفلوا أبواب الجامع « وأمر المشايخ الناس بغلق الأسواق والحوانيت ، ثم ركبوا ثاني يوم إلى بيت السادات وتبعهم كثير من العامة ، وازدحموا أمام الباب والبركة بحيث يراهم إبراهيم بك ، فأرسل إليهم أيوب بك الدفتر دار (مدير الشئون المالية) فوقف بين أيديهم وسألهم عن مرادهم ، فقالوا نريد العدل وإبطال الحوادث والمكوسات التي ابتدعتموها ، فقال لا يمكن إجابة هذا كله ، فإنا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش ، فقالوا له ليس هذا بعذر عند الله ، وما الباعث على الإكثار من النفقات والمماليك ، والأمير يكون أميرا بالإعطاء لا بالأخذ . فقال حتى أبلغ وانصرف ، وانفض المجلس ، وركب المشايخ إلى الأزهر واجتمع أهل الأطراف وباتوا به » ، هذا ما ذكره الجبرتي ، ومعناه أن الشيخ الشرقاوي حرض الناس على الهياج والمقاومة ولبى الناس دعوته من أطراف القاهرة وجاءوا إلى الأزهر وباتوا به متحفزين للهياج ، والظاهر أن مراد بك خشي مغبة هذه الحركة لأن إقفال الحوانيت والأسواق ، وغلق أبواب الجامع الأزهر واحتشاد الجماهير أمام بيت إبراهيم بك ، كل ذلك من علامات الهياج ، قال الجبرتي : « فبعث مراد بك يقول أجيبكم إلى ما ذكرتموه إلا شيئين : ديوان (جمرك) بولاق ، وطلبكم المتأخر من الجامكية (الرواتب) ، ثم طلب أربعة مشايخ عينهم بأسمائهم ، فذهبوا إليه بقصره بالجيزة ، فلاطفهم والتمس منهم السعي في الصلح ، وفي اليوم الثالث اجتمع الأمراء والمشايخ في بيت إبراهيم بك وفيهم الشيخ الشرقاوي ، وانعقد الصلح على رفع المظالم ما عدا ديوان بولاق ، وأن يكفوا أتباعهم عن مد أيديهم إلى أموال الناس ويسيروا فيهم سيرة حسنة ، وكتب القاضي حجة بذلك وفر من عليها (أي وقع عليها) الباشا والأمراء وانجلت الفتنة وفرح الناس وسكن الحال » .

فهذه الواقعة التي رواها الجبرتي تدلك على مبلغ نفوذ الشرقاوي ومكانته في عهد المماليك . ولما جاء الفرنسيون تولى في عهدهم رئاسة الديوان الذي أنشأوه ، وأسندت إليه رئاسته في

أدواره الثلاثة التى تعاقبت عليه ، فكان رئيسًا للديوان الذى تأسس فى أول عهد الحملة ، ثم للديوان العام ، ثم الديوان العمومى والديوان الخصوصى اللذين أنشأهما نابليون فى ديسمبر سنة ١٧٩٨ ، ثم للديوان الذى تأسس فى عهد الجنرال منو ، وجمع بين رئاسة الديوان ومشيخة الأزهر ، فعظم جاهه وازداد نفوذه .

وكان له مع الفرنسيين شأن طويل ، فقد غضبوا عليه ثلاث مرات ، الأولى فى عهد نابليون حينما رفض أن يرتدى طيلسان الجمهورية المثلث الألوان ورمى به إلى الأرض ، فغضب عليه نابليون وقال إنه لا يصلح لرئاسة الديوان[٨] .

والثانية فى عهد الجنرال (منو) ، فقد ارتاب الفرنسيون فى موقفه بعد مقتل الجنرال (كليبر) لأن قاتل كليبر كان يبيت فى الأزهر ويقيم به ، فأحضر الفرنسيون الشيخ الشرقاوى على اعتباره شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ أحمد العريشى قاضى مصر وحجزوهما إلى منتصف الليل ، وألزموهما البحث عن الأزهريين الأربعة الذين ذكرهم سليمان الحلبى فى اعترافه وإحضارهم ، وكان من نتائج هذه الحادثة وما أعقبها من تفتيش الأزهر أن العلماء وعلى رأسهم الشرقاوى أقفلوا أبواب المسجد وظل مقفلا إلى إن شرع الفرنسيون فى الجلاء عن مصر .

والمرة الثالثة فى عهد (منو) أيضًا حيث اعتقل فى القلعة كما فصلنا ذلك فى الفصل الثانى عشر[٩] .

ويعد الشرقاوى اعتقاله تشريفًا له ، فقد ذكره بشىء من الفخر والزهو فى كتابه (تحفة الناظرين) حيث قال متحدثاً عن نفسه : « وقد حبسونا فى القلعة مع إخواننا العلماء خوفًا من قيام أهل البلد عليهم كما وقع منهم سابقًا ، فمكثنا فى القلعة مائة يوم من تسعة ذى القعدة إلى أواخر صفر سنة ١٢١٦ . وسبب خروجنا من الحبس وقوع الصلح بين المسلمين وبين الفرنسيس على أن يخرجوا من البلد ويسافروا إلى رشيد وأبى قير » .

وفيما عدا هذه المرات الثلاث كان الشرقاوى يجامل الفرنسيين ويداريهم ، ويتبع حيالهم خطة المسالمة والمحاسنة ، ولعله شعر بما احتمل من تبعة أدبية جسيمة بانتهاج هذه الخطة ، فحاول فى كتابه (تحفة الناظرين) أن يدافع عن نفسه وعمن سلك مسلكه على عهد الحملة الفرنسية ، قال :

---

(٨) انظر الجزء الأول ص ٢٧٤ من الطبعة الأولى .

(٩) ص ٢٢٧

« والسبب الذى أوجب أهل مصر وقراها بعض الانقياد إليهم (إلى الفرنسيين) عجزهم عن مقاومتهم بسبب هروب المماليك الذين معهم آلات القتال ، وأنهم عند قدومهم كتبوا كتبًا فرقوها فى البلاد وذكروا فيها أنهم ليسوا نصارى لأنهم يقولون إن الله واحد ، وأنهم يعظمون محمدًا ويحترمون القرآن . وأنهم يحبون العثمانلى (كذا) ولم يأتوا إلا لطرد المماليك الظلمة لأنهم نهبوا أموالهم وأموال تجارهم ولا يتعرضون للرعايا فى شىء » .

هذه هى الروح التى أملت على الشرقاوى خطته فى محاسنة المحتلين ومجاملتهم ، وقد كان يجمل بكبير علماء مصر ألا ينهج هذه الخطة ، وكان مطلوبًا منه على الأقل أن يتبع خطة السيد عمر مكرم أو السيد محمد السادات ، ومهما دافع عن نفسه وعن خطته فدفاعه لا يثبت أمام البحث والتحقيق ، لأنه ليس صحيحاً أن الفرنسيين إنما جاءوا لطرد المماليك الظلمة وأنهم لا يتعرضون للرعايا فى شىء ، فإنهم إنما جاءوا للفتح والغزو وإخضاع مصر والمصريين لحكمهم ، والشيخ الشرقاوى نفسه يعترف فى كتابه أن الفرنسيين أخلفوا عهدهم الذى أعلنوه فى كتبهم ومنشوراتهم ، فقد قال فى هذا الصدد : « ولكن لما دخلوا مصر لم يقتصروا على نهب أموال المماليك بل نهبوا الرعايا وقتلوا جملة من الناس لما قامت عليهم أهل مصر بسبب طلبهم تفريد غرامة (فرض ضريبة) على البيوت وقتل منهم ما يقرب من الألف وهتكوا بعض الأعراض فى مصر وقراها فإن كل قرية حاربتهم نهبوا أموالها وقتلوا رجالها وأخذوا نساءها وقتلوا من علماء مصر نحو ثلاثة عشر عالماً » .

فمع اعتراف الشرقاوى بهذه الحقائق لا يقبل منه عذر فيما اختطه لنفسه حيال الفرنسيين من المداراة والمجاملة ، ولو أنه لم ينتفع فى ذات نفسه من هذه السياسة لكان محتملا أن يكون اتباعه إياها نتيجة اعتقاد منه بصلاحها للبلاد ، ولكن انتفاعه من ورائها مما يدعو إلى الشك فى أن خطته كانت عن عقيدة سليمة بريئة من الشوائب ، فالجبرتى وهو مؤرخ نزيه صادق يقول فى ترجمته إن الدنيا قد اتسعت عليه فى عهد الفرنسيين وزاد طمعه فيها ، ويقول إنه انتفع فى أيامهم بما كان يؤدى له من راتب رئاسة الديوان وما كان يحصل عليه من « قضايا وشفعات لبعض الأجناد المصرية ، وجعالات على ذلك ، واستيلاء على تركات وودائع خرج أربابها فى حادثة الفرنساوية وهلكوا واتسعت عليه الدنيا وزاد طمعه فيها واشترى دارًا واسعة بظاهر الأزهر فى مساكن الأمراء الأقدمين » .

وقد ظل الشرقاوى مرعياً مشار إليه بالبنان لمكانته العلمية ، ولما كانت تسبغه عليه مشيخة

الأزهر من الاحترام والرئاسة ، واشترك بعد جلاء الفرنسيين فى الحوادث التى أدت إلى مبايعة محمد على باشا ، واقترن اسمه بهذا الحادث العظيم فى حياة مصر القومية . ويكفيك أنه ثانى اثنين ألبسا (محمد على) خلعة الولاية كما تراه مفصلا فيايلى . وكانت وفاته سنة ١٢٢٧ هجرية .

الشيخ محمد الأمير :

من كبار العلماء المشار إليهم بالبنان ، ولد فى (سنبو)[(١٠)] سنة ١١٥٤ هجرية وحفظ القرآن وطلب العلم على شيوخ عصره ، وتلقى علوم الهيئة والهندسة على الشيخ حسن الجبرتى والد المؤرخ الشهير عبد الرحمن الجبرتى ، فجمع بين العلوم الشرعية والرياضية ، وذلك إلى تضلعه فى علوم الأدب واللغة ، واشتهر بمؤلفاته العديدة فى مختلف العلوم ، فلا غرو أن وصفه الجبرتى بالعالم العلامة ، الفاضل الفهامة ، صاحب التحقيقات الرائقة ، والتأليفات الفائقة ، شيخ شيوخ أهل العلم ، وصدر صدور أهل الفهم ، المتفنن فى العلوم كلها ، نقليها وعقليها وأدبيها ، إليه انتهت الرياسة فى العلوم بالديار المصرية[(١١)] .

اشتهر ذكره فى مصر وفى مختلف أنحاء الشرق ، فكانت تأتيه الصلات من سلطان المغرب الأقصى ومن مختلف نواحيه كل عام ، وبلغت شهرته الآستانة وذهب إليها وألقى بها دروساً حضرها علماء الآستانة وشهدوا له بالفضل والعلم .

وقد انتخب عضواً بالديوان فى عهد نابليون ثم فى عهد منو ، واعتقله الفرنسيون بالقلعة فى شهر مايو سنة ١٨٠١ كما أسلفنا ذلك فى الفصل الثانى عشر .

واشتهر بجرأته وشجاعته ، وكان فصيحاً متكلمًا ، لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، يغلظ القول للبكوات المماليك والولاة الأتراك ، ذكر الجبرتى فى ترجمته ما كان من خورشيد باشا الوالى واعتقاله السيدة نفيسة المرادية وغيرها من نساء المماليك بعد انتهاء الحملة الفرنسية ، فقال ما خلاصته انه لما شاع الخبر تغيرت خواطر الناس وركب القاضى ونقيب الأشراف (السيد عمر مكرم) والشيخ السادات والشيخ الأمير وذهبوا إلى الباشا وتحدثوا إليه فى شأنها ، فاتهمها بأنها أرسلت إلى بعض كبار رؤساء الجند تستميلهم إلى المماليك العصاة وأنها وعدتهم بدفع

(١٠) بمركز ديروط بمديرية أسيوط .

(١١) الجبرتى الجزء الرابع .

رواتبهم ، وقال إنها مادامت تستطيع أن تدفع للجند رواتبهم فينبغى أن تدفعها لخزانة الحكومة ، واتضح أن غرضه إرهاق السيدة نفيسة وابتزاز المال منها قهراً ، فقال الشيوخ إن الأمر يحتاج إلى تحقيق ، وقام الشيخ سليمان الفيومى والشيخ محمد المهدى وخاطبا السيدة نفيسة فى ذلك فأنكرت ما نسب إليها ، وقالت : « إذا كان قصده مصادرة أموالى فلم يبق عندى شىء » فاعترض الشيوخ على خورشد باشا وحدث أخذ ورد بينهم وقال الشيخ الأمير غاضباً : إن هذا أمر غير مناسب ويترتب عليه مفاسد ويقع اللوم علينا فإذا كان الأمر كذلك فلا علاقة لنا بشىء من هذا الوقت أو نخرج من هذا البلد ، ومعنى ذلك أن الشيخ الأمير يهدد الوالى بمقاطعة الشيوخ له . وهذا أمر له عواقبه ، فتوسط بعض أعوان خورشد باشا فى الخلاف وتحدثوا إليه فى إطلاق سراح السيدة نفيسة المرادية والسماح لها بأن تقيم فى بيت السادات ، فرضى الوالى بذلك وأنزلوها من القلعة إلى بيت السادات .

فهذه الحادثة تدلك على مكانة الشيخ محمد الأمير وما كان له من الهيبة والجرأة فى مقاومة مظالم الحكام .

وكانت وفاته سنة ١٢٣٢هـ .

الشيخ سليمان الفيومى :

ولد بالفيوم وحضر إلى مصر وحفظ القرآن وتلقى العلوم بالأزهر ، ومع قلة بضاعته فى العلم كما يقول الجبرتى فقد نال مكانة كبيرة بين الناس بما اشتهر عنه من الكرم والجود وحسن المعاشرة والبشاشة والتواضع والمواساة للكبير والصغير ، فكان الناس يلجأون إليه لرفع المظالم وقضاء الحاجات فلا يبخل على أحد بجاهه وسعيه .

قال الجبرتى فى هذا الصدد : « إنه اتفق له مراراً أن يركب من الصباح فى حوائج الناس فلا يعود إلا بعد العشاء الأخيرة فيلاقيه آخر ذو حاجة فى نصف الطريق أو آخره فينهى إليه قصته إما بشفاعة عند أمير أو خلاص مسجون أو غير ذلك فيقف وهو راكب ، فيقول له فى غد نذهب إليه فإن الوقت صار ليلا ، فيقول صاحب الحاجة إنه فى داره فى هذا الوقت فيعود من طريقه مع صاحب الحاجة إلى ذلك الأمير ولو بعدت داره ويقضى حاجته ويعود بعد حصة من الليل ، وهكذا كان شأنه ولا ينتظر ولا يؤمل جعالة ولا أجرة نظير سعيه » .

فالرجل إذن كان مثال الشهامة والمروءة ، فلا غرو أن نال احترام الناس ومحبتهم ، قال

الجبرتى : « فمالت إليه القلوب ووفد إليه ذوو الحاجات من كل ناحية فلا يرد أحدًا ويستقبلهم بالبشاشة وينزلهم فى داره ويطعمهم ويكرمهم ويستمرون فى ضيافته حتى يقضى حوائجهم ويزودهم ويرجعون إلى أوطانهم مسرورين ومجبورين شاكرين .

ونال احترام الأمراء المماليك ونسائهم بما اشتهر عنه من مكارم الأخلاق والتعفف والتورع ، فكان يدخل بيوتهم ويتلقاه نساء الأمراء فى مجالسهن ويجلس معهن ويسرهن محادثته ويقلن — على رواية الجبرتى : « زارنا أبونا الشيخ ، وشاورنا أبانا الشيخ ، فأشار علينا بكذا ونحو ذلك » .

وله مواقف مشهورة تدل على الشهامة والمروءة ، فمن ذلك ما ذكره الجبرتى أنه لما جاء حسن باشا الجزائرلى إلى مصر سنة ١٧٨٦ لإعادة الحكم التركى ومحاربة المماليك ارتحل هؤلاء إلى الصعيد وأحاط حسن باشا بدورهم وطلب الأموال من نسائهم واعتقل أولادهم وجواريهم وأزواجهم وأنزلهم إلى سوق المزاد ، فالتجأ إلى المترجم الكثير من نساء الأمراء فآواهن وأجهد نفسه فى السعى لحمايتهن ومواساتهن مدة إقامة حسن باشا بمصر.

ولما جاء الفرنسيون إلى مصر وطردوا المماليك خرج نساؤهم من بيوتهم وذهبن إليه أفواجاً لاجئات إليه ، فامتلأت بهن داره وما حولها من الدور ، فحماهن وتصدى للدفاع عنهن أمام الفرنسيين .

وكان مرعىّ المكانة مقبول الشفاعة فى عهد الحملة الفرنسية ، وانتخب عضوًا بالديوان فى عهد نابليون ثم فى عهد الجنرال (منو) ، وهو من أعضائه النابهين .

وكان له ضلع فى ثورة أمير الحج كما أومأنا إلى ذلك بالفصل الثالث[١٢] فقد أخذ يطوف البلاد مع مصطفى بك أمير الحج لإثارة الفلاحين ، وكتب عنه الجنرال (دوجا) فى رسالة إلى نابليون أن طوافه مع أمير الحج كان من أسباب استفحال الثورة لما له من المكانة بين الناس ، وقد رجع إلى القاهرة بعد إخماد ثورة أمير الحج ووضع تحت المراقبة .

وفى عهد الجنرال منو وضع الفرنسيون نظاماً جديداً لتعيين مشايخ البلاد (العمد) ، فأوجبوا أن يكون تعيين كل شيخ بلد بأمر من القائد العام وجعلوا لهيئة مشايخ البلاد مفتشين وجعلوا لها رئيسين أحدهما فرنسى وهو المسيو بريزون Brizon ، والآخر مصرى وهو الشيخ

---

(١٢) ص ٥٦ .

سليمان الفيومى ، فصار كما يقول الجبرتى «شيخاً للمشايخ» فازدحمت داره بمشايخ البلدان يأتون إليه أفواجًا ويذهبون أفواجًا .

وفى آخر عهد الحملة الفرنسية اعتقل فى القلعة حين وردت أنباء الحملة الإنجليزية العثمانية ، ولم يلبث قليلا حتى أفرجوا عنه .

وجاء العثمانيون والمترجم فى عداد العلماء والرؤساء والمتصدرين «وافر الحرمة شهير الذكر ، بعيد الصيت ، مرعى الجانب ، مقبول القول عند الأكابر والأصاغر» .

وقد الزمته سجيته التى اشتهر بها فى إيواء المنكوبين ومواساتهم ، فلما وقعت الفتنة التى أدت إلى مقتل طاهر باشا مما سنفصله فى موضعه وقتل خليل أفندى الرجائى الدفتر دار التجأ إليه أخو الدفتر دار وحاشيته فآواهم فى داره وأقاموا عنده وحماهم وواساهم حتى سافروا إلى بلادهم ، ومات سنة ١٢٢٤ هجرية .

الشيخ مصطفى الصاوى :

من كبار العلماء والفصحاء المشار إليهم بالبنان ، وسمى الصاوى نسبة إلى بلدة أبيه (الصوة) من أعمال الشرقية ، وقد انتقل منها أبوه إلى السويس وولد بها المترجم فارتحل إلى مصر ، وكان والده من أعيان التجار فألحق ابنه بالأزهر ، فحفظ القرآن واشتغل بالقراءة وحضر الدروس على شيوخ ذلك العصر ، وتضلع من العلوم وضرب بسهم فى الأدب والبلاغة ، فكان كاتبًا بليغاً وشاعراً أديباً ، وقد أورد الجبرتى شيئًا من نظمه ونثره ، وكان علماء الأزهر يعترفون له بالتفوق فى الكتابة والفصاحة .

ويدلك على منزلته من العلم أنه كان مرشحًا لمشيخة الجامع الأزهر بعد وفاة الشيخ العروسى ، وزاحم فيها الشيخ الشرقاوى ، فهو إذن قرين الشرقاوى ونده فى العلم والمكانة ، ولكن مشيخة الجامع استقرت للشرقاوى ، وكان الشيخ الصاوى يتولى من قبل وظيفة التدريس فى المدرسة الصلاحية المجاورة لضريح الإمام الشافعى ، وهى من وظائف مشيخة الأزهر ، فلما تولى الشرقاوى المشيخة بقيت وظيفة التدريس فى يد الشيخ الصاوى وتلك ميزة تدل على ماله من المكانة العلمية .

ولما جاء الفرنسيون ووقعت هزيمة إمبابة كان الشيخ مصطفى الصاوى هو والشيخ سليمان

الفيومى على رأس الوفد الذى ذهب بالنيابة عن سكان القاهرة لمقابلة نابليون[١٣] ، وانتخب عضوًا بالديوان وظل عضواً به فى عهد نابليون وفى عهد الجنرال منو ، واضطهده الفرنسيون بعد إخماد ثورة القاهرة الثانية فخصوه بجزء من الغرامة التى فرضوها على سكان القاهرة ، واعتقلوه حتى سدد ما فرض عليه ، وكان نصيبه فى الغرامة خمسين ألف ريال .

واعتقلوه للمرة الثانية فى مارس سنة ١٨٠١ بعد وصول الحملة الإنجليزية العثمانية ثم أفرجوا عنه لمرضه .

وكانت وفاته فى شهر ذى القعدة سنة ١٢١٦ ، ولم يدرك ثورة الشعب على حكم المماليك وعلى الوالى التركى .

الشيخ محمد المهدى :

عالم من كبار العلماء ، اشتهر بسعة العلم وحدة الذكاء ، وقوة العارضة ، وضرب بسهم فى الأدب والإنشاء ، تردد اسمه كثيراً فى مذكرات نابليون وقواد جيشه وفى معظم المراجع الفرنسية .

لعب دوراً كبيراً على مسرح الحوادث السياسية فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر .

ترجمه الجبرتى فى وفيات سنة ١٢٣٠ هجرية فوصفه بالأستاذ الفريد واللوذعى المجيد ، الإمام العلامة ، والنحرير الفهامة ، الفقيه النحوى الأصولى الجدلى المنطق الشيخ محمد المهدى الحفنى ، ولد فى (ناهية) من أعمال الجيزة ، وسبب تسميته بالحفنى أن والده كان قبطياً وأسلم المترجم وهو دون البلوغ على يد الشيخ الحفنى من شيوخ ذلك العصر وفارق أهله وحضنه الشيخ الحفنى ورباه وأحبه واستمر بمنزله مع أولاده واعتنى بشأنه ، فقرأ القرآن ولما ترعرع اشتغل بطلب العلم واجتهد فى التحصيل ليلا ونهاراً فظهرت عليه مخايل النباهة والجد وانتقل من التحصيل إلى التدريس فى الأزهر سنة ١١٩٠هـ فاشتهر بسعة العلم وحسن الإلقاء مع الفصاحة والبيان وسلامة التعبير وتحقيق المشكلات ، فأدرك مكانة سامية بين أقرانه ، وساعده الحظ بانضمامه إلى الأمير إسماعيل بك الذى كان ينافس مراد بك وإبراهيم بك فى إمارة مصر

(١٣) انظر الجزء الأول ص ٩٢ من الطبعة الأولى .

أواخر القرن الثامن عشر ، فلما فاز إسماعيل بك على خصميه بمعاونة حسن باشا الجزائرلى[١٤] نال الشيخ محمد المهدى حظوة كبيرة لديه وأغدق عليه الخلع والعطايا وأسند له وظائف بالضربخانة (دار الضرب) وغيرها ، وقد وقع فى عهد إسماعيل بك ذلك الطاعون الجارف الذى أفنى كثيرًا من أمراء مصر وحكامها ومات به عشرات الآلاف من الناس ، فاختص الشيخ المهدى بما أحبه – كما يقول الجبرتى « مما انحل عن الموتى من إقطاعات ورزق (جمع رزقة) وغيرها وزادت ثروته ورغبته وسعيه فى أسباب تحصيل الدنيا وعانى الشركات والمتاجر فى كثير من الأشياء مثل الكتان والقطن والأرز وغير ذلك من الأصناف والترم[١٥] بعدة حصص بالبحيرة مثل شابور وخلافها وبالمنوفية والجيزة والغربية وابتنى داراً عظيمة بالأزبكية بناحية الرويعى »[١٦] .

هذا ما ذكره الجبرتى عن حياة المترجم ومكانته إلى أن جاءت الحملة الفرنسية ، وهنا يبدأ عهد جديد للمهدى نستخلصه من المراجع الفرنسية ومما ذكره الجبرتى ، فالشيخ المهدى قد نال من ثناء نابليون ومديحه مما جعله فى نظره وفى نظر قواد الحملة الفرنسية فى طليعة العلماء فقال عنه فى مذكراته : « إنه أذكى علماء الأزهر وأفصحهم لساناً وأكثرهم علمًا وأصغرهم سناً » ، وكان يخصه بالثقة فى كثير من المواطن ، فقد كان سكرتيراً لأول ديوان أنشأه نابليون وأدرك من السلطة والنفوذ ما لم يتوافر لأحد من أعضاء الديوان ولا لرئيسه ، وكان نابليون يعهد إليه بصياغة منشوراته فى القالب العربى المسجع ، ولما زحف على سوريا واحتل قلعة العريش وعزم على أن يبلغ نبأ هذا الانتصار إلى المصريين أنفذ إلى الجنرال (دوجا) نائبه فى القاهرة كتيبة من الجنود تحمل الأعلام التى استولى عليها من العثمانيين وعهد إليه أن يرفعها على منارات الأزهر ، وكتب إليه فى هذا الصدد يقول : « أريد أن تقابلوا الشيخ المهدى وأعضاء الديوان وتتفقوا معهم على إقامة احتفال صغير لمقابلة الأعلام المرسلة لكم[١٧] » .

فاختصاص نابليون الشيخ المهدى بالذكر دليل على ما كان يشعر نحوه من الاحترام والثقة . وكان الجنرال دوجا الذى استخلفه نابليون فى القاهرة أثناء الحملة على سوريا يركن إلى

(١٤) انظر الجزء الأول ص ٢٢ من الطبعة الأولى .

(١٥) أى صار (ملتزماً) طبقاً لنظام الالتزام الذى كان معروفاً فى ذلك العصر وقد شرحناه بالجزء الأول ص ٢٩ (من الطبعة الأولى) .

(١٦) الجبرتى الجزء الرابع .

(١٧) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٩٨٧ .

المهدى ويشاوره فى كثير من الأمور .

ولما غضب نابليون على السادات لاعتراضه على اعتقال ملا زاده ابن القاضى التركى كان الشيخ المهدى هو الداخل فى الصلح بينهما ، فهذه الوقائع تدلك على ما كان للمهدى من المكانة عند أقطاب الحملة الفرنسية .

ولعل سبب هذه المكانة أنه كان يداريهم ويجاملهم ، فهو من هذه الناحية قد فاق الشيخ الشرقاوى فى موادة الفرنسيين ، وناله من وراء هذه السياسة من المنافع والمزايا أكثر مما نال الشيخ الشرقاوى ، قال الجبرتى فى هذا الصدد : « ولما حضر الفرنساوية إلى الديار المصرية وخافهم الناس وخرج الكثير من الأعيان وغيرهم هاربين من مصر تأخر المترجم عن الخروج ولم ينقبض كغيره عن المداخلة فيهم ، بل اجتمع بهم وواصلهم ، وانضم إليهم وسايرهم ولاطفهم فى أغراضهم ، وأحبوه وأكرموه ، وقبلوا شفاعته ، ووثقوا بقوله ، فكان هو المشار إليه فى دولتهم مدة إقامتهم بمصر ، والواسطة العظمى بينهم وبين الناس فى قضاء حوائجهم ، وأوراقه وأوامره نافذة عند ولاة أعمالهم حتى لقب عندهم وعند الناس بكاتم السر » .

ولا نعتقد أن الجبرتى فيما قاله عن الشيخ المهدى متحامل أو صادر عن هوى ، لأن ميزة الجبرتى فى تاريخه أنه يتحرى الصدق ولا يميل عن الحق ، وهو فى تاريخه لم يفته أن يثنى على المهدى فيما يستحق الثناء ، اعتبر ذلك فيما ذكره عن اضطراب الأحوال فى القاهرة أثناء غيبة نابليون فى معركة أبو قير البرية ، وما كان للمهدى من موقف محمود ، فقد راجت الإشاعات بأن سكان القاهرة عاملون على إثارة الفتنة ، فاستدعى الجنرال دوجا الشيخ المهدى وكلمه فى هذا الصدد ، فحاجَّه المهدى ، ونفى التهمة عن المصريين وانعقد الديوان فى اليوم التالى وكذب المهدى أقوال الوشاة ودافع عن سكان العاصمة ، وأثنى الجبرتى على المهدى فى موقفه هذا ، وقال إن هذا المقام من مقاماته المحمودة ، فالجبرتى إذن يذكر ما للمهدى وما عليه ، بل أغلب الظن أنه كان يميل إليه بعض الميل ، فإنه لما ذكر منشور نابليون الذى أذاعه على لسان الديوان عقب عودته من سوريا قال : « إنه من ترصيف وتنميق بعض الفصحاء » والإشارة هنا إلى الشيخ المهدى ، لأنه باتفاق المراجع الفرنسية هو الكاتب للمنشور ، فعدم إفصاح الجبرتى عن اسمه والاكتفاء بالإشارة إلى أنه من ترصيف وتنميق بعض الفصحاء دليل على ما يختلج فى قلبه من الميل إليه .

وليس من شك فى أن المهدى كان أكثر العلماء نفوذاً لدى الفرنسيين ، وهذا باتفاق

الجبرتى والمراجع الفرنسية ، وذلك أنه لما أنشئ الديوان الأول كان سكرتيراً له ، وهو وإن لم يكن من أعضائه إلا أن نفوذه كان أكبر من نفوذ الأعضاء جميعًا ، ولما أعيد تنظيم الديوان فى ديسمبر سنة ١٧٩٨ كان من ضمن أعضاء الديوانين العمومى والخصوصى ، وانتخب فى هذه المرة أيضاً سكرتيرًا للديوان ، فجمع بين العضوية والسكرتارية ، وكذلك كان عضواً فى الديوان الذى أنشئ فى عهد الجنرال منو وسكرتيراً له ، فاستقراره فى سكرتارية الديوان فى أدواره المتعاقبة دليل على ما ناله من ثقة الفرنسيين واحترامهم ، وقد كان فى خلال تلك الأدوار يزداد انتفاعاً من مكانته لديهم ، قال الجبرتى . « ولما رتبوا الديوان الذى رتبوه كان هو المشار إليه فيه ، وخدمة الديوان الموظفون فيه تحت أوامره ، وإذا ركب أو مشى يمشون حوله وأمامه ، وبأيديهم العصى يوسعون له الطريق ، وراج أمره فى أيامهم جدًّا وزاد إيراده وجمعه ، واحتوى بلاداً وجهات وأرزاقاً ، وأقاموه وكيلا عنهم فى أشياء كثيرة ، وبلاد وقرى يجبى إليهم خراجها » .

ولما ثارت القاهرة ثورتها الثانية وأخمدها الفرنسيون واستعادوا سلطتهم وضربوا عليها الغرامات الفادحة وخصوا بعض كبار العلماء والأعيان بنصيب جسيم من الغرامة استثنوا منها الشيخ المهدى والشيخ خليل البكرى ، أما البكرى فلما لقيه من إهانة العامة واعتدائهم عليه خلال الثورة ، وأما المهدى فقد قال عنه الجبرتى فى هذا الصدد : « إنه كان يستعمل المداهنة وينافق الطرفين بصناعته وعادته » .

وذكر الجبرتى أن انهماكه فى الأطماع الدنيوية قد صرفه عن التفرغ لما يجب على العلماء ، قال فى هذا الصدد : « إنه كان من فحول العلماء ، يدرس الكتب الصعاب فى المعقول والمنقول بالتحقيق والتدقيق ويقررها بالحاصل ، وانتفع عليه الكثير من الطلبة ، ومنهم الآن مدرسون مشتهرون ومميزون بين نظرائهم من أهل العصر ، ولو استمر على طريقة أهل العلم السابقين وبعض اللاحقين ولم يشتغل بالانهماك فى الدنيا لكان نادرة عصره ، وقد أداه ذلك إلى قطع الاشتغال ، فكان إذا شرع فى الإقراء لا يتم الكتاب فى الغالب ويحضر الدرس فى الجمعة يومًا أو يومين ويهمل كذلك ، ولم يصنف تأليفًا ولا رسالة فى فن من الفنون مع تأهله لذلك ، ولم يعان الشعر ولا النظم ، ونثره فى المراسلات ونحوها متوسط فى بعض القوافى السهلة » ، ذلك قول الجبرتى فى المهدى ، وهو معاصره وصديقه ، وقد يكون للشيخ المهدى عذره فى مداراة الفرنسيين إذ كانوا أصحاب الحول والطول ، فرأى من الحكمة مسالمتهم ،

والواقع أنه لم يؤد إليهم خدمة ما ، ولم يسالمهم عن عقيدة ، بل كان يحرص كثيراً على الدفاع عن مصالح مواطنيه أيام حكمهم ، ولعل أدق وصف لنفسيته من هذه الناحية ما ذكره عنه المسيو بوسليج مدير الشئون المالية فى رسالة إلى نابليون حيث قال : « إن الشيخ المهدى رجل يطمع فى الشهرة والتزلف للجماهير وإنه يضحى بجميع الفرنسيين فى سبيل ألا يفقد شيئا من منزلته بين الناس » ، وهى شهادة حسنة للمهدى تدل على سلامة قصده فى مسلكه .

ولعل هذا المعنى هو الذى يقصده الجبرتى بقوله عن المهدى : « وبالجملة فكان لوجوده وتصدره فى تلك الأيام النفع العام ، سد بعقله ثقوبًا واسعة وخروقًا ، وداوى برأيه جروحا وفتوقًا ، لاسيما أيام اليها زع ، والخصومات والتنازع ، وما يكدر الفرنساوية ، ومن مخارق الرعية ، فيتلافاه بمراهم كلماته ، ويسكن حدتهم بملاطفاته » .

والظاهر أنه لم يستهدف لغضب المحتلين إلا مرة واحدة أو مرتين ، فالمرة الأولى لما عاد نابليون بعد انتصاره فى معركة (أبو قير) البرية ، فقد ساءه ما علمه عن المهدى أنه كان يعارض محافظ المدينة فى أحكامه وأظهر استياءه من سلوك المهدى والصاوى وبقية أعضاء الديوان وعاتبهم على مسلكهم ، ولكنه ما لبث أمام حسن بيان الشيخ المهدى أن تجاوز عن عتابه ، قال الجبرتى : « فلما حضر عاتبهم فى شأن ذلك فلاطفوه حتى انجلى خاطره وأخذ يحدثهم عما وقع له من القادمين إلى أبى قير والنصر عليهم وغير ذلك » .

والمرة الثانية فى أواخر عهد الحملة الفرنسية حيث اعتقلوه بالقلعة ضمن من اعتقلوه من أعضاء الديوان .

وقد احتفظ الشيخ المهدى بمكانته بعد جلاء الفرنسيين فصار من المتقدمين والمتصدرين فى الحركات الشعبية التى ظهرت على مسرح الحوادث السياسية ، واشترك مع السيد عمر مكرم والسادات والشرقاوى وغيرهم فى تولية محمد على حكم مصر ، وكان له فى هذا الصدد فضل مشهود ومقام محمود ، وهو الذى تولى تحرير محضر اجتماع العلماء وقرارهم بعزل خورشد باشا ، وهو موقف تاريخى يشرف المترجم ويخلد اسمه ، ولكنه بعد أن تم الأمر لمحمد على باشا كان قوام الوقيعة بالسيد عمر مكرم ، مما تراه مفصلا فى الفصل الثالث من كتاب « عصر محمد على » ولم يزل مرعى المقام عظيم المكانة إلى أن توفاه الله سنة ١٢٣٠ هجرية عن نحو خمس وسبعين سنة .

السيد أحمد المحروق :

كبير تجار القاهرة ، بل كبير تجار مصر فى ذلك العصر ، تختلف شخصيته عن الشخصيات المتقدمة ، بأنه نشأ فى غير البيئة التى نشأوا فيها ، فلا هو تخرج من الأزهر ، ولا نال مكانته بانتسابه للعلم ، بل نشأ من بيت تجارى عريق ، ومارس التجارة فنال فيها منزلة سامية ، وأدرك بفضلها مركزاً اجتماعيًا كبيراً لا يقل رفعة وسمواً عن منزلة كبار الرؤساء والعلماء ، بل فاق بعضهم فى المكانة والاعتبار ، وهذا يدلك على مبلغ ما للتجارة والأعمال الاقتصادية من الاحترام عند الشعب ، ولا غرو فقد كانت طبقة التجارة هيئة ممتازة بين طبقات الأمة كما بينا ذلك فى الأول من الجزء الأول وصفه الجبرتى فى ترجمته بعين الأعيان ، ونادرة الزمان ، شاه بندر التجار ، والمرتقى بهمته إلى مقام الفخار ، النبيه النجيب ، والحسيب النسيب ، السيد أحمد بن أحمد الشهير بالمحروق .

وذكر عن منشئه ومرباه أن أباه كان من تجار الحرير بسوق العنبريين بمصر واشتهر بالصدق والأمانة والتدين والصلاح ، فأحسن تربية ابنه ، فلما ترعرع خالط الناس ومرن على الكتابة ، وكان على غاية من الحذق والنباهة ، وأخذ وأعطى ، وباع واشترى ، وشارك وتداخل مع التجار ، وحاسب على الألوف .

وقد شارك المترجم فى العمل تاجراً من كبار تجار الجملة بالقاهرة يسمى السيد أحمد بن عبد السلام ، فضرب فى تجارة الصادرات والواردات بسهم وافر ، ولما مات السيد أحمد المذكور خلفه المترجم فى مركزه التجارى وفى منصبه (شاه بندر التجار) ، فصار كبير تجار القاهرة ، وإذا لاحظنا أن القاهرة عاصمة القطر التجارية كان المحروق كبير تجار مصر قاطبة ، وقد ظهرت مواهبه ومزاياه فى مركزه الجديد «فزادت شهرته ، وعظم شأنه ووجاهته ، ونفذت كلمته على أقرانه » ، واتصل بأمراء مصر من المماليك مثل إسماعيل بك ثم مراد بك وإبراهيم بك وتصدى لقضاء مطالبهم وهم أصحاب الحل والعقد وبيدهم سلطة الحكم ، فكانو يبتاعون منه مطالبهم ومطالب الحكومة ، فاتسعت تجارته وذاع صيته فى الأقطار البعيدة ، وصار أكبر تجار الصادرات والواردات ، وتعددت معاملاته التجارية مع سائر الأقطار الشرقية وبعض الأقطار الإفرنجية ، قال الجبرتى فى هذا الصدد ما خلاصته « ولم يزل طالعه يسمو ، وسعده يزيد وينمو ، وعاد مراد بك والأمراء المصريون (المماليك) بعد موت إسماعيل بك

وانقلاب دولته إلى إمارة مصر ، فاختص المترجم بخدمته وقضاء سائر أشغاله ، وكذلك إبراهيم بك وباقى الأمراء ، وقدم لهم الهدايا والطرائف ، وواسى الجميع ، أعلاهم وأدناهم بحسن الصنيع ، حتى جذب إليه قلوب الجميع ، ونافس الرجال وانعطفت إليه الآمال ، وعامل تجار النواحى والأمصار ، من سائر الجهات والأقطار ، واشتهر ذكره بالأراضى الحجازية ، وكذا بالبلاد الشامية والرومية ، واعتمدوه وكاتبوه ، وراسلوه وأودعوه الودائع وأصناف التجارات والبضائع »

فالمحروق إذن هو نموذج صالح يصح أن يقتدى به إلى اليوم فى الاضطلاع بالأعمال التجارية والاقتصادية العظيمة المدى ، وفى إنماء ثروة مصر القومية .

ويدلك على مبلغ مكانته بين الناس أنه لما اعتزم أداء فريضة الحج سنة ١٢١٢ هجرية «كان يوم خروجه يوماً مشهوداً اجتمع الكثير من العامة والنساء وجلسوا بالطريق للفرجة عليه » كما يقول الجبرتى .

وذكر أيضاً أنه لمناسبة زواج ابنه السيد محمد أقام مهرجاناً فخماً وصفه بقوله : « وزوج ولده السيد محمد وعمل له مهماً عظيما افتخر به إلى الغاية ، ودعا إليه الأمراء والأكابر والأعيان وأرسل إليه إبراهيم بك ومراد بك الهدايا العظيمة المحملة على الجمال الكثيرة ، وكذلك باقى الأمراء ومعها الأجراس التى لها رنة تسمع من البعد ، ويقدمها جمل عليه طبل نقارية ، وذلك خلاف هدايا التجار وعظماء الناس والنصارى الأروام والأقباط الكتبة وتجار الإفرنج والأتراك والشوام والمغاربة وغيرهم ، وخلع الخلع الكثيرة » .

فهذا الوصف الذى نقلناه كما أورده الجبرتى يعطيك صورة عن منزلة المترجم بين عظماء عصره وما أدركه من العز والجاه .

وظل على هذه المكانة حينما جاء الفرنسيون إلى مصر ووقعت هزيمة إمبابة أثناء رجوعه من الأقطار الحجازية ، وقد جاء فى قافلة نهبها العربان بالقرب من بلبيس ، وكان نابليون وقتئذ يتعقب إبراهيم بك فى الشرقية ، فقابله وعرف مكانته فأكرم مثواه ووعده برد ما نهب منه وأرسل يتعقب المعتدين ورد إليه ما أمكنه استخلاصه ، ورجع إلى القاهرة ، فكان لمنزلته التجارية والمالية موضع احترام الفرنسيين ، وانتخب عن التجار ضمن أعضاء الديوانين العمومى والخصوصى اللذين أنشئا فى ديسمبر سنة ١٧٩٨ ، واصطحبه نابليون فى رحلته إلى السويس ، ولما وقعت ثورة القاهرة الثانية كان من زعمائها والمتصدرين لتنظيمها بماله وهمته

ونفوذه ، وإلى ذلك يشير الجبرتى بقوله : « ووصل عُرضى[١٨] العثمانية والأمراء المصرية (المماليك) فخرج فيمن خرج لملاقاتهم ، وحصل بعد ذلك ما حصل من نقض الصلح[١٩] والحروب ، واجتهد المترجم فى أيام الحرب وساعد وتصدى بكل همته وصرف أموالا جمة فى المهمات والمؤن » .

يتبين مما تقدم أن السيد المحروق لم يكن متوفراً على أعمال تجارته الواسعة فحسب ، بل كان يشترك فى الحياة العامة ، فارتفع إلى مستوى زعماء الشعب ، فهو من هذه الناحية خير مثال لكبار الأعيان والتجار يقتدى به فى الجمع بين تنمية الثروة الشخصية وأداء الواجبات الوطنية ، والواقع أن إنماء الثروة وتعهدها بالحزم وحسن التدبير ليس عملا شخصيًا فحسب ، بل هو عمل قومى جليل لأنه إنماء للثروة القومية العامة ، والخير فيها يعم البلاد وأهلها .

اشترك المترجم فى ثورة القاهرة الثانية ، ولما أخفقت هاجر إلى سوريا صحبة السيد عمر مكرم نقيب الأشراف ، ولازمه فى منفاه وهجرته ، وصادر الفرنسيون أملاكه فى غيبته ، ولم يعد إلى مصر إلا بعد جلاء الفرنسيين ، وازدادت مكانته وعظم جاهه بعد عودته من منفاه ، وصار موضع الاحترام عند ولاة الأمور والجمهور معًا ، وزاره الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا فى بيته تكريمًا له ودامت الزيارة ساعة من الزمن ، ويكفيك لتتعرف مبلغ ما وصل إليه من النفوذ والجاه بعد جلاء الفرنسيين أن ترجع إلى قول الجبرتى عنه : « فصار المترجم هو المشار إليه فى الدولة ، والتزم بالإقطاعات والبلاد ، وحضر الوزير[٢٠] إلى داره وقدم إليه التقادم والهدايا ، وباشر الأمور العظيمة ، والقضايا الجسيمة ، وما يتعلق بالدول والدواوين ، والمهمات السلطانية ، وازدحم الناس ببابه وكثرت عليه الأتباع والأعوان والقواسة والفراشون وعساكر رومية (تركية) ومترجمون وكلارجية ووكلاء ، وحضرت مشايخ البلاد والفلاحون بالهدايا والتقادم والأغنام والجمال والخيول ، وضاقت داره بهم فاتخذ دوراً بجواره وأنزل بها الوافدين » .

وعظم نفوذه فى عهد خسرو باشا « فاختص به اختصاصًا كليًا وسلم إليه المقاليد الكلية

---

(١٨) جيش .

(١٩) معاهدة العريش .

(٢٠) الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا .

والجزئية ، وجعله أمين الضربخانة[٢١] وزادت صولته وشهرته ، وطار صيته ، واتسعت دائرته وصار بمنزلة شيخ البلد[٢٢] بل أعظم ، ونفذت أوامره فى الإقليم المصرى والرومى والحجازى والشامى ، وأدرك من العز والجاه والعظمة ما لم يتفق لأمثاله من أولاد البلد ، وكان ديوان بيته أعظم الدواوين بمصر ، وتقرب وجهاء الناس لخدمته ، والوصول إلى سدته ، ووهب وأعطى ، وراعى جانب كل من انتمى إليه وأغدق عليه » .

فالسيد المحروقى قد نال إذن من المنزلة الاجتماعية والسياسية بفضل كفايته الاقتصادية والمالية ما سما به إلى الصف الأول من الرؤساء والزعماء فى فجر النهضة القومية ، فلا غرو أن نعده شخصية ممتازة من شخصيات ذلك العصر .

وقد استهدف لمظالم طاهر باشا الذى تولى الحكم بعد الفتنة العسكرية التى انتهت بطرد خسرو باشا ، فنهب الجنود المتمردون داره بالأزبكية لما اشتهر عنه من ولائه لخسرو واعتقله طاهر بالقلعة ، فكان لاعتقاله وقع أليم فى النفوس ، وتوسط العلماء فى أمره ، فأفرج عنه طاهر وأمره أن يلزم بيته وجعله رهن مراقبة الجنود وفرض عليه إتاوة كبيرة من المال يفتدى بها نفسه ، ولم ينج المحروقى من شرور طاهر باشا إلا بعد مقتله ، وقد جاء ذكره فى تقرير للكولونل سباستيانى الذى أوفده نابليون إلى مصر فى أكتوبر سنة ١٨٠٢ ليتعرف أحوالها ويرقب موقف الإنجليز فيها ، مما سيجىء بيانه ، فبعث إلى نابليون بتقرير عن الحالة فى مصر ورد فيه أسماء بعض كبراء مصر فى ذلك العهد فذكر السيد عمر مكرم والسيد محمد السادات والشيخ سليمان الفيومى وذا الفقار (الذى كان كتخدا نابليون فى عهد إقامته بمصر) والسيد المحروقى ، وقال عنه إنه أكثر الأعيان نفوذاً عند خسرو باشا[٢٣] .

وظل محتفظا بمكانته واسع الجاه عظيم المقام والاحترام إلى أن أدركته الوفاة سنة ١٢١٩ هجرية .

---

(٢١) مدير دار الضرب وكانت من أكبر مناصب الدولة فى ذلك العصر وقد ذكر الجبرتى فى حوادث ربيع الثانى سنة ١٢١٧ (أغسطس سنة ١٨٠٢) أن السيد المحروقى لما تقلد أمانة الضربخانة أقام مهرجاناً ابتهاجاً بتقلده هذا المنصب « وفرق ذهباً كثيراً وعمل ليلة بالمشهد الحسينى ودعا الباشا (خسرو) والدفتردار (مدير الشئون المالية) وأعيان الدولة والعلماء . وأولم لهم وليمة عظيمة ، وأوقد بالمسجد وقدة كبيرة وقدم للباشا تقدمة ، وفى صبحها أرسل مع ولده هدية وتعبية أقمشة نفيسة ، فخلع عليه الباشا فروة سمور » .

(٢٢) هو اللقب الذى كان يعطى لكبير المماليك فى إبان سطوتهم وهو بمثابة أمير مصر .

(٢٣) تقرير الكولونل سباستيانى المنشور بتاريخ ٣٠ يناير سنة ١٨٠٣ والوارد فى مجموعة معاهدات الباب العالى للبارون دى تستا الجزء الثانى .

أولئك هم قادة الشعب وزعماؤه فى فجر النهضة القومية ، ومهما لاحظت فى تراجم بعضهم من مواطن ضعف أو نقد ، فلا تنس أنهم رجال ظهروا على مسرح الحياة القومية منذ نيف ومائة وثلاثين عاما ، أى قبل أن يسبقهم غيرهم إلى تمهيد سبيل العمل والجهاد فى عهدهم ، ففضلهم فى هذه الناحية لا يصح أن ينكر ، وحقهم لا يجوزأن يغمط ، ولا تنس أيضًا أنك إذا طلبت إليهم أن يقدموا حسابًا أمام التاريخ وأمام الأجيال المتعاقبة عن نصيبهم فى الحركة القومية ، فحسبهم أنهم فى مجموعهم أصحاب الفضل الأكبر واليد الطولى فى الحركات الشعبية التى ظهرت فى توجيه إرادة الأمة إلى مقاومة الحكم الفرنسى ، ثم مقاومة حكم المماليك ، ثم مقاومة الحكم التركى ، ثم إحياء سلطة الأمة باختيار ولى الأمر وإجلاسه على عرش مصر ، فهم إذاً دعاة التطور السياسى الذى شهدته مصر فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، وهم فى تواضعهم وخمول ذكر الأكثرين منهم قد قام على أكتافهم وبإرادتهم أكبر انقلاب فى نظام الحكم ، فهم الذين أعلنوا حق الشعب فى تقرير مصيره بخلعهم الوالى التركى وإسناد زمام الحكم إلى عبقرية محمد على ، ولا يعزب عن البال أن هذا الانقلاب كان فاتحة الخير والاستقلال لمصر والمصريين ، وهو الأساس الذى شيدت عليه دعائم الدولة المصرية فى تاريخ مصر الحديث .

ظهور محمد على

قلنا إن القوات الثلاث التى تنازعت السلطة فى وادى النيل تجاهلت العامل القومى الذى ظهر فى الميدان ولم تحسب له حساباً ، لكن رجلا واحداً قد أدرك مبلغ تأثير هذا العامل الجديد فى مصير البلاد ، ورأى بثاقب نظره أن النصر مكفول لمن يستعين به ويضمن تأييده فى ميدان الكفاح والنضال ، هذا الرجل هو محمد على الكبير .

نشأ محمد على بمدينة (قوله) من ثغور مقدونية موطن الإسكندر الأكبر ، ولد سنة ١٧٦٩ فى السنة التى أنجبت طائفة من عظماء الرجال ، ففيها ولد نابليون وولنجتون[٢٤] ، كان أبوه إبراهيم أغا رئيس الحرس المنوط به خفارة الطرق ببلده وكان له سبعة عشر ولداً لم يعش منهم سوى محمد على ، ومات عنه صغير السن يتيما من الأبوين لا يتجاوز الرابعة عشرة من عمره فكفله

(٢٤) وفيها ولد شاتو بريان الكاتب الفرنسى الشهير وكوفييه العالم الكيميائى وشلر الشاعر الألمانى .



محمد على باشا

فى أوائل حكمه – أخذت هذه الصورة بالإسكندرية سنة ١٨١٨ ونقلناها
عن رسوم كتاب للمسيو مانجان الذى ظهر فى عصر محمد على

عمه طوسون ، ثم توفى عمه بعد ذلك بمدة يسيرة ، فكفله حاكم المدينة (الشوربجى) وكان صديقاً لوالده ، فلما بلغ محمد على أشده انتظم فى سلك الجهادية ، وسرعان ما تجلت شجاعته فى الميدان قبل أن يظهر نجمه فى الأفق ، فقد حدث أن امتنعت إحدى القرى(٢٥) التابعة لتصرفية قوله عن دفع ما عليها من الضرائب ، فحار المتصرف فى أى طريق يسلكه ، فعرض عليه محمد على أن يعهد إليه فى إجبار أهل القرية على أداء ما عليهم ، فدهش المتصرف لهذه الجرأة لأن القرية كانت خالية من حامية عسكرية ترهب الأهالى وتكرههم على الدفع ، لكنه إزاء الحاح محمد على قبل أن يعهد إليه فى هذه المهمة ، فسار محمد على إلى القرية مصطحباً عشرة من الجند ، ولما بلغها ذهب رأساً إلى المسجد دون أن يبدو عليه أنه قادم لمهمة ذات شأن ، وأخذ يؤدى فريضة الصلاة ، فظنه الناس زائراً أو سائحاً ، وهناك أرسل يستدعى أربعة من أعيان القرية بحجة مقابلته فى شأن يخصهم ، فجاء الأعيان دون أن يعلموا أن فى الأمر محظوراً ، وما هو إلا أن دخلوا المسجد حتى أمر محمد على رجاله فانقضوا عليهم وكبلوهم فى الحديد وساقوهم إلى قوله . فلما علم الأهالى بما حل بأعيانهم أقبلوا سراعًا لنجدتهم وفك أسارهم ، لكن محمد على سدد الأسلحة على الأعيان المعتقلين وتوعد بقتلهم إذا همّ أهل القرية بإطلاق سراحهم ، فانثنوا عن قصدهم ، ووصل محمد على إلى (قوله) وفى ركابه الأعيان مأسورين ، وبهذه الوسيلة دفع الأهالى ما عليهم من الضريبة ليفتدوا رؤساءهم ، فأعجب المتصرف بمهارة محمد على وبسالته فى هذه الحادثة ورقاه إلى رتبة بلوك باشى .

والواقع إن هذه الحادثة تدل على ما جبلت عليه نفس محمد على منذ صباه من الجرأة واقتحام المخاطر ، إذ كان من المحتمل أن يذهب ضحية مغامرته فى هذه القرية الثائرة ، فالشجاعة التى ظهرت عليه منذ نعومة أظفاره كانت من أخص صفات محمد على بل هى من أسباب نجاحه فى تأسيس ملكه العظيم .

وقد زوجه متصرف قوله بقريبة له مطلقة ذات ثروة واسعة وهى التى أنجبت له إبراهيم وطوسون وإسماعيل ، وتفرغ لتجارة الدخان فربح منها ، وكان لممارسته التجارة دخل كبير فى تثقيف ذهنه ومرانه على معالجة الشئون المالية ولعلها السبب فيما بدا عليه بعد أن تولى الحكم من الحذق فى المسائل التجارية والاقتصادية ، وقد لازمه الميل إلى ممارسة التجارة والتطلع إلى أرباحها الوفيرة حتى أنه احتكر تجارة القطر المصرى بأجمعها كما سيجىء بيانه .

---

(٢٥) واسمها براوسطه .

وكان فى المدينة تاجر يدعى المسيو (ليون) عرف محمد على فى صباه وأخلصه الود والعطف ، وأفاده بخبرته فى التجارة ، فلم ينس محمد على بعد ما وصل إلى قمة المجد فضل ذلك التاجر ، فاستفسر عنه وعلم أنه عاد إلى مرسليا فأرسل سنة ١٨٢٠ يستدعيه إلى مصر ، لكن المنية عاجلته فى الوقت الذى اعتزم تلبية دعوة الباشا ، فأسف عليه محمد على وبعث إلى أخته بعشرة آلاف فرنك إعرابًا عن أسفه على وفاة أخيها .

مارس محمد على تجارة الدخان ، وكانت تجارته ولم تزل من أهم موارد مقدونية ومن أعظم صادراتها ، على أنه ما لبث أن عاد إلى الحياة العسكرية التى مهر فيها قبل أن يمارس التجارة ، ذلك أنه لما أغار نابليون على مصر وشرع الباب العالى فى تعبئة جيوشه لمحاربة الفرنسيين فيها صدر الأمر إلى متصرف قوله بتقديم ما لديه من الجنود ، فألف كتيبة من ثلثمائة جندى انتظم محمد على فى سلكها ، وكان ابن الحاكم (على أغا) رئيسًا لها ومحمد على معاونًا له ، جاءت هذه الكتيبة على ظهر العمارة التركية التى رست فى ساحل أبو قير بقيادة حسين قبطان باشا فى شهر مارس سنة ١٨٠١ .

جاء محمد على إلى مصر ، فوجد الميدان خصبًا لظهور مواهبه وعبقريته ، واشترك فى المعارك الأخيرة التى دارت رحاها بين الإنجليز والأتراك من جانب والفرنسيين من جانب آخر ، وظهر اسمه فى هجوم الجيش التركى على الرحمانية إذ كان يدافع عنها الجنرال لاجرانج Lagrange ، وناط به حسين قبطان باشا مهاجمة القلعة واحتلالها ، فساعده الحظ فى مهمته بانسحاب الفرنسيين من قلعة الرحمانية فاحتلها محمد على دون عناء .

وقد شهد انتهاء عهد الحملة الفرنسية وبقى فى مصر وارتقى فى غضون ذلك إلى مرتبة كبار الضباط ، فنال رتبة (بكباشى) قبل جلاء الفرنسيين ، ثم رقاه خسرو باشا فى أواخر سنة ١٨٠١ إلى رتبة سرجشمه أى (لواء) ، وأخذ يرقب تطور الصراع بين القوات الثلاث التى كانت تتنازع السلطة فى مصر ، ولمح من خلال الأفق أن هذه القوات مصيرها إلى الزوال ، ووضع لنفسه خطة تدل على أصالة رأيه وبعد نظره ، خطة لم يسبقه إليها فى ذلك العصر قائد أو حاكم سياسى ، وهى أن يتحبب إلى الشعب ويستميل إليه زعماءه ويستعين به للوصول إلى قمة السلطة .

وفى الحق إن هذه الخطة كانت جديدة ، بل كانت غير مألوفة فى ذلك العصر ، وخاصة فى الشرق ، فالقوات التى تنازعت السلطة فى مصر كانت تعتمد على قوة الجند ، ولم تكن تحسب

حساباً لإرادة الشعب ، أما محمد على فهو أول من استعان بالعامل القومى الذى ظهر على مسرح الحوادث السياسية ، فهو من هذه الناحية ثمرة من ثمرات الحركة القومية ، وهو دور من أدوارها التاريخية ، اقترن ظهوره بظهور العامل القومى ، وكانت ولايته نتيجة اختيار وكلاء الشعب ومناداتهم به واليًا مختاراً على مصر ، ولقد برهن بعد أن تولى الحكم على أنه أكبرَ بنَّاء فى صرح القومية المصرية .

فمحمد على هو غرس الإرادة القومية ، ولولا تلك الإرادة لدفنت عبقريته ومواهبه فى ولاية من أقاصى السلطنة العثمانية أو ناحية من نواحى « المابين » .

الصراع بين القوات الثلاث

تلك كلمة إجمالية وصفنا بها حالة مصر السياسية خلال السنوات التى أعقبت جلاء الفرنسيين ، والآن فلننتقل من الإجمال إلى التفصيل ولنستعرض الحوادث من بدء الصراع بين القوات الثلاث إلى أن تمت مبايعة محمد على والياً على مصر بإرادة الشعب .

تعيين خسرو باشا والياً لمصر :

أخذت القوات الثلاث يرقب بعضها بعضاً مدى شهرين كل منها بمرصد للأخرى تتحين الفرص لتحقيق أطماعها ، وفى خلال هذه المدة ظل يوسف باشا ضيا (الصدر الأعظم) فى معسكره بالقاهرة صاحب الحول والطول ينظم الإدارة ويعزل من شاء ويولى من شاء من صنائعه .

وتقلد محمد خسرو باشا ولاية مصر ، وهو أول وال عثمانى عين بعد جلاء الفرنسيين ، وكان قبل توليته كتخدا (وكيل) حسين قبطان باشا ومن خاصة أصدقائه ، وهو الذى سعى له فى تقليده ولاية مصر[٢٦] وقد بقى الوالى بأبو قير بجانب رئيسه قبطان باشا واكتفى بإرسال

(٢٦) كان خسرو باشا من مماليك قبطان باشا قبل أن يكون وكيله ، وقد وقع خلاف بين حسين باشا والصدر الأعظم على هذا التعيين لأن الصدر الأعظم كان يرغب إسناد ولاية مصر إلى محمد باشا أبى مرق أحد رؤساء الجيش العثمانى الذى جاء صحبة الصدر الأعظم ودخل معه القاهرة على أن يكون واليا لمصر. لكن نفوذ حسين قبطان باشا تغلب على رغبة الصدر الأعظم إذ كان حسين باشا مقرباً إلى السلطان سليم وله عنده حرمة الود وقد تربى معه . وكان له فضلا عن ذلك مكانه ممتازة نالها من كونه مجدد العمارة التركية ومنشئ معظم سفنها فى ذلك العصر ، فاستطاع بنفوذه لدى السلطان أن يستصدر فرماناً بإسناد ولاية مصر إلى خسرو باشا .

خازنداره إلى القاهرة .

كان الصدر الأعظم يتظاهر بالود للماليك ، فاغتر هؤلاء بظاهره ، على حين كان فى الوقت نفسه يعمل على الفرقة وإيقاع الانقسام بينهم ليضربهم بعضهم ببعض تمهيداً للقضاء عليهم جميعاً عند سنوح الفرصة ، فعين محمد بك الألفى أميراً على الصعيد وكان هذا المنصب مطمع كثير من البكوات المماليك فحنقوا ونفسوا على الألفى انفراده بهذه الإمارة ، واعتزم الصدر الأعظم وحسين باشا القبطان أن يأخذا رؤساهم غيلة ، وكانت هذه الأساليب مألوفة فى ذلك العهد ، فاتفقا على أن يدعو كل منهما فريقاً من زعماء المماليك إلى الاجتماع به ، الأول فى القاهرة والثانى فى الإسكندرية ، بحجة تكريمهم وتقليدهم سلطة الحكم فى البلاد ، فإذا ما اجتمعوا فتك بهم الجند أو غللوهم فى الحبوس وأرسلوهم إلى الآستانة لتقرر الحكومة التركية فى مصيرهم ما تراه .

المؤامرة على المماليك :

ففى أوائل أكتوبر سنة ١٨٠١ أرسل حسين باشا يدعو كلا من عثمان بك الطنبورجى زعيم المماليك وخليفة مراد بك وعثمان بك البرديسى ومراد بك الصغير وغيرهم من البكوات من بيت مراد بك (أتباعه) إلى زيارته بمعسكره بأبو قير ، وأعلمهم أن الغرض من هذه الزيارة هو الاتفاق معهم على تخويلهم سلطة الحكم فى القاهرة بدلا من إبراهيم بك وأنصاره ، فلبى المماليك الدعوة وساروا لمقابلته فى معسكره وبالغ فى الحفاوة بهم وظلوا فى ضيافته أياماً عدة ثم عقد اجتماعاً تلا عليهم فيه فرماناً قال إنه صدر من السلطان بإعلان رضاه عن المماليك وإبقائهم فى مناصبهم التى كانوا عليها من قبل فى حكومة البلاد ، ثم دعاهم لهذه المناسبة إلى زيارة بارجته الراسية فى خليج أبو قير ، فنزل البكوات فى زورقه الخاص به لينقلهم إلى بارجة القبطان باشا ، وبعد أن ابتعد الزورق عن البر وأصبح فى اللجة التقوا بمركب آت من عرض البحر وفيه جماعة من السعاة أخبروا أن لديهم رسالة باسم قبطان باشا ، فنهض الباشا وتركهم بحجة الاطلاع على الرسائل وانتقل إلى المركب الآخر وأمر أن يُدفع به ، وبقى المماليك وحدهم ، فكانت هذه العلامة نذيراً بإنفاذ المؤامرة ؛ فما هى إلا لحظة حتى أخذ الرصاص ينهال عليهم من رجال قبطان باشا ، وعلموا أنهم وقعوا فى الفخ الذى نصب لهم ، فدافع المماليك عن أنفسهم دفاعاً شديداً وقتلوا كثيراً من العساكر الذين عهد إليهم بالفتك بهم ،

ولكنهم غلبوا على أمرهم أمام كثرة الجنود والبحارة ، فقتل فى هذه المؤامرة من زعماء المماليك عثمان بك الطنبورجى خليفة مراد بك وعثمان بك الأشقر(٢٦) ومراد بك الصغير ، وعلى بك أيوب ، ومحمد بك المنفوخ ومحمد بك الحسينى ، وإبراهيم كتخدا السنّارى (وكيل مراد بك) ، وجرح كل من عثمان بك البرديسى وحسين بك . وسليمان أغا ، جروحًا بليغة ، وسيقوا مع باقى المماليك إلى بارجة قبطان باشا واعتقلوا بها .

كان الإنجليز يجهلون تدبير المؤامرة ، فلما علموا بها غضب الجنرال هتشنسون غضباً شديداً واعتبرها عملا عدائيًا موجهًا ضد الإنجليز ، وعدها وحشية ، وكادت الحرب تنشب بين الإنجليز والعثمانيين لولا أن سلم حسين باشا القبطان بإطلاق سراح المماليك المسجونين وتسليم جثث القتلى منهم ، وانتقل المماليك من معسكر أبو قير إلى الإسكندرية ليكونوا فى حمى الإنجليز ، واحتفل هؤلاء بدفن قتلى الماليك احتفالا عظيمًا بالإسكندرية ، وأرسل الجنرال هتشنسون نبأ هذه المؤامرة إلى الجيش الإنجليزى المرابط بالجيزة .

رواية الجبرتى :

وإليك ما ذكره الجبرتى من خبر هذه المؤامرة :

« وفيه[٢٨] » وردت الأخبار بأن حسين باشا القبطان لم يزل يتحيل وينصب الفخاخ للأمراء الذين عنده وهم محترزون منه وخائفون من الوقوع فى حباله فكانوا لا يأتون إليه إلا وهم متسلحون ومحترزون وهو يلاطفهم ويبش فى وجوههم إلى أن كان اليوم الموعود به فعزم عليهم فى الغليون الكبير الذى يقال به « ازج عنبر لى » فلما طلعوا إلى الغليون وجلسوا فلم يجدوا القبودان فأحسوا بالشر . وقيل إنه كان بصحبتهم فحضر إليه رسول وأخبره أنه حضر معه ثلاثة من السعاة بمكاتبة . فقام ليرى تلك المراسلة . فما هو إلا أن حضر إليهم بعض الأمراء وأعلمهم أنه ورد خط شريف باستدعائهم إلى حضرة مولانا السلطان وأمرهم بنزع السلاح فأبوا ، ونهض محمد بك المنفوخ وسل سيفه وضرب ذلك الكبير فقتله فما وسع البقية إلا أنهم فعلوا كفعله وقاتلوا من بالغليون من العساكر وقصدوا الفرار . فقتل عثمان بك المرادى الكبير ،

---

(٢٧) هو من مماليك إبراهيم وممن تبعوه إلى سوريا بعد موقعة الأهرام وعاد معه صحبة الجيش العثمانى ثم سافر مع حسين باشا إلى أبو قير وقتل فى المؤامرة .

(٢٨) الخميس ٢٠ جمادى الثانية سنة ١٢١٦ (٢٨ أكتوبر سنة ١٨٠١) .

وعثمان بك الأشقر . ومراد بك الصغير وعلى بك أيوب . ومحمد بك المنفوخ ومحمد بك الحسينى وإبراهيم كتخدا السنارى وقبض على الكثير منهم وأنزلوهم المراكب ، وفر البقية مجروحين إلى عند الإنكليز ، وكانوا واقعين عليهم من ابتداء الأمر فاغتاظ الإنكليز وانحازوا إلى إسكندرية وطردوا من بها من العثمانين وأغلقوا أبواب الأبراج وحضر منهم عدة وافرة وهم طوابير بالسلاح والمدافع واحتاطوا بقبطان باشا من البر والبحر ، فتهيأ عساكره لحربهم فمنعهم . فطلب الإنجليز بروزه بعساكره لحربهم ، فقال لم يكن بيننا وبينكم حرب . واستمر جالسًا فى صيوانه . فحضر إليه كبير الإنجليز (الجنرال هتشنسون) وتكلم معه كثيراً وصمم على أخذ بقية الأمراء المسجونين فأطبقهم له فتسلمهم وأخذ أيضًا المقتولين . ونقل عرضى (معسكر) الأمراء من محطتهم إلى جهة الإسكندرية ، وعملوا مشهداً للقتلى مشى فيه عساكر الإنجليز على طريقتهم فى موتى عظمائهم » .

مؤامرة القاهرة

وحدث لمماليك القاهرة ما حدث لإخوانهم بالإسكندرية ، غير أن الصدر الأعظم كان أقل فظاعة من حسين باشا .

ذلك أنه دعا إبراهيم بك والبكوات المماليك الذين كانوا فى القاهرة وضواحيها إلى ديوان عقده بقصره وأمر بتلاوة فرمان يشبه الفرمان الذى تلاه حسين باشا فى مؤامرة أبو قير ، وزاد فيه أن ابراهيم بك عين « شيخ البلد » وهو اللقب الذى كان يعرف به رئيس حكومة مصر فى عهد المماليك ، وبعد أن أغدق عليهم الهدايا ومناهم بالوعود الخلابة قلب لهم ظهر المجن وأمر بتلاوة فرمان آخر ينقض الفرمان الأول ويقضى بالقبض عليهم وتغليلهم بالحديد وإرسالهم مخفورين إلى الآستانة ، وقد قبض عليهم فعلا وسيقوا إلى سجن القلعة ، وأصدر يوسف باشا أوامره للجنود العثمانية بالقبض على كل من يعثرون عليه من المماليك فى القاهرة وضواحيها وتهديد من يؤويهم من الناس ، وأنفذ طاهر باشا أحد قواد الجند الألبانيين بطائفة من جنوده ليقبض على محمد بك الألفى فى الصعيد ، وذهبت طائفة أخرى إلى سليم بك أبى دياب أحد زعماء المماليك وكان مقيمًا بالمنيل لاعتقاله ، ولكنها لم توفق إلى القبض عليه لهربه واحتمائه بالجيش الإنجليزى الذى كان مرابطًا بالجيزة ، وطلب سليم بك أبو دياب وباقى المماليك الذين لم يقبض عليهم

حماية الإنجليز فحموهم وطلب الجنرال هتشنسون من الصدر الأعظم إطلاق سراح الأمراء المماليك وإلا أعلن الحرب على الجنود العثمانية ، وأنفذ لهذا الغرض الجنرال ستوارت Stuart فحضر إلى الجيزة يوم ١٣ نوفبر سنة ١٨٠١ ، فخشي الصدر الأعظم عاقبة القتال وأفرج عن السجناء .

رواية الجبرتى :

وإليك ما ذكره الجبرتى عن هذه المؤامرة :

وفى يوم الثلاثاء (حادى عشر جمادى الثانية)[٢٩] عمل الوزير الديوان وحضر عنده الأمراء فقبض على إبراهيم بك الكبير وباقى الأمراء الصناجق وحبسهم ، وأرسل طاهر باشا بطائفة من العساكر الأرناؤود إلى محمد بك الألفى بالصعيد وكان أشيع هروبه إلى جهة الواحات ، وذهبت طائفة إلى سليم بك أبى دياب وكان مقيماً بالمنيل فلما أخذ طلب الهرب وترك حملته . فلما حضر العسكر إليه ولم يجدوه نهبوا القرية وأخذوا جماله وهى نحو السبعين وهجنه وهى نيف وثلاثون هجيناً وذهبت إليه طائفة بناحية طرة فقاتلهم ووقع بينهم بعض قتلى ومجاريح ثم هرب إلى جهة قبلى من على الحاجر ووقفت طائفة العسكر والأرناؤود بالأخطاط والجهات وخارج البلد يقبضون على من يصادفونه من المماليك والأجناد . ونودى فى ذلك اليوم بالأمن والأمان على الرعية والوجاقلية . وأطلق الوزير (الصدر الأعظم) مرزوق بك ورضوان كتخدا إبراهيم بك وسليمان أغا كتخداه المسمى بالحنفى وأحاطت العسكر بالأمراء المعتقلين واختفى باقيهم ونودى عليهم وبالتوعد لمن أخفاهم أو آواهم وباتوا ليلة كانت أسوأ عليهم من ليلة كسرتهم وهزيمتهم من الفرنسيس (فى معركة الأهرام) وخاب أملهم وضاع تعبهم وطمعهم . وكان فى ظنهم أن العثملى يرجع إلى بلاده ويترك لهم مصر ويعودون إلى حالتهم الأولى يتصرفون فى الأقاليم كيفما شاؤا . فاستمروا فى الحبس ثم تبين أن سليم بك أبا دياب ذهب إلى عند الإنجليز والتجأ إليهم بالجيزة » هذا وقد ذهب المماليك بعد إطلاق سراحهم إلى الجيزة يصحبهم رجالهم وأتباعهم ، وهناك التقوا بمن فروا من إخوانهم وانضم إليهم المماليك الناجون من مؤامرة أبو قير وبلغ عددهم جميعاً نحو ٢٥٠٠ مملوك واتفقوا على الانتقام من الأتراك .

---

(٢٩) سنة ١٢١٦ (يوافق ١٩ أكتوبر سنة ١٨٠١) .

وقد كسب الإنجليز بهذا التدخل جانب المماليك ، وأصبحوا حماتهم ، وصار القوم صنائع لهم فى قضاء مآربهم ، على أن الحوادث السياسية خيبت آمال الفريقين فخلصت البلاد من المماليك ومن الدسائس الإنجليزية كما سيراه القارئ فيما يلى .

انتهت المؤامرة على المماليك بالفشل ، وتحرج مركز حسين باشا القبطان أمام حلفائه الإنجليز ، فلم يلبث أن سافر من أبو قير إلى الآستانة فى أواخر نوفمبر سنة ١٨٠١ (رجب سنة ١٢١٦) .

تغير وقتى فى وجهة النظر الإنجليزية

جمع المماليك شملهم واجتمع زعماؤهم الذين نجوا من مؤامرة الإسكندرية بمن نجوا من مؤامرة القاهرة ، وبقوا بالجيزة يعدون العدة لقتال الأتراك وينتظرون المدد والعون من الإنجليز ، على أن السياسة الإنجليزية اقتضت أن تتظاهر مؤقتاً بالتزام الحياد وأن تدخرهم لوقت آخر ، ذلك أن فرنسا أخذت تتقرب إلى الباب العالى بعد جلاء جيشها عن مصر وتسعى لإعادة روابط الصداقة القديمة التى كانت تصلها بتركيا وتراخت مدة الحملة الفرنسية ، فلما زالت أسباب الجفاء سعت فى عقد معاهدة صلح من شروطها إعادة العمل بالمعاهدات القديمة بين الدولتين ، أبرمت هذه المعاهدة فى باريس يوم ٩ أكتوبر سنة ١٨٠١ [٣٠] ووقعها المسيو (تاليران) وزير خارجية فرنسا والسيد على أفندى سفير تركيا فى باريس ، فلما علمت بها الحكومة الإنجليزية ساءها أن ترى فرنسا منافستها وعدوتها اللدود تسترد مركزها فى الشرق بالاتفاق مع تركيا ، فأخذت تسعى لدى الباب العالى فى منع التصديق على المعاهدة ، وقد وجدت بادئ الأمر فتوراً من الحكومة التركية لما بلغها من معاونتها للمماليك العصاة وتأييدها لمطالبهم ، فاضطرت إنجلترا أن تنكر هذه المعاونة ، وأنكرت موقف الجنرال هتشنسون والجنرال ستوارت ، واستدعت أولهما إرضاء لتركيا ، وسعى اللورد (إلجين) Elgin سفير إنجلترا فى الآستانة سعياً متواصلا ليحمل الباب العالى على أن يعدل عن تصديق المعاهدة ، وكان لنفوذه الفعال على شاطئ البوسفور أثر كبير فى نجاح مسعاه ، فلم يقبل الباب العالى من شروط المعاهدة إلا مالا يتعارض مع مقدمات الصلح التى أبرمت بين فرنسا وإنجلترا فى لندن بتاريخ أول

(٣٠) مجموعة معاهدات الباب العالى للبارون دى تستا الجزء الأول .

أكتوبر سنة ١٨٠١ [٣١] ، وهذا معناه عدم التصديق على المعاهدة .

رحل الجنرال هتشنسون إذاً عن مصر ، وخلفه فى قيادة الجيش الإنجليزى الماجور جنرال اللورد كافان Cavan، وجاء إلى مصر المستر ستراتن Straton سكرتير السفارة الإنجليزية فى الآستانة يحمل تعليمات الحكومة البريطانية عن سياستها فى مصر ، وأفهم اللورد كافان والمستر ستراتن زعماء المماليك أن نصيحة الحكومة إلى « أصدقائها البكوات » أن يقبلوا شروط الصدر الأعظم ، ومعنى ذلك أنها تخلت وقتاً ما عن حمايتهم .

رأى المماليك أن ينتظروا إلى أن تحين فرصة جديدة تساعدهم فيها الحكومة الإنجليزية ، فانتقلوا فى أواخر يناير سنة ١٨٠٢ إلى الصعيد لينظموا قواتهم استعداداً لقتال الأتراك ، وأصبحت السلطة فى القاهرة والوجه البحرى فى يد الأتراك لا ينازعهم فيها منازع ، واعتزم الصدر الأعظم الرحيل إلى الآستانة ، فاستدعى محمد خسرو باشا ليسلمه زمام الحكم قبل ارتحاله ، فحضر إلى القاهرة يوم ٢١ يناير سنة ١٨٠٢ واستقر فى الحكم ثم ارتحل الصدر الأعظم إلى سوريا يصحبه جزء من الجيش العثمانى ، وصار محمد خسرو صاحب الحل والعقد فى العاصمة .

استنجاد المماليك بنابليون وإخفاقهم

ولما وجد المماليك أن حماتهم الإنجليز تخلوا عنهم وتركوهم لأعدائهم الأتراك ، ولوا وجوههم شطر فرنسا ، فأنفذ إبراهيم بك وعثمان بك البرديسى رسولا يحمل إلى نابليون – وكان وقتئذ قنصلا أول – كتابًا يستنجدونه لتحقيق آمالهم ، وهذا الكتاب يعطيك صورة من نفسيتهم قالوا فيه :

« لقد هدمتم سلطتنا التى كانت ثابتة فى مصر من سنوات عديدة ، والآن يحق لنا أن نلجأ إلى عطفكم لتعيدوا لنا تلك السلطة ، لقد وقع الانقسام فى صفوفنا بعد وفاة مراد بك ، وصرنا من ذلك إلى أحوال تعسة هى التى اضطرتنا أن نلجأ إلى الحماية الإنجليزية ، وأن الأتراك قد أعلنوا علينا حربًا ظالمة ، ولا غرو فإن الغدر من أخص صفاتهم ، وأن لدينا من القوة ما يمكننا من مقاومتهم ، ولكنا فى حاجة إلى عضد يأتينا من الخارج ، فإليك نلجأ ، ومنك

(٣١) هى المقدمات التى وضعت فيها قواعد معاهدة الصلح المعروفة بمعاهدة إميان » .

نطلب النجدة ، وفيك وضعنا كل ثقتنا ، فساعدنا بوساطتك لدى الباب العالى ، ونحن على استعداد لقبول الشروط التى تفرضونها علينا ، وعرفاناً لجميلكم فإنا نتعهد بأن نخص تجارة الأمة الفرنسية بأعظم المزايا » .

وقد سافر الرسول بهذا الكتاب إلى ثغر (ليفورن)[٣٢] وتسلمه منه الجنرال برون Bron حاكم الثغر ، فبعث به إلى باريس ليطلع عليه نابليون ، ولكنه لم يعره التفاتًا ، لأن سياسة فرنسا فى ذلك الوقت كانت متجهة إلى كسب صداقة تركيا ، وكان السفير العثمانى قد وصل إلى باريس منذ عهد قريب وابتدأت المفاوضات لإعادة العلاقات الودية بين الدولتين ، فلم يجد نابليون وجهًا لمعاضدة المماليك ، وأرسل إلى حاكم ليفورن يطلب إليه ألا يسمح لرسول المماليك بالذهاب إلى باريس .

وهكذا كان المماليك يتحولون من ناحية إلى أخرى يبحثون عمن يحتمون به ليستعيدوا فى البلاد سلطتهم الممقوتة .

جلاء الإنجليز عن الجيزة :

أخذ مركز خسرو باشا يبدو وطيداً فى مصر ، وزاد فى ثباته أن الحكومة الإنجليزية أرسلت إلى الجيش المرابط بالجيزة تأمره بالعودة إلى الهند ، فانسحب الجيش الإنجليزى من معسكره فى شهر مايو سنة ١٨٠٢ ، وسلم الجيزة إلى خسرو باشا ، ومضى إلى السويس فأقلعت به السفن إلى الهند فى أوائل يونية ، ولم يبق من جيش الاحتلال الإنجليزى فى مصر سوى القوى المرابطة بالإسكندرية .

وإليك خلاصة ما ذكره الجبرتى فى صدد الجلاء عن الجيزة ، قال فى حوادث ٩ محرم سنة ١٢١٧ [٣٣] .

« أخذ الباشا (خسرو باشا) فى الاهتمام بتشهيل الإنكليز المسافرين إلى السويس والقصير وما يحتاجون إليه من الجمال والأدوات وجميع ما يلزم ولما حضر الإنكليز إلى عند الباشا دعوه للحضور إلى عندهم فوعدهم ليوم الجمعة ، فلما كان يوم الجمعة ثالث عشر ركب الباشا وصحبته طاهر باشا فى نحو الخمسين ، وعدى إلى الجيزة بعد الظهر ، ووقفت عساكر الإنكليز

(٣٢) من ثغور إيطاليا وكانت وقتئذ تحت سيطرة فرنسا .

(٣٣) يوافق ١٢ مايو سنة ١٨٠٢ .

صفوفًا رجالا وركبانًا وبأيديهم البنادق والسيوف وأظهروا زينتهم وأبهتهم وذلك عندهم من التعظيم للقادم ، فنزل الباشا ودخل القصر فوجدهم كذلك صفوفًا بدهليز القصر ومحل الجلوس ، فجلس عندهم ساعة زمانية ، وأهدوا له هدايا وتقادم ، وعند قيامه ورجوعه ضربوا له عدة مدافع على قدر ما ضرب لهم عند حضورهم إليه ، فقد أخبرنى بعض خواصهم أن الباشا ضرب لهم سبعة عشر مدفعًا ، ولقد عددت ما ضربه الإنكليز للباشا ، فكان كذلك » .

وذكر الجبرتى أن عددهم عند جلائهم نحو خمسة آلاف « واستمرت طائفة كبيرة من الإنكليز بالإسكندرية حتى يريد الله » .

وقال أيضًا فى حوادث ١٤ محرم(٣٤) :

« شرع الإنكليز المتوجهون إلى جهة السويس فى تعدية البر الشرقى ونصبوا وطاقهم عند جزيرة بدران ، وبعضهم جهة العادلية ، وذهبت طائفة منهم جهة البر الغربى متوجهين إلى القصير ، واستمروا يعدون عدة أيام ويحضر أكابرهم عند الباشا (خسرو باشا) ويركبون فيرمون لهم مدافع حال ركوبهم إلى أماكنهم ، وفى يوم الاثنين ثانى عشرينه عدى حسين بك وكيل القبطان إلى الجيزة وتسلمها من الإنكليز وأقام بها وسكن بالقصر» .

الحرب بين الأتراك والمماليك :

كان خسرو يعتمد فى تأييد سلطته على الجيش التركى المؤلف من نحو سبعة عشر ألف مقاتل موزعين بين العاصمة والبنادر المهمة ، ومعظمهم من الجنود الألبانيين (الأرناؤود) ، ومن رؤسائهم طاهر باشا وحسن باشا ومحمد على باشا ، على أن هذه السلطة لم تكن ثابتة وطيدة لأنها ترتكز على جيش لا نظام فيه مؤلف من جنود ميالين إلى التمرد والعصيان .

بدأ خسرو باشا حركاته الحربية بتجريد حملة على المماليك فى الصعيد للقضاء عليهم ، فأنفذ إليهم جزءاً من جيشه بقيادة حسن باشا ، وكان المماليك قد انتشروا فى الفيوم وبنى سويف والمنيا .

فلما علموا بزحف الجيش العثمانى على الصعيد أرسلوا إلى خسرو باشا يطلبون إليه وقف القتال لمدة خمسة أشهر ريثما يعرضون الأمر على الباب العالى ليؤكدوا له إخلاصهم ، ولكن

(٣٤) ١٧ مايو سنة ١٨٠٢ .

خسرو باشا رأى فى هذا الطلب دليل ضعف فاجابهم بأن لا كلام بينهم وبينه إلا أن يحضروا إلى مصر ويظهروا خضوعهم كما فعل زميلهم عثمان بك حسن من قبل ، وقد أعطاهم الأمان على ذلك مستثنياً إبراهيم بك وعثمان بك البرديسى ومحمد بك الألفى وسليم بك أبا دياب .

هزيمة الأتراك فى هُوّ :

كان هذا الجواب إذلالا لزعماء المماليك ، فنسوا مؤقتًا أحقادهم واختلافاتهم القديمة واتحدوا على قتال الأتراك ، فالتقوا بهم على مقربة من (هُوّ)[٣٥] وكان الترك بقيادة البكباشى أجدر بك ، فظهر المماليك عليهم وغلبوهم واستولوا على مدافعهم وقتلوا أجدر بك .

قال الجبرتى فى هذا الصدد :

« وفيه[٣٦] وردت الأخبار بوقوع حادثة الأمراء القبالى (المماليك) والعثمانية وذلك أن شخصًا من العثمانية يقال له (أجدر) موصوفًا بالشجاعة والإقدام أراد أن يكبس عليهم على حين غفلة ليكون له ذكر ومنقبة فى أقرانه ، فركب فى نحو الألف من العسكر المعدودين وكانوا فى طرف الجبل بالقرب من الهو فسبق العين إلى الأمراء وأخبرهم بذلك فلما توسطوا سطح الجبل وإذا بالمصرلية (المماليك) أقبلت عليهم فى ثلاثة طوابير فأحاطوا بهم فضرب العثمانية بنادقهم طلقًا واحداً لا غير ، ونظروا وإذا بهم فى وسطهم وتحت سيوفهم ففتكوا بهم وحصدوهم ولم ينج منهم إلا القليل ، وأخذ كبيرهم أجدر المذكور أسيراً . وانجلت الحرب بينهم وأحضروا أجدر بين يدى الألفى ، فقال له لأى شيء سموك أجدر ، فقال الأجدر معناه الأفعى العظيمة ، وقد صرت من أتباعك ، فقال لكن يحتاج الأمر إلى تطريمك وإخراج سمك أولا ، وأمر به فأخذوه وقلعوا أسنانه ثم قتلوه ، وأخذوا جميع ما كان معهم ومن جملة ذلك أربعة مدافع كبار ، (وفيه) قلدوا أحمد كاشف سليم إمارة أسيوط وعزل أميرها مقدار بك العثمانى بسبب شكوى أهل النواحى من ظلمه » .

ويقول الجبرتى إن من أسباب هزيمة الجنود العثمانية فى الصعيد كثرة المظالم التى ارتكبوها فى البلاد والغرامات التى فرضوها على الأهالى والنهب والتخريب فنفر منهم سكان الأرياف

---

(٣٥) (هو) قرية فى الصعيد تابعة لمركز نجع حمادى الآن بمديرية قنا .

(٣٦) ٩ جمادى الأولى سنة ١٢١٧ (٧ سبتمبر سنة ١٨٠٢) .

وانضموا إلى المماليك فى محاربتهم ، على أن المماليك لم يقلوا عن الأتراك فى النهب وارتكاب المظالم .

معركة دمنهور (٢٠ نوفمبر سنة ١٨٠٢) :

وفى أثناء ذلك تغير موقف الإنجليز فى مصر وعادوا إلى خطتهم الأولى فى معاونة المماليك ، ذلك أن الحكومة الفرنسية تغلبت على مساعى السياسة الإنجليزية وعقدت هى وتركيا معاهدة صلح بتاريخ ٢٦ يونية سنة ١٨٠٢ صدق عليها السلطان فى ٢٥ أغسطس من تلك السنة ، فساءها ذلك التقرب بين الدولتين ، وعادت تدس لتركيا فى مصر ، واستخدمت لهذا الغرض صنائعها القدماء (المماليك) ، وعينت الجنرال ستوارت Stwart قائدًا للقوات البريطانية فى الإسكندرية بدلا من اللورد كافان ، وكانت خطته أن يؤيد المماليك فى مطالبهم .

سعى الجنرال ستوارت لدى حكومة الآستانة ثم لدى خسرو باشا فى أن يعيد للمماليك امتيازاتهم القديمة فى الحكم . ولكن مساعيه لم تصادف إلا رفضاً ، وزحف المماليك على الوجه البحرى واتصلوا اتصالا وثيقًا بالجنرال ستوارت ، ومن المحقق أنهم لولا اعتمادهم على معونة الجيش الانجليزى المرابط فى الإسكندرية لما زحفوا على الوجه البحرى ولبقوا ممتنعين بالصعيد .

وصل المماليك فى زحفهم إلى مديرية البحيرة ، فجرد خسرو باشا جيشين لمحاربتهم ، أولهما بقيادة يوسف كتخدا (وكيل الباشا) ، والآخر بقيادة محمد على ، وامتنع المماليك بقيادة عثمان بك البرديسى ومحمد بك الألفى ، ففى ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٠٢ هجم جيش يوسف بك على المماليك بالقرب من دمنهور ، فانتصر عليه البرديسى انتصارًا عظيمًا مع قلة عدد رجاله بالنسبة لعدد الجنود العثمانية ، وفقد الجيش العثمانى فى هذه المعركة نحو خمسة آلاف بين قتيل وأسير ، واستولى المماليك على مدافع الجيش العثمانى وذخيرته .

رواية الجبرتى :

وإليك ما ذكره الجبرتى عن معركة دمنهور :

« وفى خامس عشرين رجب سنة ١٢١٧ [٣٧] تواترت الأخبار بوقوع معركة بين العثمانيين والأمراء المصرلية (المماليك) بأراضى دمنهور وقتل من العساكر العثمانية مقتلة عظيمة ، وكانت

(٣٧) ٢١ نوفمبر سنة ١٨٠٢ .

الغلبة للمصرليين وانتصروا على العثمانيين ، وصورة ذلك أنه لما تراءى الجمعان واصطفت عساكر العثمانيين الرجالة ببنادقهم واصطف الخيالة بخيولهم ، وكان الألفى بطائفة من الأجناد نحو الثلثمائة قريباً منهم وصحبتهم جماعة من الإنكليز فلما رأوهم مجتمعين لحربهم قال لهم الإنكليز ماذا تصنعون ؟ قالوا نصدمهم ، ونحاربهم ، قال الإنكليز انظروا ما تقولون ، إن عساكرهم الموجهين إليكم أربعة عشر ألفًا وأنتم قليلون ، وقالوا النصر بيد الله ، فقالوا دونكم ، فساقوا إليهم خيولهم واقتحموا إلى الخيالة فقتل منهم من قتل ، فانهزم الباقون وتركوا الرجالة خلفهم ، ثم كروا على الرجالة ، فلم يتحركوا بشيء وطلبوا الأمان ، فساقوا منهم نحو السبعمائة مثل الأغنام ، وأخذوا الجبخانة (الذخيرة) والمدافع وغالب الحملة ، والإنكليز وقوف على علوة ينظرون إلى الفريقين بالنظارات » .

كان جيش محمد على على مقربة من الواقعة ، لكنه لم يحرك ساكناً لنجدة يوسف كتخدا قائد الجيش الآخر . ذلك أنه رأى من مصلحته أن يدع الترك والمماليك يتطاحنان . فيفنى بعضهم بعضًا . وبذلك تخلص البلاد من الفريقين معاً ويتوصل هو بإرادة زعماء الشعب إلى الاستيلاء على زمام الحكم . وقد تحقق خسرو باشا أن (محمد على) تعمد الامتناع عن نجدة يوسف بك ، فأزمع التنكيل به سراً ، وكتب إليه أن يوفيه فى منتصف الليل لمخابرته فى بعض الشئون ، فأدرك محمد على مراده ولم يجب الدعوة ، وبدأ الصراع من ذلك الحين بين الاثنين ، وأخذ كل منهما يسعى للتخلص من خصمه ، وإلى ذلك يشير الجبرتى بقوله : « فكانت بينهم[٣٨] واقعة عظيمة بمرأى من الإنكليز ، وكانت الغلبة له (لمحمد بك الألفى) على العسكر وأخذ منهم جملة أسرى ، وانهزم الباقون شر هزيمة ، وحضروا إلى مصر فى أسوأ حال ، وهذه الكسرة كانت سبباً لحصول الوحشة بين الباشا (محمد خسرو باشا) والعسكر فإنه غضب عليهم وأمرهم بالخروج من مصر فطلبوا علائفهم (رواتبهم) فقال بأى شيء تستحقون العلائف ولم يخرج من أيديكم شئ فامتنعوا من الخروج ، وكان المشار إليه فيهم محمد على ، فأراد الباشا اصطياده فلم يتمكن منه لشدة احتراسه » .

---

(٣٨) الترك والمماليك .

جلاء الإنجليز عن مصر ورحيلهم عن الإسكندرية

فى ٢٧ مارس سنة ١٨٠٢ أبرم الصلح المعروف بصلح (أميان) Amiens بين فرنسا وإنجلترا وهولندا وإسبانيا ، ومن شروطه جلاء الإنجليز عن مصر ، لكنهم رغم عهودهم أخذوا يماطلون فى الجلاء ويعملون باتفاقهم مع صنائعهم المماليك على إطالة أجل احتلالهم ، وقد كان نابليون ينظر بعين القلق إلى مماطلة إنجلترا فى الجلاء عن مصر ، لأنه رأى بثاقب نظره أن رسوخ قدمهم فيها يهدد السلام فى البحر الأبيض المتوسط وما يليه ويبسط نفوذ إنجلترا وسيطرتها فى نواحيه وفى البلاد المفضية إليه ويملكها زمام التجارة فى الشرق .

فلما رأى مماطلتها فى الجلاء أنفذ إلى مصر الكولونل سباستيانى Sebastiani ليتعرّف نيات الإنجليز ويدرس الحالة فى مصر[٣٩] ، والكولونل سباستيانى هذا من خاصة رجالات نابليون الذين حاربوا تحت لوائه واعتمد عليهم فى مهمات سياسية وقد عهد إليه برحلة سياسية إلى الشرق وخاصة فى مصر وتركيا سنة ١٨٠٢ ، ورفعه إلى درجة قائد فرقة بعد واقعة « استرلتز » ثم عينه سفيراً لفرنسا فى تركيا وبقى على هذا المنصب إلى سنة ١٨٠٧ .

جاء سباستيانى إلى الإسكندرية خلال شهر أكتوبر سنة ١٨٠٢ ، وطالب الجنرال ستوارت قائد القوات البريطانية بالجلاء عنها ، لكنه رأى منه العزم على البقاء وألفى الإنجليز غير مكترثين لعهودهم ، وكذلك شأنهم فى كل عهود الجلاء التى قطعوها على أنفسهم قديماً وحديثًا ، وما أشبه الليلة بالبارحة !

ولما علم المصريون أن الكولونل سباستيانى قادم ليستعجل الإنجليز فى الجلاء عن البلاد ، قابله كبراؤهم وعلماؤهم بالحفاوة والإكرام ، وقد ألمع فى تقريره الذى رفعه إلى نابليون بعد عودته إلى مبلغ ما لقيه منهم من كرم الوفادة ، وذكر أسماء كبراء مصر فى ذلك العصر الذين قابل بعضهم ، كالسيد عمر مكرم والسيد محمد السادات والشيخ الشرقاوى والشيخ سليمان الفيومى والشيخ محمد المسيرى والسيد أحمد المحروقى[٤٠] ، وكذلك قوبل من خسرو باشا

---

(٣٩) مراسلات نابليون الجزء الثامن وثيقة رقم ٦٢٧٦ و ٦٣٠٧ .

(٤٠) تقرير الكولونل سباستيانى المنشور بتاريخ ٣٠ يناير سنة ١٨٠٣ والوارد فى مجموعة معاهدات الباب العالى للبارون دى تستا De Testa الجزء الثانى .

الوالى بالإكرام لأن العلاقات بين تركيا وإنجلترا اعتراها وقتئذ شيء من الجفاء والفتور لتلكؤ الإنجليز فى الجلاء ومعاونتهم المماليك واتجاه الباب العالى إلى مصادقة فرنسا .

أحدثت زيارة الكولونل سباستيانى ضجة فى مصر . وأخذ الناس يخوضون فى حديثها ، وقد أشار إليها الجبرتى فى حوادث شهر جمادى الثانية سنة ١٢١٧ ، وهذا يدل على أنها من الحوادث البارزة فى ذلك الحين ، وهو وإن لم يذكر اسم الكولونل إلا أن سياق العبارة وتاريخها وقراءتها تدل يقينا على أنه يعنى الكولونل سباستيانى ، قال : « وفيه ورد الخبر بورود مركب من فرنسا وبها إلجى[٤١] وقنصل وصحبتهما عدة فرنسيس ، فعمل لهم الإنكليز شنكا ومدافع بالإسكندرية ، فلما كان ليلة الثلاثاء ثامن عشرينه وصل ذلك الإلجى وصحبته خمسة من أكابر الفرنسيس إلى ساحل بولاق ، فأرسل الباشا لملاقاتهم خازنداره وصحبته عدة عساكر خيالة وبأيديهم السيوف المسلولة ، فقابلوهم وضربوا لهم مدافع من بولاق والجيزة والأزبكية ، وركبوا إلى دار أعدت لهم بحارة البنادقة وحضروا فى صحبها عند الباشا وقابلوه وقدم لهم خيلا معددة وأهدى لهم هدايا وصاروا يركبون فى هيئة وأبهة معتبرة ، وكان فيهم جبير[٤٢] ترجمان بونابارته » .

وقال فى حوادث رجب سنة ١٢١٧ (نوفبر ١٨٠٢) :

« وفى خامسة يوم الثلاثاء سافر الإلجى الفرنساوى وأصحابه فنزلوا إلى بولاق وأمامهم مماليك الباشا بزينتهم وهم لابسون الزروخ والخوذ وبأيديهم السيوف المسلولة وخلفهم العبيد المختصة بالباشا ، وعلى رءوسهم طراطير حمر ، وبأيديهم البنادق على كواهلهم ، فلم يزالوا صحبتهم حتى نزلوا بيت راشتو[٤٣] ببولاق ثم رجعوا ثم نزلوا المراكب إلى دمياط ، وضربوا لهم مدافع عند تعويمهم السفن » .

انتهى الكولونل سباستيانى من رحلته بمصر ، وغادرها إلى بعض الثغور السورية ثم إلى الآستانة ثم رجع إلى فرنسا وقدم إلى نابليون تقريرًا عن مهمته ، وما فتئ نابليون يطالب إنجلترا بالجلاء حتى اضطرت أن تجلو عن مصر وأرسلت أوامرها بذلك إلى الجنرال ستوارت .

---

(٤١) كلمة الجى مأخوذة من الفارسية (إيلجى) ومعناها سفير .

(٤٢) هو المسيو جوبير Jaubert أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون التى اصطحبها نابليون فى مصر مدة الحملة الفرنسية وقد جاء فى تقرير الكولونل سباستيانى أنه جاء معه فى رحلته إلى مصر ، وهذا يؤيد رواية الجبرتى .

(٤٣) هو المسيو روستى Rosetti قنصل النمسا فى مصر ، وقد ورد اسمه فى تقرير الكولونل سباستيانى .

موقف المماليك بعد جلاء الإنجليز

أبلغ الجنرال ستوارت زعماء المماليك أوامر حكومته بجلاء الجنود الإنجليزية عن مصر ، فوقع هذا الخبر كالصاعقة على رءوسهم ، لأنهم كانوا ينظرون إلى الإنجليز كحماة وأولياء لهم ، وقد نصحهم الجنرال ستوارت بالعودة إلى الصعيد فى انتظار ما تبذله الحكومة الإنجليزية من المساعى لصالحهم ، وكان ستوارت قد خبر نفسية المماليك ، وعجم عودهم ، فاستيقن أنهم قوم آفاقيون لا يهمهم إلا قضاء لباناتهم ولو باعوا فى سبيلها حقوق مصر ومصالحها ، ورأى أن إنجلترا رغم جلائها عن مصر تستطيع أن تدخرهم فى المستقبل لتحقيق أطماعها فى وادى النيل وأن تتخذهم أداة لبسط نفوذها فى البلاد ، فرغب إلى محمد بك الألفى أن يسافر إلى إنجلترا ليطلب منها مساعدة المماليك على حكم البلاد ويساومها فى هذا الشأن .

ولم يكن الألفى أقل منه رغبة فى الرحلة إلى إنجلترا ، فقد كانت هذه الرحلة تختلج فى صدره منذ حين ، حتى ذهب بعض المؤرخين إلى أنه هو الذى عرض على الجنرال ستوارت أن يأذن له باصطحابه إلى لندن ، وسواء أكان الألفى هو المبتكر لفكرة الرحلة أم أن الجنرال ستوارت هو الموعز بها إليه فما لا جدال فيه أنه رحل إلى لندن معتمداً على وعود الجنرال ستوارت وإغرائه ، قال (فولابل) فى هذا الصدد(٤٤) « لقد دعا الجنرال ستوارت الألفى بك إلى مغادرة مصر والسفر إلى لندن ليبرهن للحكومة الإنجليزية على سهولة الاستيلاء على مصر واستغلالها سياسيًا واقتصاديًا ، ولما كان عليه الألفى من الطمع والتطلع إلى المنافع اغتنم هذه الفرصة وعزم على استغلالها لصالح نفسه دون أن يتعرف الغاية من وراء هذه الحركة ، ولم يفهم أن الإنجليز إذا سمحوا له باصطحابهم فلكى يكون لديهم رهينة لبقاء المماليك على ولائهم ثم ليتخذوه مسخرة فى أيديهم يستخدمونه كيفما يريدون لمحاربة زملائه أو لمحاربة الأتراك ، وبدلا من أن يبحث فى هذه الناحية نظر إلى رحلته كفرصة للظهور بمظهر الأبهة فى البلاد الأوروبية ووسيلة إلى تحقيق أطماعه فى الحكم » .

اعتزم الألفى إذاً أن يرحل إلى إنجلترا ليعرض عليها ولاءه وولاء زملائه .

وأتم الجنرال ستوارت معدات الجلاء ، ثم سلم قلاع الإسكندرية وأبراجها إلى خورشد

---

(٤٤) فى كتابه (مصر الحديثة) وهو معاصر لتلك الحوادث .

باشا محافظ المدينة يوم ١٤ مارس سنة ١٨٠٣ ، وأقلعت العمارة البريطانية من الثغر يوم ١٦ تقل الجنود الإنجليز وعددهم ٤,٤٠٠ مقاتل .

وبذلك خلصت مصر من الاحتلال الإنجليزى الأول .

سافر محمد بك الألفى صحبة العمارة الإنجليزية وأخذ معه أموالا طائلة مما نهبه فى الوجه القبلى مدة إمارته .

قال الجبرتى : « وفى يوم الأربعاء ٢٢ ذى القعدة سنة ١٢١٧ تحقق الخبر بنزول طائفة الإنكليز وسفرهم من ثغر الإسكندرية فى يوم السبت حادى عشر ونزل بصحبتهم محمد بك الألفى وصحبته جماعة من أتباعه » .

تجدد الحرب بين المماليك والأتراك

صار الأتراك أصحاب الحول والطول فى الإسكندرية ، فأصبحت خطرًا على المماليك بعد أن كانت ملجأ لهم مدة الاحتلال البريطانى ، ولم يطمئنوا إلى مقامهم بالبحيرة رغم انتصارهم فى دمنهور فانسحبوا بقيادة عثمان بك البرديسى إلى الصعيد حيث كان الجيش التركى محتلا بعض البنادر الكبيرة وأهمها المنيا وأسيوط وجرجا .

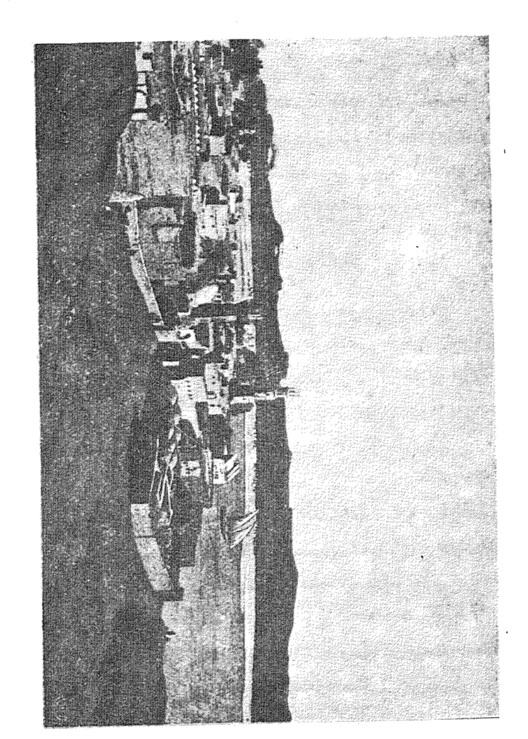
احتلال المماليك المنيا :

فهاجم البرديسى المنيا واحتلها بعد قتال شديد ، وكانت الجنود العثمانية تدافع عنها بقيادة حاكم المدينة (سليم كاشف) وهو من المماليك الذين انضموا إلى الأتراك فلما تم للمماليك احتلال المنيا أعملوا فيها النار وقتلوا من فيها من الأهالى والجنود .

وإليك ما ذكره الجبرتى فى هذا الصدد :

« وفيه[٤٥] وردت أخبار بأن الأمراء المصرلية (المماليك) وصلوا إلى منية ابن خصيب ، فأرسلوا إلى حاكمها بأن ينتقل منها ويعدى هو ومن معه من العسكر إلى البر الشرقى حتى أنهم يقيمون بها أياماً ويقضون أشغالهم ثم يرحلون ، فأبوا عليهم وحصنوا البلدة وزادوا فى عمل المتاريس ، وحاكمها المذكور سليم كاشف تابع عثمان بك الطنبرجى المرادى المقتول فإنه سالم

(٤٥) يوم ٢٤ ذى الحجة سنة ١٢١٧ (١٧ أبريل سنة ١٨٠٣) .



المنيا كما كانت فى أوائل القرن التاسع عشر

العثمانيين وانضم إليهم فألبسوه حاكمًا على المنية وأضافوا إليه عساكر فذهب إليها ولم يزل مجتهدًا في عمل متاريس ومدافع حتى ظن أنه صار في منعة عظيمة ، فلما أجابهم بالامتناع حضروا إلى البلدة وحاربهم أشد المحاربة مدة أربعة أيام بلياليها حتى غلبوا عليهم ودخلوا البلدة وأطلقوا فيها النار وقتلوا أهلها وما بها من العسكر ، ولم ينج منهم إلا من ألقى نفسه في البحر (النيل) وعام إلى البر الآخر أو كان قد هرب قبل ذلك ، وأما سليم كاشف فإنهم قبضوا عليه حيًا وأخذوه أسيرًا إلى إبراهيم بك فوبخه وأمر بضربه فضربوه علقة بالنبابيت » .

كان لاحتلال المنيا أثر كبير في سير القتال لأنه جعل الملاحة في النيل تحت رحمة المماليك واستطاعوا أن يمنعوا وصول الغلال من الصعيد إلى القاهرة والوجه البحرى ، وصارت الحاميات العثمانية في أسيوط وجرجا في خطر ، وقد أسرف الفريقان المتحاربان في ظلم الأهالي وسلب أموالهم ، فكلما مروا بالقرى طلبوا من أهلها دفع الأتاوات والغرامات ووضعوا أيديهم قوة واقتداراً على ما يملكه الناس من مال وحاصلات ، فضج الناس من مظالم الفريقين وتمنوا الخلاص منهما .

ثورة الجنود على الوالي :

هال خسرو باشا استيلاء المماليك على المنيا ، وعزم على تجريد جيش يحاربهم ويقف تقدمهم ، فاستدعى قوات طاهر باشا ومحمد على ، فوصل الجيشان إلى القاهرة ودخل جنود طاهر باشا المدينة وبقى جنود محمد على في ضواحيها ، ورأى محمد على أن الفرصة سانحة للتخلص من خسرو باشا ، فأوعز هو وطاهر إلى الجنود – ومعظمهم من الأرناؤود – بالمطالبة برواتبهم المتأخرة ، فسرعان مالبوا الدعوة وتمردوا وخاصة لما علموا بمشروع تجريدهم على الصعيد .

تكررت حوادث تمرد الجند حتى صارت القاهرة في فتنة مستمرة ، ففى ٢٣ أبريل سنة ١٨٠٣ ذهب جماعة من رؤساء الجند إلى خسرو باشا يطالبون برواتبهم المتأخرة فأحالهم على الدفتردار[٤٦] (مدير الشئون المالية) فذهبوا إليه فاحالهم هذا على محمد على ، فذهبوا إليه ، وكان قد وعدهم بدفع رواتبهم في ذلك اليوم ، لكنه اعتذر إليهم بأنه لم يقبض شيئاً ، فثار الجند أمام بيت محمد على ، ولم يخش شرهم لأنه يعلم أن هذه الفتنة ليست موجهة ضده وإنما

---

(٤٦) خليل أفندى الرجائى .

وقعت بإيعاز منه ، وذاع خبر الفتنة فى المدينة فتوجس التجار شراً مستطيراً لأن الجنود اعتادوا عند تمردهم للمطالبة برواتبهم المتأخرة أن يبيحوا لأنفسهم النهب والسلب ، فأقفل التجار حوانيتهم وأخذوا ينقلون منها إلى بيوتهم ما خف حمله ، نجاةً به من النهب ، ثم وعُد الجنود بدفع رواتبهم بعد ستة أيام ، فسكنت الفتنة ، والظاهر أن هذا السكون لم يكن إلا وقتيًا وأن الأيام الستة انقضت فى العمل على استئناف التمرد .

ففى اليوم التاسع والعشرين من شهر أبريل احتشد الجنود المتمردون وقصدوا بجموعهم إلى ميدان الأزبكية وحاصروا منزل الدفتردار وطالبوه برواتبهم ، فبعث إلى خسرو باشا يطلب أن يوافيه بالمال ليكمل ما عنده ويدفع ما يستطيع دفعه من رواتب الجند ، فكان جواب الباشا أن أمر بضرب الجند بالمدافع من القلعة ، فثارت ثائرتهم ونهبوا منزل الدفتردار وعظمت الفتنة وتسامع الناس دوى المدافع والبنادق فساد الذعر فى المدينة وأغلق التجار حوانيتهم ، ولم يعبأ خسرو باشا بهذه الفتنة وظن أن فى استطاعته إخمادها بالقوة ، وجاء إليه طاهر باشا يتظاهر بالوساطة بينه وبين الجند ، فرفض خسرو باشا مقابلته وأمره أن يلزم داره واستمر القتال إلى اليوم التالى (السبت الموافق ٣٠ أبريل – ٩ محرم) ناشباً بين الجند المتمردين والعسكر الموالين للوالى وتمكن طاهر باشا وجنوده من الاستيلاء على القلعة وأخذوا يضربون قصر خسرو باشا بالمدافع وأصبحت المدينة فى قبضتهم .

فأسقط فى يد الباشا ، واستمرت الفتنة إلى يوم الأحد ، فاستولى الجنود الأرناؤود على أهم مواقع المدينة وأضرموا النار فى قصر الوالى[٤٧] وحاصروه ، فلم يسع خسرو باشا إلا أن يلوذ بالهرب وفر هو وعائلته وحاشيته وبقية من جنوده ، وخرج من المدينة وقصد إلى قليوب فالمنصورة فدمياط واستقر بها ، وأخذ يستعد لاسترجاع ولايته ، ومن غريب أمره أنه وهو فى محنته وفى فراره ضرب الضرائب على البلاد التى مر بها وأخذ من الأموال ما استطاع نهبه ، ذكر الجبرتى أنه فرض على أهل المنصورة تسعين ألف ريال وضرب الضرائب على كثير من بلاد الدقهلية والغربية ، وبفرار خسرو باشا انتهت ولايته الفعلية ، فكانت مدتها سنة وثلاثة أشهر وواحدًا وعشرين يومًا ، وكان كما يقول الجبرتى «سيئ التدبير لا يحسن التصرف ، يميل إلى

(٤٧) هو بيت محمد بك الألفى القديم بالأزبكية الذى سكنه نابليون ثم كليبر ثم منو وكان كل منهم يدخل فيه تحسينات وعمارات جديدة وسكن به الوالى خسرو باشا وأدخل فيه عمارة كبيرة وقد التهمت النيران مبانيه العظيمة حتى لم يبق منه إلا الجدران .

سفك الدماء ولا يضع شيئًا فى محله » . وقال عنه إنه فى آخر مدته داخله الغرور وطاوع قرناء السوء المحدقين به والتفت إلى المظالم وفرض الضرائب على الناس وأهل القرى « حتى أنهم حرروا دفاتر فردة (ضريبة) على عامة الدور والأماكن بأجرة ثلاث سنوات ، وقيل أشنع من ذلك ، فأنقذ الله عباده وسلط عليه جنده وعساكره وخرج مرغوماً مقهوراً » .

تعيين طاهر باشا قائممقام ثم مقتله

وفى مساء هذا اليوم كانت المدينة فى قبضة يد طاهر باشا قائد الجنود الألبانيين (الأرناؤود) وصار منصب الولاية على مصر شاغراً ، فطلب طاهر باشا إلى المشايخ وكبار العلماء ، والوجاقلية أن يختاروا من يشغل هذا المنصب .

فاجتمع المشايخ يوم الجمعة ١٤ محرم سنة ١٢١٨ (٦ مايو سنة ١٨٠٣) ببيت القاضى (دار المحكمة) وذهبوا صحبته إلى بيت طاهر باشا وأعلنوه باختياره « قائممقام » إلى أن تحضر له الولاية أو يعين وال آخر ، وطلبوا منه رفع المظالم التى كان الناس يشكون منها ، وفى هذا المجلس نفسه عرض المشايخ رسالة من البكوات المماليك فى الوجه القبلى أرسلوها قبل حدوث الفتنة العسكرية التى انتهت بخلع خسرو باشا يعرضون فيها الصلح والكفّ عن القتال ، ويلقون تبعة استمرار الحرب على عاتق الصدر الأعظم وخسرو باشا ، ويطلبون من المشايخ أن يتوسطوا لهم فى الصلح ، فانتهز طاهر باشا هذه الفرصة ليجتذب إليه المماليك ، وكتب إليهم جواباً يدعوهم إلى الحضور والاقتراب من القاهرة .

ظهرت للمشايخ فى هذا التعيين سلطة رسمية ، وإن كانت فى الواقع اسمية ، لأن طاهر باشا إنما وصل إلى القائممقامية بحد السيف ، لكن مجرد استشعاره بضرورة اتفاق العلماء على اختياره هو تسليم منه بأن لهم شأنًا فى حل الأزمات ، كما أن تدخلهم فى الوساطة بين البكوات المماليك والوالى أكسبهم نفوذاً على الفريقين ، ومساعيهم فى رفع المظالم أعلت مكانتهم وزادت فى التفاف الناس حولهم .

مظالم طاهر باشا :

وقد كان للعلماء مقام محمود فى مقاومة المظالم التى ارتكبها طاهر باشا ، فإن أولَ عمل له

أنه ألقى القبض على جماعة من كبار الموظفين والأعيان بحجة أنهم من أنصار خسرو باشا ، منهم السيد أحمد المحروقى كبير التجار ، ورئيس الانكشارية ، وكاتب خزانة خسرو باشا ، ومصطفى الوكيل وغيرهم ، وسجنهم فى القلعة ، فتدخل المشايخ وتوصلوا إلى إطلاق سراح السيد المحروقى من القلعة فى اليوم التالى لاعتقاله ، وتدخل السادات للإفراج عن مصطفى الوكيل وأخذه معه إلى بيته وكان ذلك يوم الجمعة ٢١ محرم سنة ١٢١٨ ، فلما كان يوم الأحد أرسل طاهر باشا يطلب مصطفى الوكيل من عند الشيخ السادات فذهب معه السادات إلى طاهر باشا ليحميه من بطشه ، فلما رآه ألقوا القبض عليه ثانية وأخذوه إلى القلعة ، فحنق السيد السادات من هذا الظلم ودخل على طاهر باشا واعترضه اعتراضًا شديدًا أو كما يقول الجبرتى « تشاجر معه » ، فأطلعه طاهر باشا على خطاب مرسل إلى مصطفى الوكيل من خسرو باشا ليبرهن له على أنه موال لخسرو وأن اعتقاله واجب ، فقال السادات إن هذا لا يؤاخذ به وإنما يؤاخذ إذا كان المكتوب منه إلى خسرو باشا ، وكان طاهر باشا مصمما على قتله ، فانتهى الأمر على ألا يقتله وأن يبقى ببيت السادات مشمولا بحمايته ، وخشى طاهر باشا من تغير خاطر السادات بسبب هذه الحادثة فذهب إليه فى بيته يسترضيه ويعتذر إليه .

ومن مظالم طاهر باشا أنه أمر بقتل المعلم ملطى من كبار الكتبة الأقباط ، وهو الذى كان متوليًا القضاء فى زمن الفرنسيين ، وأمر كذلك بقتل المعلم حنا الصبحانى أحد التجار السوريين ، ولم يذكر الجبرتى سبب قتلهما ، ولكن لا نزاع فى أن مرجعه الطمع فى أموالها ، وأمر أيضًا بقتل اثنين من كبار الوجاقلية (الجهادية) وهما : أحمد كتخدا على باش اختيار وجاق الانكشارية ومصطفى كتخدا الرزاز كتخدا وجاق العزب .

على أن طاهر باشا لم يدم له الأمر ، فقد اشتهر بالظلم والجبروت وأطلق لجنوده الألبانيين عنان السلب والنهب وضرب الغرامات الفادحة على التجار ، وكان الجنود الانكشارية الذين فى المدينة قد قاموا يطالبون برواتبهم المتأخرة مقتدين بالجنود الأرناؤود ، فرفض طاهر باشا طلبهم وظهر تحيزه إلى الأرناؤود وتحامله على الانكشارية ، فبينما كان يغدق المال على أولئك كان يضن به على هؤلاء ، وإذا طالبوه برواتبهم المتأخرة صارحهم بأن ليس لهم عنده رواتب إلا من عهد ولايته وأحالهم على خسرو باشا الوالى المطرود ، فحنقوا عليه ، وزاد من سخطهم أن الأرناؤود أذلوهم فى عهده وكانوا يعتبرون انتصارهم على خسرو باشا فوزاً على الانكشارية أجمعين ، فشمخوا بأنوفهم وجعلوا ينظرون إليهم بعين الاحتقار والزراية ، فأوغر كل ذلك

صدور الانكشارية وبيتوا فيما بينهم أن ينتقموا من الأرناؤود وعزموا على الفتك بطاهر باشا وتعيين أحد رؤساء الانكشارية بدله .

فلما كان يوم ٢٦ مايو سنة ١٨٠٣ [٤٨] ذهب رهط منهم يبلغ عدده نحو ٢٥٠ فى أسلحتهم إلى طاهر باشا وعلى رأسهم اثنان من أغواتهم (رؤسائهم) وهما موسى أغا وإسماعيل أغا ، فدخلا على طاهر باشا وكلماه فى الشكوى من تأخير دفع الرواتب ، فانتهرهما ورفض أن يسمع إلى شكواهما واشتد الجدال والخصام بينهم فجرد أحدهما سيفه وضرب طاهر باشا فقطع رأسه ورمياه من الشباك ، فعادت السلطة مؤقتًا إلى الانكشارية وأحرقوا دار طاهر باشا ونهبوها ، وكانت مدة حكمه أيامًا معدودة ، قال الجبرتى : « ولو طال عمره أكثر من ذلك لأهلك الحرث والنسل » .

تعيين أحمد باشا :

كانت قوات المماليك وجنود محمد على على أبواب القاهرة ، فرأى الانكشارية أن يبادروا إلى تعيين وال منهم يخلف طاهر باشا فى الحكم ليضعوا المماليك ومحمد على أمام الأمر الواقع ، فوقع اختيارهم على أحمد باشا والى المدينة المنورة ، وكان موجوداً وقتئذ بالقاهرة فولوه الحكم وأرسل يستميل إليه محمد على الذى احتل القلعة وأصبح بعد موت طاهر باشا قائد الجنود الألبانيين وعددهم نحو ٤٠٠٠ مقاتل .

تحالف محمد على والمماليك :

لكن محمد على رأى من مصلحته الاتفاق مع المماليك للتخلص من القوة التركية أولا ، على أن يعود فيتخلص بعد ذلك من المماليك ، وكان محمد على ملتزمًا الحيدة ظاهراً وإن لم يكن بعيداً عن حركة الألبانيين التى انتهت بعزل خسرو باشا ، وظل فى القاهرة متظاهراً بالحيدة أثناء ولاية طاهر باشا ، يرقب الحوادث عن كثب ، وينتظر الفرصة السانحة ليحقق برنامجه ، فلما عين الانكشارية أحمد باشا صمم على الخروج من حيدته وعزم على التحالف مع المماليك .

وأراد أحمد باشا أن يستميل إليه العلماء ويستخدم نفوذهم لتثبيت مركزه وإقناع محمد

---

(٤٨) ٤ صفر سنة ١٢١٨ .

على بقبول ولايته ، فأحضرهم وطلب إليهم أن يذهبوا إلى محمد على ويخاطبوه فى الإذعان للطاعة ، فذهبوا إليه وخاطبوه فى ذلك فأجاب بأن أحمد باشا ليس واليًا على مصر ، وإنما هو والى المدينة المنورة وليس له علاقة بمصر ، وقال : « إنى أنا الذى وليت طاهر باشا لكونه محافظ الديار المصرية من طرف الدولة وله شبهة فى الجملة ، وأما أحمد باشا فليس له شبهة فيجب أن يخرج من البلد ويأخذ معه الانكشارية ونجهزه ويسافر إلى ولايته » ، فقام العلماء على ذلك ، وطلب إليهم أحمد باشا أن يأمروا الرعية بالقيام على الألبانيين وقتلهم ، فلم يجيبوه إلى طلبه ، وقاموا من عنده ليتشاوروا فى الأمر ، فطلب إليهم أحمد باشا أن يبقوا عنده وأن يرسلوا للناس بما يأمرهم به ، وكان غرضه أن يُكرههم فيملى عليهم فلا يعصوا له أمراً ، فقالوا : « إن عادتنا أن يكون جلوسنا فى المهمات بالجامع الأزهر نجتمع به ونرسل إلى الرعية فإنهم عند ذلك لا يخالفوننا » ، ولم يزالوا به حتى تخلصوا وخرجوا من عنده .

أما محمد على فقد جاهر بتحالفه والمماليك ، واجتمع بإبراهيم بك فى الجيزة ، وألقى فى روعه أنه يؤيده وأنه أولى الناس بولاية مصر ، فدخل محمد على وإبراهيم بك وعثمان بك البرديسى وباقى زعماء المماليك القاهرة متحالفين وطردوا أحمد باشا ، فكانت مدة ولايته يومًا وليلة ، وأعلنوا فى المدينة تحالف المماليك والألبانيين واستولوا على زمام الحكم ، وقتل الأرناؤود إسماعيل أغا وموسى أغا اللذين قتلا طاهر باشا ، وقتلوا أيضًا خليل أفندى الرجائى الدفتردار السابق ويوسف كتخدا بك وكيل خسرو باشا بعد أن نهبوا منازلهما .

بدأت سلطة محمد على تظهر فى الميدان ، ونادى المنادون فى القاهرة « بالأمان حسب ما رسم إبراهيم بك حاكم الولاية وأفندينا محمد على » .

فكان هذا النداء فى شوارع القاهرة إعلانًا باقتسام السلطة بين إبراهيم بك ومحمد على . وليذكر القارئ هذا النداء ، فإن عبارة « حسب ما رسم به فلان » هى إعلان باسم من أصبح قابضًا على زمام السلطة فى ذلك العصر.

اتفق محمد على وإبراهيم وعثمان البرديسى على التخلص من الأتراك . فحاصر أتباعهم قلعة جامع الظاهر التى كان الانكشارية يقيمون بها ، ولم يزالوا بهم حتى أخرجوهم منها ونزعوا أسلحتهم وطردوهم من القاهرة ، وكذلك طردوا منها جميع الانكشارية والأتراك والبشناق ، ونادوا بتحذير الناس من إيوائهم .

اعتقال خسرو باشا :

كانت الصلات بين المماليك ومحمد على فى ذلك الحين على أتم صفاء ووئام ، لكن محمد على ترك السلطة ظاهراً للمماليك حتى يحتملوا تبعة الأحداث التى تقع فى البلاد ، وبالغ فى التودد إليهم ، فسلمهم قلعة القاهرة ، واتفق وإياهم على تجريد حملة على دمياط للقضاء على سلطة خسرو باشا ، وحملة أخرى للقضاء على الحامية العثمانية فى رشيد ، فسارت الحملة الأولى إلى دمياط بقيادة عثمان البرديسى واشتراك محمد على ، وجردوا الثانية إلى رشيد بقيادة سليمان كاشف ، ففاز البرديسى على خسرو باشا فى دمياط ، وانتهت الحملة بالقبض عليه وإرساله إلى القاهرة سجيناً ، وقد ارتكب المماليك والأرناؤود فى دمياط كثيراً من الفظائع والمظالم والنهب والسلب ، وابتهج المماليك لهذا النصر ابتهاجاً عظيماً وظنوا أن مصر دانت لهم ، ونادى إبراهيم بك بنفسه «قائمقام مصر» .

تعيين على باشا الجزائرلى والياً :

علمت الحكومة العثمانية بعزل خسرو باشا وفراره إلى دمياط ودخول البكوات المماليك القاهرة وعودة السلطة إليهم ، فهالها ما أصاب هيبتها من التصدّع ، وعزمت على استرداد سلطتها ، فعينت على باشا الجزائرلى والياً لمصر بدلا من خسرو باشا ، وأوفدته إلى مصر ليعيد الحالة إلى نصابها ويكبح جماح المماليك .

وعلى باشا الجزائرلى هذا كان مملوكاً لمحمد باشا حاكم الجزائر ، ولذلك سمى الجزائرلى ، ويسميه الجبرتى على باشا (الطرابلسى) لأنه تقلد ولاية طرابلس الغرب ، وقد اشتهر فيها بالظلم وارتكاب الجرائم ، فثار به أهلها واضطر إلى الهرب وفر إلى مصر ولجأ إلى مراد بك زعيم المماليك ، فظل فى حماه وضيافته إلى أن جاءت الحملة الفرنسية ، فقاتل قليلا فى صفوف المماليك ورحل خلال الحملة إلى سوريا ومنها إلى الآستانة إلى أن اختاره الباب العالى لولاية مصر ، ولم يكن منصفاً بأى صفة تؤهله لهذا المنصب لا من جهة الأخلاق ولا من ناحية المواهب الإدارية أو الكفاية الحربية ، ولكنه بلغ هذا المنصب من طريق التقرب إلى الصدر الأعظم ووعده بأن يبذل الأموال الطائلة لخزانة الدولة إذا أسندت إليه ولاية مصر .

جاء على باشا الجزائرلى إلى الإسكندرية فى أوائل يولية سنة ١٨٠٣ ومعه قوة من ألف جندى ، وكانت هذه القوة أضعف من أن توطد سلطته فى البلاد وخاصة بعد انتصار المماليك

وتحالفهم مع محمد على ، فأخذ يكاتب البكوات المماليك ويدعوهم إلى الولاء لحكومة الآستانة ويلومهم على ما فعلوه من دخول القاهرة وطرد الأتراك والانكشارية منها ، فأجابه إبراهيم بك أن المماليك لم يدخلوا المدينة إلا بناء على دعوة المشايخ والعلماء لوضع حد للفوضى التى عصفت بها ، وأنهم يرفضون الخروج من مصر ويصرون على البقاء فيها .

وقد فطن المماليك إلى أن الوالى الجديد إذا ترك وشأنه سار بجنوده إلى القاهرة ليعيد الحكم العثمانى ، فاعتزموا محاربته ، وسار البرديسى بجنوده صحبة محمد على إلى رشيد ليستردوها من يد الأتراك ، فاحتلوها وامتنعت الجنود التركية فى قلعتها بقيادة السيد على القبطان أخى على باشا الجزائرلى ، فحاصرها المماليك وشددوا عليها الحصار حتى سلمها الأتراك (أغسطس سنة ١٨٠٣) وفرض المماليك على رشيد غرامة فادحة بلغت ثمانين ألف ريال ، ونهبوا المدينة ، وأقام البرديسى على رشيد مملوكه يحيى بك وحصن فيها القلعة والبوغاز وعزم من ثمَّ على مواصلة القتال ومطاردة الأتراك إلى أن يحتل الإسكندرية .

موقف محمد على

كان البرديسى موطداً عزمه على أخذ الإسكندرية لأنها كانت آخر موقع للأتراك فى مصر ، لكن محمد على رغب عن الزحف إليها ، ذلك أنه رأى استيلاء المماليك عليها يثبت قدمهم ويؤيد سلطانهم ويحول دون إنفاذ برنامجه ، وبرنامجه يقتضى إضعافهم ليعجل بالتخلص منهم عند سنوح الفرصة ، ورأى أن بقاء الإسكندرية فى يد الوالى التركى لا يضره شيئًا لأن سلطة الوالى التركى مزعزعة مضطربة لا تحتاج إلى مجهود كبير للقضاء عليها والتخلص منها فى الوقت المناسب ، فآثر العودة بجنوده إلى القاهرة ، وكتم عن البرديسى غايته من هذا الرجوع ، وتظاهر بأن حجته فى ذلك أن لجنوده رواتب متأخرة لم تدفع لهم ، فارتاب البرديسى فى هذا الرجوع الفجائى وتغير موقفه تبعاً لذلك وعدل عن حصار الإسكندرية ، واعتزم هو أيضاً الرجوع إلى القاهرة ، ذلك أنه رأى قواته نقصت بما اصطحبه محمد على من الجنود الأرناؤود وعلم من جهة أخرى مناعة موقع الإسكندرية وصعوبة الاستيلاء عليها ، وزاد موقفه حرجًا نقص النيل فى تلك السنة (أغسطس سنة ١٨٠٣) وما أفضى إليه من غلاء الأسعار وقلق الخواطر وتبلبل الأفكار ونقص الأقوات والمؤن فى معسكره وتذمر جنوده المماليك من قلة الزاد ، وإلحاحهم فى

طلب رواتبهم المتأخرة ، وبالرغم من أنهم نهبوا الكثير من أموال الأهالى وحاصلاتهم فإنهم كانوا يدعون « أن ما يأخذونه من المنهوبات لا يدخل فى حساب رواتبهم ! ! »[٤٩]، وكان المماليك فى أثناء ذلك لا يفتأون يفرضون الضرائب والغرامات على البلاد « حتى خرب الكثير من القرى والبلاد وجلا أهلها عنها خصوصًا إقليم البحيرة فإنه خرب عن آخره[٥٠]» .

ومن ثم رجع البرديسى عن زحفه على الإسكندرية وعاد أدراجه إلى القاهرة (سبتمبر سنة ١٨٠٣) .

حضور المسيو ماسيو دلسبس

وبين هذه الحوادث ، فى يولية سنة ١٨٠٣ . حضر إلى الإسكندرية المسيو ماسيو دلسبس Mathieu Delesseps قنصل فرنسا فى مصر[٥١] ، فاستقبله البرديسى أثناء حصار رشيد وذهب إلى القاهرة فتلقاه إبراهيم بك بالرعاية والإكرام ، قال الجبرتى فى هذا الصدد :

« وفى ثالث عشر ربيع الثانى سنة ١٢١٨ [٥٢] حضر (إلى القاهرة) قنصل الفرنسيين فعملوا له شنكاً ومدافع وأركبوه من بولاق بموكب جليل وقدامه أغات الإنكشارية والوالى (رئيس الشرطة) وأكابر الكشاف وحسين كاشف المعروف بالأفرنجى وعساكره الذين مثل عسكر الفرنسيس وهيئته لم يتقدم مثلها بين المسلمين ، ونصب بنديرته فى بركة الأزبكية من ناحية قنطرة الدكة على صارى طويل مرتفع فى الهواء واجتمع إليه كثير من النصارى الشوام والأقباط وعملوا جمعيات وولائم وازدحموا على بابه وحضر صحبته كثير من الذين هربوا عند دخول المسلمين مع الوزير وكان المحتفل بذلك حسين كاشف الإفرنجى » ، والجبرتى وإن لم يذكر اسم القنصل إلا أن التاريخ الذى أورده عن حضوره للقاهرة يدل على أنه يعنى المسيو ماسيو دلسبس .

---

(٤٩) و (٥٠) ولده الجبرتى الجزء الثالث .

(٥١) هو والد المسيو فردينان دلسبس فاتح قناة السويس .

(٥٢) يوافق ٢ أغسطس سنة ١٨٠٣ .

قطع سد أبوقير

وكان على باشا الجزائرلى مجداً فى تحصين الإسكندرية ليدفع عنها هجوم المماليك ، ومما تذرع به فى هذا العمل أنه قطع سد أبو قير لتطغى المياه حوالى الإسكندرية ويمنع وصول المماليك إليها ، لكنها فكرة حمقاء ، لأنها حرمت الثغر من ورود المياه العذبة ، وهذا السد هو الذى قطعه الإنجليز سنة ١٨٠١ كما مر بك بيانه ، ويقول المسيو فيلكس مانجان[٥٣] إن المهندس السويدى ردون Redon قد باشر إصلاحه بعد جلاء الفرنسيين ، لكن الجبرتى يقول إن الذى أصلح السد هو مهندس تركى لا سويدى يدعى صالح أفندى أرسلته الدولة خصيصًا لإصلاحه وقضى سنة ونصفًا فى عمله إلى أن قطعه على باشا ثانية ، ويلوح لنا أن رواية المسيو مانجان أرجح من رواية الجبرتى إذ يؤيدها ما ورد فى تقرير الكولونل سباستيانى الذى جاء مصر فى أكتوبر سنة ١٨٠٢ ، فهو يقول إن الذى تولى إصلاح السد هو مهندس سويدى أوفده الباب العالى لهذا الغرض[٥٤] .

وقد كان لقطع سد أبو قير أولا وثانيا أسوأ الأثر فى حالة الإسكندرية وقسم عظيم من مديرية البحيرة ، فإن البحر طغت مياهه على شمال البحيرة وخرب كثيراً من القرى والأراضى وأتلف ترعة الإسكندرية (المحمودية الآن) التى كانت تروى الثغر بالمياه العذبة ، فانقطعت المياه عن الإسكندرية ، وتعطلت المواصلات إليها ، فأمعنت فى التقهقر وزادت حالتها سوءاً واشتد الضيق بأهلها ، واضطر الكثيرون منهم إلى الهجرة مما أدى إلى تناقص عدد سكانها حتى بلغ عددهم فى أوائل عهد محمد على نحو ستة آلاف نسمة ، وقد ذكر الجبرتى ما أصاب الإسكندرية والبحيرة من الخراب بعد قطع السد على عهد الحملة الفرنسية وبعد انتهائها قال : « فسالت المياه المالحة على الأراضى إلى قرب دمنهور واختلطت بخليج (ترعة) الأشرفية وشرقت الأراضى ، وخرجت القرى والبلاد ، فتلفت المزارع ، وانقطعت الطرق حول الإسكندرية من البر ، وامتنع وصول ماء النيل إلى أهل الإسكندرية فلم يصل إليهم إلا ما

---

(٥٣) فى كتاب مصر تحت حكم محمد على .

(٥٤) تقرير الكولونيل سباستيانى إلى نابليون المنشور فى الجريدة الرسمية الفرنسية بتاريخ ٣٠ يناير سنة ١٨٠٣ والوراد فى مجموعة معاهدات الباب العالى للبارون دى تستا De Testa الجزء الثانى .

يصلهم من جهة البحر فى النقاير (مراكب المياه) أو ما خزنوه من مياه الأمطار بالصهاريج وبعض العيون المستعذبة ، فلما استقر العثمانيون بمصر حضر شخص من طرف الدولة يسمى صالح أفندى معين لخصوص السد وأحضر معه عدة مراكب بها أخشاب وآلات ، وبذل الهمة ، والاجتهاد فى سد الجسر ، فأقام العمل فى ذلك نحو سنة ونصف حتى قارب الإتمام وفرح الناس بذلك غاية الفرح واستبشر أهل القرى والنواحى ، فما هو إلا وقد حصلت هذه الحوادث وحضر على باشا إلى الثغر وخرج الأجناد المصرلية (المماليك) وحاربوا السيد على القبطان(٥٥) على برج رشيد فخاف حضورهم إلى الإسكندرية ففتحه ثانياً ورجع التلف كما كان ، وذهب ما صنعه صالح أفندى المذكور فى الفارغ بعدما صرف عليه أموالا عظيمة ، وأما أهل إسكندرية فإنهم جلوا عنها ونزل البعض فى المراكب وسافر إلى أزمير وبعضهم إلى قبرص ورودس والأضات وبعضهم اكترى بالأيام وأقاموا بها على الثغر ولم يبق بالبلدة إلا الفقراء والعواجز الذين لا يجدون ما ينفقونه على الرحلة مستوفزون وعم بها الغلاء لعدم الوارد وانقطاع الطرق » .

مقتل على باشا الجزائرلى :

أما على باشا فإنه بقى بالإسكندرية إلى أواخر سنة ١٨٠٣ ثم غادرها يوم ٢٢ ديسمبر قاصداً إلى القاهرة ليتقلد منصب الولاية وذلك بناء على دعوة من الأمراء المماليك تظاهروا فيها بالرغبة فى الوفاق ، ولكن هذه الدعوة كانت فخًا نصبوه له للفتك به فلما وصل إلى شلقان(٥٦) التقى به جماعة من أمراء المماليك وعساكرهم ، وهناك أبلغوه أنهم يمنعونه من دخول القاهرة وأركبوه صحبة جماعة منهم لحراسته والذهاب به إلى حدود سوريا ، ولم يكتفوا بذلك بل أغروا به حراسه فقتلوه فى الطريق (يناير سنة ١٨٠٤) .

---

(٥٥) هو أخو على باشا الجزائرلى كما تقدم بيانه .

(٥٦) بمركز قليوب .

موقف محمد على

كان محمد على هو الرأس المدبر للحملة على خسرو باشا ، ثم على أحمد باشا ، ثم على على باشا الجزائرلى ، لكنه ظل بعيداً عن الميدان وترك عثمان بك البرديسى يأتمر بعلى باشا الجزائرلى ويتولى أمر قتله ليحتمل تبعة هذا العصيان الخطير فى نظر الباب العالى إذا ما جاء وقت الحساب ، والواقع أن مقتل الجزائرلى كان فيه القضاء على مظهر السلطة العثمانية فى مصر ، وبذلك تخلص محمد على من إحدى القوتين اللتين كان يعمل على سحقهما ، ولم يبق أمامه إلا قوة المماليك ، فبدأ يعمل على التخلص منها ، وتمهيداً لهذه الغاية ترك لزعماء المماليك السلطة ظاهرا حتى يحملهم تبعة الحكم ومساوئه ويجعلهم هدفا لسخط الشعب .

عودة محمد بك الألفى وفشل خطته السياسية

علمتَ أن محمد بك الألفى سافر إلى إنجلترا حين جلاء الإنجليز عن الإسكندرية ، وغايته أن يطلب من الحكومة الإنجليزية معاونة المماليك على رجوعهم للحكم .

قضى الألفى فى هذه الرحلة طويلا من الزمن وقعت خلاله الحوادث الخطيرة التى تكلمنا عنها ، وكانت الرحلة على جانب كبير من الخطورة ، ولو نجح الألفى فى مهمته لتغير وجه التاريخ المصرى الحديث .

فالألفى كان بلا نزاع أقوى زعماء المماليك شكيمة وأشدهم بأساً وأبعدهم نظرًا ، وحسبك أن الجبرتى يقول عنه إنه « آخر من أدركنا من الأمراء المصريين شهامة وصراحة ونظراً فى عواقب الأمور ، وكان وحيداً فى نفسه ، فريداً فى أبناء جنسه ، وبموته اضمحلت دولتهم وتفرقت جمعيتهم ، وانكسرت شوكتهم ، وزادت نفرتهم ومازالوا فى نقص وإدبار وذلة وهوان وصغار ، ولم تقم لهم بعده راية وانقرضوا وطردوا إلى أقصى البلاد فى النهاية » .

فهذا الرجل البعيد النظر الذى بموته اضمحلت دولة المماليك لعب دوراً خطيراً على مسرح الحوادث المصرية ، والنقطة البارزة فى تاريخه أنه يمثل خطة سياسية معينة رسمها واتبعها ودعا إليها زملاءه المماليك ، وكان لا ينفك يسعى لنجاحها ، تلك الخطة هى الاستظلال بحماية إنجلترا

وتخويلها احتلال ثغور الإسكندرية ورشيد ودمياط مقابل مساعدتها المماليك على الاستقرار فى مصر والاستئثار بزمام الحكم فيها ، ولو نجحت هذه الخطة لوقعت مصر منذ نيف ومائة عام فى قبضة الإنجليز ، ولما تكونت الدولة المصرية العظيمة التى أسسها محمد على .

إن (محمد على) كان يمثل الاستقلال المصرى ، أما الألفى فكان يمثل الحماية الإنجليزية ، ومن هنا تتبين لماذا ساعدت إنجلترا الألفى وحاربت محمد على طوال مدة حكمه .

كان محمد بك الألفى صنيعة السياسة الإنجليزية فى مصر ورسول المماليك لدى الإنجليز فى الاستظلال بحمايتهم ، وكان الإنجليز كما قدمنا لا يفتأون يساعدون المماليك على تولى زمام الحكم فى مصر ، وقد بذلوا لهم فوق مساعدتهم فى مصر نفوذهم السياسى فى الآستانة ليضمنوا لهم الحكم وخاصة بعد أن أبرم صلح أميان Amiens الذى يقضى بجلاء القوات البريطانية عن مصر ، فإنهم عزموا إذا هم جلوا عنها أن يتخذوا المماليك صنائع وأولياء لهم فى البلاد ليضمنوا بسط نفوذهم فيها واحتلالها يومًا ما ، فسعوا لدى الباب العالى لاستمالته إلى المماليك ، ولكنهم أخفقوا فى مسعاهم ولم يرض السلطان رجوعهم إلى الحكم ، ومن ثم تجددت الحرب بينهم وبين الأتراك فى الوجه القبلى فكان النصر حليفهم وزحفوا على الوجه البحرى وفازوا على الترك فى معركة دمنهور كما قدمنا ، ولما جلا الإنجليز عن الإسكندرية رحل معهم الألفى وولى وجهه قبلة الحكومة الإنجليزية يستمد منها المعونة والنجدة ليتولى المماليك زمام الحكم فى مقابل ولائهم وإخلاصهم لها واحتلالها ثغور مصر ، وهذا معناه طلب الحماية الإنجليزية .

وصل الألفى إلى لندن بعد رحلة طويلة ، فأكرم الإنجليز مثواه ورحبت به الصحف البريطانية ، وبقى فى عاصمة الإنجليز من أوائل أكتوبر سنة ١٨٠٣ إلى أواخر ديسمبر من تلك السنة ، وقابل خلال إقامته بها أقطاب السياسة الإنجليزية وحظى بمقابلة الملك جورج الثالث وولى عهده ، وعرض على الحكومة الإنجليزية كتابةً أن تشمل المماليك بمساعدتها وحمايتها ، وكانت إنجلترا وقتئذ تسعى فى كسب ثقة تركيا لتحول بينها وبين صداقة فرنسا فلم تشأ أن تغضب الحكومة التركية بإعلان حمايتها للمماليك وأهملت شأن الألفى زمناً ما ، لكنها ما لبثت أن غيرت خطتها حياله وأخذت توجه إليه عنايتها والتفاتها ، ذلك حين توافرت الأنباء الواردة من مصر بفوز المماليك واستيلائهم على زمام الحكم وتضعضع نفوذ الترك فى مصر ، فتغيرت وجهة النظر البريطانية – والسياسة الإنجليزية دائمًا تتغير بتغير الظروف وتقلب الأحوال – وأرادت أن تستخدم هذا الانقلاب الجديد لتشد أزر المماليك ، وتحقق ارتباطها معهم ، فكتبت وزارة

الخارجية إلى الألفى رسالة [٥٧] وعدته فيها بالسعى بوساطة سفيرها فى الآستانة للتوفيق بين الباب العالى والمماليك وأن تعمل كذلك على حماية مصالح البكوات فى مصر على قاعدة المزايا التى كانوا يتمتعون بها قبل الحملة الفرنسية .

برّت الحكومة الإنجليزية بوعدها للألفى وأرسلت إلى القائم بأعمال سفارتها بالآستانة مذكرة بوجهة نظرها ليفضى بفحواها إلى الباب العالى أعربت فيها عن رغبتها فى توطيد النظام والسكينة فى مصر ، ونوهت بما بذلته من الجهود فى سبيل إخراج الفرنسيين منها وما أداه المماليك من الخدمات للجيش الإنجليزى بها . وأن هذه الخدمات تخول لهم الحق فى استرداد امتيازاتهم القديمة فى مصر ، وطلبت من الباب العالى تسوية علاقته مع المماليك على قاعدة اعترافهم بسيادة تركيا وأدائهم الجزية السنوية لها فى مقابل استرجاعهم زمام الحكم وتمتعهم بالمزايا التى كانت لهم قبل الحملة الفرنسية ، وطلبت الحكومة الإنجليزية فى مذكرتها أن يتعهد لها الباب العالى بتنفيذ هذه التسوية .

هذه هى مطالب الحكومة الإنجليزية من الباب العالى ، ومعناها أنها اعتبرت نفسها صاحبة الحماية الفعلية على مصر ، وأنها انتحلت لنفسها حق التدخل فى نظام الحكم فيها ، وتأمل فى تذرعها بالرغبة فى توطيد النظام والسكينة فى مصر ، تجد أن هذه الحجة ما فتئت تتخذها وسيلة للتدخل فى شئون البلاد قديمًا وحديثًا ، على أنها هى التى تخلق أسباب العبث بالأمن والنظام ، ولعمرى أن إعادة المماليك لهى الوسيلة الفعلية لنشر الفوضى والظلم فى مصر.

أخفقت إنجلترا فى مسعاها بالآستانة ، ولو أنها نجحت لوقعت مصر فريسة فى أيدى المماليك ولزرحت تحت نير الظلم والتأخر أحقابًا طويلة ولصارت على يدهم إلى الحماية البريطانية ، لكن الحوادث خيبت ظنونهم فسلمت مصر من حكم المماليك ومن حماية الإنجليز معاً .

رجع الألفى من إنجلترا تقله سفينة حربية جعلتها الحكومة الإنجليزية تحت تصرفه ، عاد واثقاً من نجاح مسعى إنجلترا فى الآستانة ممتلئًا أملا فى أن يكون حاكمًا لمصر مشمولا بحماية الدولة البريطانية .

وصل إلى أبو قير يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٠٤ وسار من فوره إلى رشيد وهناك التقى بالمستر بتروتشى Petrucci ، نائب القنصل البريطانى وخلا به عدة ساعات ثم أقلته سفينة القنصل

---

(٥٧) بتاريخ ١٥ ديسمبر سنة ١٨٠٣ ، انظر البحث المنشور فى مجلة المجمع العلمى المصرى الجزء السابع سنة ١٩٢٥ للمسيو دوان Douin عن (سفارة الألفى بك فى لندن) .

فى النيل يرفرف على مؤخرها العلم الإنجليزى وانحدرت به إلى القاهرة.

علم (محمد على) بعودة الألفى إلى مصر، فأوجس فى نفسه خيفة، لأن محمد على كان يحسب للألفى حسابًا كبيراً ويعده أقوى خصومه وأشدهم بأسًا وأصعبهم مراسًا، لكن الحظ ساعده بأن سخر له عثمان بك البرديسى ليخلصه من خصمه، ذلك أن البرديسى قد دبت فى نفسه عقارب الحسد من عودة زميله وصديقه القديم من إنجلترا، وداخله الخوف من أن يرى الألفى ينافسه النفوذ والسلطة مؤيد الجانب من إحدى الدول العظمى، فاعتزم الفتك به والتخلص منه، وكان فى الواقع لا يخدم نفسه بل يخدم برنامج محمد على، وهكذا كان للحظ دخل أيما دخل فى نجاح محمد على باشا.

أنفذ البرديسى رجاله للقبض على الألفى وقتله، وكاد الألفى يقع فى الشرك لولا أن لجأ إلى الاختفاء والفرار واستطاع أن ينجو بنفسه وذهب إلى الصعيد حيث أخذ يسعى فى تكوين حزب يناصره، وهكذا انقسم المماليك وتفرقت أهواؤهم، فكان ذلك من الأسباب التى عجلت بزوال دولتهم.

لم يكن النزاع بين البرديسى والألفى قوامه الفكرة السياسية، بل كان منشؤه الحسد والتنافس على السلطة والحكم، فما كان البرديسى أقل من خصمه رغبة فى الاستظلال بالحماية الإنجليزية، فقد ذكر المسيو مانجان (٥٨) والمسيو موريبه (٥٩) ان البرديسى قد اتصل قبل أن يتخلص من خصمه بالماجور ميست Misset قنصل إنجلترا العام فى مصر وتعددت بينهما المقابلات والاجتماعات الخاصة، وكان موضوع الحديث فيها رغبة البرديسى فى التحقق من الحماية البريطانية والثقة منها، فوعده القنصل – كما يقول المسيو (موريبه) بتأييد الحكومة الإنجليزية إذا هو قبل الحماية البريطانية وأن تنفذ إلى مصر جيشًا يجىء من الهند ليشد أزره وأن تحجز منافسه (الألفى) فى إنجلترا حتى لا يزاحمه فى الحكم، وهكذا نجحت فى اتخاذ زعماء المماليك على اختلاف مشاربهم وأهوائهم صنائع لها لكى تضمن نجاح سياستها الاستعمارية على يد أى منهم، ولم يحبط هذه السياسة إلا انقراض دولة المماليك والقضاء عليهم.

(٥٨) فى كتاب مصر تحت حكم محمد على.

(٥٩) فى كتاب (تاريخ محمد على).

ثورة الشعب على المماليك

(مارس سنة ١٨٠٤)

تخلص عثمان بك البرديسى من منافسه وزميله القديم محمد بك الألفى ، وأمن على سلطته فى الحكم ، على أن هذه الحوادث إنما خدمت سياسة محمد على ، لأن البرديسى بدأ يحتمل تبعة الحكم أمام الشعب ويواجه مقاومة قوية أخذت تشتد وتقوى حتى انتهت بسقوط دولة المماليك ، ذلك أن الحالة فى القاهرة كانت تزداد تفاقماً بسبب تذمر الشعب من كثرة وقوع المظالم وإرهاقه بمختلف الضرائب والمغارم ، وكان المماليك لا يدعون فرصة إلا ويفرضون على الناس غرامة أو ضريبة جديدة ، فاشتد الضيق بالأهلين ، وزاد فى سوء الحالة ما مر بك من نقص النيل فى تلك السنة (أغسطس سنة ١٨٠٣) نقصًا فاحشًا ، فأثر هذا النقص فى حالة الزراعة واستولى الذعر على الناس فى القاهرة وازدحموا على شراء الغلال ، فارتفعت أسعارها وشح الخبز فى الأسواق واشتد الضيق بالفقراء وأواسط الناس ، وهم السواد الأعظم من السكان ، واجتمع إلى هذا الضيق اعتداء المماليك والجنود الألبانيين على ما أبدى الناس من الأموال والغلال والمتاع ، وفى خلال ذلك (نوفمبر سنة ١٨٠٣ – شعبان سنة ١٢١٨) شكا الناس إلى كبار العلماء من ترادف هذا الاعتداء ، فذهب السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير إلى البكوات المماليك وطلبوا إليهم منع اعتداء العساكر على الناس ، فوعدوهم بالتدخل وركب الأغا (المحافظ) والوالى (رئيس الشرطة) وأمامه جماعة من عسكر الأرناؤود والمنادى ينادى بالأمن والأمان للرعية وأنه إذا وقع من الجند اعتداء أو نهب فللناس أن يضربوهم وإن لم يقدروا عليهم فليأخذوهم إلى رؤسائهم ، على أن مثل هذه الوعود والتنبيهات ذهبت عبثاً ، واستمر الجند والمماليك فى اعتدائهم على الأهالى ، وأخذ جو المدينة يكفهر منذراً بوقوع حوادث خطيرة .

بدأت هذه الحوادث بمطالبة الجنود برواتبهم المتأخرة ، وذهبوا إلى دار عثمان بك البرديسى يضجون ويتوعدون ، ولم يكن محمد على بعيداً عن تدبير هذه الحركة ، فاستنجد البرديسى بصديقه محمد على ، فتدخل هذا فى الأمر وهدأ حركة الجنود فى مقابل وعد من البرديسى بأن يدبر فى بضعة أيام المال اللازم لدفع رواتبهم المتأخرة .

كانت خزانة الحكومة خالية من المال بسبب سوء الإدارة وتلف الأراضى الزراعية وتعاقب الفتن وما أدى إليه الظلم من انقباض أيدى الناس عن العمل ، ففكر البرديسى فى ابتداع الوسائل للحصول على المال ، ففرض على تجار القاهرة ضريبة جديدة ، لكنه لم يحصل على المال الكافى لسد حاجة الجنود الذين كانوا يزدادون كل يوم ضجة وصخباً ، فاعتزم البرديسى فى شهر مارس سنة ١٨٠٤ (ذى القعدة سنة ١٢١٨) أن يفرض ضريبة جديدة على جميع الأهالى بلا استثناء ، ضربها على العقارات والبيوت أجرة سنة موزعة على الأملاك والمستأجرين ، وكلف عمال الحكومة بأن يحصلوها من كل فرد من أفراد القاهرة من ملاك ومستأجرين .

كانت فداحة الضرائب من أهم أسباب الثورات فى مختلف العصور والبلدان ، كذلك كانت هذه الضريبة الجديدة المنطوية على الإرهاق والظلم سبباً فى ثورة القاهرة على المماليك ، لأنها نزلت بالناس فى وقت اشتداد الضيق ووقوف حركة الأعمال .

أخذ عمال الحكومة وكتابها ، يعاونهم جنود المماليك ، يجوبون أحياء المدينة وشوارعها وحاراتها يكتبون أسماء الملاك والتجار والمستأجرين ، ويلزمون كل مالك وكل ساكن بدفع نصيبه من الضريبة على النحو الذى قررته الحكومة بالاتفاق مع رؤساء التجار والطوائف ، فبدأ الناس يتذمرون ، وامتنع كثير من الناس عن دفع المطلوب منهم إما لعجزهم أو لاستنكارهم لهذا الظلم ، فوقعت الملاحاة بينهم وبين عمال الحكومة ، واشتد سخطهم وعلا صياحهم ، واحتشدوا يوم ٢٥ ذى القعدة سنة ١٢١٨ وجاهروا باستنكار هذه المظالم وامتناعهم عن دفع الضرائب ، وخرج الناس من بيوتهم يضجون ويصخبون ، واحتشدوا فى الشوارع حاملين الرايات والدفوف والطبول ، وأخذوا يستمطرون اللعنات على الحكام ، وكانت صيحاتهم منصبة على الحكام المماليك الذين بيدهم الحل والعقد ، فأخذت جموعهم تنادى : « إيش تأخذ من تفليسى ! يا برديسى ! » ، وأغلق التجار وكالاتهم ودكاكينهم ، واتجهت جموع الناقين إلى الأزهر لمقابلة المشايخ والاحتجاج لديهم على الضريبة الجديدة ، فقام المشايخ إلى الأمراء المماليك يطلبون إلغاءها .

كان احتشاد الجماهير وغضبهم وتجمهرهم من نُذر الثورة والتمرد ، فأخذت روح الثورة تنتقل من حى إلى حى حتى عمت أنحاء المدينة ، فاضطرب عثمان بك البرديسى أمام رؤية الشعب الثائر يستولى على الميادين والشوارع ، وكانت الحركة موجهة ضد حكم المماليك من

جهة وضد مساوئ الجنود الأرناؤود من جهة أخرى .

وخشى محمد على أن تصيب الثورة جنوده بالأذى ، فبادر إلى كشف المماليك أمام الشعب وجعلهم وحدهم هدفًا لغضب الجماهير ، وجاهر بانضمامه إلى العلماء والمشايخ ، ونزل فى الشوارع واختلط بالجماهير الصاخبة ، وقابل العلماء بالأزهر وتعهد لهم بأن يبذل نفوذه لرفع هذه الضريبة . كما أنه أوصى جنوده الأرناؤود بأن يحترموا الشعب . فاختلطوا بالناس وأعلنوا عدم رضاهم عن الضريبة وجاهروا أنهم إنما يطلبون رواتبهم من الحكومة لا من الأهالى . قال الجبرتى فى هذا الصدد : « وفى وقت قيام العامة كان كثير من العسكر منتشرين فى الأسواق . فداخلهم الخوف . وصاروا يقولون لهم إنا معكم سواء . وأنتم الرعية ونحن العسكر ، ولم نرض بهذه الضريبة ، ورواتبنا على الميرى لا عليكم » .

يتبين من رواية الجبرتى أن ثورة الشعب كانت على جانب من الخطورة وأن جنود محمد على أوجسوا منها خيفة وحسبوا لها حساباً كبيراً ، ولولا ذلك لما « داخلهم الخوف » كما يقول الجبرتى . ولما ترضوا الشعب بإعلان انضمامهم إليه فى ساعة غضبه ، ويؤيد رواية الجبرتى ما ذكره المسيو (فولابل) الذى عاصر تلك الحوادث قال(٦٠) يصف حالة القاهرة وما وقع فيها :

« انتشر عمال الحكومة ومعهم طوائف من الجنود المماليك فى أحياء القاهرة وشوارعها يطالبون كل مالك وكل تاجر بأن يدفع لفوره حصته فى الضريبة التى فرضت عليهم ، وبدأت المطالبة هادئة يعقبها الدفع ، ثم ما لبثت أن ثارت الاحتجاجات وامتنع كثير من التجار عن دفع ما يطلب منهم إما لكونهم أكثر احتياجا ممن دفعوا الضريبة أو أكثر شجاعة منهم ، فاشتدت المناقشة وعلا الصخب ، واحتشد الجيران ، ثم لم يلبث الشعب أن احتشد بأجمعه فى الشوارع ، واتجهوا إلى المساجد التى اتخذوها ملتقى لاجتماعاتهم ، فسرعان ما غصت المساجد بجموع الشعب ، وأثار اجتماعه فى نفوس الجماهير روح الحماسة والشعور بالقوة والحق ، وقبضت الجماهير فى ساعة الغضب الأولى على بعض جباة الضرائب وقتلوهم .

« كان لهذا الموقف الجرىء الذى ركبه الشعب أثر دهشة وروعة فى نفوس الحزبين اللذين يتنازعان السلطة (المماليك والأرناؤود) ، ولم يعلما عند أى حد تقف حركة الشعب الثائر يستولى على الشوارع والميادين والمبانى ويستعد للمقاومة العنيفة ، ولم يكن خافياً على زعماء الأرناؤود أن جنودهم قد استهدفوا باعتداءاتهم وفظائعهم لكراهة الأهالى مثلما استهدف لها المماليك سواء

(٦٠) فى كتابه مصر الحديثة .

بسواء ، فلجأ المماليك إلى وساطة العلماء ، أما محمد على فكان أكثر منهم حزماً وإقداماً ، ولا غرو فقد امتاز بصدق النظر فى الأمور ، فألهمته قريحته أن يبادر إلى اغتنام الفرصة لخدمة برنامجه وأن يستفيد من الحوادث التى لا مفر من وقوعها ، فانضم إلى المشايخ واتصل بالجماهير واختلط بالعامة وتعهد ببذل جهوده حتى يصل إلى رفع هذه الضريبة ، فهدأت وعوده من روع الشعب الغاضب ، وتفرقت الجموع وألسنتها تلهج بفضائل قائد الجنود الألبانيين وحكمته »[٦١] .

كسب محمد على بهذه السياسة الحكيمة عطف الشعب وثقة زعمائه ، وبدأ الناس ينظرون إليه كرجل عادل يكره الظلم ويحب خير الشعب ، ونادى العلماء بإبطال الضريبة ورفعها ، أما عثمان بك البرديسى فقد قابل هذه الثورة بالغطرسة والكبرياء ، ونقم على المصريين قيامهم فى وجهه وخروجهم على حكمه ، وتوعدهم بالشر والنكال ، وفى ذلك يقول الجبرتى : « أظهر البرديسى الغيظ والانحراف من أهل مصر وخرج من بيته مغضبًا إلى جهة مصر القديمة وهو يلعن أهل مصر ويقول لابد من تقريرها (الضريبة) عليهم ثلاث سنوات ، وأفعل بهم وأفعل حيث لم يمتثلوا لأوامرنا » .

فالبرديسى والبكوات نقموا من المصريين أنهم « لم يمتثلوا لأوامرهم » ، وكانوا يريدون منهم الطاعة العمياء والرضوخ للظلم والقهر ، ولقد جهلوا أن روحًا جديدة دبت فى نفوس المصريين وحفزتهم إلى التطلع لحياة أرقى ومركز أسمى مما كانت البلاد تعانيه فى ذلك العصر ، وأخذ المماليك يستعدون لمقاومة الثورة ويجمعون جموعهم ويستعدون رجالهم اللذين كانوا موزعين فى الأقاليم ، ولكنهم أبطأوا فى الحضور لانهماكهم فى نهب القرى وتحصيل الجبايات ، وانتهز محمد على فرصة غضب الشعب على المماليك وثورته عليهم وتوزع جنود المماليك فى الأقاليم ليتخلص منهم ، فأمر جنوده فهاجموا المماليك الموجودين بالقاهرة[٦٢] وحاصروا بيت إبراهيم بك ببركة الفيل وبيت عثمان بك البرديسى بالناصرية وبيوت باقى المماليك فى أنحاء العاصمة ، واستمر الحصار إلى اليوم التالى .

أسقط فى أيدى المماليك ورأوا أنفسهم حيال قوتين ، ثورة الأهالى من جهة ، وجنود محمد على من جهة أخرى ، فلم يجدوا سبيلا للنجاة سوى الفرار من القاهرة بعد أن قتل منهم من

---

(٦١) فولابل : مصر الحديثة .

(٦٢) يوم ٢٨ ذى القعدة سنة ١٢١٨ — ١١ مارس سنة ١٨٠٤ .

قتل ، وكان أول الفارين عثمان بك البرديسى وهو كان من قبل يشمخ بأنفه ويهدد ويتوعد . ومع أن بيته[٦٣] كان أشبه بقلعة تحيط بها الأبراج المحصنة وفيها الجنود وآلات الحرب والقتال ، إلا أنه لاذ بالفرار إلى مصر القديمة ومنها إلى ناحية البساتين ثم إلى حلوان ، وفر كذلك إبراهيم بك إلى الرميلة ثم إلى الصحراء ، وكان جنود المماليك يحتلون قلعة الجبل ويطلقون القنابل على الأزبكية ؛ فلما علموا بفرار زعيميهم عثمان بك البرديسى وإبراهيم بك وقع الرعب فى قلوبهم وأبطلوا الرمى وأخلوا القلعة ونزلوا من باب الجبل ولحقوا بإبراهيم بك فى فراره ، وتسلم القلعة جنود محمد على ، وخرج المماليك من المدينة على أسوأ حال ، وذهبوا إلى الوجه القبلى يستعدون لاستئناف الحرب والقتال ، وينهبون القرى ويفرضون عليها الغرامات والاتاوات ، وكانوا فى فرارهم من القاهرة على غير الشجاعة التى كانوا يتفاخرون بها فى أيام الرخاء ، وفى ذلك يقول الجبرتى : « غلب عليهم الخوف والحرص على الحياة والجبن ، وخابت فيهم الظنون ، وذهبت نفختهم فى الفارغ ، وجازاهم الله ببغيهم وظلمهم وغرورهم ، ونزل بهم ما نزل ، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله » .

قتل من المماليك وأجنادهم فى ذلك اليوم نحو ثلثمائة وخمسين ، وارتحل الباقون منهم عن المدينة ، وانتقض الشعب فى رشيد ودمياط وسائر العواصم على الحكام المماليك ، فهربوا إلى الصعيد ، ودالت دولتهم وانقضى حكمهم من البلاد ، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة .

وفى اليوم التالى أبطلت الضريبة التى كانت سببًا فى اشتعال نار الثورة .

ثورة الشعب على الوالى التركى

(مايو سنة ١٨٠٥)

الحالة السياسية فى القاهرة :

كانت الفرصة سانحة ليحقق محمد على آماله ويتولى سلطة الحكم فى مصر ، فالمماليك قد دالت دولتهم ، والقوة التركية قد تلاشت من البلاد ، والوالى التركى خسرو باشا فى القلعة سجين ، وليس ثمت قوة حربية سوى الألبانيين (الأرناؤود) الذين تحت قيادته ، ولكن محمد

(٦٣) هو قصر حسن كاشف الذى كان من قبل دار للمجمع العلمى فى عهد الحملة الفرنسية (ومكانه الآن المدرسة السنية) .

على كان طويل الأناة ، بعيد النظر ، فرأى ألا يصل إلى سلطة الحكم بقوة الجند ، وآثر أن ينتظر حتى يصل إلى تلك الغاية بإرادة الشعب ، وبذلك يبرهن أنه لم يناوئ المماليك لمطامع شخصية ، بل لمحض الصالح العام ، فيزداد الشعب تعلقًا به .

وهنا لابد أن نعرض لرواية ذكرها بعض المؤلفين الفرنسيين وإليها يرجعون صعود نجم محمد على وتقلده ولاية مصر ، فيقولون إن المسيو ماسيو دلسبس لما عين قنصلا لفرنسا فى مصر أخذ يبحث عن رجل تؤيده فرنسا وتشد أزره وتساعده على تقلده حكم مصر وأنه لم يكن يعرف أحداً فى مصر ، فسأل قواس القنصلية واسمه عمر أغا عن الرجل المنشود ، فدله على محمد على لأنه يعرفه من قبل ، فكتب دلسبس إلى حكومته يوصيها بشد أزر محمد على ومساعدته على تقلده ولاية مصر ، ويقيناً أن هذه رواية خيالية لا أصل لها ولا يؤيدها منطق الحوادث ، ولا تستند إلى مصدر موثوق بصحته ، ولم ترد فى المصادر المعتمدة ككتاب المسيو مانجان أو كتاب كلوت بك ، وكلاهما عاصر (محمد على) ويهمهما وهما فرنسيان أن يذكرا تلك الرواية لو أن لها أصلا ، على أن تسلسل الحوادث التى بسطناها تدل على أن محمد على لم يصل إلى منصب الولاية إلا بفضل تحببه إلى الشعب المصرى وزعمائه واختيارهم إياه واليًا ، ولم يكن للمسيو ماسيو دلسبس ولا لعمر أغا أى دخل فى وصوله إلى ذلك المنصب ، أما كون فرنسا رأت من مصلحتها السياسية أن تشد أزر محمد على بعد تقلده الولاية وتؤيده ضد دسائس السياسة الإنجليزية فهذه مسألة أخرى لا علاقة بينها وبين حكاية عمر أغا .

والآن نعود إلى موضوع الحالة السياسية فى القاهرة ، اختار محمد على خسرو باشا الوالى القديم الذى كان سجيناً منذ ثمانية أشهر ليعيده الى مركزه ، ويتولى هو إدارة الشئون باسمه ، فذهب إلى القلعة وفكّ إسار الباشا . ونزل به المدينة معلنًا أنه صاحب الولاية فى البلاد ، ونادى المنادى بالأمان « حسبما رسم محمد باشا خسرو ومحمد على » ، فازداد الشعب تعلقًا بمحمد على لما رأى فيه من التعفف وعدم الرغبة فى تولى سلطة الحكم ، وكسب محمد على مغنمًا آخر ، ذلك أنه بإعادته الوالى التركى إلى ولايته يكسب عطف الباب العالى ويبرهن له أنه لم تكن له يد فى الفتن التى أدت إلى عزل خسرو باشا وقتل على باشا الجزائرلى ، على أن أقرباء طاهر باشا لم يرضوا بتعيين خسرو باشا ، لأنهم لم ينسوا عداءه القديم لقريبهم فثاروا عليه وعزلوه وأرسلوه إلى رشيد ومنها إلى الآستانة ، فلم يعارضهم محمد على فى فعلهم ، لكنه أصر على رغبته فى أن يجعل زمام الولاية بيد أحد الباشوات الأتراك ، ولذلك سعى فى تعيين

خورشد باشا محافظ الإسكندرية(٦٤) ولياً على مصر ، فاجتمع الشيوخ وزعماء الجند وأجمعت آراؤهم على تعيين خورشد والياً وتعيين محمد على قائممقاماً ، وأوفدوا إلى الإسكندرية رسولا يدعو خورشد باشا إلى الحضور للقاهرة ليتولى منصب الولاية .

ولاية خورشد باشا :

وصل خورشد باشا إلى بولاق فى أواخر مارس سنة ١٨٠٤ ، وهو خامس من تقلد ولاية مصر فى نحو سنتين ، فأولهم خسرو باشا وقد خلع ، ثم طاهر باشا وقد قتل ، ثم أحمد باشا وقد طرد ، ثم على باشا الجزائرلى وقد قتل ، ثم جاء خورشد باشا وفى عهده قامت الثورة التى سنتكلم عنها فيما يلى ، ولا جرم أن هذه التعيينات والتقلبات تدلك على مبلغ تزلزل النفوذ التركى فى البلاد وما آلت إليه سلطة الوالى من الضعف والانحلال ، والواقع أن الوالى العثمانى لم تكن سلطته تتعدى حدود مدينة القاهرة وكانت أبداً عرضة لتمرد الجنود وعصيانهم .

لم يفقد المماليك أملهم فى استعادة سلطتهم القديمة بالرغم من طردهم من القاهرة وعواصم الوجه البحرى وتشتتهم فى الوجه القبلى ، فجمعوا شملهم وعادوا إلى الجيزة بقيادة عثمان بك البرديسى وإبراهيم بك يريدون فتح القاهرة ، وتفرقت جماعات منهم فى الشرقية والقليوبية والمنوفية والغربية يعيثون فى البلاد فساداً وينهبون حاصلات الأهالى ومواشيهم ويفرضون عليهم الأتاوات والغرامات ، وأصبحت القاهرة فى شبه حصار ، واستمرت الحرب سجالا بين المماليك وجنود الوالى ومحمد على عدة أشهر إلى أن ارتدوا عن القاهرة ، وكان فيضان النيل من أهم أسباب ارتدادهم لأن المياه غمرت البلاد التى كانوا مرابطين فيها فاضطروا إلى الرحيل عنها وانسحبوا ثانية إلى الصعيد ، وفى أثناء ذلك أخذ خورشد باشا يدبر الوسائل للتخلص من محمد على ، فاستصدر من الآستانة فرماناً بعودة الألبانيين ورؤسائهم إلى بلادهم ، وجاء الفرمان يحمله رسول إلى القاهرة ، فأدرك محمد على سر هذه المكيدة وعلم أن الغرض منها إبعاده عن مصر ، على أنه تظاهر بالإذعان وأعد عدته للرحيل ، بيد أن العلماء لما علموا بأمر هذا الفرمان طلبوا إلى محمد على البقاء بمصر لما عهدوه فيه من العدل والاستقامة وردع الجنود عن الاعتداء على الأهالى ، واضطربت القاهرة لنبأ هذا الرحيل ، وأقفلت الأسواق والدكاكين ، وكاد حبل الأمن يضطرب ، فقبل محمد على طلب العلماء وأعلن بقاءه إرضاء

(٦٤) كان محافظاً للإسكندرية منذ شهر ذى الحجة سنة ١٢١٦ فى عهد ولاية خسرو باشا .

للرأى العام ، فلما تحقق خورشد باشا عدول محمد على عن السفر أدرك أن مكيدته قد أخفقت ، واضطر للإذعان مؤقتاً للأمر الواقع والاستعانة بمحمد على فى محاربة المماليك بالصعيد ، ورأى فى تكليفه هذه المهمة ذريعة لإبعاده هو وجنوده عن القاهرة ليخلو له الجو فيها .

سار محمد على من القاهرة على رأس جنوده الأرناؤود وعددهم نحو ثلاثة آلاف مقاتل يوم ١٧ أكتوبر سنة ١٨٠٤ (١٢ رجب سنة ١٢١٩) وكان يعاونه جيشان آخران جردهما الوالى ، الأول بقيادة سلحداره وعدده نحو أربعة آلاف ، والثانى بقيادة حسن باشا وعدده نحو ١٢٠٠ مقاتل ، فأخذت هذه القوات تطارد المماليك فى الصعيد واستولت على المنيا يوم ١٥ مارس سنة ١٨٠٥ بعد حصار دام ستة وخمسين يومًا .

كان محمد على منهمكًا فى قتال المماليك بالصعيد ، لكنه علم بما كان يدبر ضده فى القاهرة من المكايد بتدبير خورشد باشا ، ذلك أن خورشد أراد أن يتخلص من منافسه فى السلطة ، فطلب من الحكومة العثمانية إمداده بقوات جديدة ، فصادف هذا الطلب هوى فى نفسها لأنها لم تنظر بعين الرضا إلى تضعضع نفوذ ممثلها الرسمى فى مصر فأنفذت إليه جيشًا من الدلاة[٦٥] ، احتشد فى سوريا وسار منها إلى مصر ، فلما وصل إلى محمد على ، نبأ وصول هذا الجيش ورأى بثاقب نظره أنه هو المقصود بقدومه عجل بالعودة هو وزميله حسن باشا إلى القاهرة ليحبط سياسة خورشد باشا قبل أن ترسخ قدم الدلاة فى البلاد .

كان غرض خورشد أن يستعين بجيش الدلاة ليتغلب على محمد على ، لكن هذا الجيش كان السبب فى القضاء المبرم على سلطة الوالى كما سيجىء بيانه .

سوء سياسة خورشد باشا ونفوذ العلماء :

كان خورشد باشا سيئ الرأى فاسد التدبير ميالا إلى الظلم غير مكترث بميول الشعب ، معتمداً على القوة الغشوم ، سكن القلعة من اليوم التاسع من صفر سنة ١٢١٩ (٢٠ مايو سنة ١٨٠٤) فكان انتقاله إليها نذيراً بالتجائه إلى القوة المسلحة فى إخضاع المدينة ، تعددت مظالمه ، فتدخل العلماء غير مرة لرفعها عن الناس ، ومن أجل هذا عظم نفوذهم ، فكانوا

---

(٦٥) جمع ديلى وهى كلمة تركية معناها المجنون ، وأطلقت كلمة دلاة أو دلاتية على هذا الجيش لشهرة رجاله بالتهور فى البسالة ، ومعظمهم من الأكراد .

موئل الشعب ، يفزع إليهم عند وقوع الملمات ، وكانت مساوئ خورشد باشا هى الباعثة على ذلك ، فنى عهده قوى سلطان العلماء وبلغ نفوذهم أقصى مداه حتى أثاروا الشعب واقتلعوا بقوته الوالى عن كرسى ولايته وأجلسوا (محمد على) مكانه ، ولم يسبق لهم هذا النفوذ من قبل ، كما لم يخلص لهم مثله بعد اقتضاء هذا العصر.

مقدمات الثورة

فرض خورشد باشا فى شهر مايو سنة ١٨٠٤ إتاوة جديدة على أرباب الحرف والصنائع ، فضجوا منها لما كانوا فيه من الضيق وسوء الحال ، وأقفلوا حوانيتهم وحضروا إلى الجامع الأزهر يشكون أمرهم إلى العلماء ، وكان إقفال الحوانيت من نذر الثورة ، فمر المحافظ ورئيس الشرطة فى الأسواق ينادون بالأمان وفتح الحوانيت ، فلم يفتح منها إلا القليل .

وظلت الخواطر فى هياج يومى السبت والأحد (١٦-١٧ صفر سنة ١٢١٩) وفى يوم الاثنين[٦٦] اشتد الهياج ، وأقفلت جميع الدكاكين والأسواق ، واحتشدت جموع الصناع وأرباب الحرف وجماهير الناس بالجامع الأزهر ومعهم الطبول ، وصعد كثير منهم إلى المنارات يصرخون ويدقون الطبول ، فوصل دوىّ ندائهم إلى نواح بعيدة فى المدينة ، وسمعه الوالى وهو بالقلعة ، ووصله خبر التجمهر ، فأرسل إلى السيد عمر نقيب الأشراف رسولا ينبئه بأنه رفع الأتاوة عن الفقراء منهم ويطلب إليه فض الجماهير ، فقال السيد عمر مكرم : « إن هؤلاء الناس وأرباب الحرف والصنائع كلهم فقراء وما كفاهم ما هم فيه من الكساد وسوء الحال حتى تطلبون منهم مغارم لرواتب العسكر » ، ومعنى هذا أن السيد عمر مكرم طلب رفع الأتاوة عن الجميع ، فرجع الرسول بذلك إلى الوالى وحضر الأغا (محافظ المدينة) ومعه عدة من الجنود وجلس بالغورية يأمر الناس بفتح الدكاكين ، ويتوعد من يتخلف ، فلم يحضر أحد ولم يسمعوا لقوله ، فاضطر الوالى أمام هذه الحركة إلى رفع الأتاوة فى ذلك اليوم وأعلن إبطالها ، ونادى المنادى بذلك فاطمأن الناس وتفرقوا .

كان الشعب إذاً مستعداً للهياج متحفزاً للانتفاض والثورة ، وقد كان لهذه الحركة أثرها فى

(٦٦) ١٨ صفر سنة ١٢١٩ الموافق ٢٩ مايو سنة ١٨٠٤ .

نفوس الناس لأنهم أيقنوا أن فى استطاعتهم ، رفع المظالم باجتماعهم وتقرير الإضراب العام وامتناعهم عن دفع الضرائب ، فانظر ماذا جرى بعد ذلك وكيف تطورت الحوادث .

فظائع الجنود الدلاة وهياج الشعب :

كان جيش الدلاة الذى جلبه خورشد باشا مؤلفاً من ثلاثة آلاف مقاتل من أردأ عناصر السلطنة العثمانية ، فأخذوا يعيثون فى الأرض فساداً ويرتكبون الجرائم ويعتدون على الأموال والأرزاق والأرواح ، قال الجبرتى : « ودخلوا بيوت الناس بمصر وبولاق وأخرجوا منها أهلها وسكنوها ، وكانوا إذا سكنوا داراً أخربوها وكسروا أخشابها وأحرقوها لوقودهم ؛ فإذا صارت خراباً تركوها وطلبوا غيرها ففعلوا بها كذلك ، وهذا دأبهم من حين قدومهم إلى مصر حتى عم الخراب سائر النواحى وخصوصاً بيوت الأمراء والأعيان وباقى دور بركة الفيل وما حولها من بيوت الأكابر وقصورهم[٦٧] .

وقعت هذه المظالم وترادف اعتداء الجنود الدلاة ، واضطر الوالى إلى الإغضاء عن سيئاتهم ليستعين بهم على محاربة محمد على ، ومد لهم فى حبل السلب والنهب ، وعلم خورشد أن محمد على راجع إلى القاهرة .

سعى خورشد باشا فى استمالة العلماء إليه ، ولكنه أخفق فى مسعاه ، فأراد أن يجعلهم تحت رقابته ، فطلبهم وطلب السيد عمر مكرم والوجاقلية فى اليوم الحادى عشر من شهر محرم سنة ١٢٢٠ (١١ أبريل سنة ١٨٠٥) فلما اجتمعوا به قال لهم أن محمد على وحسن باشا راجعان من الوجه القبلى من غير إذن وطالبان شراً فإما أن يرجعا من حيث أتيا ويقاتلا المماليك ، وإما أن يذهبا إلى بلادهما أو يتوليا ولايات ومناصب فى غير مصر ، وقال إن لديه أمراً من السلطان « أعزل من أشاء وأولى من أشاء وأعطى من أشاء وأمنع من أشاء » ، وطلب إليهم أن يبقوا عنده (بالقلعة) يقيمون صحبة كبار الضباط ، ففهم العلماء أن الوالى يريد أن يبقيهم فى القلعة ليكونوا رهائن تحت يده ، فاعتذروا بأن بعضهم وهم الشرقاوى والبكرى والمهدى غائبون عن مصر ، فقال إذاً نرسل لهم بالحضور ، وانتهى الاجتماع على أن يبيت بالقلعة كل ليلة اثنان من المشايخ ، واثنان من الوجاقلية (الجهادية) ، وأعدوا لهم مكاناً بالضربخانة (دار الضرب) .

---

(٦٧) الجبرتى الجزء الثالث .

رجوع محمد على إلى القاهرة :

وفيما كان الوالى يستعد للائتمار بخصمه رجع محمد على وحسن باشا بجنودهما إلى طره ، وكان خورشد باشا قد أنفذ إليها قوة من الدلاة لصدهما عن التقدم ، لكن محمد على تمكن بدهائه وحسن سياسته من أن يجتاز هذا المعقل دون أن يلقى أية مقاومة ، ذلك أنه لما اقترب من قلعة طره طلب أن يقابل بعض ضباط الحامية للتحدث إليهم ، فأجابوه إلى طلبه ، فلما اجتمع بهم تبسط فى الكلام معهم وحادثهم حديثاً ودياً ، وقال لهم إن الباشا لم يدفع للجنود رواتبهم المتأخرة وقد جئنا لنطالبه بها ، فهل يضركم ذلك ؟ فقالوا : كلا ، والحق أن حجة (محمد على) كانت قوية ومقنعة ، وقد ارتاح لها الضباط الدلاة لأنهم رأوا أن المطالبة بالرواتب لاتهم الجنود الألبانيين وحدهم ، بل تهم الدلاة أيضاً ، وأنه إذا وجب قتال جنود محمد على لأنهم يطالبون بحقهم ، فكذلك يفعل الوالى معهم إذا هم طالبوا برواتبهم ، فأجمعوا رأيهم ألا يتعرضوا لجيش محمد على ، وأخلوا له الطريق ، فواصل سيره حتى بلغ القاهرة سالمًا ، ونزل بداره بالأزبكية يوم ١٩ أبريل سنة ١٨٠٥ ، فبدأ الصراع بينه وبين الوالى وجهاً لوجه ، وأخذ كل منهما يعد العدة لينتصر على خصمه .

وجد محمد على أن القوة التى يستطيع أن يكسب بها المعركة ويصل بها إلى قمة السلطة هى قوة الشعب ، فبالغ فى استمالة علماء المدينة وأعيانها واستنكار تصرفات الوالى . وكان الشعب يعتبر الوالى مسئولا عن فظائع الدلاة ومظالمهم لأنه هو الذى جلبهم لتأييد سلطته ، فأخذ تيار السخط العام ينحدر نحو الوالى ، وعبّ عبابه ، ولم يبق بين السخط والثورة إلا أن تقع حادثة تشعل نار البركان .

أيام الثورة

(أول مايو — ٩ يولية سنة ١٨٠٥)

فى يوم الأربعاء أول مايو سنة ١٨٠٥ اعتدى الجنود الدلاة على أهالى مصر القديمة وأخرجوهم من بيوتهم ونهبوا مساكنهم وأمتعتهم وقتلوا بعض الأهالى الآمنين ، فعظم الهياج فى مصر القديمة وحضر جميع سكانها رجالا ونساء إلى جهة الجامع الأزهر ، وانتشر خبر

الاعتداء والهياج بسرعة البرق فى أنحاء المدينة ، واجتمع العلماء وذهبوا إلى الوالى وخاطبوه فى وضع حد لفظائع الجنود الدلاة ، فأصدر الوالى أمراً للجنود بالخروج من بيوت الناس وتركها لأصحابها ، وكان هذا الأمر صورياً ، لأن الجنود لم يخضعوا ولم ينفذوه ، فخوطب الوالى ثانياً فى الأمر فطلب مهلة ثلاثة أيام ليرحل الجنود من المدينة قاطبة ، فلما علمت الجماهير بهذا الجواب اشتد ضجيجهم وتضاعف سخطهم وتألبت جموعهم ، وبدأت علائم الثورة تلوح فى أفق المدينة ، وفى اليوم التالى (الخميس ٢ مايو) عمت الثورة أنحاء العاصمة ، فاجتمع العلماء بالأزهر وأضربوا عن إلقاء الدروس ، وأقفلت دكاكين المدينة وأسواقها ، واحتشدت الجماهير فى الشوارع والميادين يضجون ويصخبون ، فأدرك الوالى خطر الحالة ، وأرسل وكيله صحبة رئيس الانكشارية (المحافظ) إلى الأزهر لمقابلة العلماء ومفاوضتهم لوقف الهياج ، فلم يجدهم بالأزهر . فذهب إلى بيت الشيخ الشرقاوى وهناك حضر السيد عمر مكرم وزملاؤه . فأغلظوا له فى القول . فانصرف على غير جدوى . ومضى يقصد القلعة ، لكن الجماهير لم تكد تبصره حتى انهالوا عليه رجماً بالأحجار . ورفض العلماء أن يتدخلوا لإيقاف الهياج . وطلبوا جلاء الجنود الدلاة عن المدينة . وكانت إجابة الطلب صعبة التحقيق لأن الوالى يستحيل عليه أن يبعد الجنود عن القاهرة وهم من جهة عدته فى القتال ومن جهة أخرى فإن لهم رواتب متأخرة والخزانة خالية من المال ، فظل العلماء مضربين عن إلقاء الدروس ، وبقيت الدكاكين والأسواق مقفلة أكثر من أسبوع . وامتنع العلماء عن مقابلة الوالى طوال هذه المدة .

تبين لك مما تقدم أن حركة شعبية قوية قامت تناوئ سلطة الوالى التركى ، كانت هذه الحركة قوامها الشعب وزعماؤه . ومن الخطأ أن يظن أحد أن محمد على هو الموعز بهذه الحركة ، فإن منطق الحوادث يدل يقيناً على أنها نتيجة تذمر الجماهير وتبرمها من مظالم الحكم . وإنما اغتنم محمد على تلك الحركة لتحقيق وجهة نظره . ورأى بثاقب رأيه أن يؤيدها ويناصر الشعب وزعماؤه ليكسب تأييدهم . كما فعل فى ثورة الشعب على حكم المماليك ، وإليك ما قاله المسيو (فولابل) فى هذا الصدد . قال يسرد حوادث القاهرة فى ذلك الحين ، وكلامه كما ترى لا يختلف فى مجموعه عن رواية الجبرتى : « اجتمع العلماء بالأزهر وحولهم الجموع الحاشدة من الناس فخشى خورشد باشا أن يسفر هذا الاجتماع عن حركة ثورية وأراد أن يتلافى عواقبه . فأوفد إلى الأزهر كتخداه (وكيله) وأغا الانكشارية (المحافظ) . ولكن سيلا من الأحجار انصب على الرسولين من كل صوب . فاضطرا إلى الرجوع وتمكنا مع ذلك من المخابرة فيما جاءا

من أجله واتفقت جمعية العلماء على أن يضعوا حداً لهذه الحركة بشرط أن يطرد خورشد باشا الجنود الدلاة من القاهرة وضواحيها فى مدة ثلاثة أيام . وكان إنفاذ هذا الشرط من الصعوبة بمكان . لأن خزانة الوالى كانت خالية من المال والدلاة يطالبون برواتب ثلاثة أشهر متأخرة . وكان العلماء يعلمون ذلك فانتظروا أن تنتهى المدة التى حددوها ، فالنزاع كما يتضح مما تقدم كان منحصراً بين خورشد باشا والشعب ، وقد بقى الألبانيون بعيدين عنه . لكن محمد على اتبع فى هذه الظروف الخطة التى سلكها منذ حين . ذلك أنه فى خلال فترة الانتظار لم ينفك يتردد على كبار الشيوخ ويضم صوته إلى شكواهم ويعدهم ببذل جهوده ووساطته لتأيدهم »[٦٨] .

تعيين محمد على والياً لجدة ومحاولة إبعاده عن مصر :

وأثناء ذلك ما فتئ خورشد باشا يبذل الوسائل لإقصاء محمد على عن مصر. وكان من قبل يسعى حثيثًا لدى الباب العالى لهذه الغاية . وقد نجح فى مسعاه ، إذ ورد فرمان سلطانى بتقليد محمد على ولاية (جدة) . وكان الغرض من هذا التعيين إبعاد محمد على عن مصر بأية وسيلة ولو بترقيته . فابتهج خورشد باشا لورود هذا الفرمان وظن أنه سيخلصه من خصمه اللدود . وأرسل إلى محمد على يستدعيه إلى القلعة ليسلمه الفرمان ويخلع عليه خلعة الولاية الجديدة . لكن محمد على أدرك ما فى هذا التعيين من الدسيسة وخشى الغدر به إذا هو صعد إلى القلعة تلبية لدعوة الوالى . فأرسل ينبئه أنه مستعد لتلقى أمر التعيين فى أى منزل يختاره الوالى . فغضب خورشد باشا من هذا الجواب ، وكاد الأمر يستفحل لولا تدخل الشيوخ ، فاتفقوا على أن يكون الاجتماع فى منزل سعيد أغا وكيل دار السعادة وصديق محمد على ، فرضى خورشد باشا بهذا الحل مرغماً ، وذهب فى الميعاد (٣ مايو سنة ١٨٠٥) إلى دار سعيد أغا بالأزبكية ، وأمر بتلاوة الفرمان القاضى بتعيين محمد على والياً لجدة ، وكان ذلك بحضور علماء المدينة وكبرائها ، ولما انتهى الاجتماع خرج محمد على ومضى إلى داره فرحاً مبتهجاً ، وعاد الوالى إلى القلعة بعد أن كاد الجنود المطالبون برواتبهم المتأخرة يفتكون به ، ولم ينل خورشد باشا من وراء هذه الدسيسة سوى الخيبة والفشل ، فإن محمد على قد زادت مرتبته بتقلده الولاية دون أن يبتعد عن الميدان أو يذهب إلى جدة .

---

(٦٨) فولابل ، مصر الحديثة .

اجتماع زعماء الشعب ومطالبهم

(١٢ مايو سنة ١٨٠٥)

انتهت الفترة التى حددها العلماء لجلاء الجنود الدلاة عن المدينة يوم السبت ١١ مايو ، واستطاع الوالى أن يبعد رهطًا منهم تهدئة للخواطر الثائرة ، ولكن بقى منهم بالقاهرة نحو ألف وخمسمائة ، وعلم زعماء الشعب أنهم ممتنعون عن الجلاء حتى تدفع رواتبهم وأن الوالى لا يريد إخراجهم حتى تؤدى لهم تلك الرواتب وأنه لا سبيل إلى دفعها مع خلو خزانة الحكومة من المال إلا بفرض ضريبة جديدة على المدينة .

أحدثت هذه الأنباء هياجًا عظيمًا فى الخواطر ، وبات الناس ليلة الأحد فى هرج ومرج ، والزعماء يتشاورون فيما يعدونه للغد ، وعندما تبلج صبح يوم ١٢ مايو سنة ١٨٠٥ (١٢ صفر سنة ١٢٢٠) اجتمع زعماء الشعب واتفقوا رأيًا على الذهاب إلى المحكمة الكبرى (بيت القاضى) لاختصام الوالى وإصدار قراراتهم فى مجلس الشرع .

ولم تكد تعلم الجماهير بما استقر عليه رأى الزعماء حتى احتشدت جموعهم واتجهت إلى دار المحكمة ، وأقبلت الجموع من كل صوب على دار العدل ، واحتشدت بفنائها وحولها ، وبلغت عدتها أربعين ألف نسمة ، فكان اجتماع هذا البحر الزاخر من الخلائق هو الثورة بعينها ، وظهرت روح الشعب قوية ناقمة على الوالى وعلى الحكم التركى ، ويكفيك لتتعرف نفسية الشعب فى ذلك اليوم العصيب أن تتأمل فيما ذكره الجبرتى عن صيحاتهم التى كانوا ينادون بها ، فقد كانوا يصيحون « يارب يا متجلى ، اهلك العثمللى » فهذا النداء يدلك على ما كان يجيش بنفوس المصريين من روح السخط على الحكم التركى واعتزام التخلص منه ، وهذا يعطيك صورة لما أحدثته الروح القومية من الأثر البالغ فى النفوس .

اجتمع زعماء الشعب فى دار المحكمة ، وطلبوا من القاضى أن يرسل باستدعاء وكلاء الوالى ليحضروا مجلس الشرع ، فأرسل يستدعيهم على عجل ، فحضروا ، وعندما انعقد المجلس عرض الزعماء ظلامة الشعب وحرروا مطالبهم وهى :

ألا تفرض من اليوم ضريبة على المدينة إلا إذا أقرها العلماء وكبار الأعيان .

أن تجلو الجنود عن القاهرة وتنتقل حامية المدينة إلى الجيزة .

ألا يسمح بدخول أى جندى إلى المدينة حاملا سلاحه .

أن تعاد المواصلات فى الحال بين القاهرة والوجه القبلى .

هذه هى المطالب التى أملاها وكلاء الشعب فى اجتماع ١٢ مايو وسلموا صورتها إلى القاضى ، وقام وكلاء الوالى ليبلغوها إلى خورشد باشا بالقلعة .

نقلنا بيان هذه المطالب عن المسيو فولابل الذى دونها فى كتابه وأسماها « وثيقة الحقوق » تشبيهاً لها « بوثيقة إعلان الحقوق » التى قررها البرلمان البريطانى سنة ١٦٨٨ وأيد فيها حقوق الشعب الإنجليزى وأهمها أن لا يجوز للملك أن يفرض ضريبة إلا بعد موافقة البرلمان .

وقد رجعنا إلى الجبرتى فرأيناه يوردها بصيغة أخرى تختلف قليلا عن رواية فولابل ، وإن كانت تتفق وإياها فى مجموعها قال : « فحضر الجميع واتفقوا على كتابة عرضحال بالمطلوبات ، ففعلوا ذلك وذكر فيه تعدى طوائف العسكر والإيذاء منهم وإخراجهم من مساكنهم والمظالم والفرد (الضرائب) ، وقبض مال الميرى المعجل وحق طرق المباشرين ، ومصادرة الناس بالدعاوى الكاذبة وغير ذلك وأخذوه (وكلاء الولى) ووعدوا برد الجواب فى ثانى يوم » .

رأى الوالى أن الحركة خطيرة ، وأن الثورة تؤذن أن تقتلعه من مقره ، وكان السيد عمر مكرم نقيب الأشراف فى مقدمة زعماء الحركة وأكبرهم نفوذاً ، وفى ذلك يقول فولابل : « إن السيد عمر مكرم ظهر فى الصف الأول من صفوف المجاهدين الذين رآهم الشعب لأول مرة يدافعون عن مصالحه » فأراد الوالى أن يلقى القبض عليه ويعتقله بالقلعة ليشل الحركة القائمة فى المدينة ، فلما وصلته رسالة القاضى أرسل إليه يستدعيه ويستدعى السيد عمر مكرم والعلماء إلى القلعة ليتشاور معهم فى الأمر ، لكن السيد عمر فطن إلى مقاصد الوالى وخشى الغدر ، فأشار برفض الذهاب إلى القلعة ، وكان محقاً فى حذره لأنهم علموا بعد ذلك أن الوالى أعد أشخاصًا لاغتيالهم فى الطريق .

خلع خورشد باشا والمناداة بمحمد على والياً لمصر

(١٣ مايو سنة ١٨٠٥)

لم يجب أحد من زعماء الشعب دعوة الوالى ولم يذهبوا إلى القلعة ، فحنق عليهم ، وعد امتناعهم عن الذهاب إليه تمرداً وعصياناً ، وتلقاء ذلك رفض إجابة المطالب التى قرروها .

كان هذا الرفض معجلا لسير الحوادث ، فاجتمع وكلاء الشعب من العلماء ونقباء الصناع فى اليوم التالى (الاثنين ١٣ مايو — ١٣ صفر سنة ١٢٢٠) بدار المحكمة ليتداولوا فى الموقف ، واحتشدت الجماهير فى فناء المحكمة وحولها يؤيدون وكلاءهم ، وهناك اتفقت كلمة نواب الشعب وأجمعوا رأيهم على عزل خورشد باشا وتعيين محمد على والياً بدله ، وعندئذ قاموا وانتقلوا إلى دار محمد على لتنفيذ قرارهم ، وأبلغوه ما اتفقوا عليه وقالوا :

« إننا لا نريد هذا الباشا والياً علينا ولابد من عزله من الولاية » .

ونادى السيد عمر مكرم بالنيابة عنهم وقال :

« إننا خلعناه من الولاية » .

فقال محمد على : « ومن تريدونه والياً » .

فقال الجميع بصوت واحد : « لا نرضى إلا بك وتكون والياً بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير » .

فأظهر محمد على تردداً وامتناعاً حتى لا ينسب إليه أنه المحرض على هذه الثورة ، وقال إنه لا يستحق هذا المنصب وإن هذا التعيين قد يمس حقوق السلطان ، فألح وكلاء الشعب عليه وقالوا جميعًا قد اخترناك برأى الجميع والكافة ، والعبرة برضا أهل البلاد ، وأخذوا عليه العهود والمواثيق أن يسير بالعدل وألا يبرم أمراً إلا بمشورتهم .

فقبل محمد على ولاية الحكم ونهض السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى وألبساه خلعة الولاية ، وكان ذلك وقت العصر .

وبذلك تمت مبايعة نواب الشعب لمحمد على ، وأمروا بأن ينادى به فى أنحاء المدينة والياً لمصر .

هذا هو اليوم المشهود الذى تولى فيه محمد على حكم مصر بإرادة الشعب ، وهو من الأيام

التاريخية المعدودة فى تاريخ الحركة القومية ، ففيه تم انقلاب عظيم فى نظام الحكم ، فيه وضعت مصر لنفسها أساس حريتها واستقلالها ، فيه أعلنت عن حقها فى تقرير مصيرها ، فيه تجلت سلطة الأمة ممثلة فى أشخاص زعمائها وذوى الرأى فيها ، تجلت سلطة الأمة فى خلع الوالى الذى لم ترتض حكمه وإسناده ولاية الأمر إلى من انتخبه زعماء الشعب ووكلاؤه ، وتلك أول مرة فى تاريخ مصر الحديث يعزل الوالى ويختار بدله بقوة الشعب وإرادته ، لقد كان الولاة يعزلون بقوة الجند وإرادة رؤسائهم من المماليك ، لكن هذه المرة كان الانقلاب شعبيا ، فوقع بإرادة الشعب وبقوة الشعب ، تم انتخاب محمد على للولاية على الرغم من صدور الفرمان السلطانى بإسناد ولاية جدة إليه ، وكان معروفاً أن الحكومة التركية تؤيد خورشد باشا وتناصره فى موقفه ، فخلع خورشد باشا وانتخاب محمد على والياً لمصر فيه معنى الاستقلال عن الحكومة التركية ومقاومة تدخلها فى حكم مصر.

ويمتاز هذا الانقلاب بأنه لم يكن مقصوراً على مجرد انتخاب وكلاء الشعب لولى الأمر ، بل كان مقروناً باشتراطهم أن يرجع إليهم فى شئون الدولة ، فوضعوا بذلك قاعدة الحكم الدستورى فى البلاد ، وفى ذلك يقول الجبرتى عن ولاية محمد على : « تم الأمر بعد المعاهدة والمعاقدة على سيره بالعدل وإقامة الأحكام والشرائع والإقلاع عن المظالم وألا يفعل أمراً إلا بمشورته ومشورة العلماء وأنه متى خالف الشروط عزلوه » .

وَثمة ميزة أخرى أكسبت ذلك الانقلاب بهاء وجلالا ، ذلك أنه تم فى دار المحكمة ، فى ساحة القضاء ، فاتخذ معنى الاحتكام إلى العدالة والتمسك بالحق ، وهى فكرة جليلة امتازت بها الثورة المصرية ، ولا نظن ثورة أخرى غربية أو شرقية تسامت إلى هذا المعنى البديع ، فالثورة إذا كان قوامها المطالبة بالحق والاحتكام إلى العدل ، كان أساسها الحق من ورائه قوة الشعب تسنده وتؤيده ، وما أحوج الثورات والحركات القومية إلى أن تحافظ فى كل أدوارها على معانى الحق والعدل والنزاهة ، فإنها بذلك تسلم من الانحدار فى مهاوى الرذيلة والفساد ، والفوضى والطغيان .

القتال بين الشعب والوالى :

أبلغ زعماء الشعب قراراتهم إلى خورشد باشا ، وذهب وفد منهم إلى القلعة لمقابلته ،

فأجابهم : « إنى مولى من طرف السلطان فلا أعزل بأمر من الفلاحين ، ولا أنزل من القلعة إلا بأمر من السلطنة » .

ومعنى ذلك أنه رفض الإذعان لمطالب وكلاء الشعب وكبر عليه أن يصدر منهم أمر أو نهى ، وأنكر عليهم هذا الحق بأسلوب يدل على مبلغ ما كان يشعر به الحكام من الازدراء بإرادة الشعب ، فلم يكن بدٌّ من نشوب القتال بين الشعب والوالى .

وقد حرر نواب الشعب يوم اجتماعهم محضراً بعزل خورشد باشا وتعيين محمد على بدله ، ولم يذكر الجبرتى أنهم حرروا محضراً إلا فى يوم ١٦ صفر (١٦ مايو) حينما طلب منهم خورشد باشا سنداً شرعياً بالعزل ، لكن (فولابل) يقول إنهم حرروا محضراً يوم ١٣ مايو أى قبل المحضر الثانى ، ويقول إن الذى تولى تحريره هو الشيخ محمد المهدى ، واقتبس منه العبارة الآتية وقال عنها إنها جديرة بالتفات النظر إليها ، وهى « إن للشعوب طبقاً لما جرى به العرف قديمًا ولما تقضى به أحكام الشريعة الإسلامية الحق فى أن يقيموا الولاة ولهم أن يعزلوهم إذا انحرفوا عن سنن العدل وساروا بالظلم لأن الحكام الظالمين خارجون على الشريعة » .

وأخذ الوالى يحصن القلعة ويتزود من الميرة والذخيرة ويستعد للقتال لإخضاع المدينة وإخماد الثورة ، وأخذ زعماء الشعب من ناحيتهم يعدون الوسائل لحصار القلعة لإجبار خورشد باشا على التسليم ، فدعوا الأهالى إلى حمل السلاح ، واحتشد الثائرون فى ميدان الأزبكية حتى ملأوه ، واعتزم الزعماء أن يعيدوا إبلاغ الوالى قرارهم ويطلبوا إليه احترامه منعاً للفتنة وحقناً للدماء ، فبعثوا برسالة إلى عمر بك وصالح قوش[٦٩] يذكرون فيها « ما اجتمع عليه رأى الجمهور من عزل الباشا وأنه لا ينبغى مخالفتهم لما يترتب على ذلك من الفساد العظيم وخراب الإقليم[٧٠] » .

فأرسل عمر بك وزميله يطلبان سندًا شرعيًا مثبتًا لعزله ، فاجتمع الزعماء فى يوم الخميس (١٦ مايو – ١٦ صفر) بدار المحكمة (بيت القاضى) وحرروا محضرًا فى شكل سؤال وجواب على نحو الفتاوى التى كانت تصدر بخلع السلاطين فى الآستانة ، ووقعوا على المحضر وأرسلوه إلى الوالى ومستشاريه ، فلم يقتنعوا به ولم يتعقلوه ، واستمر الوالى على عناده ، فأخذ السيد عمر مكرم يحرض الناس على الاجتماع والاستعداد للقتال ، ولبى الأهالى الدعوة متطوعين حاملين

(٦٩) هما من خاصة مستشارى الوالى وكانا من ضباط الأرناؤد .

(٧٠) الجبرتى الجزء الثالث .

ما وصلت إليه أيديهم من الأسلحة والعصىّ ، فأقاموا المتاريس والاستحكامات بالقرب من القلعة وتحصنوا بها » وحمل السلاح كل قادر على حمله ، وخلت مخازن الأسلحة مما فيها من آلات الكفاح[٧١] » . واشتركت جميع طبقات الشعب فى حمل السلاح على اختلاف أعمارهم ومراكزهم.وطوائفهم ، وبلغ عدد الثوار أربعين ألفًا حاملين الأسلحة والعصىّ[٧٢] « وكان الفقراء من العامة يبيعون ملابسهم أو يستدينون ويشترون الأسلحة »[٧٣] .

وأرسل خورشد باشا إلى القاضى يطلب الرواتب المتأخرة لجنوده وبقاءه فى القلعة إلى أن يرد جواب الدولة ، وقال فى رسالته إن إقامته بالقلعة ليس فيها ضرر على الرعية ، فأجابه القاضى : « إن إقامتكم بالقلعة هى عين الضرر فإنه حضر يوم تاريخه نحو الأربعين ألف نفس بالمحكمة طالبين نزولكم أو محاربتكم ، فلا يمكننا دفع قيام هذا الجمهور ، وهذا آخر المراسلات بيننا وبينكم والسلام »[٧٤] .

هذا ما ذكره الجبرتى عن المفاوضات بين زعماء الشعب وخورشيد باشا ، ولم يذكر لنا فى هذه النقطة مركز محمد على خلال تلك المفاوضات ، لكن « فولابل » يلقى على هذه الناحية شيئًا من الضوء ، فيقول فى كتابه إن (محمد على) كان يميل بعد المناداة بمبايعته إلى أخذ خورشد باشا بالحسنى ، لأن اقتراب المماليك من القاهرة فى خلال تلك الأيام قد أفاق باله ، هذا فضلا عن أنه لم يكن ينظر بعين الارتياح إلى استمرار الشعب ثائراً حاملا السلاح ، لأنه رأى فى ذلك مصدر قلق على سلطته الجديدة ، فرغب إلى الشيوخ أن يفاوضوا خورشد باشا فى طريقة سلمية ترضى الفريقين ، فأجاب خورشد بأنه لا يسلم القلعة كما صرح بذلك من قبل إلا إذا جاءه أمر من السلطان ، على أنه مع ذلك يكف عن ضرب المدينة إذا تعهد له الشيوخ بأنهم لا يتمسكون بمحاسبته على الأموال التى دخلت خزانته وأن يمكنوه من تزويد القلعة بالمؤونة اللازمة لجنود الحامية ، ويقول فولابل أن الشيوخ قبلوا الشرط الثانى ، أما الشرط الأول فكان محمد على ميالا إلى قبوله ، لكن زعماء الثورة رفضوه بتاتًا وأصروا على ضرورة محاسبة خورشد على الضرائب التى جباها ، فلما علم بنتيجة المفاوضة أصر على رفض أى اتفاق

---

(٧١) الجبرتى الجزء الثالث .

(٧٢) فولابل ، مصر الحديثة .

(٧٣) و (٧٤) الجبرتى الجزء الثالث .

على غير الأساس الذى عرضه ، فعاد الفريقان إلى استئناف الحرب والقتال. ، وبعث خورشد باشا إلى سلحداره ليغادر الصعيد بجيشه ويجيء إلى القاهرة لنجدته .

عمر مكرم روح الحركة

كان للشعب زعماء عديدون يجتمعون ويتشاورن ويشتركون فى تدبير الأمور ، ولكل منهم نصيبه ومنزلته ، ولكن من الإنصاف أن يعرف للسيد عمر مكرم فضله فى هذه الحركة ، فقد كان بلا جدال روحها وعمادها ، كان أكثر الزعماء شجاعة وإقدامًا ، وأقواهم إخلاصًا وإيماناً ، وأكثرهم عملا ، وأبعدهم نظراً ، كان يتقدم الصفوف ، ويشدد العزائم ، ويدعو إلى مواصلة الجهاد ، ويتلافى أسباب الخلاف والانقسام ، تتجلى شخصيته فى كلماته ومواقفه وأعماله ، فهو أول من دعا إلى الاجتماع فى دار المحكمة الكبرى لإعلان خلع خورشد باشا واختيار محمد على باشا بدله ، وهو أول من دعا إلى محاصرة القلعة بعد أن أبى خورشد النزول منها ، وأول الثابتين فى إيمانهم بعدالة قضية الشعب ، التقى يومًا بعمر بك أحد مستشارى خورشد باشا ، فوقع بينهما جدل طويل فى صدد القرارات التى أصدرها زعماء الشعب ، ومن جملة ما قاله عمر بك اعتراضاً على تلك القرارات : « كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم وقد قال الله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ؟ » ، فأجابه عمر مكرم على الفور : « أولو الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل ، وهذا رجل ظالم ، وقد جرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة ، وهذا شيء مألوف من زمان ؛ حتى الخليفة والسلطان إذا سار فى الناس بالجور فإنهم يعزلونه ويخلعونه » ، فقال عمر بك : « وكيف تحصروننا وتمنعون عنا الماء والأكل وتقاتلوننا ؟ أنحن كفرة حتى تفعلوا معنا ذلك ؟ » فقال عمر مكرم : « قد أفتى العلماء والقاضى بجواز قتالكم ومحاربتكم لأنكم عصاة » .

فهذه الكلمات التى فاه بها بداهة تدل على ما يجيش فى صدره من المبادئ والأفكار العالية .

وكان عمر مكرم قائمًا على تنظيم حركة المقاومة ، يتعهدها ويتولى قيادة الصفوف فيها ، فتاريخها مرتبط بجهاده وأعماله .

حرض الجماهير على الاجتماع والاستعداد لحصار القلعة ، وركب هو والعلماء إلى بيت

محمد على بالأزبكية يتبعهم الكثير من الوجاقلية والعامة مسلحين بالأسلحة والعصىّ ، وواصلوا السهر ليلا فى الشوارع والحارات ، وأقاموا المتاريس بالقرب من القلعة بجهات الرميلة والصليبة والحطابة والطرق النافذة إليها مثل باب القرافة والحصرية (درب الحصر) وغيرها ، ومنعوا الصعود إلى القلعة والنزول منها ، وأخذ الفريقان يترامون بالبنادق ، وصعد جماعة من الثوار إلى منارة جامع السلطان حسن يرمون منها القلعة ومن فيها .

وصف الجبرتى وقائع الثورة فى تلك الأيام وصف شاهد عيان ، فذكر ما خلاصته أنه فى يوم الأربعاء ٢٢ صفر (٢٢ مايو سنة ١٨٠٥) ركب السيد عمر مكرم والمشايخ ومعهم جمع كثير من الناس إلى الأزبكية ، وبعد ركوبهم حضر الجمع الكثير من العامة وطوائف الأجناد من سائر النواحى وخاصة الحسينية والعطوف والقرافة والرميلة والحطابة والصليبة ومعهم الطبول والبنادق حتى غصت بهم الشوارع وذهبوا إلى الجامع الأزهر ثم رجعوا إلى الأزبكية .

وكان الغرض من هذه الحركات وما تخللها من ذهاب ومجىء إذكاء نار الحماسة فى نفوس الشعب ، ودعوة طبقاته إلى تأييد الثورة والانضواء تحت لوائها ، قال المسيو (فلكس مانجان) فى هذا الصدد : « إن هذه الجولات الحربية وما بدا على الجموع من روح القوة أثرت فى نفوس جند الوالى الذين انكمشوا أمام هذه المظاهرات » .

ولحقت الجموع بالمشايخ وخرج هؤلاء من عند محمد على واستمرت الحال كذلك إلى ليلة الجمعة ٢٤ مايو سنة ١٨٠٥ ، وفى تلك الليلة فيما بين المغرب والعشاء خرج جنود الوالى من القلعة يريدون الاستيلاء على متاريس الثوار ، فتبادل الفريقان إطلاق الرصاص إلى ما بعد العشاء ، ثم ارتد جند الوالى على أعقابهم إلى داخل القلعة ، ويقول الجبرتى إن العساكر الأرناؤد من جنود محمد على كانوا فى هذه الملاحم يحاربون جنود الوالى بفتور مراعين أنهم « من أجناسهم لأن غالبهم منهم » ، فهذه الشهادة قوية الدلالة على أن الثورة التى انتهت بإجلاس محمد على على عرش مصر قامت على أكتاف الشعب دون جنود محمد على أنفسهم ، وملاحظة الجبرتى يؤيدها أن أكبر أعوان خورشد باشا وأخص مستشاريه وهما عمر بك وصالح قوش كانا من الرؤساء الأرناؤد يعملان بكل الوسائل لمناصرته وضم الأرناؤد إلى جانبه ، فلو لم يجد محمد على التأييد والإخلاص من زعماء الشعب وأفراده لما وصل إلى قمة السلطة ، ويؤيد هذا المعنى قول الجبرتى فى موطن آخر : « انتصر محمد على بالسيد عمر مكرم النقيب والمشايخ والقاضى وأهل البلدة والرعايا » ، ويقصد الرعايا جمهور الشعب .

استمرت الحرب سجالا ، ففى يوم الجمعة ٢٤ مايو نزل عمر بك من القلعة وأشاع بين الجماهير أن خورشد باشا عزم على النزول من القلعة والتسليم ، ولم يكن ذلك القول إلا خدعة أراد بها أن يفت فى عضد الثوار ويضعف من عزائمهم وليتزود من الذخيرة والميرة ، فلما كان يوم الاثنين ٢٧ مايو تجدد القتال وشدد السيد عمر مكرم فى حصار القلعة ، قال الجبرتى يصف ما رآه فى هذا الصدد :

« ركب السيد عمر مكرم وصحبته الوجاقلية وأمامه الناس بالأسلحة والعدد والأجناد ، وأهل خان الخليلى والمغاربة شىء كثير جدًّا ، ومعهم بيارق ولهم جلبة وازدحام ، بحيث كان أولهم بالموسكى وآخرهم جهة الأزهر ، وانفصل الأمر على رجوع عمر بك إلى القلعة ونزول عابدى بك[٧٥] بعد أن قضوا (أى جنود خورشد) أشغالهم وعبوا ذخيرتهم واحتياجهم من الماء والزاد والغنم ليلا ونهاراً مدة ثلاثة أيام ، وقد كانوا أشرفوا على طلب الأمان وتبين أنهم إنما فعلوا ذلك من باب المكر والخديعة واتفق الحال على إعادة المحاصرة » . ثم ذكر الجبرتى ما بذله السيد عمر مكرم فى إعداد معدات الحصار ، قال : « ورجع السيد عمر إلى منزله وأخذ فى أسباب الإحاطة بالقلعة كالأول وذلك بعد العشاء ليلة الثلاثاء (٢٨ صفر) ووقع الاهتمام فى د حها بذلك ، وجمعوا الفعلة والعربجية وشرعوا فى طلوع طائفة من العسكر والعرب وغيرهم إلى الجبل (المقطم) – لضرب القلعة – وأصعدوا المدافع ورتبوا عدة جمال لنقل الاحتياجات والخبز وروايا الماء تطلع وتنزل كل يوم مرتين ، وطلع إليهم الكثير من باعة الخبز والكعك والقهاوى وغير ذلك ، واستهل شهر ربيع الأول والأمر على ذلك مستمر من تجميع الناس وسهرهم بالليل فى سائر الأخطاط »[٧٦] ، أى أن حالة الثورة صارت حالة عادية ألفها الناس ، وكان الفتور قد تسرب إلى جنود الأرناؤود الذين يشاركون الثوار فى القيام على المتاريس ، وطلبوا رواتبهم من محمد على باشا فاستمهلهم حتى يسلم خورشد باشا فأبوا « ولم يمتثلوا وتركوا المتاريس التى حوالى القلعة وتفرقوا فذهب جماعة من الرعية وتترسوا فى مواضعهم »[٧٧] ، هذه شهادة الجبرتى ، وهى صريحة فى أن الشعب هو صاحب اليد الطولى

---

(٧٥) هو أخو حسن باشا أحد قواد الجنود الألبانيين وقد ذهب إلى القلعة موفداً من قبل أخيه لإقناع خورشد باشا بالكف عن المقاومة فلم يوفق .

(٧٦) ، (٧٧) الجبرتى الجزء الثالث .

فى تلك الثورة وأنه كان يسد الفراغ الذى يحدث فى الصفوف بانصراف الجنود الأرناؤود عن القتال .

كان السيد عمر مكرم شديد اليقظة والحذر ، يرقب تطور الحوادث بنظر ثاقب وجنان ثابت ، رأى أن بعض المفسدين يسعون فى الإيقاع بين الشعب وجنود محمد على لإحباط الحركة ، لأن هؤلاء الجنود لم يكتفوا بالتقاعد عن القتال بل كان كثير منهم يهاجمون الثوار فى منازلهم وينهبون ويعتدون ، فسعى جهده فى إحباط الفتنة وحال دون استفحال الشر ، وكان له الصوت المسموع والكلمة التى لا ترد فى تلك الأيام التاريخية ، تعقد الاجتماعات فى داره وينادى باسمه فى الأسواق وتعلن الأوامر منسوبة إليه . قال الجبرتى فى حوادث يوم السبت عشرة ربيع الأول سنة ١٢٢٠ (٨ يونية سنة ١٨٠٥) : « حضر حسن نجاتى المحتسب وأمر الأفندى بالمناداة . فمر وأمامه المنادى يقول : حسبما رسم السيد عمر الأفندى والعلماء لجميع الرعايا بأن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم ويحترسوا فى أماكنهم وأخطاطهم » ، من ذلك يتبين أن سلطة الحكم فى تلك الأيام التاريخية كانت فى يد السيد عمر مكرم والعلماء . وكان هو المرجع لحل المعضلات فى تلك الحركة . فكان محمد على يتودد إليه ويراسله ويتردد على بيته ويرجع إليه فى مهمات الأمور .

وحدث أن خورشد باشا بعث برسالة إلى الجنود الدلاة يستنجد بهم و « يطلبهم للحضور ويذكر لهم أنه يجب عليهم معاونته صيانة لعرض السلطنة وإقامة لناموسها وناموس الدين وأن الفلاحين محاصروه ومانعون عنه الأكل والشرب » . فلما وصلت الرسالة إلى الدلاة فى قليوب أعرضوا عن تلبية الدعوة وبعثوا بالرسالة إلى محمد على فأرسلها إلى السيد عمر مكرم النقيب .

وقال الجبرتى عن الاجتماعات التى عقدت فى داره : « وفى ليلة الأربعاء رابع عشر ربيع الأول (١٢ يونية سنة ١٨٠٥) حضر كتخدا (وكيل) محمد على وجرجس الجوهرى (كبير المباشرين الأقباط) إلى بيت السيد عمر مكرم وحضر أيضاً الشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير والقاضى ، وتشاوروا على أمر ورأى رآه محمد على باشا » ، ولم يذكر الجبرتى ذلك الرأى الذى كان موضوع الاجتماع والتشاور ، ولعله كان سراً لم يبح به المجتمعون ، فلم يصل إلى علم الجبرتى ، على أن المسيو (فلكس مانجان) قد ذكره فى كتابه[٧٨] فقال إنهم اتفقوا فى هذا الاجتماع على مضاعفة الجهد لإجبار خورشد باشا على تسليم القلعة ، فمن ذلك أنهم قرروا

---

(٧٨) تاريخ مصر فى عهد محمد على . الجزء الأول.

زيادة عدد المخافر فى الاستحكامات والمتاريس وعهدوا إلى السيد عمر إرسال المؤونة والماء كل يوم إلى المقاتلة المرابطين بالمقطم . وكان ليقظة السيد عمر مكرم وانتباهه فضل كبير فى نجاح الحركة ونجاتها من الفشل ، فقد حدث فى مدة الحصار أن حضر على باشا السلحدار[٧٩] بجنوده من (المنيا) لنجدة خورشد باشا ، ورابط بمصر القديمة وماجاورها ، وأمكنه أن يتصل بالقلعة من طريق الجبل وأن يمد حاميتها بالمؤونة والذخيرة ، وأخذ يعمل من جهة أخرى على الاتصال بجنود محمد على ليفسدهم ويصرفهم عن تأييد الحركة ، فانضم إليه فعلا كثير منهم ، واعتزم أن يركب فيمن معه من الجنود ويهجم على متاريس الأهالى جهة الصليبة ، فأرسل ليلة السبت ١٥ يونية (١٧ ربيع الأول) إلى خورشد باشا ينبئه بعزمه ويطلب إليه فى حالة هجومه من تلك الناحية أن يساعده هو من القلعة بضرب المدينة والمتاريس بالمدافع ، فيتزعج الناس ويدب فى صفوفهم الرعب ويستولى جنود الوالى على المتاريس ويتم ما دبره ، وأراد أن يحكم تدبيره بالمكر والخداع ، فأوعز إلى اثنين من كبراء ضباطه أن يكتبا إلى السيد عمر مكرم خطابًا مضمونه أنهما يريدان الحضور إلى جهة القلعة ليسعيا فى الصلح ، وأنهما يطلبان الإذن لهما بالذهاب إلى القلعة ويلتمسان إصدار الأمر إلى المرابطين فى المتاريس من الأهالى بإخلاء الطريق لهما ، ولكن رجلا صادقًا أمينًا من رجال عمر مكرم علم بهذه المكيدة وجاءه بعد الفجر وأخبره بها فأخذ أهبته لإحباطها .

قال الجبرتى : « فأرسل السيد عمر أفندى إلى من بالنواحى والجهات وأيقظهم وحذرهم ، فاستعدوا وانتظروا وراقبوا النواحى ، فنظروا إلى ناحية القرافة فرأوا الجمال التى تحمل الذخيرة الواصلة من على باشا السلحدار إلى القلعة ، ومعها أنفار من الخدم والعسكر ، وعدتها ستون جملا ، فخرج عليهم (حجاج الخضرى) ومن معه من أهالى الرميلة فضربوهم وحاربوهم وأخذوا منهم تلك الجمال وقتلوا شخصين من العسكر وقبضوا على ثلاثة وحضروا بهم وبرءوس المقتولين إلى بيت السيد عمر ، فأرسلهم إلى محمد على باشا ، فأمر بقتل الآخرين ، فلما رأى من بالقلعة ذلك فعندها رموا بالمدافع والقنابل على البلد وبيت محمد على وحسن باشا وجهة الأزهر ولم يزالوا يراسلون الرمى من أول النهار إلى بعد الظهر فلم ينزعج أهل البلد من ذلك لما ألفوه من أيام الفرنسيس وحروبهم السابقة » .

---

(٧٩) قائد الجيش التركى فى الصعيد .

و (حجاج الخضرى) الذى ورد ذكره فى هذه العبارة هو شيخ طائفة الخضرية فى ذلك العصر، وإليه تنسب البوابة المعروفة ببوابة حجاج، وتسمى أيضاً بوابة الخلاء قبلى مسجد السيدة عائشة بشارع باب القرافة، وقد ذكره الجبرتى غير مرة، فقال عنه إنه: «الشهير بنواحى الرميلة، وكان مشهوراً بالإقدام والشجاعة طويل القامة عظيم الهمة وكان شيخاً على طائفة الخضرية صاحب صولة وكلمة ومكارم أخلاق بتلك النواحى، وهو الذى بنى البوابة بآخر الرميلة عند عرصة الغلة أيام الثورة، وشنق مظلومًا»، وقال عنه إنه خرج من القاهرة عقب رحيل خورشد باشا خوفًا على نفسه من اعتداء العسكر (الأرناؤود) وذهب إلى بلده (المنوات) ثم عاد وأرسل إلى السيد عمر مكرم «فكتب له أماناً من الباشا (محمد على) فحضر بذلك الأمان وقابل الباشا وخلع عليه ونادوا له فى خطته بأنه على ما هو عليه فى حرفته وصناعته ووجاهته بين أقرانه فصار يمشى فى المدينة وصحبته عسكرى ملازم له».

ثم ذكر الجبرتى أنه أختفى بعد ذلك بسبب ما داخله من الوهم والخوف من العسكر، والظاهر أنه اعتقد أنهم ينوون قتله غيلة.

وقد ذكره المسيو (فلكس مانجان)[٨٠] وقال عنه إنه يتولى القيادة فى الاستحكامات القريبة من القلعة وإنه علم من أحد أعوانه بقدوم الحملة التى بعث بها السلحدار إلى خورشد باشا، وقال لهذه المناسبة إنه اشتهر ذكره فى حصار القلعة وإنه جمع رجاله وهجموا على الحملة واستولوا على الجمال، وروى الواقعة كما ذكرها الجبرتى.

استمر القتال متراسلا بين الشعب والوالى إلى أوائل شهر يولية ينة ١٨٠٥، وفى غضون ذلك أشار محمد على على السيد عمر مكرم أن يأمر رجاله بنقل مدفع كبير من طابية قنطرة الليمون[٨١] وتركيبه بالجبل لضرب أسوار القلعة كى يكون الضرب أشد أثراً من المدافع التى كان الثوار يستعملونها فى القتال، فجمع السيد عمر رجاله وجلب الأبقار لجر هذا المدفع الثقيل ونقلوه من مكانه وأخرجوه من باب البرقية وركبوه عند باب الوزير، واستمروا فى جره يومين كاملين، وبعد أن تم تركيبه أخذ القواد يضربون به القلعة واستمر الضرب من الجانبين شديداً متراسلا، وحاول بعض جنود الوالى أن يهجموا على ذلك المدفع لتعطيله فردهم الثوار

(٨٠) فى كتابه مصر تحت حكم محمد على.

(٨١) من القلاع التى أنشأها الفرنسيون بالقاهرة – انظر الجزء الأول ص ٣١٢ من الطبعة الأولى.

وضربوهم وقتلوا كبيرهم ، وكانت مدافع القلعة تصوب قنابلها على حى الأزهر وعلى بيت محمد على وبيت حسن باشا .

يتبين من الحوادث المتقدمة أن السيد عمر مكرم هو المنظم للثورة الشعبية فى ذلك العصر ، وقد شهد له بذلك كتاب الإفرنج فيما دونوه من وقائع تلك الثورة ، قال (فولابل) فى هذا الصدد :

«كان من الصعب أن يسود النظام وتدبر التدابير المحكمة بين الجنود الذين اعتادوا عيشة الفوضى ، والأهالى الذين لم يألفوا من قبل حركات القتال ومتاعبه ، ولكن السيد عمر مكرم قد سد هذا النقص من جميع النواحى بهمته ونشاطه وشجاعته ، فكان دائمًا دائب العمل واليقظة ، يحرك الجموع ويرتب مواقفهم ويبعث الحمية فى نفوسهم ويشعل فى كل لحظة نار الحماسة كلما خمدت جذوتها أو دب إليها دبيب الفتور»[٨٢] .

سرد الجبرتى حوادث الثورة الشعبية ، ومر عليها كأنها حوادث عادية لا تختلف عن الوقائع والأنباء التى كان يدونها فى تاريخه العظيم ، ومع أنه كان دقيقًا فى تدوينها وفاق فى بيانه واستقرائه جميع الكتاب والمؤرخين الإفرنج الذين كتبوا عنها سواء أكانوا ممن شهدوها أم سمعوا بها ، فإنه لم يلفت نظر قارئه إلى ما تنطوى عليه من السمو والعظمة ، على أنها مجموعة وقائع تاريخية رائعة . ولا غرو فهى تمثل نفسية جديدة للشعب المصرى ولدتها الحركة القومية التى ظهرت فى أفق البلاد أواخر القرن الثامن عشر ، ولقد كانت هذه الحوادث رابع ثورة قام بها الشعب فى تاريخ مصر الحديث فى فترة من الزمن لا تتجاوز تسع سنوات ، فالثورة الأولى قاوم بها نابليون ، والثورة الثانية قاوم بها كليبر ، والثالثة قام بها فى وجه المماليك ، والرابعة فى وجه الوالى التركى ، كل ذلك يدل على مبلغ حيوية الشعب فى تلك الحقبة من الزمن .

ولقد فطن الكتاب الافرنج إلى ما فى ثورة مايو سنة ١٨٠٥ من معان سياسية كبيرة ، فلم يفتهم أن ينوهوا بها فيما كتبوه عن وقائعها ، قال (فولابل)[٨٣] فى هذا الصدد :

«إن الحوادث التى سردناها تسترعى النظر ، فلأول مرة وقع تغيير سياسى خطير فى ولاية من ولايات السلطنة العثمانية بإرادة الشعب وباسم الشعب ، ولاجدال أن المطالب التى فرضها الشيوخ على خورشد باشا تدل على ما يجيش بصدورهم من الإحساس بالحرية وما يشعرون به

(٨٢) فولابل . مصر الحديثة .

(٨٣) فى كتابه (مصر الحديثة) .

من الحاجة إلى أخذ الضمانات الكافية التى تكفل مراقبة الحكومة ، ولقد كان هذا الشعور إلى ذلك العصر مجهولا فى الشرق ، وإذا كانت أنظار الشعب قد اتجهت فى تلك الآونة إلى محمد على وأجمعت آراء زعمائه على تقليده سلطة الحكم فما ذلك إلا لأن (محمد على) قد دعا إلى مبادئ الحرية وأعلن فى كل لحظة دفاعه عن حقوق الشعب ومصالحه ونادى بأن علة المحن التى حلت بالبلاد راجعة إلى سوء سياسة الولاة الأتراك وعدم وجود أية رقابة على الحكومة » .

هذا ما كتبه (فولابل) ، وفيه كما ترى إطراء للثورة الشعبية وتمجيد لها ، ولذلك لم يفت الكاتب أن ينوه بأن ظهور هذا الشعور الجديد يرجع الفضل فيه إلى إقامة الفرنسيين فى مصر وما نشروه فيها من مبادئ الحرية .

ونحن من ناحيتنا نفهم هذا الفضل بمعنى آخر غير المعنى الذى قصده المسيو (فولابل) ، نفهم أن هذا الشعور المجيد يرجع الفضل فى ظهوره إلى روح المقاومة الشعبية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر ، فإن المقاومة الأهلية من شأنها أن تثير فى نفوس الشعب روح التطلع إلى الحرية وإباء الضيم ، والأخذ بأسباب الحياة القومية والنظم السياسية ، فالروح التى حفزت الأمة إلى مقاومة الاحتلال الفرنسى هى التى أهابت بها إلى مقاومة حكم المماليك ثم مقاومة الحكم التركى .

ويقول كلوت بك[٨٤] وهو من أصدقاء محمد على وأخص مستشاريه : « لقد أغرى الشيوخ (محمد على) بتقلد زمام الأحكام ، وهم بما لهم من النفوذ الأدبى والدينى والسلطة التقليدية كانوا بالبداهة نواب الأمة ووكلاءها وغنىٌّ عن البيان أنه لو لم يستوثق محمد على من تأييد الجمهور له لسقط تحت أعباء المهمة التى أخذ على نفسه القيام بها » .

ختام الثورة

ظلت الحرب بين الشعب والوالى سجالا إلى أن جاء القاهرة من الآستانة يوم ٩ يولية سنة ١٨٠٥ (١١ ربيع الثانى سنة ١٢٢٠) رسول يحمل فرمانًا يتضمن الخطاب لمحمد على باشا « والى جدة سابقًا » بتثبيته واليًا على مصر « حيث رضى بذلك العلماء والرعية وأن خورشد باشا معزول عن ولاية مصر » .

---

(٨٤) فى كتابه (لمحة عامة إلى مصر) .

فبطل الضرب من القلعة ، وأبطل الثوار الضرب من الحمل مع استمرار الحصار وبقاء المتاريس ومرابطة الثوار بالجبل إلى أن أذعن خورشد باشا وسلم القلعة يوم الاثنين ٥ أغسطس سنة ١٨٠٥ (٩ جمادى الأولى سنة ١٢٢٠) ونزل منها ثم رحل عن البلاد ، فكان آخر وال عثمانى حكم مصر بإرادة الاستانة وأوامرها .

وبذلك توجت الثورة بفوز إرادة الأمة ، واستقر الحكم من اختاره نواب الشعب والياً للأمر ، ولله عاقبة الأمور .

* * *

الفصل الرابع عشر

وثائق تاريخية

وثيقة رقم ١

منشور نابليون بإعادة الديوان

(انظر ص ٢١)

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من أمير الجيوش الفرنساوية خطاباً إلى كافة أهالى مصر الخاص والعام ، نعلمكم أن بعض الناس الضالين العقول الخالين من المعرفة وإدراك العواقب سابقًا أوقعوا الفتنة والشرور بين القاطنين بمصر فأهلكهم الله بسبب فعلهم ونيتهم القبيحة ، والبارى سبحانه وتعالى أمرنى بالشفقة والرحمة على العباد ، فانتثلت أمره وصرت رحيما بكم شفوقا عليكم ، ولكن كان حصل عندى غيظ وغم شديد بسبب تحريك الفتنة بينكم ، ولأجل ذلك أبطلت الديوان الذى كنت رتبته لنظام البلد وصلاح أحوالكم من مدة شهرين ، والآن توجه خاطرنا إلى ترتيب الديوان كما كان لأن حسن أحوالكم ومعاملتكم فى المدة المذكورة أنسانا ذنوب الأشرار وأهل الفتنة التى وقعت سابقا ، أيها العلماء والأشراف أعلموا أمتكم ومعاشر رعيتكم بأن الذى يعادينى ويخاصمنى إنما خصامه من ضلال عقله وفساد فكره ، فلا يجد ملجأ ولا مخلصا ينجيه منى فى هذا العالم ، ولا ينجو من بين يدى الله لمعارضته لمقادير الله سبحانه وتعالى ، والعاقل يعرف أن ما فعلناه بتقدير الله تعالى وإرادته وقضائه ، ومن يشك فى ذلك فهو أحمق وأعمى البصيرة ، وأعلموا أيضا أمتكم أن الله قدر فى الأزل هلاك أعداء الإسلام وتكسير الصلبان على يدى ، وقدر فى الأزل أنى أجىء من المغرب إلى أرض مصر لهلاك الذين ظلموا فيها وإجراء الأمر الذى أمرت به ، ولا يشك العاقل أن هذا كله بتقدير الله وإرادته وقضائه ، وأعلموا أيضا أمتكم أن القرآن العظيم صرح فى آيات كثيرة بوقوع الذى حصل وأشار فى آيات أخرى إلى أمور تقع فى المستقبل ، وكلام الله فى كتابه صدق وحق لا

يتخلف ، إذا تقرر هذا وثبتت هذه المقالات فى آذانكم فلترجع أمتكم جميعا إلى صفاء النية وإخلاص الطوية فإن منهم من يمتنع عن الغى وإظهار عداوتى خوفا من سلاحى وشدة سطوتى ، ولم يعلموا أن الله مطلع على السرائر يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، والذى يفعل ذلك يكون معارضًا لأحكام الله ومنافقًا وعليه اللعنة والنقمة من الله علام الغيوب ، واعلموا أيضًا أنى أقدر على إظهار ما فى نفس كل أحد منكم لأننى أعرف أحوال الشخص وما انطوى عليه بمجرد ما أراه وإن كنت لا أتكلم ولا أنطق بالذى عنده ولكن يأتى وقت ويوم يظهر لكم بالمعاينة أن كل ما فعلته وحكمت به فهو حكم إلهى لا يرد ، وأن اجتهاد الإنسان غاية جهده ما يمنعه عن قضاء الله الذى قدره وأجره على يدى ، فطوبى للذين يسارعون فى اتحادهم وهمتهم مع صفاء النية وإخلاص السريرة والسلام[1] » .

وثيقة رقم ٢

منشور الديوان الخصوصي إلى الشعب لمناسبة إعادة الديوان

(انظر ص ٢٦)

« الحمد لله وحده . هذا خطاب إلى جميع أهل مصر من خاص وعام ، من محفل الديوان الخصوصى من عقلاء الأنام علماء الإسلام والوجاقات والتجار الفخام ، نعلمكم معاشر أهل مصر أن حضرة سارى عسكر الكبير بونابرته أمير الجيوش الفرنساوية ، صفح الصفح الكلى عن كامل الناس والرعية ، بسبب ما حصل من أراذل أهل البلد والجعيدية ، من الفتنة والشر مع العساكر الفرنساوية ، وعفا عفواً شاملا ، وأعاد الديوان الخصوصى فى بيت قائد أغا بالأزبكية ، ورتبه من أربعة عشر شخصًا أصحاب معرفة وإتقان ، خرجوا بالقرعة ممن ستين رجلا كان انتخبهم بموجب فرمان ، وذلك لأجل قضاء حوائج الرعايا وحصول الراحة لأهل مصر من خاص وعام ، وتنظيمها على أكمل نظام وإحكام ، كل ذلك من كمال عقله وحسن تدبيره ، ومزيد حبه لمصر وشفقته على سكانها من صغير القوم قبل كبيره ، رتبهم بالمنزل المذكور كل يوم لأجل خلاص المظلوم من الظالم ، وقد اقتص من عسكره الذين أساءوا بمنزل الشيخ

---

(١) نشر يوم ١٦ رجب سنة ١٢١٣ .

محمد الجوهرى[٢] وقتل منهم اثنين بقراميدان ، وأنزل طائفة منهم عن مقامهم العالى إلى أدنى مقام ، لأن الخيانة ليست من عادة الفرنسيس ، خصوصًا مع النساء الأرامل فإن ذلك قبيح عندهم لا يفعله إلا كل خسيس ، ووضع القبض بالقلعة على رجل نصرانى مكاس ، لأنه بلغه أنه زاد المظالم فى الجمرك بمصر القديمة على الناس ، ففعل ذلك بحسن تدبيره ليمتنع غيره من الظلم ومراده رفع الظلم عن كاهل الخلق ويفتح الخليج الموصل من بحر النيل إلى بحر السويس لتخف أجرة الحمل من مصر إلى قطر الحجاز الأفخم وتحفظ البضائع من اللصوص وقطاع الطريق وتكثر عليهم أسباب التجارة من الهند واليمن وكل فج عميق ، فاشتغلوا بأمر دينكم وأسباب دنياكم ، واتركوا الفتنة والشرور ولا تطيعوا شيطانكم وهواكم ، وعليكم بالرضا بقضاء الله وحسن الاستقامة لأجل خلاصكم من أسباب العطب والوقوع فى الندامة ، رزقنا الله وإياكم التوفيق والتسليم ، ومن كانت له حاجة فليأت إلى الديوان بقلب سليم إلا من كان له دعوى شرعية فليتوجه إلى قاضى العسكر المتولى بمصر المحمية ، بخط السكرية ، والسلام على أفضل الرسل على الدوام[٣] .

وثيقة رقم ٣
منشور نابليون إلى أعضاء الديوان
عن انتخاب قاضى قضاة مصر (انظر ص ٧٢)

١ – نص المنشور كما عربناه عن الأصول الفرنسى الوارد فى مراسلات نابليون

الجزء الخامس وثيقة رقم ٤٢٢٤

« المعسكر العام بالقاهرة فى ٩ مسيدور من السنة السابعة (٢٧ يونية سنة ١٧٩٩)

---

(٢) هم جماعة من الجنود الفرنسيين تسللوا ليلا إلى دار الشيخ محمد الجوهرى أحد علماء مصر الأعلام فى ذلك العصر وكانت داره بالأزبكية ولم يكن بها سوى الخدم من رجال ونساء فشعر الخدم بدخول الجنود واستيقظ النسوة فضربهن الجنود وقتلوا واحدة منهن وأرادوا هتك عرض فتاة أخرى ففرت منهم وسرقوا ما وصلت إليه أيديهم من متاع الدار ، وقد وقعت هذه الحادثة أثناء رحلة نابليون بالسويس ، وكان للشيخ الجوهرى منزلة كبيرة لدى أعضاء الديوان لما اشتهر عنه من العلم والتقوى ، فلما عاد نابليون شكوا إليه أمر هذا الاعتداء فأمر نابليون بإعدام اثنين من المعتدين عقاباً لهما على ما اقترفاه ، وكانت وفاة الشيخ محمد الجوهرى سنة ١٢١٥ هجرية .

(٣) نشر يوم ٢٩ شعبان سنة ١٢١٣ .

« تلقيت رسالتكم صباح اليوم ، وأخبركم أنى لم أعزل القاضى ، بل القاضى نفسه هو الذى نقض عهده بعد أن أوليته المعروف والإحسان ونسى واجباته فانفصل عن شعبه وغادر مصر ذاهبًا إلى الشام ، وقد رضيت أن ينيب عنه ابنه ليقوم مقامه مؤقتًا أثناء مهمته التى كان عليه أن يقوم بها فى الشام ، لكنى ما قبلت قط أن يتولى هذا الشاب منصب القاضى على الدوام لصغر سنه وعدم كفايته ، وعلى ذلك صار منصب قاضى القضاة شاغرًا ، فماذا كان ينبغى علىّ عمله اتباعًا لتعاليم القرآن الصحيحة ؟ رأيت من الواجب أن أعهد إلى جمعية العلماء اختيار القاضى ، وهذا ما قمت به ، والآن وقد نال الشيخ العريشى ثقتكم فإن مقصدى أن تتم توليته ويتقلد منصب القضاء ، وليس ذلك بدعًا فإن الخلفاء الراشدين كانوا يتولون الخلافة بانتخاب جمعية المؤمنين عملا بتعاليم القرآن .

« وأخبركم أننى عندما جاء ابن القاضى للقائى قد تلقيته بالرعاية والإكرام ، ولا أبغى أن يناله أذى ما ، وإذا كنت قد أمرت باعتقاله بالقلعة – حيث يلقى بها من حسن الوفادة والإكرام مثلما يجد فى بيته – فإنى لم أفعل ذلك إلا محافظة على الأمن ومنعًا للفتنة ، وفى عزمى بعد تنصيب القاضى الجديد وتوليه أعباء عمله أن أطلق سراح ابن القاضى السابق وأرد له أمواله وأسهل له ولعائلته الذهاب أنى شاءوا ، لأنى قد جعلت هذا الشاب فى أمانى وحمايتى الخاصة وأنا على يقين أن أباه الذى عرفت صفاته وفضائله لم يفعل فعلته إلا مسوقًا بعامل التضليل والغواية .

« وعليكم يا أعضاء الديوان أن تهدوا الناس الحسنى القصد إلى الصواب ، وأن تعرفوا أهل مصر كافة أن قد آن الوقت لانتهاء حكم العثمانيين ، فإن حكومتهم أشد قسوة من حكومة المماليك ، وهل يوجد إنسان يعتقد أن علماء مصر المولودين بها ليس فيهم من تؤهله كفايته وفضائله إلى الاضطلاع بمنصب قاضى القضاة !

« أما الذين تسوء مقاصدهم وتحدثهم أهواؤهم بالخروج على إرادتى فعليكم أن تعرفونى عنهم لأقتص منهم فإن الله قد وهبنى القوة على معاقبتهم ويجب أن يعرفوا أن يدى قوية ليس بها ضعف ولا وهن .

« ومرادى أن يجد الديوان ويجد الشعب المصرى فى خطتى هذه دليلا قائمًا على ما يكنه فؤادى من عواطف الخير وتمنيات السعادة والرخاء لهم ، وإذا كان النيل هو أكبر أنهار الشرق

فجدير بالشعب المصرى أن يكون تحت حكمى أسعد الشعوب وأعظمها ».

بونابرت

٢ – نص المنشور كما عربه تراجمة نابليون وتلى فى الديوان ونشر فى الجبرتى الجزء الثالث .

« جواب إلى محفل الديوان من حضرة سارى عسكر الكبير بونابارته أمير الجيوش الفرنساوية محب أهل الملة المحمدية خطابًا إلى السادات العلماء ، انه وصل لنا مكتوبكم من شأن القاضى نخبركم أن القاضى لم أعزله وإنما هو هرب من إقليم مصر وترك أهله وأولاده وخان صحبتنا من المعروف والإحسان الذى فعلناه معه ، وكنت استحسنت أن ابنه يكون عوضًا عنه فى محل الحكم فى مدة غيبته ويحكم بدله ، ولم يكن ابنه قاضياً متولياً للأحكام على الدوام لأنه صغير السن ليس هو أهلا للقضاء ، فعلتم أن محل حكم الشريعة خال الآن من قاض شرعى يحكم بالشريعة ، واعلموا أنى لا أحب مصر خالية من حاكم شرعى يحكم بين المؤمنين ، فاستحسنت أن يجتمع علماء المسلمين ويختاروا باتفاقهم قاضياً شرعياً من علماء مصر وعقلائهم لأجل موافقة القرآن العظيم باتباع سبيل المؤمنين ، وكذلك مرادى أن حضرة الشيخ العريشى الذى اخترتموه جميعاً أن يكون لابساً من عندى وجالساً فى المحكمة ، وهكذا كان فعل الخلفاء فى العصر الأول باختبار جميع المؤمنين ، وأخبركم أنى تلقيت ابن القاضى بالمحبة والإكرام لما حضر لى وقابلنى ولم أزل لهذا الوقت أكرمه ولم أحب أن يضره أحد حكم أماننا له ، ولما رفعناه إلى القلعة لم نر ضرره بل رفعناه مكرماً مثل ما يكون فى بيته بالراحة والإكرام ، وسبب ما رفعناه إلى القلعة سكون الفتن والإصلاح بين الناس ، وبعد لبس القاضى الجديد وجلوسه فى محل الحكم مرادى أن أطلق ابن القاضى وأنزله من القلعة وأرد له كامل تعلقاته وأطلق سبيله هو وعياله يتوجهون حيث أرادوا باختيارهم ، لأنه فى أمانى وتحت حمايتى ، وأعرف أن أباه ما كان يكرهنى ولكنه ذهب عقله وفسد رأيه وأنتم يا أهل الديوان تهدون الناس إلى الصواب والنور من جنابكم لأهل العقول ، وعرفوا أهل مصر أنه انقضت وفرغت دولة العثمانلى من أقاليم مصر ، وبطلت أحكامها منها ، وأخبروهم أن حكم العثمانلى أشد تعباً من حكم الملوك[٤] وأكثر ظلماً ، والعاقل يعرف أن علماء مصر لهم عقل وتدبير وكفاية وأهلية للأحكام الشرعية يصلحون للقضاء أكثر من غيرهم فى سائر الأقاليم ، وأنتم يا أهل الديوان عرفونى عن المنافقين المخالفين أخرج من حقهم لأن الله تعالى أعطانى القوة العظيمة لأجل ما أعاقبهم ، فإن

(٤) المراد المماليك كما هو أصل المنشور بالفرنسية ولعل هذا التحريف من ناقل نسخة الجبرتى الأصلية .

سيفنا طويل ليس فيه ضعف ، ومرادى أن تعرفوا أهل مصر أن قصدى بكل قلبى حصول الخير والسعادة لهم مثل ما هو بحر النيل أفضل الأنهار وأسعدها ، كذلك أهل مصر يكونون أسعد الخلائق أجمعين بإذن رب العالمين والسلام » .

وثيقة رقم ٤
معاهدة العريش[٥]

٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ انظر (ص ١٣٦)

« معاهدة للجلاء عن مصر محررة بين الستويان[٦] (ديزيه) قائد فرقة والستويان (بوسليج) مدير الشئون المالية المفوضين عن الجنرال كليبر القائد العام للجيش الفرنسى ، وبين مصطفى رشيد أفندى الدفتردار ومصطفى راسخ أفندى رئيس الكتاب المفوضين عن الصدر الأعظم .

« إن الجيش الفرنسى فى مصر رغبة منه فى الإعراب عن مقاصده فى حقن الدماء ووضع حد للمنازعات الضارة التى قامت بين الجمهورية الفرنسية والباب العالى قد قبل أن يجلو عن مصر طبقاً لشروط هذه المعاهدة آملا أن يكون ذلك تمهيداً للصالح العام فى أوروبا .

المادة ١

« ينسحب الجيش الفرنسى بأسلحته وأمتعته ومنقولاته إلى الإسكندرية ورشيد وأبو قير ومن هناك ينتقل إلى فرنسا على سفنه أو السفن التى يقتضى أن يقدمها الباب العالى لهذا الغرض ، ويرسل الباب العالى إلى قلعة الإسكندرية بعد شهر من التصديق على هذه المعاهدة مندوباً (قوميسيرا) يصحبه خمسون شخصاً لتعجيل تهيئة هذه السفن للنقل .

---

(٥) صرفنا النظر عن الترجمة العربية الواردة فى الجبرتى لكثرة ما حوته من أغلاط وعبارات ركيكة غير مفهومة ، وعربنا المعاهدة عن الأصل الفرنسى الوارد فى مجموعة المعاهدات لدى مارتانس (الجزء السابع) .

(٦) كلمة فرنسية تؤدى معنى (مسيو) وهى من مصطلحات الثورة الفرنسية .

المادة ٢

تعقد هدنة ثلاثة أشهر فى مصر تبتدئ من يوم التوقيع على المعاهدة وإذا انقضت هذه المدة قبل أن يعد الباب العالى السفن فتمد الهدنة إلى أن يتم نقل الجنود بحراً ، ويلاحظ الطرفان أن يبذلا كل الوسائل لعدم الإخلال بطمأنينة الجيش والأهالى وراحتهم خلال الهدنة .

المادة ٣

يتبع فى نقل الجيش الفرنسى النظام الذى يضعه مندوبون يختارهم الباب العالى والجنرال كليبر لهذا الغرض ، وإذا حصل خلاف بين المندوبين أثناء انتقال الجنود إلى السفن فيختار الكومودور السرسدنى سميث مندوباً من قبله ليفصل فى الخلاف طبقاً للوائح البحرية البريطانية .

المادة ٤

تخلى الجنود الفرنسية موقعى (قطية) و (الصالحية) فى اليوم الثامن وعلى الأكثر فى اليوم العاشر بعد التصديق على المعاهدة ، ومدينة (المنصورة) فى اليوم الخامس عشر ، و (دمياط) و (بلبيس) فى اليوم العشرين ، والسويس قبل إخلاء القاهرة بستة أيام ، والبلاد الأخرى الواقعة بالبر الشرقى للنيل فى اليوم العاشر ، وتخلى بلاد الدلتا بعد خمسة عشر يوماً من إخلاء القاهرة ، ويبقى البر الغربى للنيل وملحقاته فى يد الفرنسيين إلى حين الجلاء عن القاهرة ، وبما أن هذه الجهات يحتلها الجيش الفرنسى إلى أن تجئ الجنود الفرنسية من الوجه القبلى فيجوز أن تبقى محتلة إلى تمام الهدنة إذا لم يتيسر إخلاؤها قبل ذلك ، وتسلم الجهات التى يصير إخلاؤها إلى الباب العالى بالحالة التى هى عليها الآن .

المادة ٥

يعتبر إخلاء القاهرة بعد أربعين يوماً أو على الأكثر خمسة وأربعين يوماً من التصديق على المعاهدة .

المادة ٦

يتعهد الباب العالى بأن يبذل كل عنايته ليضمن للجنود الفرنسية التى تخلى مواقعها بالبر الغربى وتنسحب بأسلحتها وبأمتعتها نحو معسكر الجيش العام ألا تضار ولا تؤذى فى أشخاصهم ولا فى أموالها وكرامتها سواء من أهالى مصر أم من العسكر السلطانى العثمانى .

المادة ٧

تنفيذاً للمادة السابقة ومنعاً لكل خلاف وخصام تتخذ الوسائل اللازمة لتكون الجنود التركية بعيدة البعد الكافى عن الجنود الفرنسية .

المادة ٨

بمجرد التصديق على المعاهدة يطلق سراح الترك والرعايا العثمانيين على اختلاف أجناسهم المحجوزين أو المحبوسين فى فرنسا أو الذين اعتقلتهم السلطة الفرنسية فى مصر وكذلك يطلق سراح الفرنسيين المحجوزين أو المحبوسين فى مدن السلطنة العثمانية وثغورها والأشخاص التابعين للوكالات والقنصليات الفرنسية على اختلاف أجناسهم .

المادة ٩

الأشخاص الذين صودرت أموالهم وأملاكهم من الجانبين يستردون هذه الأملاك والأموال أو ترد لهم قيمتها ، ويبدأ بذلك فوراً بعد الجلاء عن مصر ، وتتم تسوية ذلك فى الآستانة بوساطة لجان تؤلف لهذا الغرض من الجانبين .

المادة ١٠

لا يضارّ أحد من سكان مصر من أى دين كان ولا يؤذى فى ملكه ولا فى شخصه بسبب اتصاله أو ارتباطه بالفرنسيين مدة احتلالهم مصر .

المادة ١١

تعطى للجيش الفرنسى جوازات سفر وعهود بعدم التعرض لأفراده فى الطريق من تركيا وحلفائها أى إنجلترا والروسيا وكذلك تقدم له السفن اللازمة لرجوعه إلى فرنسا .

المادة ١٢

عندما ينزل الجيش الفرنسى بالسفن يتعهد الباب العالى وحلفاؤه أن لا يحصل له أى تعرض حتى يصل إلى فرنسا ، ويتعهد الجنرال كليبر والجيش الفرنسى من ناحيتهما أن لا يحصل منهما خلال هذه المدة أى تحرش أو عمل عدائى ضد أساطيل تركيا أو حلفائها أو أى بلد من البلدان التابعة لها وألا ترسو السفن المقلة للجيش فى أى جهة عدا الشواطئ الفرنسية مالم تقض بذلك الضرورة القصوى .

المادة ١٣

ينتج عن الهدنة التى تقرر عقدها لمدة ثلاثة أشهر لجلاء الجيش الفرنسى عن مصر أنه إذا وصلت خلال هذه المدة بعض السفن الفرنسية إلى الإسكندرية بغير علم قواد أساطيل الحلفاء فقد اتفق الطرفان على أن تقلع منها بعد أن تتزود مما يكفيها من الماء والمؤونة وتعود إلى فرنسا مزودة بجوازات مرور من الحكومات المتحالفة ، وفى حالة احتياج بعض هذه السفن إلى الترميم فلها دون سواها أن تبقى إلى أن يتم ترميمها ومن ثم تقلع فوراً إلى فرنسا حينما تطيب لها الريح .

المادة ١٤

للجنرال كليبر أن يرسل من فوره نبأ معاهدة الجلاء عن مصر إلى الحكومة الفرنسية ويعطى للمركب المقلة للرسالة جواز المرور اللازم للوصول إلى فرنسا .

المادة ١٥

نظراً لما اتضح من حاجة الجيش الفرنسى إلى المؤونة اليومية مدة الثلاثة الأشهر التى يجب أن يتم فيها جلاؤه عن مصر وثلاثة أشهر أخرى ابتداء من يوم نزوله السفن فقد تمّ الاتفاق على أن يقدم له الباب العالى الكميات اللازمة من القمح واللحم والأرز والشعير والتبن وذلك بموجب

القوائم التى تقدم من المفاوضين الفرنسيين مما يكفى لمدة إقامة الجيش فى مصر ومدة سفره ويخصم من ذلك ما يأخذه الجيش من المخازن بعد التصديق على المعاهدة .

المادة ١٦

لا يسوغ للجيش الفرنسى ابتداء من يوم التصديق على المعاهدة أن يجبى أى ضريبة فى مصر ، وعليه بالعكس أن يترك للباب العالى قيمة الضرائب العادية التى يحل موعد تحصيلها لغاية يوم رحيله ، وكذلك الجمال والهجن والذخائر والمدافع وغير ذلك من الأشياء التى يملكها ولا يرى أن يأخذها معه ، وكذلك شون الغلال التى جبيت نوعاً من ضرائب الأطيان ومخازن المأكولات ، فجميع هذه الأشياء يصير حصرها وتقدير قيمتها بمعرفة مندوبين يرسلهم الباب العالى لهذا الغرض على يد قائد القوات البريطانية بالاتفاق مع وكلاء الجنرال كليبر القائد العام ويتسلمها المندوبون المذكورون بقيمتها لغاية ثلاثة آلاف كيس وهو المبلغ المتفق على أدائه للجيش الفرنسى بمثابة نفقات لازمة لتعجيل الجلاء والرحيل فإذا لم تف تلك الأشياء بهذه القيمة فعلى الباب العالى أداء الفرق بصفة سلفة تردها الحكومة الفرنسية طبقاً لسندات الاستلام التى تحرر بقيمتها من وكلاء الجنرال كليبر .

المادة ١٧

بما أن الجيش الفرنسى يلزمه إنفاق المصاريف اللازمة للجلاء فيتسلم بعد التصديق على المعاهدة المبالغ المتفق عليها لهذا الغرض على النحو الآتى : خمسمائة كيس فى اليوم الخامس عشر بعد التصديق على المعاهدة وخمسمائة أخرى فى اليوم الثلاثين ، وثلثمائة كيس فى اليوم الأربعين ، وثلثمائة أخرى فى اليوم الخمسين ، وثلثمائة أخرى فى اليوم الستين ، وثلثمائة أخرى فى اليوم السبعين ، وثلثمائة أخرى فى اليوم الثمانين ، وخمسمائة فى اليوم التسعين ، بواقع الكيس خمسمائة قرش عثمانى .

وتؤدى هذه المبالغ بصفة سلفة بواسطة مندوبين يوفدهم الباب العالى لهذا الغرض وتسهيلا لتنفيذ هذه العهود يرسل الباب العالى بعد تبادل التصديق على المعاهدة فوراً مندوبين عنه إلى القاهرة والمدن الأخرى التى يحتلها الجيش الفرنسى .

المادة ١٨

الضرائب التى يمكن أن يجبيها الفرنسيون بعد التصديق على المعاهدة وقبل إذاعة هذه المعاهدة فى أنحاء القطر المصرى تخصم قيمتها من الثلاثة آلاف كيس المنصوص عنها آنفاً .

المادة ١٩

تسهيلا وتعجيلا لإخلاء المدن والمواقع تخول لسفن النقل الفرنسية التى توجد بالثغور المصرية حرية الانتقال والملاحة من دمياط ورشيد إلى الإسكندرية ومن الإسكندرية إلى رشيد ودمياط مدة الثلاثة الأشهر المتفق على جعلها مهلة للجلاء .

المادة ٢٠

بما أن سلامة أوروبا من الأوبئة تقتضى اتخاذ الاحتياطات التامة لمنع انتشار عدوى الوباء إليها فلا يباح لأى شخص مصاب بالطاعون أو مشتبه فى إصابته به النزول إلى السفن ، والجنود الموبوءون أو المصابون بأى مرض آخر يحول دون إمكان نقلهم فى الموعد المحدد للجلاء يبقون بالمستشفيات التى يعالجون بها فى أمان الصدر الأعظم وحمايته ويعالجهم أطباء من الجيش الفرنسى يبقون لهذا الغرض بجانبهم إلى أن يتم شفاؤهم ويتسنى لهم السفر بحيث يتم ذلك فى أقرب وقت ممكن ، وتسرى عليهم أحكام المادتين ١١ و ١٢ من هذه المعاهدة كما تطبق بالنسبة لباقى الجند ، ويتعهد القائد العام للجيش الفرنسى بأن يصدر تعليماته المشددة إلى ضباط الفرق التى تنزل بالسفن بألا يسمح لسفن النقل بالرسو فى غير الثغور التى يعينها أطباء الجيش ويتوخون فى اختيارها أن تتوافر فيها الوسائل الضرورية للحجر الصحى .

المادة ٢١

كل ما يحدث من المشاكل مما لا تتناوله أحكام هذه المعاهدة يحسم بالطرق الو ية بمعرفة مندوبين يعينهم لهذه الغاية الصدر الأعظم والقائد العام الجنرال كليبر بالطريقة التى تؤدى إلى تسهيل وتعجيل الجلاء .

المادة ٢٢

لا تسرى أحكام هذه المعاهدة إلا بعد التصديق عليها من الجانبين ، ويتم تبادل التصديق فى خلال ثمانية أيام ، وعندئذ يتحتم على الطرفين مراعاة تنفيذ أحكامها بتمام الدقة .

« تحررت هذه المعاهدة ووقع عليها بأختامنا الخاصة بنا بالمعسكر الذى وقعت به المفاوضات بالقرب من العريش يوم ٤ بلوفيوز من السنة الثامنة للجمهورية الفرنسية الموافق ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ ميلادية و ٢٧ [٧] من شهر شعبان سنة ١٢١٤ هجرية .

« إمضاءات (ديزيه) قائد فرقة ، (بوسليج) المفوضين عن الجنرال كليبر ، و (مصطفى رشيد) الدفتردار و (مصطفى راسخ) رئيس الكتاب المفوضين عن الصدر الأعظم » .

« طبق الأصل المحرر بالفرنسية والمسلم إلى المفوضين الترك فى مقابل النسخة التركية المسلمة منهما : إمضاء ديزيه ، بوسليج » .

تصديق كليبر [٨]

أنا الموقع أدناه القائد العام للجيش الفرنسى فى مصر أوافق وأصدق على أحكام المعاهدة المذكورة أعلاه لتنفذ بفحواها ومعناها ، وللتحقيق من مطابقة الصيغة التركية المدون فيها الاثنان وعشرون شرطًا للترجمة الفرنسية الموقع عليها من مفوضى الصدر الأعظم والمصدق عليها من سموه فسيصير الرجوع إلى صيغة الترجمة الفرنسية فى حالة وجود أى خلاف .

المعسكر العام بالصالحية يوم ٨ بلوفيوز من السنة الثامنة (٢٨ يناير سنة ١٨٠٠) .

إمضاء

«كليبر»

---

(٧) جاء فى الجبرتى أن تاريخ المعاهدة ٢٨ شعبان لا ٢٧ ، وكذلك فى مجموعة المعاهدات لدى مارتانس ، ولكن يلوح لنا أن هذا تحريف فى النقل لأنه مما لا نزاع فيه أن التاريخ الميلادى للمعاهدة هو ٢٤ يناير ١٨٠٠ ، وهذا يطابق ٢٧ شعبان سنة ١٢١٤ لا ٢٨ ، فضلا عن أن النسخة الواردة فى كتاب (التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء السابع) فيها أن التاريخ العربى ٢٧ شعبان لا ٢٨ .

(٨) لم ترد صيغة هذا التصديق فى مجموعة (دى مارتانس) فرجعنا فيها إلى ريبو الجزء السابع .

وثيقة رقم ٥

معاهدة الصلح بين كليبر ومراد بك

(انظر ص ١٦٣)

بسم الله القدير

نظرًا لما أبداه الأمير سامى المقام الحائز لكمال الشرف والاعتبار مراد بك محمد من الرغبة فى أن يعيش فى سلام ووفاق مع الجيش الفرنسى بمصر ، ولما يرغبه القائد العام كليبر من الإعراب عما له فى نفوس الفرنسيين من الاحترام الذى استوجبته شجاعته واقتضاء مسلكه حيالهم ، فقد تم الاتفاق على مايأتى :

المادة ١

يعترف القائد العام للجيش الفرنسى بالنيابة عن الحكومة بمراد بك محمد أميرًا وحاكمًا للوجه القبلى ويخوله بهذا الوصف سلطة الحكم والانتفاع فى البلاد الكائنة بالبر الشرقى والبر الغربى للنيل ابتداء من ناحية بلصفورة بمديرية جرجا إلى أسوان فى مقابل أن يؤدى للجمهورية الفرنسية الخراج الواجب دفعه عن تلك الجهات لصاحب الولاية على مصر.

المادة ٢

يحدد هذا الخراج السنوى بمبلغ ٣٥٠ كيس بواقع الكيس ٢٠,٠٠٠ باره علاوة على ١٥,٠٠٠ أردب قمح و ٢٠,٠٠٠ أردب شعير وغلال أخرى .

المادة ٣

الخراج الذى يدفع نقداً يؤدى على أربعة أقساط متساوية كل ثلاثة أشهر قسط ، وتبدأ لسنة بحساب التقويم الفرنسى ، أما الخراج الذى يؤدى نوعًا فيورد فى شون القاهرة من أول فلوريال إلى ٣٠ فركتيدور ، ويحاسب مراد بك على مصاريف نقل الغلال بواقع الأردب أربعين بارة تخصم من الخراج الذى يدفع نقداً .

المادة ٤

يكون لمراد بك دخل جمرك القصير وجمرك إسنا ، وتحتل ميناء القصير حامية فرنسية لا تقل عن مائتى جندى وعلى مراد بك أن يؤدى نفقات هذه الحامية ويصرف لها ضعف ما يدفع عادة للجند ، وعليه أن يخصص كتيبة من المماليك ترابط فى القصير لمساعدة الحامية الفرنسية ، وما يدفعه لنفقات الحامية يخصم له من الخراج المذكور فى المادة الثانية .

المادة ٥

بما أن أمير الوجه القبلى ليس له إلا الدخل الناتج من الضرائب فليس له أن يتصرف فى ملكية أى بلد إلى حاشيته المتصلين به ، ولكن له إدارة هذه البلاد بالطريقة التى يراها مرضية ، والحكومة الفرنسية تضمن للأهالى ملكية الأراضى التى يملكونها بالطرق المشروعة وتمنع وقوع أى اعتداء عليها .

المادة ٦

على كل طرف أن يرد إلى الطرف الآخر الجنود اللاجئين إليه من جيش الطرف الآخر ، وليس لمزارعى القرى التابعة لأى من الفريقين أن يلجأوا إلى البلاد التابعة للفريق الآخر بقصد التخلص من أداء الضرائب أو لأى سبب آخر من هذا النوع .

المادة ٧

يجعل الأمير حاكم الصعيد مدينة (جرجا) مقراً له . وعليه أن يرسل للقائد العام حرسًا من خمسة وعشرين مملوكًا ، وعليه أن يوفد أحد البكوات من أتباعه مندوبًا مفوضًا عنه يقيم باستمرار فى القاهرة .

المادة ٨

يضمن قائد الجيش الفرنسى لمراد بك الانتفاع بدخل حكومته ويتعهد بحمايته فى حالة مهاجمته .

وإذا استهدفت الجهات التى تحتلها الجنود الفرنسية لهجوم عدائى أيًّا كان نوعه فعلى مراد بك أن ينفذ عددًا من جنوده يبلغ على الأكثر نصف قواته لمعاونة القوات الفرنسية ، وعليه أن يقدم بالثمن المعتاد أدوات النقل المطلوبة ، ومؤونة الجنود التى ينفذها تكون على نفقة الحكومة الفرنسية .

المادة ٩

يعد القائد العام كليبر بألا يوافق على أى اقتراح أو اتفاق يحرم مراد بك من المزايا المبينة أعلاه وعليه أن يبلغ المعاهدة الحالية إلى الحكومة الفرنسية لترعى مصالح مراد بك فى المعاهدات التى قد تبرم بشأن مصر.

المادة ١٠

إن الشروط الواردة فى المعاهدة الحالية والتى تقررت بمعرفة كل من الجنرال داماس قائد فرقة ورئيس أركان الحرب العام والستويان جلوتييه قوميسير الحكومة (لدى الديوان) ومدير الشئون المالية المفوضين عن القائد العام كليبر ، وعثمان بك البرديسى المفوض عن مراد بك يصير التوقيع عليها من القائد العام كليبر ومن الأمير المعظم والملاذ الأفخم مراد بك محمد.

وثيقة رقم ٦
وثيقة زواج الجنرال منو بالسيدة زبيدة المصرية

كما اكتشفها العلامة على بك بهجت فى دفتر محكمة رشيد الشرعية (انظر ص ٢٠٣)

« بمحضر كل من مولانا العلامة السيد أحمد الخضرى المفتى الشافعى ، ومولانا الشيخ محمد صديق النائب والمفتى الحنبلى ، ومولانا السيد محمد غرا النائب والمفتى المالكى ، والسيد أحمد بدوى نقيب الأشراف حالا ، والأمير محمد بدوى جوربجى سردار مستحفظان ، وأحمد آبق جاويش مستحفظان ، والحاج أحمد جاويش العسال ، والحاج محمود اللومى المغربى ، وإبراهيم الجمال الرزاز ، والحاج محمد ميتو وعبد الله بربير ، والحاج بدوى الشناوى ، وازون إسماعيل السلانكلى ، وعلى جاويش كتخدا البيك دام كمالهم .

« بعد أن أقر واعترف منوباشا سارى عسكر بالقطر المصرى حالا بصريح لفظه وفصيح نطقه بكلمتى الشهادتين وهما أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله عارفًا معتقداً معناهما ومصدقاً بمضمونهما تاركًا لدين النصرانية والأديان الرديئة على الترتيب والولاء وإعادة التشهد واستيفاء الشروط المعتبرة فيهما شرعاً طائعاً مختاراً من غير إكراه ولا إجبار وبمقتضى ذلك صار له ما للمسلمين وعليه ما عليهم وظهر منه الرغبة والحب للمسلمين والميل إليهم وسمى نفسه عبد الله باشا وأشهد على نفسه الجماعة المذكورين بجميع ذلك إشهاداً شرعياً ثم بعد ذلك رغب عبد الله باشا المذكور فى تزوجه بامرأة مسلمة فخطبها خطبة شرعية وأجيب إلى ذلك بعد إبرازه لفتيا شريفة لفظ سؤالها ما قولكم دام فضلكم فى رجل أحب الإسلام وأهله ورغب فيهما تاركًا لدين النصرانية ناطقاً بكلمتى الشهادتين مصدقًا على الوجه الأكمل ثم أراد أن يتزوج امرأة مسلمة على كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم فهل يجوز له حينئذ التزوج بها والعقد عليها بشروطه الشرعية أفيدوا الجواب ، وبأدناه الحمد لله حيث كان الحال ما شرح فى السؤال فيجوز للرجل المسلم المذكور خطبة المرأة المسلمة والعقد عليها بشروطه الشرعية والله أعلم كتبه العبد الفقير أحمد الخضرى الشافعى لطف الله به وبأدناه الحمد لله حيث أقر الرجل المذكور بالشهادتين بشروطها الشرعية فيجوز له أن يعقد على المرأة المسلمة عقداً شرعيًا مستوفيًا لشرائطه الشرعية والله سبحانه وتعالى هو الموفق كتبه الفقير محمد صديق الحنبلى عفى عنه وبأدناه الحمد لله حيث رغب الرجل المذكور فى الإسلام ونطق بكلمتى التوحيد جاز له أن يتزوج المرأة المسلمة وأن يعقد عليها العقد الشرعى بشروطه الشرعية والله أعلم كتبه الفقير محمد غرا المالكى غفر له وعفى عنه ، فبمحضر كل من ذكر أعلاه تزوج عبد الله باشا المذكور بمخطوبته زبيدة المرأة بنت محمد البواب التى كانت زوجاً لسليم أغا نعمة الله وطلقها وانقضت عدتها منه شرعاً على كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم وصداق جملته ألفا ريال اثنتان معاملة ومائة دينار ذهبًا محبوبًا فالحال لها من ذلك المائة دينار المذكورة أقبضها لوكيلها الحاج حسين بن السيد محمد الموقت فقبض منه ذلك عدداً بالمجلس بمعاينة من ذكر أعلاه وعليه الخروج من عهدة ذلك لها شرعًا والباقى ألف ريال الاثنان يحلان لها عليه بموت أو فراق زوجها له بذلك ، وعقد نكاحها عليه وكيلها الحاج حسين الموقت المرقوم بإذنها له فى ذلك بشهادة كل من أخيها لأمها السيد على الحمامى بن حسن البواب والسيد أحمد وشقيقه السيد إبراهيم المكلف كل منهما ابنى السيد سليمان النقرزان تزويجًا شرعيًا قبله للزوج المرقوم وكيله الحاج أحمد شهاب حسبما وكله صريحًا

بالمجلس بشهادة شهوده المذكورين ، وعلى عبد الله باشا الزوج المذكور القيام لزوجته المذكورة فى كل سنة تمضى من تاريخه أدناه بقضاء كسوة أقمشة شتاء وصيفاً لائقين بحالها القيام الشرعى ، وثبت ذلك لدى مولانا أفندى بعد أن ثبت لديه معرفة زبيدة المذكورة المعرفة الشرعية التى لا جهالة معها شرعًا بشهادة كل من شهود توكيلها المذكورين ثبوتًا شرعيًا وحكم بموجبه حكمًا شرعيًا فى الخامس والعشرين من رمضان سنة ثلاثة عشرة ومائتين وألف » (نسختان متطابقتان) .

صورة عقد الاتفاق بين منو وزوجته

ولديه بمحضر كل من مولانا الشيخ أحمد الخضرى المفتى الشافعى ومولانا الشيخ محمد صديق النائب المفتى الحنبلى ومولانا السيد محمد غرا النائب والمفتى المالكى والسيد أحمد بدوى نقيب الأشراف والأمير محمد بدوى جربجى سردار مستحفظان وأحمد آيق جاويش مستحفظان والحاج أحمد جاويش العسال والحاج محمود اللومى المغربى وإبراهيم الجمال الرزاز والحاج محمد ميتو وعبد الله بربير والحاج بدوى الشناوى وأوزن إسماعيل السلانكلى وعلى جاويش كتخدا البيك ولوى جوسف ويكتور جليان صارى عسكر حاكم ولاية الثغر ولوى أوجست دورى رئيس طائفة عسكرية وكتخدا صارى عسكر الآتى ذكره فيه وجان فرنسوا لوى لويكه مهندس وميقاتى الجيش الفرنساوى ولويزى واتولى باش حكيم القرنتينة دام كما لهم صدر التوافق والتراضى بين الحاج حسين بن السيد محمد الميقاتى الوكيل الشرعى عن زبيدة المرأة بنت السيد محمد البواب الثابت معرفتها وتوكيله عنها فيما يذكر فيه بشهادة كل من أخيها لأمها السيد على الحمامى بن حسن البواب والسيد أحمد وشقيقه السيد إبراهيم ابنى السيد سليمان النقرزان الثبوت الشرعى وبين الحاج أحمد شهاب الحاضر معه بالمجلس القائم فى ذلك بوكالته الشرعية عن عبد الله باشا منو صارى عسكر القطر المصرى حالا الثابتة صريحاً بالمجلس وبتصديقه على ذلك التصديق الشرعى وهو زوج زبيدة الموكلة بموجب كتاب الزوجية المسطر بمحكمة الثغر المؤرخ بخامس عشرين شهر تاريخه أدناه على شروط تكون وتوجد بين عبد الله باشا منو وبين زوجته زبيدة بإقرار الوكيلين المذكورين .

الأول : منها أن زبيدة الزوجة أقامت وأذنت زوجها المذكور وكيلا عنها فى سائر ما

تملكه يدها الآن وفيما يوجد لها من المال يتصرف لها فى ذلك بحسن نظره السعيد .

الثانى : أن عبد الله باشا منو الزوج المذكور أقر بأن كامل ما هو تحت يدها من متاع ومصاغ وحلى فهو ملك لها بمفردها .

الثالث : عبد الله باشا منو الزوج المرقوم أعطى لوكيله الحاج أحمد شهاب المذكور مائة محبوب كل واحد منها بمائة وثمانين نصفاً فضة فى نظير صداق زوجته المذكورة وأن الحاج أحمد شهاب سلم جميع ذلك ليد وكيلها الحاج حسين المذكور فسلمها ذلك عدداً بالمجلس وذلك على حسب عادة عقودات المسلمين .

الرابع : أن الزوج المذكور شرط على نفسه أنه إن حصل بينه وبين زوجته فراق يدفع لها ألفا ريال اثنان معاملة فى نظير فراقه لها وكل ما كان تحت يدها وقت ذاك يكون جميعه ملك لها حسب عادة دفع مؤخر صداق المسلمين .

الخامس : أن زبيدة الزوجة المذكورة إن كانت تطلب طلاقها من زوجها المذكور بحسب شرع المسلمين لم يكن لها من الألفين ريال المذكورة ولا نصف فضة ما عدا ما تحت يدها من مصاغ وغيره فهو لها .

السادس : زبيدة لم تزل وارثة فى كل ماكانت ترثه شرعاً .

السابع : أن زبيدة أقرت بنفسها أنه إن مات زوجها المذكور وهى فى عصمته تأخذ من ماله الألفين ريال المذكورة وليس لها مقارشة ولا طلب فى تركته وذلك فى نظير إرثها الشرعى حسب رضاها بذلك .

الثامن : إنه إن مات الزوج المذكور وخلف أولاداً من زوجته المذكورة وهم قصر يقام عليهم رجلان ناظران ووصيان واحد فرنساوى والثانى ابن عرب يتصرفان فى أموالهم بحسب المصلحة فى طريقة الفرنساوية وطريقة المسلمين .

التاسع : أن الزوجة المذكورة إن ماتت وخلفت أولاداً من زوجها المذكور فى حياته يكون أبيهم هو الوكيل الشرعى على أولاده وعلى مالهم .

العاشر : الناظر الوصى الفرنساوى المذكور فى الشرط الثامن يقام من طرف حكام الفرنساوية الموجودين فى بر مصر وقت ذاك والناظر الوصى الثانى يقام بحسب عادة المسلمين وإن حصل تداعى بسبب اختلاف تقام على يد الحاكم الشرعى إن كان ببر مصر أو ببر الفرنساوية .

الحادى عشر : عبد الله باشا منو وزوجته إن ماتا جميعاً وخلفا أولاداً تكون أولادهما تحت حماية جمهور الفرنسوية والزوجين المذكورين يقصدا فضل الحكام الخمسة التى ببلاد فرنسا يكونوا نظاراً على أولادهما وأن الزوج والزوجة أقرا واعترفا برضاهما على هذه الشروط المذكورة على يد وكيلها الإقرار والاعتراف الشرعيين الصادرين منهما بالمجلس بحضرة من ذكر أعلاه وأنهما التزما بهذه الشروط ليفعلانها وقت الاحتياج إليها من غير إكراه ولا إجبار التزامًا مرضيًا وثبت ذلك لدى مولانا أفندى ثبوتًا شرعيًا وحكم بموجبه فى سابع عشرين رمضان سنة ثلاث عشر ومائتين وألف.

نسختان متطابقتان [٩]

وثيقة رقم ٧

معاهدة الجلاء عن مصر (انظر ص ٢٤٦)

(أبرمها الجنرال بليار قائد الجيش الفرنسى فى القاهرة)

٢٧ يونية سنة ١٨٠١

« معاهدة لجلاء الجيش الفرنسى بقيادة الجنرال بليار عن مصر أبرمت بين كل من البريجادييه جنرال هوب Hope بالنيابة عن القائد العام للجيش الإنجليزى فى مصر ، وعثمان بك بالنيابة عن الصدر الأعظم ، وإسحق بك بالنيابة عن قبطان باشا ، والجنرال دنزلو Donzelot والجنرال موران Morand والكولونل تارير Tarayre بالنيابة عن الجنرال بليار قائد فيلق الجنود الفرنسية ومن يتبعه ، اجتمع المندوبون المذكورون أعلاه فى مكان المفاوضات وبعد تبادل الصفات والسلطات المخولة لهم اتفقوا على الشروط الآتية :

المادة ١

إن الجنود الفرنسية من كافة الأسلحة والملحقين بهم بقيادة الجنرال بليار يجلون عن القاهرة والقلعة وحصون بولاق والجيزة وعن كل الجهات التى يحتلونها الآن فى القطر المصرى.

---

(٩) وقد راجعنا الوثيقتين على الأصل فى دفترخانة محكمة رشيد الشرعية ونقلناهما عنه حرفياً بما فيهما من الأغلاط اللغوية والنحوية.

المادة ٢

ينتقل الجنود الفرنسيون والملحقون بهم بأسلحتهم وأمتعتهم ومدافعهم وذخائرهم إلى رشيد بطريق البر الغربى للنيل ومن هناك يبحرون إلى الثغور الفرنسية بالبحر الأبيض المتوسط ومعهم أسلحتهم ومدافعهم ومنقولاتهم على نفقة الدول المتحالفة ، ويتم إقلاعهم فى أقرب ما يمكن من الوقت بحيث لا يتأخر عن الخمسين يوماً التالية لتاريخ التصديق على هذه المعاهدة ومن المتفق عليه أن ينقل الجنود المذكورون إلى الثغور الفرنسية بأقرب وأسرع طريق .

المادة ٣

تقف الأعمال العدائية من الجانبين بمجرد التوقيع والتصديق على هذه المعاهدة وتسلم قلعة سلكوسكى[١٠] وباب مدينة الجيزة المسمى باب الأهرام إلى جيش الحلفاء ويحدد خط المخافر الأمامية لجيوش الطرفين بمعرفة مندوبين يعينون لهذا الغرض وتعطى الأوامر المشددة للجنود بأن لا يجتازوا هذا الخط وذلك منعًا لكل اصطدام بين جنود الطرفين ، وإذا وقع أى اصطدام فيحسم بالطرق الودية .

المادة ٤

يخلى الجنود الفرنسيون والملحقون بهم مدن القاهرة والقلعة وبولاق وقلاعها فى اليوم الثانى عشر بعد التصديق على هذه المعاهدة ، وينسحبون إلى قصر العينى والروضة والجيزة ، ومن هناك يرحلون إلى الثغور المعدة لإقلاعهم ويكون هذا الرحيل فى أقرب وقت ممكن بحيث لا يزيد عن خمسة أيام ، ويتكفل قواد الجيوش البريطانية والتركية بنفقات نقل الجنود الفرنسيين بطريق النيل من الجيزة .

المادة ٥

تنظم طريقة رحيل الجنود الفرنسيين باشتراك قواد جيوش الطرفين أو ضباط أركان الحرب الذين ينتدبون لهذا الغرض من الجانبين ، ولكن من المتفق عليه أنه طبقًا لهذه المادة يكون لقواد

---

(١٠) جامع الظاهر بيبرس .

جيوش الحلفاء تحديد عدد الأيام التى يقتضيها احتشاد الجيش الفرنسى ورحيله وبناء على ذلك يصحب الجيش الفرنسى فى رحيله مندوبون من الإنجليز والترك يكلفون تقديم المؤن اللازمة له أثناء الرحيل .

المادة ٦

تعهد حراسة الأمتعة والأثقال والذخائر وسائر المهمات التى ينقلها الجنود الفرنسيون بطريق النيل إلى شراذم من الجيش الفرنسى وإلى السفن المسلحة التابعة لدول الحلفاء .

المادة ٧

تقدم المؤن الكافية للجنود الفرنسيين والملحقين بهم من يوم رحيلهم من الجيزة إلى حين وصولهم إلى فرنسا وتتبع فى هذا الصدد لوائح الجيش الفرنسى فى المسافة بين الجيزة والثغر الذى يقلعون منه ، واللوائح البحرية البريطانية فى طريقهم بحراً لغاية وصولهم إلى فرنسا .

المادة ٨

يقدم قواد القوات البرية والبحرية الإنجليزية والتركية مراكب النقل اللازمة لنقل الجنود الفرنسية إلى ثغور فرنسا الواقعة على البحر الأبيض المتوسط وكذلك لجميع الفرنسيين والأشخاص الآخرين الملحقين بالجيش الفرنسى ، ويعهد فى هذه المهمة وفى تدبير المؤن الكافية إلى مندوبين يعينهم لهذا الغرض الجنرال بليار وقواد الحلفاء البريين والبحريين بعد التصديق على هذه المعاهدة مباشرة ، ويتوجه هؤلاء المندوبون إلى رشيد وأبو قير لتدبير الوسائل اللازمة للنقل .

المادة ٩

يقدم الحلفاء أربع سفن (أو أكثر من هذا العدد عند الإمكان) خاصة لنقل الجياد والمياه والعلف الكافى لمدة السفر .

المادة ١٠

يعود الجنود الفرنسيون والملحقون بهم إلى فرنسا فى حراسة سفن الحلفاء ، وتضمن الدول المتحالفة للذين يركبون السفن منهم ألا يصابوا بأذى ما إلى أن يبلغوا الشواطئ الفرنسية ويتعهد الجنرال بليار هو والجنود الذين تحت قيادته بألا يصدر عنهم أثناء رحلتهم أى عمل عدائى ضد السفن أو البلاد التابعة لصاحب الجلالة البريطانية أو الباب العالى وحلفائها .

ولا يجوز للسفن المقلة للجنود أو للرعايا الفرنسيين أن ترسو فى أى ثغر آخر غير الثغور الفرنسية مالم تقض بذلك الضرورة القصوى .

ويتعهد قواد القوات البريطانية والتركية والفرنسية بالعهود المبينة أعلاه مدة إقامة الجيش الفرنسى فى مصر من يوم التصديق على المعاهدة إلى حين نزوله إلى السفن ويتكفل الجنرال بليار قائد القوات الفرنسية بالنيابة عن حكومته بأن السفن التى تقل الجنود الفرنسية أو تتولى حراستها فى البحر لا تحجز ولا تضبط فى موانئ فرنسا بعد نزول الجنود منها وأن يكون لقباطينها الحق أن يشتروا على حسابهم حاجتهم من الزاد والمؤونة مما يكفيهم للعودة ، ويتكفل الجنرال بليار أيضاً بالنيابة عن حكومته أن لا تضار هذه السفن فى عودتها إلى ثغور الحلفاء ما دامت لا تحاول القيام بحركات حربية عدائية أو المشاركة فيها بأى وسيلة ما .

المادة ١١

جميع الرجال الإداريين وأعضاء لجنة العلوم والفنون وبالجملة كل الأشخاص الملحقين بالجيش الفرنسى يتمتعون بالمزايا المخولة فى هذه المعاهدة لأفراد الجيش .

ولرجال الإدارة وأعضاء لجنة العلوم والفنون أن يأخذوا معهم الأوراق المتعلقة بوظائفهم وأعمالهم وأوراقهم الخاصة والأشياء الأخرى التى تتعلق بهم .

المادة ١٢

يحق لأى من سكان مصر على اختلاف أجناسهم إذا رغب اللحاق بالجيش الفرنسى فى رحيله أن يرحل معه ولا يجوز بعد رحيله أن تؤذى عائلته أو تصادر أملاكه .

المادة ١٣

لا يضار أحد من سكان مصر من أى دين كان ولا يؤذى فى شخصه ولا فى ماله بسبب علاقته أثناء الاحتلال الفرنسى بالسلطات الفرنسية مادام يخضع من الآن لقوانين البلاد[١١] .

المادة ١٤

المرضى الذين لا يستطيعون السفر يبقون فى مستشفى حيث يتولى علاجهم أطباء من الفرنسيين أو أشخاص من مواطنيهم إلى أن يتم شفاؤهم وعندئذ يرسلون إلى فرنسا طبقاً للأحكام التى تسرى على الجنود ، وعلى قواد الحلفاء أن يقدموا لهم حاجاتهم فى ذلك المستشفى وعلى الحكومة الفرنسية أن ترد قيمة هذه الحاجات .

المادة ١٥

عند تسليم المواقع والقلاع المقتضى تسليمها طبقاً لهذه المعاهدة يعين مندوبون لتسلم المدافع والذخائر والمخازن والأوراق والمحفوظات والرسوم وغير ذلك من الأشياء والمنقولات التى يجب على الفرنسيين تركها للحلفاء .

المادة ١٦

يرسل قائد القوات البحرية للحلفاء سفينة تبحر فى أقرب وقت إلى طولون وعليها ضابط ومندوب من الجيش يعهد إليهما إبلاغ الحكومة الفرنسية نص هذه المعاهدة .

المادة ١٧

جميع ما ينشأ من الخلاف فى شأن تنفيذ هذه المعاهدة يحسم بالطرق الودية على يد مندوبين يعينون لهذا الغرض من الجانبين .

---

(١١) فى النص المنشور فى مجموعة دى مارتانس أن هذه المادة تنصرف إلى الأشخاص الذين يرحلون مع الجيش الفرنسى ، لكن هذه الإضافة لم ترد فى النص الوارد فى ريبو ، وقد اعتمدنا على الصيغة التى فى ريبو لأن الإضافة لا تستقيم مع المعنى المستفاد من ختام المادة .

المادة ١٨

بعد التصديق على هذه المعاهدة يصير الإفراج فوراً عن الأسرى الإنجليز والعثمانيين المحبوسين فى القاهرة وعلى قواد الحلفاء أن يفرجوا من ناحيتهم عن الأسرى الفرنسيين الذين فى معسكراتهم .

المادة ١٩

يتبادل الحلفاء الفرنسيون الرهائن لضمان تنفيذ هذه المعاهدة من الجانبين وتكون الرهائن من ضباط من الطرفين متساويين فى الرتبة ويطلق سراح الرهائن بمجرد وصول الجنود الفرنسية إلى موانى فرنسا .

المادة ٢٠

يبلغ أحد الضباط الفرنسيين هذه المعاهدة إلى الجنرال منو بالإسكندرية ، ولهذا الأخير أن يقبلها بالنسبة للجنود الفرنسيين ومن يلحق بهم ممن تحت إمرته براً وبحراً فى تلك المدينة وعليه فى حالة القبول أن يبلغ ذلك إلى قائد القوات البريطانية المرابطة أمام الإسكندرية فى مدة اليومين التالين لتبليغه نص المعاهدة .

المادة ٢١

يصير تبادل التصديق على هذه المعاهدة من قواد الطرفين فى مدة أربع وعشرين ساعة بعد التوقيع عليها .

حرر من هذه المعاهدة أربع نسخ بالمكان الذى حصلت فيه المفاوضات بين مندوبى الطرفين ظهر يوم ٢٧ يونية سنة ١٨٠١ الموافق ١٦ صفر سنة ١٢١٦ هجرية أى ٨ مسيدور من السنة التاسعة للجمهورية الفرنسية .

إمضاءات : هوب Hope بريجاديه جنرال . عثمان بك وكيل الصدر الأعظم . إسحق بك وكيل حسين قبطان باشا . دنزلوا Donzelot قائد لواء . موران قائد لواء تارير Tarayre كولونل .

نوافق ونصدق على هذه المعاهدة ، ٩ مسيدور (٢٨ يونية سنة ١٨٠١) بليار قائد فرقة .
نوافق : هل هتشنسون القائد العام (للجيش الإنجليزى) – نوافق بالنيابة عن اللورد كيث : ستفنسن قبطان بالبحرية الملكية .

صدقنا على مواد هذه المعاهدة الحاج يوسف ضيا . حسين باشا قبطان .

ملحق إضافى وتفسيرى للمعاهدة

١ – أن مدافع الميدان التى يسوغ للجيش الفرنسى تحت إمرة الجنرال بليار أن ينقلها معه فى انسحابه من القاهرة ويأخذها لفرنسا هى : مدفعان من مدافع الميدان عن كل طابور ومدفع عن كل سرية وما يتبعها من العربات والذخيرة .

٢ – من المتفق عليه أيضاً أن الجنود الفرنسيين الذين يركبون سفناً حربية من سفن الحلفاء يودعون أسلحتهم وذخيرتهم فى الأمكنة المخصصة لها على ظهر تلك السفن تحت رقابة قباطينها ثم تسلم للجنود الفرنسيين عند نزولهم من السفن فى الموانئ الفرنسية ، أما الجنود الذين يركبون سفناً غير حربية وغير مسلحة فيستبقون أسلحتهم وذخيرتهم مدة رحلتهم ويكونون تحت رقابة ضباطهم .

٣ – تنتقل زوجة الجنرال منو وابنه وياوره من القاهرة إلى الإسكندرية بطريق النيل على سفينة يعدها الحلفاء لهذه الغاية وترسل معهم منقولات الجنرال منو .

٤ – بما أنه يوجد بالقاهرة الآن بعض زوجات الضباط والجنود وباقى الفرنسيين المرابطين فى الإسكندرية فلهن كامل الحرية فى الانتقال إلى تلك المدينة ، وتعد لهن وسائل الانتقال اللازمة لهذا الغرض وفى حالة عدم قبولهن فى الإسكندرية ينتقلن إلى فرنسا عند إقلاع الجيش الفرنسى الذى تحت قيادة الجنرال بليار أو فى أى وقت ممكن ، ويخولن جميع المزايا المنصوص عنها فى هذه المعاهدة .

٥ – الفرنسيات من نساء ضباط الجيش الفرنسى وجنوده أو نساء الموظفين الفرنسيين الملحقين بهذا الجيش ينتقلن مع أزواجهن إلى فرنسا ويعطين المؤونة الكافية ويخولن المزايا المبينة فى هذه المعاهدة وتتبع فى ذلك اللوائح البحرية البريطانية .

٦ – إذا وجد بالقاهرة منقولات وأمتعة تابعة لأفراد الحامية الفرنسية المرابطة فى

الإسكندرية تنقل وتودع فى رشيد أو ترسل إلى فرنسا إذا أمكن ذلك.

٧ – يجوز لمدير الإيرادات العامة للجيش الفرنسى أن ينتقل إلى الإسكندرية أو يرسل إليها مندوبًا عنه ويعطى كل التسهيلات الممكنة لهذا الغرض.

٨ – إذا كان من بين الرهائن التى تعطى من الجانبين ضباط من الجيش البرى فلقواد الجيوش الثلاثة أن يستبدلوا بهم عند نزول الجيش الفرنسى إلى السفن ضباطًا بحريين من مرتبتهم.

٩ – الخيول والجمال التى يتركها جيش الجنرال بليار فى مصر تسلم عند الجلاء إلى مندوبين يعينهم جيوش الحلفاء.

١٠ – من المتفق عليه أن الحصون التى يصير تسليمها تسلم بحالتها دون أن يمسها أى هدم أو تخريب ويلفت نظر الضباط والمهندسين إلى الألغام التى بها.

حرر فى معسكر المفاوضات يوم ٨ مسيدور من السنة التاسعة (٢٧ يونية سنة ١٨٠١ – ١٦ صفر سنة ١٢١٦).

(الإمضاءات السابقة)

وثيقة رقم ٨

معاهدة الجلاء عن الإسكندرية (انظر ص ٢٥٣)

« شروط التسليم المعروضة يوم ٣٠ أغسطس سنة ١٨٠١ [١٢] من عبد الله جاك فرنسوا منو القائد العام للجيش الفرنسى بالإسكندرية على قواد القوات البرية والبحرية التابعة لصاحب الجلالة البريطانية وللباب العالى.

الشرط ١

ابتداء من اليوم لغاية ٣٠ فركتيدور (١٧ سبتمبر سنة ١٨٠١) تمتد الهدنة بين الجيش الفرنسى والجيوش الإنجليزية والتركية بالشروط المتبعة الآن وتحدد خطوط المخافر الأمامية بين

---

(١٢) عرضت الشروط يوم ٣٠ أغسطس وتم الاتفاق يوم ٣١ أغسطس كما بينا ذلك ص ٢٥٣.

الجيشين تحديداً جديداً بمقتضى اتفاق ودى يبرم بين قواد الجانبين منعاً لوقوع أى تصادم بين الجنود .

الجواب : مرفوض .

الشرط ٢

إذا لم يصل المدد الكافى للجيش الفرنسى قبل الميعاد المحدد فى المادة السابقة ينسحب من الإسكندرية وقلاعها واستحكاماتها بالشروط الآتية :

الجواب : مرفوض .

الشرط ٣

ترتد الجنود الفرنسية يوم ١٨ سبتمبر إلى داخل الإسكندرية والقلاع المجاورة لها ، وتسلم إلى الحلفاء المعاقل والاستحكامات الواقعة أمام سور المدينة وكذلك قلعتى لتورك ودفيفييه[١٣] وما فيها من المدافع والذخائر .

الجواب : تسلم جميع الاستحكامات وقلعتا لتورك ودفيفييه إلى قوات الحلفاء بعد التوقيع على معاهدة التسليم بثمان وأربعين ساعة أى ظهر يوم ٢ سبتمبر وكذلك يسلم ما بها من المدافع والذخائر وينسحب الجنود الفرنسيون من الإسكندرية وباقى قلاعها وملحقاتها بعد التوقيع على المعاهدة بعشرة أيام بحيث ينزل الجنود الفرنسيون فى هذا الموعد إلى السفن المعدة لرحيلهم .

الشرط ٤

كل فرد من أفراد الجيش الفرنسى أو الملحقين به من العسكريين والملكيين وكذلك أفراد الجنود على اختلاف أجناسهم وبلدانهم وأديانهم ممن كانوا بمصر قبل مجىء الحملة الفرنسية يستبقون ممتلكاتهم وأمتعتهم وأوراقهم بحيث لا يسوغ فحصها وتفتيشها .

الجواب : مقبول ، بشرط ألا يأخذوا شيئًا من أملاك حكومة الجمهورية الفرنسية عدا المنقولات والأمتعة والأشياء الأخرى ملك الفرنسيين والتابعين لهم ممن اشتغلوا فى خدمة الجيش

---

(١٣) هما قلعتا القمرية والركنة انظر ص ٨٤.

الفرنسى مدة ستة أشهر وكذلك الأشخاص الملحقين بخدمة الجيش الفرنسى فى الوظائف الملكية أو العسكرية على اختلاف أجناسهم وبلدانهم وأديانهم .

الشرط ٥

تنزل القوات الفرنسية ومن يتبعها من الأشخاص المشار إليهم فى البند السابق إلى السفن فى ثغر الإسكندرية بين ٥ و ١٠ من شهر فاندميير من السنة العاشرة للجمهورية (من ٢٧ سبتمبر إلى ٢ أكتوبر سنة ١٨٠١) على الأكثر بأسلحتهم وذخائرهم وأمتعتهم ومنقولاتهم وجميع ما يمتلكونه من الأوراق الرسمية والودائع ، ويلحق بكل طابور وسرية مدفع من مدافع الميدان وذخيرته ، وتقلع السفن بكل ذلك إلى ميناء فرنسية بالبحر الأبيض المتوسط يعينها قائد الجيش الفرنسى .

الجواب : ينزل الجنود الفرنسيون ومن يتبعهم من الجنود والأشخاص المشار إليهم فى البند الرابع إلى السفن من ثغر الإسكندرية إلا إذا تم الاتفاق الودى على إقلاع جزء منهم من أبو قير ، ويكون نزولهم إلى السفن عقب إعداد السفن لهم ، وتتعهد دول الحلفاء بنقل الجنود فى عشرة أيام بعد التوقيع على معاهدة التسليم إذا أمكن ذلك ، ويؤدى إلى الجيش الفرنسى الاحترام العسكرى ، ويأخذ معه أسلحته وأمتعته ولا يعتبر أفراده أسرى حرب ، ويأخذ معه كذلك عشرة مدافع من عيار ٤ بوصات ومن الذخيرة ثمانى طلقات أو عشر لكل مدفع إلى أحد الثغور الفرنسية بالبحر الأبيض المتوسط .

الشرط ٦

تقلع السفن الحربية الفرنسية كاملة الأسلحة مع الجيش الفرنسى وكذلك السفن التجارية مهما اختلفت جنسية أصحابها ولو كانوا من رعايا الدول المعادية للحلفاء أو كانوا من التجار أو البحارة التابعين لدول الحلفاء قبل مجىء الحملة الفرنسية بحيث تعاد السفن الحربية إلى الحكومة الفرنسية وتعاد السفن التجارية لأصحابها .

الجواب : مرفوض وتسلم جميع السفن إلى الحلفاء بالحالة التى هى عليها .

الشرط ٧

كل سفينة فرنسية تصل الإسكندرية ابتداء من اليوم لغاية ٣٠ فركتيدور (١٧ سبتمبر) قادمة من ثغور فرنسا أو حلفائها تسرى عليها أحكام هذه المعاهدة ، والسفن الحربية أو التجارية التابعة لفرنسا أو حلفائها التى تصل فى مدة العشرين يومًا التالية للجلاء عن المدينة لا تعتبر غنيمة حربية بل يطلق سراحها هى وركبها وحمولتها وتعطى جواز مرور من الحلفاء.

الجواب : مرفوض .

الشرط ٨

الجنود الفرنسيون والموظفون العسكريون والملكيون التابعون للجيش وجميع الأشخاص المنوه عنهم فى البنود السابقة يبحرون على ظهر السفن الفرنسية الراسية فى ثغر الإسكندرية إذا كانت صالحة للسفر أو على ظهر السفن الإنجليزية أو التركية فى المواعيد المحددة بالبند الخامس .

الجواب : يختار الأميرال الإنجليزى ما يشاء من هذه السفن .

الشرط ٩

يعين مندوبون من الجانبين لوضع نظام النقل من جهة عدد السفن اللازمة ، ومقدار حمولتها من الرجال وبالجملة تسوية كل ما يمكن أن ينشأ من الصعوبات فى تنفيذ هذه المعاهدة ويعهد إلى هؤلاء المندوبين تحديد مواقع السفن الموجودة فى الميناء والسفن التى يقدمها الحلفاء بحيث تكون الوسائل التى تتبع كافية لمنع وقوع أى نزاع بين البحارة المختلفة أجناسهم .

الجواب : كل هذه التفاصيل تعهد تسويتها إلى الأميرال الإنجليزى وإلى ضابط بحرى فرنسى . يختاره القائد العام للجيش الفرنسى .

الشرط ١٠

التجار وأصحاب السفن على اختلاف أجناسهم وأديانهم وكل من يرغب من سكان مصر أو من رعايا البلاد الأخرى المقيمين الآن فى الإسكندرية كالسوريين والأقباط والأورام

والعرب واليهود إلخ فى مصاحبة الجيش الفرنسى فى رحيله يركبون السفن مع الجنود الفرنسية وتسرى عليهم المزايا المقررة للجيش الفرنسى ولهم الحق فى أن يأخذوا معهم ما شاءوا من أموالهم من أى نوع كانت وأن يوكلوا من شاءوا فى التصرف فيما لا يستطيعون نقله وتحترم تصرفاتهم ومعاملاتهم والعقود الصادرة منهم بشأن ممتلكاتهم ويضمن قواد الحلفاء نفاذها ، والذين يفضلون منهم البقاء فى مصر فترة من الزمن لتسوية معاملاتهم يسمح لهم بذلك ويكونون مشمولين بحماية الحلفاء ، أما الذين يؤثرون الإقامة فى مصر إلى ما شاء الله فيتمتعون بكافة الحقوق والمزايا التى كانت لهم قبل الحملة الفرنسية .

الجواب : جميع المتاجر التى توجد فى الإسكندرية أو على ظهر السفن الراسية فى الميناء تسلم مؤقتاً إلى الحلفاء إلى أن يبت فى شأنها طبقاً للقواعد المرعية ولأحكام القوانين المتبعة بين الدول ولمن يشاء من الأفراد أن يصحبوا الجيش الفرنسى أو يبقوا فى مصر فى أمن وطمأنينة .

الشرط ١١

لا يضارّ أحد من سكان مصر أو من رعايا أمة أخرى مهما كان مذهبه بسبب مسلكه مدة الاحتلال الفرنسى وخاصة لمحاربته فى صفوفهم أو استخدامهم إياه .

الجواب : مقبول .

الشرط ١٢

مؤونة الجنود والملحقين بهم فى البحر لغاية الوصول إلى فرنسا تكون على نفقة الحلفاء وطبقاً للوائح البحرية الفرنسية وعلى الحلفاء أن يقدموا كل ما يلزم لتسهيل النزول إلى السفن .

الجواب : مؤونة الجنود ومن يركب السفن معهم تكون على حساب الحلفاء لغاية بلوغهم فرنسا وتتبع فى ذلك القواعد المرعية فى البحرية البريطانية .

الشرط ١٣

القناصل والممثلون للدول المتحالفة مع فرنسا وكذلك الموظفون القنصليون التابعون لتلك الدول يستمر تمتعهم بالمزايا والحقوق المخولة لموظفى السلك السياسى طبقًا للقواعد المتبعة بين الدول المتمدنة وتكون أملاكهم ومنقولاتهم وأوراقهم موضع الرعاية والاحترام فى كفالة دول

الحلفاء ولهم الحرية فى أن يرحلوا أو يبقوا فى البلاد كما يشاءون .

الجواب : للقناصل ولباقى الموظفين القنصليين التابعين لحلفاء الجمهورية أن يرحلوا أو يبقوا فى البلاد حسبما يرغبون وتحفظ لهم أملاكهم ومنقولاتهم على اختلاف أنواعها ، وكذلك أوراقهم ماداموا يسيرون سيرة صادقة ويتبعون القواعد المقررة فى القانون الدولى .

الشرط ١٤

المرضى الذين تقرر اللجان الصحية للجيش أن فى استطاعتهم السفر يركبون السفن مع باقى الجنود ، وتخصص لهم سفن مستشفيات تتوافر فيها الأدوية الكافية والأغذية وكل ما يلزم للمرضى ويتبعهم صيدليون فرنسيون ، أما المرضى الذين لا تسمح حالتهم بالسفر فيبقون فى رعاية دول الحلفاء ، وعنايتهم ويبقى معهم بعض الأطباء الفرنسيين ، وتخصص لهم وسائل العناية الكافية وتكون نفقاتهم على حساب دول الحلفاء ، وعلى هذه الدول أن تبعث بهم إلى فرنسا عندما تسمح لهم صحتهم بالسفر ، ولهم أن يأخذوا معهم كل ما يملكون من المنقولات طبقاً للقاعدة المتبعة بالنسبة لباقى الجنود .

الجواب : مقبول وتعد بعض السفن لتكون مستشفيات ينتقل إليها الجنود الذين يطرأ عليهم المرض فى مدة السفر وعلى اللجان الصحية لجيوش الطرفين أن تتفق على الوسائل الواجب اتخاذها بالنسبة للمرضى المصابين بأمراض معدية بحيث يمنع اتصالهم بباقى الجنود .

الشرط ١٥

تخصص بعض سفن النقل لحمل الخيول بحيث تسع كل سفينة ستين جواداً والعلف الكافى لهذه الجياد مدة السفر .

الجواب : مقبول .

الشرط ١٦

يحق لأعضاء المجمع العلمى المصرى ولجنة العلوم والفنون أن يأخذوا معهم جميع الأوراق والرسوم والمذكرات ومجاميع التاريخ الطبيعى وجميع آثار الفنون والعاديات القديمة التى جمعوها فى مصر .

الجواب : أعضاء المجمع لهم أن يأخذوا معهم جميع الآلات الفنية والعلمية التى جاءوا بها من فرنسا ، ولكن المخطوطات العربية والتماثيل وباقى المجاميع التى جمعت للجمهورية الفرنسية تعتبر من الأملاك العامة ومن ثم تسلم لقواد الحلفاء .

(وقد اعترض الجنرال منو على هذا التعديل ولكن الجنرال هوب صرح أنه لا يمكن العدول عنه واتفق القائدان على عرض الأمر على القائد العام للجيش الإنجليزى) .

الشرط ١٧

مراكب النقل التى ستخصص لنقل الجيش الفرنسى ومن يتبعه تسير بحراسة السفن الحربية التابعة للحلفاء وتتعهد هذه الدول أن لا تضار هذه المراكب مدة سفرها ، أما المراكب التى قد تنفصل عن عمارة النقل بفعل العواصف أو لأى حادثة ما فعلى قواد الحلفاء أن يضمنوا سلامتها ، وعلى المراكب التى تنقل الجيش الفرنسى ألا ترسوا بأى شاطئ غير شواطئ فرنسا ما لم تقض بذلك الضرورة القصوى .

الجواب : مقبول ، وعلى القائد العام للجيش الفرنسى أن يتعهد من ناحيته أن لا تضارّ أى سفينة من سفن الحلفاء أثناء إقامتها فى فرنسا أو فى عودتها وأن تتزود فى فرنسا بكل ما يلزمها طبقاً للعرف الجارى بين الدول الأوروبية .

الشرط ١٨

عندما تسلم القلاع والاستحكامات طبقًا لنص الشرط الثالث يصير إطلاق سراح الأسرى من الجانبين .

الجواب : مقبول .

الشرط ١٩

يعين مندوبون لتسلم المواقع الموجودة فى المدينة والقلاع وكذلك الذخائر والمخازن والمدافع والأشياء الأخرى التى تترك للحلفاء وتحرر قوائم بكل ذلك يوقع عليها مندوبون من الطرفين كما يجرى تسليم القلاع والمخازن للحلفاء .

الجواب : مقبول ، وعلى الفرنسيين تسليم الخرط المحتوية على تخطيط مواقع الإسكندرية

وقلاعها وتخطيط مدن القطر المصرى إلى المندوبين الإنجليز ، وتسلم البطاريات والثكنات والمبانى العامة الأخرى بالحالة التى هى عليها الآن .

الشرط ٢٠

يعطى جواز سفر لسفينة حربية فرنسية تبحر إلى طولون بعد تسليم المدينة وقلاعها تقل الضباط الذين يعهد إليهم القائد العام للجيش الفرنسى إبلاغ نبأ هذه المعاهدة إلى الحكومة الفرنسية .

الجواب : مقبول ولكن إذا كانت السفينة فرنسية فلا تكون مسلحة .

الشرط ٢١

عند تسليم القلاع والاستحكامات المنوه عنها فى المواد السابقة يجرى تبادل الرهائن من الجانبين لضمان تنفيذ هذه المعاهدة ويختارون من بين ضباط الجيش من مرتبة واحدة بحيث يكون عددهم أربعة من ضباط الجيش الفرنسى واثنين من ضباط الجيش الإنجليزى واثنين من الجيش التركى وينزل الضباط الفرنسيون الأربعة ببارجة الأميرال قومندان عمارة الحلفاء والضباط الإنجليز والترك بإحدى السفن المقلة للقائد العام أو نواب القائد العام للجيش الفرنسى ، ويجرى تبادل أولئك الضباط عند وصولهم إلى فرنسا .

الجواب : يسلم القائد العام للجيش الفرنسى أربعة ضباط كرهائن أحدهم من ضباط البحرية الإنجليزية والثانى من الجيش الإنجليزى والثالث والرابع من الجيش التركى وعلى القائد العام للجيش الفرنسى أن يسلم قائد الجيش الإنجليزى أربعة ضباط من مرتبة الضباط المذكورين وتسلم الرهائن وقت نزول الجنود إلى السفن .

الشرط ٢٢

إذا قام أى خلاف أثناء تنفيذ هذه المعاهدة فيحسم بالطرق الودية على يد مندوبين من الطرفين .

الجواب : مقبول .

توقيعات : هلى هتشنسون لفتننت جنرال قائد عام ، حسين قبطان باشا ، عبد الله جاك فرنسوا منو القائد العام للجيش الفرنسي ، جمس كمت Kempt لفتننت كولونل وسكرتير .

* * *

فهرست الجزء الثانى

الفصل الأول
إعادة الديوان

الفصل الثانى
الحملة على سورية

الفصل الثالث
الحالة فى مصر أثناء الحملة على سورية

الفصل الرابع

سياسة نابليون فى مصر بعد عودته من سورية

الفصل الخامس

اضطراب الأحوال فى فرنسا ورحيل نابليون

الفصل السادس
قيادة الجنرال كليبر

الفصل السابع
معاهدة العريش

الفصل الثامن
نقض المعاهدة ومعركة عين شمس

الفصل التاسع
ثورة القاهرة الثانية

الفصل العاشر
مقتل الجنرال كليبر

الفصل الحادى عشر
قيادة الجنرال منو

الفصل الثانى عشر
هزيمة الفرنسيين وجلاؤهم عن مصر

الفصل الثالث عشر
نتائج ظهور العامل القومى على مسرح الحوادث السياسية

الفصل الرابع عشر
وثائق تاريخية

مراجعات تاريخية

سياسة إنجلترا إزاء مصر

فهرست الخرائط والرسوم

صفحة

* * *

للمؤلف

حقوق الشعب :

يتضمن شرح المبادئ والنظريات والقواعد الدستورية وحقوق الإنسان . طبع سنة ١٩١٢ .

نقابات التعاون الزراعية :

يتضمن تاريخ التعاون الزراعى ومنشآته فى أوروبا ، ونشأة التعاون فى مصر وتاريخه ونظامه ، وعلاقته بالنهضة الاقتصادية والاجتماعية . طبع سنة ١٩١٤ .

الجمعيات الوطنية :

صحيفة من تاريخ النهضات القومية يتضمن تاريخ الانقلابات السياسية والنهضات القومية فى طائفة من البلدان مع شرح أصول الدساتير ، والنظم البرلمانية فيها والمقارنة بينها . طبع سنة ١٩٢٢ .

تاريخ الحركة القومية (فى جزأين) :

الجزء الأول : يتضمن ظهور الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث وبيان الدور الأول من أدوارها وهو عصر المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر . وتاريخ مصر القومى فى هذا العهد (الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩)

الجزء الثانى : من إعادة الديوان فى عهد نابليون إلى عهد ولاية محمد على(الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩) .

عصر محمد على :

يتناول تاريخ مصر القومى فى عهد محمد على (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٠)

عصر إسماعيل (فى جزأين) :

الجزء الأول : يشتمل على عهد عباس وسعيد وأوائل عهد إسماعيل (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢)

الجزء الثانى : وفيه ختام الكلام عن عهد إسماعيل (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢) .

الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٧) .

مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال :

تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٢) .

مصطفى كامل : باعث الحركة الوطنية

تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨ (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٩) .

محمد فريد : رمز الإخلاص والتضحية
تاريخ مصر القومى من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤١) .

ثورة سنة ١٩١٩ فى جزأين :
تاريخ مصر القومى من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١ (فى جزأين) الطبعة الأولى سنة ١٩٤٦ .

الجزء الأول : يشتمل على شرح حالة مصر وحوادثها التاريخية أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨) وبيان الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية للثورة . وتطور الحوادث من بعد انتهاء الحرب إلى شبوب الثورة فى مارس سنة ١٩١٩ ثم وقائع الثورة فى القاهرة والأقاليم .

الجزء الثانى : وفيه الكلام عن مهادنة الثورة واستمرارها ومحاكمات الثورة ولجنة ملنر . والحوادث التى لابستها ومفاوضات ملنر واستشارة الأمة فى مشروع ملنر . والتبليغ البريطانى بأن الحماية علاقة غير مرضية . ونتائج الثورة فى حياة مصر القومية .

فى أعقاب الثورة المصرية (ثورة سنة ١٩١٩) : فى ثلاثة أجزاء :

الجزء الأول : تاريخ مصر القومى من أبريل سنة ١٩٢١ إلى وفاة سعد زغلول فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧)

الجزء الثانى : تاريخ مصر القومى من وفاة سعد زغلول سنة ١٩٢٧ إلى وفاة الملك فؤاد سنة ١٩٣٦ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨ – سنة ١٩٤٩) .

الجزء الثالث : تاريخ مصر القومى من ولاية فاروق عرش مصر فى ٦ مايو سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٥١ (الطبعة الأولى سنة ١٩٥١) .

مقدمات ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ :
(الطبعة الأولى سنة ١٩٥٧)
الكفاح فى القنال سنة ١٩٥١ – حريق القاهرة سنة ١٩٥٢ .
وزارات الموظفين – أسباب الثورة – فاروق يمهد للثورة .

ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ :
تاريخنا القومى فى سبع سنوات ١٩٥٢ – ١٩٥٩ (طبع سنة ١٩٥٩)

تاريخ الحركة القومية فى مصر القديمة :
من فجر التاريخ إلى الفتح العربى (طبع سنة ١٩٦٣)

مذكراتى (١٨٨٩ – ١٩٥١) :
خواطرى ومشاهداتى فى الحياة .

شعراء الوطنية فى مصر :
تراجمهم . وشعرهم الوطنى . والمناسبات التى نظموا فيها قصائدهم الطبعة الأولى سنة ١٩٥٤

مجموعة أقوالى وأعمالى فى البرلمان : (مجلس النواب الأول) طبع ١٩٢٥

أربعة عشر عامًا فى البرلمان :

فى مجلس النواب سنة ١٩٢٤ - ١٩٢٥

وفى مجلس الشيوخ من سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١٩٥١ (طبع سنة ١٩٥٥) .

كتب مختصرة

مصطفى كامل :

باعث النهضة الوطنية (طبع سنة ١٩٥٢)

بطل الكفاح . الشهيد محمد فريد : (طبع سنة ١٩٥١)

الزعيم الثائر أحمد عرابى :

(الطبعة الأولى - يناير سنة ١٩٥٢)

جمال الدين الأفغانى : (طبع سنة ١٩٦٦)

بحث وتحليل معاهدة سنة ١٩٣٦ :

استقلال أم حماية (طبع سنة ١٩٣٦)

كتب لطلبة المدارس الثانوية :

(طبعت سنة ١٩٥٨ - ١٩٥٩)

مصر المجاهدة فى العصر الحديث :

فى ست حلقات تشتمل على كفاح الشعب فى عهد الحملة الفرنسية ثم كفاحه فى العهود التالية إلى بداية ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ .

تاريخ مصر القومى :

من الفتح العربى حتى عصر المقاومة والحملة الفرنسية طبع بعد وفاة المؤلف

(تحت الطبع)

مختاراتى من دواوين الشعراء فى الجاهلية والإسلام .

رقم الإيداع	٤٧٤٥ / ١٩٨٧
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٠٢-٢١٠٣-١

١ / ٨٧ / ١٣٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذه الأعمال الكاملة

يُنظر إلى عبد الرحمن الرافعى على أنه جبرتى مصر الحديث ، فقد عكف طوال عمره على كتابة التاريخ المصرى فبدأه بتاريخ الحركة القومية فى عصر المماليك والحملة الفرنسية . حتى ثورة ٢٣ يوليو فى سبع سنوات ، وإلى جانب هذه الحقبة التاريخية نجده يكتب أيضاً مؤلفات أخرى هامة . .

وكتابات الرافعى تتسم بالصدق والدقة والحيدة . . فهو يبدأ بذكر أسباب الحادث ثم سرده ثم رأيه فيه . . ومن ثم فإن فكر الرافعى يسود هذه المؤلفات ويعبِّر عن كفاح الشعب المصرى فى مواجهة القوى المختلفة والملابسات التى أحاطته . .

ودار المعارف تقدم هذه الأعمال الكاملة للقارئ العربى . . حتى يقف على تاريخ وطنه العظيم . . وكفاحه المشرف . . ومطالبته الدائبة بالحرية والحق والديمقراطية .

مـ
٦٠٠